لغة اليدين وحركة الأصابع في الفن الجنائزي التدمري

د. همّام شريف سعد

قسم الآثار/ جامعة دمشق

مقدمة:

تُعد مدينة تدمر حالة نموذجية كمدينة سورية خلال العصر الروماني وسط البادية السورية، وإحدى أهم المدن البارزة في تلك الفترة التي عكست العمق الحضاري، والروح الإبداعية، والانفتاح الثقافي في سائر مناطق بلاد الشام، وأدت دوراً هاماً في حقبة تعد الأغنى في تاريخها، فذاع صيتها في الشرق والغرب وغدت إحدى أهم مدن العالم القديم وأغناها، وشكلت في الوقت الحاضر مصدراً رئيساً لاستنباط المعلومات عن إنتاجها الحضاري وإبداعاتها في مختلف المجالات التي عكست عظمة سورية ومكانتها في إحدى فترات تاريخها المجيد. وكما هو متعارف عليه لدى الوسط العلمي أن أهمية تدمر برزت بفضل موقعها الاستراتيجي الفاصل بين امبراطوريتين متناحرتين: الرومانية في الغرب، والبارثية وخليفتها الساسانية في الشرق. هذا الموقع أهلها لتكون محطة هامة للقوافل التجارية وعقدة التقاء بين الشرق والغرب، وتبادل الثقافات وبفضل هذا الموقع الاستثنائي غدت مدينة تدمر خلال القرون الأولى للميلاد مدينة تعج بالحياة التجارية، فبلغت ثراءً كبيراً خاصةً عندما استقلت وأعفيت من الضرائب، الأمر الذي أدى إلى ازدهارها في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية والعمرانية.

لكن لم يكتب لهذا الازدهار الحضاري الاستمرار، فتوقف مع سقوط المدينة، لتدخل بعدها في عالم النسيان رويداً رويداً خصوصاً خلال فترة الاحتلال العثماني، حيث أهُملت المدينة وسكانها، وأخفت الرمال الكثير من معالمها حتى مطلع القرن العشرين، ليتم إحيائها من جديد على يد الرحالة والمستكشفين الأوربيين ومن بعدهم البعثات العلمية

العالمية والوطنية التي توافدت إليها من كل حدب بهدف الكشف عن آثارها وخفايا تاريخها وإنجازاتها. ضمن هذه الخفايا التي لم تتطرق لها الأبحاث ما هو مرتبط بوضعية تمثيل حركة اليدين والأصابع في المنحوتات الإنسانية التي عثر على أعداد كبيرة منها داخل المدافن، وبالتالي فإن هذا البحث هو محاولة لإظهار أهمية هذا التمثيل الذي نجده بشكل خاص في تدمر، وتسليط الضوء على تفاصيل لم تتطرق لها الدراسات السابقة بالشكل المطلوب.

أولاً: الدراسات السابقة.

حظيت منشآت مدينة تدمر المختلفة بنصيبٍ وافرٍ من الدراسات والأبحاث منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن، ومن بين هذه الدراسات موضوع العمارة الجنائزية ومحتوياتها، لا سيما المنحوتات التي تُعد المجموعة الوحيدة المتجانسة والغنية في منطقة المشرق العربي المؤرخة على العصر الروماني. تأتي أهمية المنحوتات كونها شكلت مصدر أساسي لاستنباط الكثير من المعلومات عن المدينة وسكانها، خصوصاً ما يتعلق منها بالحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية في ظل غياب المصادر الكتابية. وكما أشارت الدراسة التي نشرها الألماني أندرياس شميدت كولونيه SCHMIDT-COLINET A أن مدينة تدمر تضم ما يزيد عن ١٥٠ مدفناً ظاهراً (برجي، أرضي، منزلي) بحسب أخر إحصائيات[١]، إلا أنه حتى الوقت الحاضر لا توجد إحصائية دقيقة لعدد المنحوتات التي تم العثور عليها، وهي التي تشكل أغلب القطع الأثرية من معروضات متحف تدمر ومستودعاته، ونضيف على ذلك وجود العديد من أمثلتها في متاحف العالم المختلفة[٢]، هذه المنحوتات دُرست في البداية من قبل هارالد انغولت H. Ingholt في عام ١٩٢٧ م[٣] وعَمد إلى تصنيفها زمنياً بحسب سمات تمثيل الأشخاص حيث شكلت دراسته فيما بعد مرجعاً أساسياً لتأريخ المنحوتات المكتشفة لاحقاً. ثم خلال الثلاثينيات من القرن نفسه صدرت عدة مقالات عن النحت الجنائزي نذكر منها على

سبيل المثال مقالة آمي R. Amy وهنري سيريغ H. Seyrig أبحاث حول المقابر التدمرية(٤)، وفي عام ١٩٤٩ م عدة مقالات لارنست ويل E.WILL عن الأبراج الجنائزية(٥)، ومقال لآنا سادورسكا A. SADURSKA عام ١٩٧٥م بعنوان أبحاث حول النحت الجنائزي في تدمر(٦)، كذلك في عام ١٩٩٤ م صدر كتاب لعدنان البني وآنا سادورسكا عن النحت الجنائزي تناولا ضمنه وصف عام وذكر العائلات التدمرية وإعادة إنشاء نسبهم بالاعتماد على المنحوتات والنصوص الكتابية، إلى جانب تفسير بعض الرموز الممثلة(٧)، طبعاً هناك أيضاً العديد من الأبحاث الأخرى التي لم نأتِ على ذكرها، إلا أن ما نريد الوصول إليه من خلال ما سبق يتمثل بعدم وجود أي بحث سبق وأن تناول موضوع تمثيل حركة اليدين والأصابع ضمن المنحوتات، وهذا التمثيل الذي نجده بكثرة سواء مع الرجال والنساء والأطفال لا يمكن أن يكون مجرد صدفة أو أسلوب اعتاد عليه فنانو تلك الفترة، وإنما لغة أريد من خلالها إيصال رسالة معينة، وبمعنى أخر إن إظهار حركة اليدين والأصابع في الفن التدمري غدا بمثابة هوية يمكن من خلالهما التعرف على سكان تدمر، فخلال معاينتنا لأغلب المنحوتات التدمرية(٨)، لاحظنا وجود سمات رئيسة اتصف بها النحت في تدمر، وفي الوقت نفسه نجد العديد من الإشارات والرموز المرتبطة بحركة اليدين والأصابع ووضعيتهما فوق جسد الشخص الممثل، في واقع الأمر هنالك العديد من التساؤلات التي نود طرحها في هذا البحث، وإنّ لم نستطع أن نجد إجابات كافية وواضحة لما نحن بصدد التطرق إليه، إلا أنه من المؤكد ستشكل تلك التساؤلات في المستقبل نقطة انطلاقة لأبحاث أخرى أكثر تعمقاً.

ثانياً: قراءة في الظهور الأول لتمثيل وضعية اليدين والأصابع من عصور ما قبل التاريخ حتى العصور الكلاسيكية.

إنّ الأمثلة الأولى التي يمكن الانطلاق منها بخصوص ظهور تمثيل مميز لحركة اليدين هي التماثيل العظمية والطينية للآلهة الأم، حيث أننا نجد ضمن العديد من

الأمثلة أن الفنان الذي قام بصنع هذه التماثيل عّمد إلى إظهار حركة اليدين للتعبير عن ما يجول في خاطره أو لإيصال فكرة معينة، وتعود أقدم النماذج المعروفة إلى العصر الحجري القديم الأعلى (حوالي ٣٥ ألف سنة خلت) عثر عليها في ألمانيا[٩]، عبارة عن تمثال صغير من العظم لأنثى دون رأس عُرفت باسم فينوس Vénus de Hôhle Fels، مُثل جسدها بطريقة تظهر مفاتنها الأنثوية لا سيما الأثداء، وما يلفت الانتباه هو تمثيل اليدين أسفل الأثداء (الشكل ١) بطريقة أريد منها الإشارة إلى أمر ما، فعلى سبيل المثال لو لم تكن حركة اليدين تحمل معنى ورمزية معينة بنظر فناني تلك الفترة لما مثلت بهذه الطريقة، وأن الرمزية من حركة اليدين القابضة على الأثداء من الأسفل هي الإشارة ولفت الانتباه إلى مناطق الخصب[١٠]. مثال آخر نجده من فترة لاحقة وهو جدير بالذكر الرسومات في كهف اليدين Cueva de las Manos[١١]، وسمي بهذا الاسم نظراً للعدد الكبير من رسومات اليدين الممثلة فوق جدران الكهف إلى جانب الرسوم الحيوانية والإنسانية (الشكل ٢)، وتعود أقدم فترة استيطان للكهف إلى حوالي ١٣٠٠٠ سنة، وأحدثها مؤرخ ما بين ٣٠٠٠- ٣٥٠٠ سنة.

الرسومات ضمنه منفذة فوق جدران الكهف باللون الأحمر والأسود بشكل خاص مع وجود بقايا للون الأخضر، ضمن سبع قطاعات حيث بلغ الطول الكلي للجدران حوالي ٦٠٠ م، ضمت في أغلب الأماكن رسومات لليدين (طبعات) حيث تبين أنه كان يتم غطس اليدين بمحلول الألوان ومن ثم يطبع على الجدران، والإشكالية التي واجهت الباحثين هو معرفة رمزية وجود هذا العدد الكبير حيث صيغت مجموعة من الفرضيات، إلا أنها لم تكن مقبولة في الوسط العلمي إلى حين استخدام التقنيات الحديثة مثل الأشعة X، التي أظهرت أن أغلب الأيدي الممثلة هي اليد اليسرى مع وجود استثناء لعدد ٣١ يد يمنى من العدد الإجمالي الذي يزيد عن ٨٠٠ يد، كما أن التجارب التي أجريت أظهرت أن طبعات اليدين تعود لفتيان معدل أعمارهم ما بين ١٣-١٤ عام وبالتالي فقد

فُسرت هذه الرسومات على أنها تخص طقساً لتلك الشعوب ضمن هذا الكهف يرتبط بتجاوز الأطفال لمرحلة عمرية معينة أي الوصول إلى سن البلوغ، ولا تزال الأبحاث مستمرة لإزالة الغموض عن وجود هذا العدد الكبير من طبعات اليدين(١٢). في الواقع أن هذه الطبعات شكلت هوية لسكان تلك المنطقة وميزتهم عن أقرانهم في تلك الفترة، ووجودها لم يكن مجرد تصاوير تزيينية بل كانت تعبر عن طقس معين وحدثٍ مهم في حياتهم وهذا الحدث عُبر عنه من خلال طبعات الأيدي.

في منطقة بلاد الشام وبلاد الرافدين ومصر والأناضول وإفريقيا الشمالية لدينا أمثلة كثيرة عن أهمية إظهار حركة اليدين لا سيما بعد ظهور تماثيل الآلهة الأم خلال العصر الحجري الحديث. ففي بلاد الشام تعد تماثيل موقع المريبط في حوض الفرات وتل أسود في حوضة دمشق أقدم دليل على هذه التماثيل المؤرخة في الألف الثامن ق.م(١٣)، واستمرارها خلال الفترات اللاحقة لا سيما ضمن منطقة الفرات كما في موقع تل حلف وكشكشوك(١٤) (الشكل ٣)، وغيرها من المواقع المنتشرة في كافة مناطق بلاد الشام، وأن جميع الأمثلة التي عثر عليها تُظهر ارتباط حركة اليدين بالأثداء لإظهار مناطق الخصب والإشارة إليها. ما تجدر الإشارة إليه عدم وجود أي أمثلة أخرى عن تمثيل حركة اليدين خلال هذه الفترة، وبالتالي يمكن القول إنَّ هذا الظهور ارتبط مع الآلهة الأم فقط وهو بدوره مرتبط بالمعتقدات والأفكار التي بدأت تتبلور وتأخذ منحىً جديداً لا سيما بعد اكتشاف الزراعة.

خلال العصر النحاسي وعصور البرونز تطرأ تغييرات كبيرة لا سيما مع ظهور المعدن ونشوء المدن وتطور الفنون والمعتقدات، وتبدأ بالظهور حركات جديدة لليدين لم تكن معروفة سابقاً ولم تعد مقتصرة على العنصر الأنثوي بل على العكس من ذلك، وأمثلة هذه الفترة كثيرة ومتعددة إلا أننا سوف اقتصر الحديث على ذكر بعضٍ منها، وسأبدأ بالإشارة إلى ما خلفته التصاوير والتماثيل المصرية حيث أننا نلاحظ خلال العهود

الثلاثة للإمبراطورية المصرية (٢٧٠٠- ١٠٦٩ ق.م) وجود حركات مختلفة لليدين والأصابع بحسب نوع المشاهد، فعلى سبيل المثال أن السمة المميزة لتمثيل اليدين ضمن المشاهد المرتبطة بالمعتقدات تُظهر الأشخاص بوضعية الجلوس والذراعان ممدودتان فوق الفخذين، واليدان مبسوطتا الراحتين فوق الركبتين (الشكل ٤). وضمن أمثلة أخرى نجد اليد اليسرى مقبوضة الأصابع وممثلة بشكل عمودي فوق الركبة (الشكل ٥)، وضمن المشاهد المصورة فوق جدران المعابد وداخل المدافن تظهر بكثرة حركة اليدين المرفوعة أمام الوجه كنوع من التضرع والخشوع وإظهار الطاعة (الشكل ٦). كما يمكن أن نلاحظ انتشار تمثيل الذراعين مضمومتين ومتقاطعتين فوق الصدر بكثرة وهذا التمثيل نجده أيضاً فوق التوابيت الإنسانية[١٥] (الشكل ٧)، وبالتالي يمكن لنا من خلال عمل دراسة كاملة لجميع هذه المشاهد وتصنيفها والأشخاص الممثلة معهم أن نصل لمعرفة الأفكار المراد إيصالها إلى جانب إزالة الغموض عن كثير من التساؤلات التي يمكن أن تطرح، فعلى سبيل المثال لماذا ظُهرت بهذا الشكل مع الذكور ولم نجدها مع الإناث، وما هو سبب تمثيلها ضمن المعابد بهذه الطريقة، لماذا اليدان مضمومتان فوق الصدر فيما يخص التوابيت؟ ما هي الغاية من تمثيل اليدين ممدودتين أمام الوجه في المواضيع الجنائزية، ولماذا لا نجد مثل هذه الحركات عند الشعوب الأخرى المعاصرة.

في منطقة بلاد الرافدين وفي فترة معاصرة لمصر نجد اختلافاً كبيراً في تمثيل حركات اليدين والأصابع مع العلم أن المواضيع متشابهة، ونورد هنا بعض الأمثلة المرتبطة بالدين والمعتقدات، حيث أننا نجد تمثيلاً مستمراً ومميزاً لحركة اليدين لا سيما مع الملوك والآلهة فمن مدينة إيشنونا في عهد السلالة الأولى والثانية (٢٩٠٠- ٢٥٥٠ ق.م) لدينا أحد التماثيل[١٦] لرجل بوضعية الوقوف، يرتدي ثوباً طويلاً، له لحية طويلة، يداه مضمومتان أمام الصدر، أصابع يده اليسرى مضمومة بحيث تأخذ شكل قبضة وممثلة داخل راحة اليد اليمنى (الشكل ٨)، وغالباً ما نجد تمثيل لكأس داخل قبضة اليد

اليسرى، وأن تمثيل اليدين والأصابع بهذه الطريقة نجدها خلال هذه الفترة في العديد من المواقع مثل موقع خفاجة و تل أسمر[١٧] (الشكل ٩). إلا أنه في الفترات اللاحقة نجد تغيراً في حركة اليد اليسرى التي غدت لا تأخذ شكل قبضة وإنما أخذت الوضعية الطبيعية ومُثلت متشابكة مع راحة اليد اليمنى، ففي مدينة نيبور لدينا تمثال لأنثى عثر عليه في معبد إينانا (٢٥٥٠- ٢٤٠٠ ق.م)، ممثلة بوضعية الوقوف وترتدي عباءة طويلة، يداها مضمومتان أمام البطن وراحة اليد اليمنى متشابكة مع راحة اليد اليسرى والأصابع مضمومة ومتلاصقة (الشكل ١٠)، وهذا التمثيل لليدين نجده في تمثال الملك لوجال كيسالسي Lugalkisalsi من الفترة نفسها[١٨] حيث مُثلت اليدان مضمومتان إلى مستوى الصدر، وراحة اليد اليمنى تشابك راحة اليد اليسرى والأصابع كذلك مضمومة (الشكل ١١). وقد فسر أغلب الباحثين هذه الحركات على أنها وضعيات للتعبد والصلاة، لا سيما وأن العديد من أمثلة هذه التماثيل وجدت في أماكن للتعبد، إلا أن التساؤل المطروح بهذا الخصوص ما هو سبب اختيار هذه الوضعيات؟ ما هي رمزية تمثيل اليدين متشابكتين أمام الصدر بالنسبة للآلهة؟ وغيرها من التساؤلات التي لم نجد لها تفسيرات كافية حتى الآن.

في منطقة بلاد الشام وتحديداً في سورية نجد العديد من الأمثلة المشابهة لما هو معروف في منطقة بلاد الرافدين مع وجود اختلافات، وأهم تلك الأمثلة من الفترة نفسها ما نجده في موقع ماري على نهر الفرات، وكما هو معروف في الوسط العلمي فإن ثقافة بلاد الرافدين كانت منتشرة في الكثير من المواقع المجاورة لا سيما مواقع نهر الفرات والخابور على عكس المواقع الداخلية والساحلية التي نجد ضمنها اختلافاً كبيراً في وضعيات التمثيل. في ماري نجد تمثيل اليدين بشكل مشابه للأمثلة السابقة التي ذكرناها حيث ترتفعان للأعلى بمستوى الصدر، أصابع اليد اليسرى مضمومة بحيث تأخذ شكل قبضة وإصبع الإبهام يظهر في الأعلى، ثم تغطي راحة اليد اليمنى قبضة اليسرى

عمودياً بحيث لا يظهر من اليسرى إلا الإبهام فقط (الشكل ١٢). وفي مثال آخر نجد تمثيلاً نادراً لليدين عثر عليه في معبد عشتار ويُعرف باسم تمثال إيشكي-ماري Ishqi-Mari حيث يمتد الذراع الأيمن أمام الصدر والأصابع مضمومة على شكل قبضة عمودياً، ثم نجد أصابع اليد اليسرى تقبض على معصم اليد اليمنى من الأسفل (الشكل ١٣)، أن وضعية اليدين هنا لا تشير إلى الصلاة والتعبد كما هو في العديد من الأمثلة المعروفة، وإنما تعبر عن القوة والسيطرة للملك التي منحت من قبل الإلهة. هذا التمثيل يختلف في تفاصيله مع أمثلة بلاد الرافدين التي تعود لما بعد عهد الأسرة الثالثة التي ذكرناها أعلاه، إلى جانب ما سبق نجد وضعيات أخرى لحركة اليدين تقتصر على رفع اليدين للأعلى أو يد واحدة إشارة للابتهال والتوسل والحماية وعثر على أمثلتها ضمن الرسوم الجدارية لإحدى قاعات القصر الملكي في ماري(١٩) حيث الآلهة تجلس فوق عرشها ضمن مشهد تقديم القرابين ويظهر الأشخاص وهم يقدمون تلك القرابين لها وأيديهم مرتفعة أمام الوجه (الشكل ١٤).

ضمن هذا السياق يتوجب علينا الإشارة إلى تمثيل حركات اليدين والإشارات العديدة ضمن المشاهد المصورة فوق الأختام الأسطوانية والدائرية، وهذه الأختام حملت نقوشاً لمواضيع مختلفة وشكلت مصدراً مهماً لاستنباط المعلومات عن كافة مناحي الحياة لشعوب تلك الفترة، وقد أظهرت الدراسات(٢٠) التي تناولت موضوع الأختام الكثير من التفاصيل ومن بينها وضعية حركة اليدين للأشخاص الممثلين ورمزيتها ضمن المشاهد ونلاحظ ضمن العديد من تلك المشاهد التركيز على إظهار حركات اليدين بحضور الآلهة والملوك أو مشاهد تقديم القرابين وممارسة الطقوس (الشكل ١٥).

خلال الألف الأول ق.م تظهر ثقافات مختلفة عما سبق، لا سيما في سورية ونلاحظ ظهور تمثيل حركات ووضعيات جديدة لليدين مع استمرار وجود بعض التفاصيل من الفترات السابقة، وأهم الأمثلة عن تلك الفترة نجدها في موقع عين دارا،

وحماه،و تل حلف حيث تم العثور ضمنه على مجموعة من التماثيل البازلتية[٢١] منها تمثال مزدوج للإله حدد والآلهة عشتار ممثلين بوضعية الجلوس، الذراع الأيمن لكلٍ منهما ممدد فوق الفخذ الأيمن والأصابع مضمومة على شكل قبضة وتستند بشكل عمودي فوق الركبة، أيضاً تم تمثيل الذراع الأيسر بالطريقة نفسها إلا أن راحة اليد مفتوحة وتغطي الجزء الأمامي للركبة (الشكل ١٦)، وفي مثال آخر نجد تمثالاً أنثوياً لآلهة بوضعية الوقوف يدها اليمنى تستند أسفل الصدر والأصابع ممثلة مفتوحة، بينما اليد الأخرى أسفل اليد اليمنى والأصابع ممسكة بمقبض آنية (الشكل ١٧). إنَّ وضعية الذراعين الممددة فوق الفخذ معروفة من عهود سابقة، بينما وضعية تمثيل الأصابع فوق الركبة بهذه الطريقة جديدة لا سيما مع الآلهة ورمزيتها غير واضحة رغم وجود الكثير من التفسيرات، فتمثيل اليد اليمنى يشير إلى قوة الآلهة القابضة على الحياة، بينما تشير اليد الأخرى ذات الأصابع المفتوحة والممددة إلى العطاء والطمأنينة التي تمنحها الآلهة للإنسان، وهذه هي تخيلات الإنسان عن الآلهة ولذلك فقد صورها كما أراد لها أن تكون، فهذه الآلهة بالنتيجة تأخذ صورته، مع وجود أشكال أخرى بشرية-حيوانية أو غير ذلك، وما نود الإشارة إليه أن الحركات الممثلة سواء مع تماثيل الآلهة أو غيرها هي من صنع الإنسان، وبالتالي هي عبارة عن أفكار ومعتقدات أراد إظهارها، وهذه الأفكار استمرت بالظهور من فترة لأخرى مع وجود اختلافات في رمزيتها. فخلال العصور الكلاسيكية نجد صورة الإله حدد في صورة الإله زيوس ومن ثم جوبيتر إلا أن ما كان ممثلاً مع الإله حدد لا نجده مع الإلهين المذكورين، وهذا الأمر ينطبق على العديد من التفاصيل لا سيما حركات اليدين والأصابع التي غدت تمثل بوضعيات مختلفة وتحمل رمزية ومعانٍ متعددة خصوصاً خلال العصر اليوناني، أما الرومان فنجدهم قد تأثروا كثيراً باليونانيين وقلدوا العديد من أعمالهم، كما أنهم تأثروا وتبنوا الكثير من معتقدات وأفكار الشعوب التي سيطروا عليها لا سيما المشرقية. خلال هذه الفترات نجد الكثير من

الاختلاف في تمثيل وضعيات اليدين والأصابع، فما كان معروفاً خلال العصور السابقة لم يعد ظاهراً في أمثلة العصر الروماني، وفي الحقيقة هنالك الكثير من الأمثلة ولا يمكننا أن نأتي على ذكرها، لكن ما نود تسليط الضوء عليه هو أن أمثلة مدينة تدمر التي هي موضوع البحث مؤرخة على هذه الفترة، وهي تمثل حالة فريدة في كثرة الأمثلة التي تأخذ فيها اليدين والأصابع أهمية كبيرة، وهذه الوضعيات لا شك أنها تحمل وراءها أفكاراً ومعتقدات تعود في أصولها لما كان سائداً، وأن الهدف من استعراضنا السابق والموجز للظهور الأول لتمثيل ووضيعات اليدين والأصابع عبر الفترات الزمنية المختلفة، يتمثل بإبراز المكانة التي احتلتها اليدين والأصابع للتعبير عن ما يجول في داخل الإنسان من أفكار أراد إيصالها للآخرين من خلال هذه الحركات. كذلك تسليط الضوء على تفاصيل صغيرة لم تنل حيزاً مهماً في الدراسات والأبحاث، خصوصاً أمثلة تدمر التي شكلت هوية لمدينة تدمر وسكانها، وانفرادهم بتلك الحركات المصورة فوق تماثيلهم رغم وجود العديد من التأثيرات الشرقية والغربية الوافدة في تلك الفترة، وأكثر من ذلك اقتصار أغلب الأمثلة على ما عثر عليه ضمن المدافن أي أن وضعيات اليدين نجدها بشكل أساسي مع المواضيع الجنائزية، مع العلم أن هنالك العديد من الأمثلة التي نجدها في قطاعات مختلفة من المدينة إلا أنها لا تظهر مع ما هو ممثل ضمن عالم الموت.

ثالثاً- نماذج تدمر الأولى: ظهورها وتطورها.

تضم مدينة تدمر آلاف المنحوتات المؤرخة ما بين القرن ١ ق.م حتى القرن ٣ م، ومصدر أغلب هذه المنحوتات المدافن، وكما ذكرنا سابقاً إنَّ أخر إحصائية للمدافن بينت وجود ما يزيد عن ١٥٠ مدفناً، وهي تتنوع في أشكالها ما بين أرضية وسطحية، وكنا قد تحدثنا عن أقدم أنواعها في بحث المدافن التدمرية[٢٢] ألا وهي القبور الفردية، هذه القبور كانت عبارة عن حفر بسيطة تعلوها شاهدة، وفوق هذه الشاهدة نجد بعض الرموز والكتابات، وفي فترة لاحقة ظهرت الصور الأولى للمتوفين إلى جانب الرموز

والكتابات، ونتيجة لتطور الوضع الاقتصادي لمدينة تدمر حدثت مجموعة من التغيرات كان من ضمنها ما هو مرتبط بالعمارة الجنائزية وظهور أنواع جديدة، وبالتالي هذا التطور انعكس إيجاباً على فن النحت، حيث غدا التدمريون يمثلون صورهم ضمن مبانيهم الجنائزية العائلية التي أمدتنا بالكثير من المعلومات عن سكان تدمر بفضل ما حفظته في داخلها من منحوتاتهم.

الأمثلة الأولى التي يمكن أن ننطلق منها فيما يخص بحثنا هي الشواهد، ورغم العدد القليل المحفوظ منها إلا أنها ذات أهمية كبيرة، كونها تمثل النماذج الأولى للتمثيل الإنساني في تدمر ومعها استطعنا تتبع مسيرة التطور[٢٣]. هذه الشواهد حملت تمثيلاً للمتوفين بالطول الكامل على عكس ما سنراه لاحقاً، ونلاحظ أن تمثيل حركة اليدين والأصابع لم تكن تأخذ حيزاً كبيراً في اهتمام فناني تلك الفترة فعلى سبيل المثال ضمن الشاهدة رقم ١٩١ آ/ ٩٠[٢٤] والمؤرخة على الربع الأول من القرن ١ م، وهي تخص رجل يده اليمنى فوق الصدر تقبض على طرف العباءة بينما اليد الأخرى مسدلة بمستوى الصدر والأصابع مضمومة تقريباً (الشكل ١٨). مثال آخر من الفترة نفسها الشاهدة رقم ٩٢ آ/ ٩١[٢٥] وهي تخص امرأة تدعى عقمتا نلاحظ أن يدها اليمنى واليسرى بمستوى الصدر إلا أن الأصابع مفقودة وغير واضحة (الشكل ١٩)، إلا أنَّها على الأرجح بوضعية مضمومة كما هو الحال بالنسبة لشاهدة عاليت، حيث نجد يداها فوق الصدر والأصابع مضمومة (الشكل ٢٠). أما بخصوص الأطفال فنجد ضمن الأمثلة المتوفرة أن أيدهم غالباً ما تكون ممسكةً بثمار أو طائر كما في شاهدة دايون حيث اليدان مضمومتان إلى الصدر ويمسك بيده اليسرى طائراً والسبابة في اليد الأخرى ممتدة نحو رأس الطائر (الشكل ٢١). هذه الشواهد مؤرخة ما بين نهاية القرن ١ ق.م وحتى الربع الأخير من القرن ١م، لكن اعتباراً من بداية القرن ٢ م يظهر نموذج جديد من الشواهد داخل المدافن الجماعية والتي تختفي أيضاً في فترة لاحقة نتيجة لظهور التماثيل

النصفية، ثم تتابع حركة التطور مسارها بشكل متزامن مع التطورات الاقتصادية والاجتماعية لمدينة تدمر ليظهر فيما بعد نموذج الولائم العائلية، الذي يغدو من أهم النماذج الواجب تواجدها في المدفن العائلي كونه يعكس الصورة الحقيقة لرب العائلة ومكانته الدينية والاجتماعية، وزوجته وأفراد أسرته مجتمعين حوله وممثلين بطريقة منسجمة مع مكانة كل منهم ضمن الأسرة. هذه التماثيل التي يزيد عددها عن ٥٠ تمثالاً في كل مدفن وفي بعض الأحيان يصل العدد إلى أكثر من ١٠٠ تمثال، وذلك حسب عدد الأجيال التي توارثت الدفن ضمنه، هي في الواقع تمثل صور سكان تدمر الذين عاشوا خلال القرون الميلادية الأولى، وجميعها تُظهر سمات مميزة انفردت بها وغدت هوية الفن التدمري، وبالتالي فأنَّ معاينةً عن كثب لهذه السمات سنجد بعضاً منها مثيراً للاهتمام، وفي الوقت نفسه تقودنا لطرح الكثير من التساؤلات، فمع هذا العدد الكبير غدا من الممكن لنا كما سنرى تتبع تلك الحركات عبر فترات زمنية محددة، سواء مع الرجال أو النساء أو الأطفال، وأبعد من ذلك يمكن ربطها مع العائلات وحتى القبيلة، كما أنه من الممكن أن نتوصل لمعرفة الكثير من التفاصيل المتعلقة بالأفكار والمعتقدات وغيرها من الأمور المرتبطة بسكان تدمر. طبعاً هذا الأمر يحتاج إلى عمل دراسة إحصائية كاملة بحسب هوية التمثال (رجال، نساء...إلخ)، مع الأخذ بعين الاعتبار العائلة التي ينتمون إليها، والقبيلة إن أمكن، وسنحاول من خلال الأمثلة التي سنأتي على ذكرها إظهار هذه التفاصيل على عينات محددة وإظهار النتائج التي يمكن أن تقدمها، لا سيما ما يتعلق منها بالأفكار التي أراد التدمريون إيصالها عبر الحركات والوضعيات الممثلة.

رابعاً: وضعيات تمثيل اليدين والأصابع.

ذكرنا سابقاً أن الأمثلة الأولى لوضعيات تمثيل اليدين والأصابع بدأت مع شواهد القبور الفردية، وخلال هذه المرحلة كانت عبارة عن حركات بسيطة، ربما يعود السبب إلى أن الغاية في البداية من ظهور صورة المتوفى تقتصر على تخليد ذكراه في

عالم الأحياء، وبالتالي لم يكن الهدف إظهار الكثير من التفاصيل، إلا أنه مع انتشار نموذج المدافن العائلية وابتكار التماثيل النصفية والولائم، نلاحظ مدى الدقة والعناية التي طرأت على صور المتوفين، وبالتالي فإنَّ أغلب الأمثلة التي سنأتي على ذكرها تخص النماذج التي ظهرت لاحقاً للشواهد الفردية، وقد عمّدنا لإظهار هذه الوضعيات بتقسيمها بحسب الأفراد الممثلة معهم وفق الفترات الزمنية التي ظهرت ضمنها.

إنّ أقدم نماذج التماثيل النصفية التي ظهرت ضمن المدافن العائلية مؤرخة على نهاية القرن ١م، وهي التي نجدها ضمن مدفن بولحا بن نبشوري[٢٦]، وضمن هذا المدفن نجد العديد من التماثيل التي تخص الرجال والنساء والأطفال، وهذا الأمر ينطبق على أغلب المدافن، وإذا أردنا أن نظهر التفاصيل المتعلقة بالرجال نجد أن الوضعيات الأولى لحركات اليدين تمثلت بظهور اليد اليمنى مضمومة فوق الصدر ومغطاة بالعباءة، باستثناء راحة اليد التي تستند فوق طرف العباءة، والأصابع مضمومة باستثناء الإبهام والسبابة. أما اليد الأخرى فترتفع إلى مستوى الصدر والأصابع مضمومة وتمسك بينها بلفافتين (الشكل٢٢). مثال آخر من المدفن نفسه والفترة نفسها نجد اليد اليمنى مشابهة للمثال السابق، بينما اليد اليسرى تختلف من حيث أن الإبهام والسبابة غير مضمومة وتمسك بينها بلفافة واحدة فقط (الشكل ٢٣). وبالمقارنة مع مدفن آخر ومن الفترة نفسها نجد وضعيات مشابهة كما في تمثال باصيل من عائلة سسن[٢٧]، حيث اليد اليمنى فوق الصدر مغطاة بالعباءة باستثناء راحة اليد التي تستند فوق طرف العباءة، والأصابع مضمومة باستثناء الإبهام والسبابة والوسطى. واليد الأخرى بمستوى الصدر وضمن راحة اليد لفافتين والأصابع مضمومة باستثناء الإبهام والسبابة والوسطى (الشكل ٢٤).

أما بخصوص الحركات التي تظهر مع تماثيل النساء من الفترة ذاتها فنجد ضمن مدفن سسن تمثال أقما[٢٨]، حيث نجد اليد اليمنى ترتفع لمستوى الكتف وراحة اليد تلامس الشعر والأصابع غير مضمومة، بينما اليد اليسرى بمستوى الصدر وإصبع

الإبهام والسبابة والوسطى ممددة وتقبض أسفلها على درارة خيط ومغزل، بينما الخنصر والبنصر مضمومين (الشكل ٢٥). كذلك في مدفن عشتور بن ماليكو[٢٩] لدينا من الفترة نفسها التمثال رقم ١٧٢٨/٦٣٩٩[٣٠] وهو لامرأة في العقد الرابع من عمرها حيث نجد ذراعها الأيمن مرتفع أمام الصدر وراحة اليد مفتوحة كأنها تلقي الوداع، أما اليد الأخرى فهي مشابهة للوضعيات السابقة، بينما الأصابع ممثلة مضمومة بالكامل وتقبض على درارة الخيط والمغزل (الشكل ٢٦).

خلال هذه المرحلة لم نعثر على أمثلة كثيرة للأطفال، علاوة على ذلك نجدهم ممثلين مع الآباء أو الأمهات على عكس ما سنراه خلال المراحل اللاحقة، ومن هذه الأمثلة تمثال مارتا من مدفن أرطبن[٣١] حيث نجد تمثالاً لطفلتها بجانب الكتف الأيمن والطفلة ترتدي لباس مشابه لوالدتها، واليد اليمنى مختفية أسفل العباءة وتمسك بأصابعها طرف العباءة فوق الصدر، واليد الأخرى نفس التمثيل (الشكل ٢٧). الأمثلة الأخرى نجد فيها أحد الأطفال يمسك بيده اليسرى طائر، والأصابع جميعها مضمومة باستثناء السبابة، وطفل آخر ممثل بنفس طريقة والده حيث اليد اليسرى فوق الصدر والأصابع مضمومة باستثناء السبابة، واليد الأخرى مشابهة تماماً لليمنى (الشكل ٢٨). كذلك من المواضيع المهمة التي سنتطرق لها لاحقاً تمثيل حركات اليدين للكهنة وهؤلاء أعدادهم قليلة وهم مميزون في أغلب الأحيان بوجود القبعة الكهنوتية والأواني التي يحملونها في أيديهم.

ما بين العام ١٥٠ و٢٠٠ م نجد تمثيلاً جديداً يطرأ على حركة الأصابع إلى جانب بعض التفاصيل الأخرى ومن أمثلة هذه المرحلة نأتي على ذكر تمثال زبديبول من مدفن زبدعته ومقيمو[٣٢]، حيث نجد اليد اليمنى ممثلة بالوضعية السابقة نفسها إلا أن الأصابع جميعها ظاهرة وغير مضمومة بشكل كامل، كذلك الأمر بالنسبة لليد اليسرى، إلا أن التغيير الجديد يتمثل بحركة الأصابع حيث نجد الوسطى والبنصر مضمومتين

بينما الإبهام والسبابة والخنصر ممددين، وبدلاً من اللفافة نجد تمثالاً لغصن نباتي (زيتون) (الشكل ٢٩). مثال آخر من الفترة نفسها وهو تمثال زبدعته بن ديونيسيوس من عائلة شلم اللات[٣٣]، نجد اليد اليمنى والأصابع ممثلة بالوضعية ذاتها للمثال السابق، واليد اليسرى كذلك الأمر بينما نجد تمثيل الأصابع مختلف حيث يظهر إصبع السبابة ممدداً وباقي الأصابع مضمومة تمسك بطرف العباءة (الشكل ٣٠). أما تماثيل النساء خلال هذه المرحلة فتظهر العديد من التفاصيل الجديدة ومنها على سبيل المثال تمثال أقما بنت حيران من المدفن نفسه حيث تظهر حركة مميزة ليدها اليمنى التي تجتاز الصدر لتمسك بطرف العباءة في الجهة المقابلة والأصابع لم تمثل مضمومة وإنما ممددة، بينما اليد الأخرى تسحب بأصابعها طرف العباءة وتستند فوق البطن والأصابع مضمومة باستثناء الإبهام والبنصر (الشكل ٣١).

طبعاً هناك الكثير من الأمثلة التي تُظهر التطورات والتغيرات مع وجود لحركات ووضعيات جديدة لليدين والأصابع، لاسيما خلال المرحلة الثالثة التي تمتد من بداية القرن ٣ م وحتى الربع الأخير من القرن نفسه، مع العلم أن فناني تدمر حافظوا على استمرارية تمثيل الحركات السابقة إلى جانب ظهور تفاصيل جديدة لم تكن خلال المراحل السابقة، لا سيما الأدوات والأشياء الممثلة مع اليدين. في الواقع لا يمكننا أن نأتي على ذكر كافة الأمثلة باعتبار أن عددها كبير، إلا أن ما سنقوم بعرضه هو جداول بيانية تشير إلى تلك الحركات والوضعيات حسب التسلسل الزمني وبحسب العائلة، بالاعتماد على عدد محدد من الأمثلة وذلك بغية إظهار المعلومات التي يمكن جمعها في حال تم عمل إحصائية دقيقة لكل التماثيل الموجودة، ومن ثم تصنيفها بحسب العائلات والفترات الزمنية، والأدوات الممثلة وغيرها من التفاصيل التي من شأنها أن تقودنا لفهم الأفكار التي أراد التدمريون إيصالها عبر هذه الحركات والوضعيات، وأن الغاية من هذا البحث

تسليط الضوء على هذا الموضوع وليس دراسة كافة الأمثلة، باعتبار أنه بحث متكامل وربما يشكل انطلاقة لمتابعة ما سنتوصل إليه.

لو أخذنا على سبيل المثال منحوتات مدفن سسن خلال المرحلة الأولى التي تمتد من نهاية القرن ١م وحتى ١٥٠م، والتي تم تأريخها بناء على تفاصيل النحت وسمات التمثيل الإنساني(٣٤) إلى جانب تفاصيل تمثيل اليدين والرموز المترافقة فإننا سوف نجد خلال هذه المرحلة إن أغلب أفراد عائلة سسن مُثلت أياديهم اليمنى فوق الصدر والأصابع مضمومة، كذلك الأمر بالنسبة لأيديهم اليسرى ممثلة فوق الصدر وأغلب الأمثلة الأصابع مضمومة، في حين نجد في عدد من الأمثلة أن الأصابع جميعا ممددة، وأمثلة أخرى السبابة والوسطى فقط ممددة، ومثال واحد السبابة ممددة وباقي الأصابع مضموم (الشكل ٣٢).

نلاحظ من خلال هذا الجدول أن اليد اليمنى غالباً ما تكون ممثلة بالوضعية نفسها، كذلك الأمر للأصابع، بينما اليد اليسرى فنجد أنها شغلت مكانة أكثر في التمثيل لاسيما أصابع الإبهام والسبابة. كذلك أن تمثيل الأدوات وما شابه ذلك غالباً ما يكون في اليد اليسرى، وما تجدر الإشارة إليه أن الكثير من أمثلة هذه المرحلة سواء رجال أو نساء نجدهم يضعون خاتماً حول الخنصر (الإصبع الصغير).

أما إذا أردنا ذكر مثال من المرحلة الثانية وهي التي تمتد من ١٥٠م وحتى ٢٠٠ م، فإننا سنتناول مدفن شلم اللات، ونلاحظ من خلال الجدول (الشكل ٣٣) أن تمثيل اليد اليمنى والأصابع لم يطرأ عليها تغيير واستمرت تُمثل بالوضعية نفسها تقريباً، بينما نجد التغيرات في أصابع اليد اليسرى ونلاحظ أن الإبهام والسبابة والخنصر الأكثر تمثيلاً ضمن أغلب الأمثلة، ونلاحظ أن السبابة الممددة إلى جانب الإبهام والخنصر في بعض الأحيان يشكلان فوق الصدر حركة مميزة لا سيما إذا أمعنا النظر في وضعية الوسطى المضمومة (الشكل ٣٤)، علاوة على ذلك أن السبابة في أغلب الحالات التي تكون فيها

ممددة نجد تمثيلاً لشيء ما في راحة اليد إما غصن نباتي، أو لفافة، أو ما شابه ذلك. كذلك هنالك أمر آخر مثير للاهتمام وهو الخاتم الذي يتوضع حول الخنصر (الإصبع الصغير) فخلال معاينة الكثير من التماثيل نجد أن لهذا الخاتم مكانة مهمة، وهذا الأمر لا يقتصر على الرجال وإنما نجده في الإصبع نفسه وبكثرة مع النساء أيضاً.

طبعا إذا أردنا أن نقارن تلك الحركات السابقة مع النساء سنجد أنها أقل تمثيلاً فعلى سبيل المثال خلال المرحلة الأولى يمكن أن نذكر أمثلة مدفن أرطبن بن عوجا حيث نلاحظ أن اليد اليمنى غالباً ما تمثل مضمومة الأصابع فوق الصدر باستثناء وجود أمثلة قليلة الأصابع جميعها ممددة وكأنها تلقي تحية الوداع. أما اليد اليسرى والتي نجدها في أكثر الحالات مع النساء ممثلة فوق الصدر والأصابع مضمومة وتمسك بدرارة خيط ومغزل، مع بعض أمثلة قليلة حيث نجد السبابة والإبهام ممددة (الشكل ٣٥).

أما في المرحلة الثانية فنجد من خلال أمثلة مدفن شلم اللات العديد من التفاصيل منها حركة اليدين التي غدت تُمثل ممسكة بطرف العباءة في الجهة المقابلة، وهذه الوضعية لم تكن معروفة خلال المرحلة الأولى، كذلك ظهور تمثيل لأصابع اليد اليسرى بوضعية مشابهة إلى حد ما للرجال، ويمكن أن نلاحظ من خلال الجدول البياني (الشكل ٣٦) أن وضعية أصابع اليد اليمنى في أغلبها ممددة على عكس أمثلة أرطبن التي كانت جميعها مضمومة، في حين أن تمثيل حركة أصابع اليد اليسرى مشابهة من حيث وجود إصبع الإبهام والسبابة في وضعية ممدودة، إلى جانب وجود درارة الخيط والمغزل باليد نفسها.

إن تمثيل أصابع اليد اليسرى بالوضعيات السابقة السالفة الذكر يستمر بشكل كبير مع الرجال، والأمثلة التي أتينا على ذكرها لا تشكل سوى جزء بسيط من العدد الهائل الموجود. وخلال المرحلة الثالثة التي تنتهي خلال الربع الأخير من القرن ٣م نلاحظ التركيز على إظهار السبابة في اليد اليسرى بوضعية ممددة، بينما باقي الأصابع

مضمومة وهذا الأمر ينطبق على أمثلة الكهنة الذين غالباً ما نجد بين أيديهم اليسرى كأساً ويرتدون القبعة الكهنوتية على رؤوسهم. بالمقابل إذا أردنا أن نظهر نسبة معينة لعدد الأمثلة التي نجد ضمنها حركة السبابة والإبهام ممددة أو السبابة والوسطى أو باقي الأصابع، فإننا سنجد ضمن أغلب الأمثلة التركيز على إظهار هذه الحركات مع الأيادي اليسرى فقط وخصوصاً مع الرجال. فعلى سبيل المثال يمكننا أن نبين نسب إحصائية بحسب محتويات المدافن من الرجال والنساء أو غير ذلك، ويمكن أن نلاحظ بشكل واضح أهمية تمثيل اليدين وحركات الأصابع بطريقة محددة لم تُعرف إلا عند التدمريين، خصوصاً اليد اليسرى عند الرجال. إن نتائج الإحصائيات التي نُفذت على بعض المدافن تبين أن السبابة ممثلة ممددة في أغلب الأمثلة وأن الحركة المثيرة للانتباه هي التمثيل الثلاثي لأصابع الإبهام والسبابة والخنصر ممدودين، أو الرباعي الإبهام والسبابة والوسطى والخنصر، ثم التمثيل الثنائي الإبهام والسبابة، وهذا الأمر يختلف بين عائلة وأخرى مع العلم أن جميع الأمثلة التي أحصيناها والبالغ عددها ٧٢ تمثالاً تركز على إظهار السبابة ممددة. يمكن أن نشاهد الجدول البياني (الشكل ٣٧) حيث نلاحظ وجود السبابة ممددة مع أمثلة العائلات الست، إلا أن أمثلة عائلة شلم اللات تتميز بإبراز السبابة أكثر من الآخرين، والتمثيل الثلاثي للأصابع نجده بكثرة عند أفراد عائلة بولحا، والإبهام والسبابة والوسطى أكثر لدى عائلة سسن. في الواقع يمكن أن نستدل بوضوح على وجود وضعيات مفضلة لدى بعض العائلات في تدمر، والتساؤل الذي نطرحه بهذا الخصوص هل تلك الحركات مرتبطة بمكانة العائلة، أو بالقبيلة التي تنتمي لها العائلة، أم بالمعبد والإله المرتبط بالقبيلة والعائلة؟ إننا نعلم من خلال النصوص بوجود مجموعة من القبائل وأن العائلات التدمرية بأغلبها كانت تنتمي لهذه القبائل، علاوة على ذلك أن هذه القبائل كانت تلعب دوراً كبيراً في حياة مدينة تدمر، فعلى سبيل المثال تشير النصوص إلى وجود أربع قبائل رئيسة ولكل قبيلة من هذه القبائل أحد المعابد المرتبط

بها مثل قبيلة بني فابيا وقبيلة بني كمرا وبني معزين وبني متبول وبني زبديبول باستثناء معبد بِلْ حيث نجد ضمنه كافة القبائل باعتباره المجمع الديني للمدينة بأكملها[٣٥]، وهنا نتساءل فيما إذا كانت هذه الحركات مرتبطة بالقبيلة والآلهة ولهذا السبب نجد وضعيات تمثيل مختلفة للأصابع عند العائلات، أو ربما هذا الاختلاف مرتبط بطقوس معينة، فعلى سبيل المثال نعلم من خلال بعض التماثيل وجود مراتب لرجال الدين والكهنة، ولهؤلاء وظائف محددة منهم من هو مسؤول عن رش الماء المقدس وغالباً ما يكون بين أصابعه إناء وغصن، وفي الوقت ذاته نجد معه تمثيلاً لحركة السبابة والإبهام ممددة، وفي أمثلة أخرى نجد رب العائلة يمسك بيده اليسرى الكأس سكيفوس skyphos[٣٦] وفي الوقت نفسه الإبهام والسبابة والخنصر ممددين أيضاً (الشكل ٣٨)، وهذا التمثيل نجده في بعض الأحيان مع الكهنة الذين يرتدون القبعة الكهنوتية، ويمسكون بأيديهم أدوات متنوعة مثل الأواني وأغصان نباتية. كذلك إن هذه الحركات ممثلة في بعض الأحيان مع النساء إلا أن أمثلتها قليلة وبالتالي يمكن أن نفترض وجود وظيفة دينية معينة لتلك النسوة اللواتي يُظهرن الحركة الثلاثية أو الثنائية الممثلة مع الرجال، علاوة على ذلك هنالك بضع أمثلة لتماثيل نساء يمسكن بأيدهن الإناء وغصن النبات ذاته الذي نجده ممثلاً مع الرجال، وهذا ما يدعونا للاعتقاد بوجود نساء كهنة أو على الأقل لهن وظيفة دينية ضمن طبقة كهنة تدمر أو ما يمكن أن نطلق عليه اسم المجمع الديني.

كذلك إلى جانب الحركات الممثلة مع الرجال والنساء، نجدها مع الأطفال وهذا الأمر في الحقيقة مثير للاهتمام ففي تدمر غالباً ما نجد الأطفال الذين هم دون سن البلوغ يحملون بين أيديهم عناقيد العنب والتمر أو طائر، ويرتدون لباس مميز لهذا العمر، إلا أن هنالك العديد من الأمثلة التي نجد معها حركات مشابهة تماماً للرجال ضمن العائلة التي ينتمي إليها الطفل (الشكل ٣٩)، وهنا يمكن القول إن هذه الحركات إلى جانب اللباس والأدوات الممثلة تشير بوضوح إلى وصول الطفل لسن البلوغ وتلقيه التعاليم الحياتية والدينية،

وتجدر الإشارة إلى أن الحركات الممثلة مع الطفل نجدها تتطابق تماماً مع حركات أفراد العائلة الممثلين بجانبه وهذا ما يؤكد لنا وجود أفكار ومعتقدات مرتبطة بهذه الحركات التي كانت مفهومة وواضحة في تلك الفترة.

خامساً: رمزية التمثيل.

ارتبط ظهور الرموز بوجود أفكار معينة لم يكن من السهل التعبير عنها، وكانت الصور الرمزية الأولى لغة مفهومة بالنسبة لكل شعب قبل أن يتم اختراع الكتابة والأبجدية، وهذا المفهوم لا يزال مستمراً في وقتنا الحاضر فعلى سبيل المثال عندما نجد صورة لراحة اليد داخل دائرة باللون الأحمر نفهم بأنه يتوجب علينا التوقف أو التمهل، أو عندما نجد إصبع السبابة والوسطى مرفوعة إشارة للشهادة أو النصر، كذلك عندما يقوم المصلي أثناء التشهد برفع إصبع السبابة وغير ذلك من الأمور المفهومة بالنسبة لنا في الوقت الحاضر، لكن ربما لن تُفهم بالمعنى نفسه بعد مائة عام في حال لم تكن مدونة، وهذا الأمر لا يقتصر فقط على حركة اليدين والأصابع بل أيضاً على ما هو ممثل من الأدوات والأشياء والتي تحمل معاني ومدلولات كانت واضحة رغم أنها غير مدونة. كنا قد تحدثنا عن بداية ظهور حركة اليدين وارتباطها بمفهوم الآلهة الأم وبعبارة أخرى إن ظهور هذه الحركات كان له مدلولاً ومعنىً رمزياً، ثم في الفترات اللاحقة ظهرت حركات جديدة مع تبلور فكرة الدين والآلهة وظهور المجمعات الدينية، وكنا قد رأينا وجود سمات مميزة لكل فترة، ويبدو أن وضعية اليدين والأصابع كان لها تأثير قوي في معتقدات الشعوب القديمة، فعندما نجد اليدين الممتدة أمام الآلهة هي تعبير عن الامتثال والخضوع، وحين ما نجد يَدَيّ الملك مرتفعة أمام مجموعة من الأشخاص هي إشارة عن القوة والسيطرة. وبالتالي فإنّ أغلب هذه الحركات كانت مفهومة وواضحة بالنسبة لهم، فالأصابع المضمومة والمتشابكة فوق الصدر هي حركة تشير للسكون والهدوء والطمأنينة ونعتقد أن الكهنة كان لهم دور كبير في ظهور تلك الحركات لا سيما كونها ظهرت في

قسم كبير منها ضمن الأماكن الدينية، وباعتبار أن اليدين والأصابع احتلت مكانة مهمة في منطقة المشرق القديم فإننا نجدها مستمرة في تلك المنطقة حتى الوقت الحاضر. في تدمر نجد الكثير من التأثيرات الرافدية والفارسية وكذلك اليونانية والرومانية[٣٧]، إلا أن هذه التأثيرات لم تكن قوية على أفكار ومعتقدات سكان تدمر خصوصاً اليونانية- الرومانية منها، وبالتالي يمكن القول أن ما نجده في تدمر هو محلي- مشرقي بشكل خاص رغم تبنيهم للكثير من المظاهر الغربية، حيث أن وضعية اليدين والأصابع الممثلة هي سمة أساسية فلا يكاد يخلو تمثال سواء كان لرجل أو امرأة أو طفل من هذه السمة، وكنا غالباً ما نتساءل ما هي المعاني والأفكار التي تشير إليها هذه الحركات وما هو ممثل معها من الأدوات. في بداية ظهور هذه الحركات في تدمر كنا نجد اليد اليسرى القابضة على لفافة أو لفافتين (قصاصة أو ورقة) وهذه اللفافات أشير لها على أنها تدل على المستوى الاجتماعي للمتوفى أي أنه تلقى تعاليمه وقادر على القراءة والكتابة أو ما شابه ذلك[٣٨]، لكن لدى معاينتنا لأمثلتها لا نجدها منتشرة سوى لدى بعض العائلات، وتقتصر على عدد محدد من الأشخاص، وبالتالي لا يمكن أن يكون مدلولها فقط للإشارة إلى ما سبق ذكره. وهنا نجد أن هذه اللفافات ترتبط بدعوة ما تلقاها المتوفى وربما عدد اللفافات يشير إلى عدد الدعوات، طبعا هذه الدعوات ربما كانت لأمور دينية ولم يكن يحق لأي شخص حضورها وربما كانت ترتبط بالمجمع الديني لتدمر. كذلك يمكن أن تكون هذه اللفافات لتكريم أو لثناء حصل عليه الشخص باعتبار أن هذه التكريمات كانت تمنح عن طريق المجلس والشعب نتيجة لأعمال جيدة في المدنية ولدينا الكثير من النصوص التي تشير لمثل هذه التكريمات[٣٩]. في الفترات اللاحقة تبدأ بالظهور حركة ثنائية أو ثلاثية للأصابع وبشكل خاص السبابة والخنصر وهذه الحركة الثلاثية نجدها ممثلة بشكل خاص مع الرجال وكذلك اليد اليسرى في أغلب الحالات، إلى جانب ظهور تمثيل لخاتم في إصبع الخنصر في اليد نفسها. وهنا يمكن أن نطرح عدة تساؤلات:

الأول لماذا لا تظهر هذه الحركات إلا مع اليد اليسرى؟ والثاني ما هي رمزية هذا التمثيل؟ بخصوص السؤال الأول لا يمكننا الحديث عن تفسير مقنع بسبب قلة الأدلة، لكن ببساطة ومن خلال مشاهد القرابين نجد أن اليد اليمنى غالباً ما تستخدم لتقديم القرابين وحمل الأدوات على عكس اليد اليسرى وبالتالي فإنَّ تمثيل حركة الأصابع معها دليل على أنها كانت مخصصة لمثل هذه الاستخدامات بالإضافة إلى الأدوات البسيطة مثل اللفافة والغصن (الشكل ٤٠). أما فيما يخص رمزية الحركة الثلاثية أو الثنائية للأصابع دون شك لها رمزية دينية، خصوصاً إصبع الخنصر والسبابة الممددة لكن يبقى أن نتوصل لمعرفة ما هي هذه الرمزية؟ في الواقع أن العدد الكبير من أمثلة هذا التمثيل يدفعنا للاعتقاد بارتباطها مع الآلهة. فعلى سبيل المثال يمكن أن نلاحظ من خلال تمثال الإله عجلبول وجود الهلال وراء الرأس بحيث يظهر مثل قرنين، وبالتالي إذا أمعنا النظر بإصبع الخنصر والسبابة وشكل الهلال رمز عجلبول نجدهما متشابهين (الشكل ٤١) وهنا يمكن أن نرجح أن رمزية تمثيل الإصابع بهذه الطريقة هي رمزية مرتبطة بالإله عجلبول، وهذا الأمر يقودنا للاستنتاج بأن عجلبول ربما هو الإله المسؤول عن عالم الموتى بالنسبة للتدمريين، وأن تمثيل الأصابع بشكل خاص مع المتوفين بهذه الطريقة يعزز ذلك الأمر. أما بخصوص تمثيل حركات الأصابع الأخرى مثل السبابة والوسطى فهي بدون شك تدخل في الإطار ذاته وإن كانت لا ترتبط بالإله عجلبول فمن المؤكد أنها تخص الإله بعل شامين أو ملكبول وهو الثالوث المقدس الذي يظهر فوق لوح حجري ونجد فوق رأس كلّ منهم رمز معين حيث نلاحظ الشمس وراء رأس ملكبول وأشعتها الممثلة على شكل خطوط، أما بعل شامين فنجد وراء رأسه شريطاً ممتداً من كل جانب وينتهي كل منها باتجاه الأسفل حيث الطرف الأول فوق كتف ملبكول والثاني فوق كتف عجلبول وهذا يشير بوضوح إلى ارتباط عجبلول وملكبول بالإله بعل سيد السموات (الشكل ٤٢)، وبالتالي ربما الأصابع الثلاثية تحمل رمزية مرتبطة بهذا الثالوث. كنا قد ذكرنا أعلاه عن

ظهور تمثيل لخاتم في الخنصر من اليد اليسرى وللأسف لم نجد ضمن العديد من الأبحاث التي تناولت موضوع الفن الجنائزي أي تفسير لمثل هذا التمثيل، لكن ما نود الإشارة إليه بداية هو أن الخاتم ممثل في العديد من الحالات مع الرجال، وكذلك نجده مع النساء إلى جانب خواتم أخرى في بقية الأصابع، ونضيف على ذلك أن هؤلاء الرجال والنسوة متزوجون وهذا الأمر مؤكد من خلال النصوص الكتابية مع وجود استثناءات حيث يختفي تمثيل الخاتم مع بعض الأمثلة رغم أنهما متزوجين. وبالتالي فإننا نرجح أن يكون الخاتم هو دلالة على الزواج، فإذ كان الخاتم يشير إلى الطبقة الاجتماعية الغنية أو طبقة الأعيان في تدمر لكان ممثلاً مع أفراد العائلات المعروفة أنها من الأعيان، كذلك لو كان الخاتم يشير إلى رجال الدين على سبيل المثال لما وجدناه ممثلاً مع الأغلبية ومع النساء، وبالتالي فإنَّ الفرضية الوحيدة التي يمكن أن نطرحها هي أن وجود الخاتم في الإصبع الصغير رمز الارتباط والزواج.

في كثير من الأمثلة تحدثنا عن وجود أدوات وأشياء ممثلة بين الأصابع، وهذه الأدوات تشير بوضوح إلى أنها ذات استخدامات لأمور دينية، فعلى سبيل المثال الغصن النباتي الذي غالباً ما يكون ممثل في اليد اليسرى بين الأصابع لا نجده ممثلاً مع كافة الأشخاص وإنما هنالك عدد قليل ضمن بعض العائلات، طبعا إنَّ استخدام الغصن هو لرش الماء المقدس وهنالك أمثلة تظهر كهنة يقومون بوضع الغصن داخل الإناء المخصص لذلك (الشكل ٤٣). وما نود الإشارة إليه بخصوص ذلك هو أن تمثيل الغصن مع عدد قليل يشير إلى أن هذه الوظيفة كانت مخصصة لأشخاص محددين وليس بالضرورة أن يكونوا كهنة.

كذلك نجد في بعض الأمثلة أطفالاً بالغين يقومون بأعمال دينية مختلفة وهؤلاء يظهرون بوضعيات مشابهة للرجال والأمر ينطبق على حركات الأصابع وكنا قد أتينا على ذكر ذلك سابقاً، حيث نجد تمثيلاً لهم وهم يحملون بين أيديهم الأواني المملوءة

بالقرابين أو كؤوساً وما شابه ذلك، وهذا الأمر يشير إلى تعلم الأطفال الأمور الدينية في وقت مبكر خصوصاً العائلات التي تضم بين أفرادها كهنة، حيث إننا نجد لدى بعض العائلات استمرار وجود كهنة لعدة أجيال. الأمر الأخير الذي نود الإشارة إليه هو وجود نساء ضمن طبقة الكهنة إلا أن أعدادهنَّ قليلة جداً والمثال الوحيد المعروف يعود لامرأة من عائلة أرطبن وتظهر وهي تمسك بيديها غصن نبات وإناء، وهذا التمثيل غالباً ما نجده مع الكهنة كما أشرنا، كما أن ضمن عائلة أرطبن يوجد عدة كهنة للإلهين عجبلول وملكبول(٤٠)، وهذا ما يعزز احتمالية وجود نساء ضمن طبقة الكهنة أو على الأقل لهن وظيفة دينية محددة.

خلاصة

شغلت اليدان مكانة مهمة في فنون الشعوب القديمة كما رأينا من خلال الأمثلة القليلة التي سلطنا الضوء عليها، وظهرت في وضعيات متنوعة تبعاً للفترات التاريخية المختلفة، وكانت في كل فترة من هذه الفترات تقدم أفكاراً ومعلومات جديدة، وبالتالي كانت بمثابة مفتاح للعديد من الأمور المجهولة، لاسيما المعتقدات والطقوس. لقد أظهرت التماثيل والتصاوير التي خلفها الإنسان القديم أفكاراً كثيرة لم يكن من السهولة فهمها، وهذه الحركات لا تزال مستمرة بطريقة أو بأخرى حتى أيامنا هذه فعلى سبيل المثال إن تضرع الإنسان للإله سواء كان في مكان مقدس أو غير ذلك، يتم برفع كفي يديه أمام وجهه وهذه الحركة هي نفسها التي نجدها ضمن تصاوير المعابد أو المدافن المصرية (الشكل ٤٤)، وإصبع السبابة الذي يحتل مكانة مهمة حالياً عند المسلمين أثناء الصلاة، نجد له أهمية كما رأينا عند التدمريين رغم اختلاف المدلول. طبعاً يمكن أن نأتي على ذكر العديد من الأمثلة إلا أن الغاية من هذا البحث لا يقتصر على ذكر وعرض ما هو معروف، وإنما تسليط الضوء على معلومات جديدة لم تتطرق لها الأبحاث التي تناولت مدينة تدمر وسكانها، وبالتالي فإن ما أردنا إظهاره يتمثل من جهة بإمكانية الوصول إلى

الأفكار التي أراد التدمريون إيصالها من خلال هذا التمثيل المميز لحركة اليدين والأصابع، والذي غدا بمثابة هوية للفن التدمري. ومن جهة أخرى، التأكيد على وجود عادات وتقاليد محلية تعود للمراحل التاريخية السابقة، بقيت مستمرة رغم الاختلاف بأسلوب ممارستها وتمثيلها. بالتأكيد لم نستطع أن نعرض الكثير من المعلومات المتعلقة بالحركات وتطورها أو مدى ارتباطها بالعائلات التدمرية والقبائل، والسبب يعود في ذلك إلى ضرورة إجراء إحصاء كامل لكافة الأمثلة بحسب المدافن العائلية ومقارنتها كما ذكرنا سابقاً، وأن النسب الإحصائية التي قدمناها في هذا البحث ما هي إلا نماذج بسيطة هدفنا من ورائها إيضاح أهمية عمل مثل هذه الإحصائيات وتصنيفها وعمل جداول مخصصة لكل مدفن بشكل مستقل إلى جانب النصوص الكتابية التي عثر عليها. في الواقع هنالك العديد من التساؤلات التي يمكن أن تطرح بخصوص هذا البحث إلا أن الإجابات ستكون غامضة وقليلة، لكن يمكن إجراء محاولات لفهم ذلك من خلال تتبع ظهور وتطور هذه الأمثلة عبر الفترات الزمنية المختلفة، ونأمل أن يكون هذا البحث مقدمة لأبحاث مستقبلية من شأنها إغناء معلوماتنا عن مناحي الحياة المختلفة لمدينة تدمر وسكانها.

الحواشي

(١) راجع بهذا الخصوص A SCHMIDT-COLINET ; 1989, pp. 445-453.

(٢) تتوزع القطع النحتية التدمرية في أغلب متاحف العالم مثل متحف الارميتاج، ومتحف برلين، ومتحف لشبونة، ومتحف كوبنهاغن، وفي العديد من المتاحف الفرنسية. وهنالك أقسام كاملة في بعض المتاحف باسم تدمر كما في متحف اللوفر، ومتحف كوبنهاغن.

(٣) إن الدراسة التي أعدها انغولت لا تزال حتى الوقت الحاضر مرجع مهم للقطع النحتية، إلا أن المكتشفات اللاحقة أظهرت عناصر جديدة ومختلفة عما توصل إليه انغولت. H INGHOLT; 1928, *Palmyrensk skulptur*, Kobenhavn.

(4) R AMY, H SEYRIG; 1936, Recherches dans la nécropole de Palmyre

(5) E WILL, 1949a, La tour funéraire de Palmyre

1949b, La tour funéraire de la Syrie et les monuments apparentés

(6) A SADURSKA, 1975, Recherches sur la sculpture funéraire de Palmyre

(7) A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, Les sculptures funéraires de Palmyre, Roma.

(٨) أتاح لي العمل في تدمر خلال إعدادي لبحث الماجستير ومن ثم الدكتوراه عن النحت والرسم الجنائزي التدمري الإطلاع ومعاينة أغلب القطع الموجودة في متحف تدمر ومستودعاته، وهذا ما مكنني من عمل تصنيف زمني استطعت من خلاله ملاحظة الكثير من التفاصيل التي لم يتم التنويه لها بطريقة كافية.

(٩) عثر على التمثال عام ٢٠٠٨ م في أحد الكهوف في منطقة Schelkingen جنوب إالمانيا من قبل بعثة آثارية من جامعة توبنغن.

(١٠) راجع بهذا الخصوص:

Alan F. DIXSON; 2011, pp. 1-11.

James B. HARROD; 2011, pp. 204- 218.

(١١) يقع الكهف في الأرجنتين في منطقة تعرف باسم سانتا كروز Santa Cruz، تم الكشف عنه منذ النصف الثاني من القرن العشرين وبدأت الأعمال الأثرية ضمنه عام ١٩٦٠ م، سجل الكهف على لائحة التراث العالمي عام ١٩٩٩ م.

(١٢) بخصوص ذلك يمكن مراجعة:

Carlos J. GRADIN, Carlos A. ASCHERO, Ana M. AGUERRE;1976, pp. 201- 250.

(١٣) راجع بهذا الخصوص سلطان، محيسن: الفن النيوليتي، ص ٢٦٠.

(١٤) بخصوص تل حلف M V OPPENHEIM; 1932, pp. 242–254. و كشكشوك راجع سليمان، انطوان: ١٩٩٦ م، ص ٤٥- ٥٦.

(١٥) لا يوجد دراسة تحليلية لهذه الحركات كما أنه لم يتم عمل تصنيف لها بحسب ظهورها وتطورها عبر عهد الأسرات الحاكمة، كذلك لم يتم تصنيفها بحسب الأشخاص الممثلة معهم كالذكور والإناث و الأطفال، أو بحسب المواضيع الدينية أو الجنائزية وغير ذلك، إلا أنه هنالك العديد من الأبحاث التي تأتي على ذكر بعض التفاصيل للمزيد حول ذلك يمكن مراجعة.

Georges PERROT; 1882, chapitre III, IV.

Andreu GUILLEMETTE ; 2002, pp. 284-310.

(١٦) راجع بخصوص التمثال ARUZ Joan; 2003, p. 59.

(١٧) بخصوص الموقعين راجع Henri FRANKFORT; 1939,

(١٨) بخصوص ذلك انظر ARUZ Joan; 2003, p. 65.

(١٩) لمزيد من المعلومات عن هذا المشهد راجع:
Jean C MARGUERON; 2004, p. 407-409

(٢٠) للمزيد من المعلومات حول الأختام والمشاهد الممثلة راجع:
E CASSIN; 1960, 742-751.
W WARD ; 1965, pp. 35-44.

(٢١) للمزيد يمكن مراجعة:
OPPENHEIM M V ; 1955, Tell Halaf, III, Germany.
OPPENHEIM M V ; 1932, pp. 242-254.

(٢٢) همّام، سعد: ٢٠٠٧، أطروحة ماجستير، غير منشورة.

(٢٣) راجع بهذا الخصوص همّام، سعد: ٢٠١٤، ص ٤٥- ٥٨.

(٢٤) الشاهدة محفوظة في متحف تدمر.

(٢٥) الشاهدة معروضة في متحف تدمر.

(٢٦) مدفن بولحا بن نبشوري هو من نوع المدافن الأرضية ويقع في المقبرة الجنوبية الشرقية، تم الكشف عنه وتنقيبه عام ١٩٥٨ م من قبل عبيد طه ونضال الخير، وتم نشر نتائج الأعمال من قبل خالد الأسعد وعبيد طه عام ١٩٦٨ م، النص التأسيسي للمدفن تم العثور عليه ويشير إلى أن المدفن تم بنائه من قبل بولحا بن نبشوري له ولأولاده في شهر آب عام ٨٩ م. الأسعد، خالد. طه، عبيد: ١٩٦٨ م، ص ٨٣- ١٠٨.

(٢٧) مدفن سسن نقب المدفن في خريف عام ١٩٥٨ م من قبل نسيب صليبي وعبيد الطه ونشرت نتائج الأعمال عام ١٩٩٢ م، والكتابة التأسيسية للمدفن مفقودة وبالتالي أن تاريخ بناء المدفن غير معروف إلا أن هناك كتابة تشير للعام ١٨١

م وهي تدل على فترة استخدام داخل المدفن أي أن تاريخ بناء المدفن يعود إلى قبل هذا العام. راجع بهذا الخصوص:
N SALIBY; 1992, pp. 267- 292.

(٢٨) التمثال محفوظ في متحف تدمر، راجع بخصوصه:
A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, p.60

(٢٩)مدفن عشتور بن ماليكو نقب عام ١٩٥٦ م من قبل عبيد الطه ونظمي خيري وقد نشرت نتائج أعماله آنا سادورسكا، والنص التأسيسي للمدفن يشير إلى أنه بني من قبل عشتور بن ماليكو بن زبيدا له ولأولاده للأبد في العام ٨٨ م.
A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, p.18.

(٣٠) التمثال محفوظ في متحف تدمر.

(٣١) مدفن أرطبن يقع في منطقة المدافن الجنوبية الشرقية ونقب عام ١٩٥٨م من قبل عبيد طه ونضال خير ونتائج الأعمال غير منشورة.

(٣٢) مدفن زبدعنه ومقيمو هو من نوع المدافن الأرضية تم الكشف عنه لأول مرة عام ١٨٩١م من قبل دو كونتانسون De contenson، ثم أشارت له فيما بعد البعثة الألمانية برئاسة وينغاند wiengand عام ١٩٠٢ م، في حين تم تنقيبه عام ١٩٦١ م من قبل خالد الأسعد وعبيد طه ونشرت نتائج الأعمال في الحوليات الأثرية السورية.

(٣٣) مدفن عائلة شلم اللات هو من نوع المدافن الأرضية ويقع ضمن وادي القبور، تم الكشف عنه وتنقيبه عام ١٩٥٧ م وعثر ضمنه على النص التأسيسي وقد تم ترجمة النص على الشكل التالي" بيت الأبدية هذا عمله شلم اللات بن ماليكو بن دنيس له ولبنيه ولبني بنيه. ومن بعد موت شلم اللات بن ملكو هذا شارك حنبل بن شلم اللات بن ملكو ابنه وفرشتنا بنت تيمارصو بن عتزبد زوجته، زبدعته بن حنبل بن دنيس بنصف هذا المدفن له ولبنيه على شرفهم للأبد في شهر نيسان

من العام ١٤٧ م. راجع البني، عدنان. صليبي، نسيب: ١٩٥٧ م، ص ٢٩. كذلك:

A BOUNNI, J TEIXIDOR; 1975, p.155, n 12. A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, p. 157.

(٣٤) بخصوص تقسيم مراحل النحت وسمات كل مرحلة وتطورها يمكن مراجعة همّام، سعد: ٢٠١٣ م، ص ٢٠٠ وما بعد.

(٣٥) راجع بهذا الخصوص:

YON J B; 2002, Les notables de Palmyre, IFAPO, Beyrouth.

(٣٦) سكيفوس skyphos: إناء يوناني للشرب عرفت أمثلته الأولى منذ القرن ٥ ق.م وانتشر استخدامه فيما بعد عند الرومان، كان يصنع في البداية من الطين ثم صنع من المعدن استخدمت بعض أنواعه لشرب النبيذ وبعض منها استخدم لأغراض دينية لا سيما لحفظ الماء المقدس أثناء الطقوس. للمزيد راجع:

H OAKLEY-JOHN; 1988, pp. 166- 178.

(٣٧) التأثيرات الفارسية تظهر بكثرة ضمن تدمر منذ القرن ١ ق.م، ونجدها في الأسماء واللباس والعمارة واللقى، أما التأثيرات اليونانية والرومانية فهي لا تظهر بشكل كبير وخصوصاً الرومانية ففي المنحوتات لا تظهر أمثلتها بشكل واضح إلا خلال القرن ٢ م.

(٣٨) ورد هذا التفسير عند الكثير من الباحثين الذين تناولوا المنحوتات الجنائزية وبشكل خاص A SADURSKA, A BOUNNI; 1994,

(٣٩) راجع بخصوص نصوص التكريمات YON J B; 2002

(٤٠) راجع بخصوص النص الذي يشير إلى وجود أحد أعضاء عائلة أرطبن كاهناً للألهين عجلبول وملكبول A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, p. 28.

قائمة المراجع العربية

١- أسعد، خالد. الطه، عبيد: ١٩٦٨ م، مدفن بولحا التدمري، الحوليات الأثرية السورية، م ١٨، ج ١- ٢، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ص ٨٣- ١٠٨.

٢- البني، عدنان. صليبي، نسيب: ١٩٥٧ م، مدفن شلم اللات، الحوليات الأثرية السورية، م ٧، ج ١- ٢، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ص ٢٥- ٥٢.

٣- سعد، همّام: ٢٠١٤ م، الشواهد الجنائزية التدمرية: تاريخ ظهورها، أشكالها، مراحل التطور، مدلولها، الحوليات الأثرية السورية، م ٥٣- ٥٤، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ص ٤٥- ٥٨.

٤- ٢٠١٣، التمثيل الآدمي في المدافن التدمرية (المنحوتات والرسومات)، جامعة دمشق، أطروحة دكتوراه غير منشورة.

٥- ٢٠٠٧، المدافن التدمرية، جامعة دمشق، أطروحة ماجستير غير منشورة.

٦- سليمان، انطوان: ١٩٩٦ م، معبدا تل كشكشوك وتل أبو حجيرة، وثائق الآثار السورية، ج ١، المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ص ٤٥- ٥٦.

٧- محيسن، سلطان: الفن النيوليتي، الموسوعة العربية، م ٢١، دمشق، ص ٢٦٠.

قائمة المراجع الأجنبية

1- AMY R, SEYRIG H; 1936, Recherches dans la nécropole de Palmyre , Syria, XVII, Paris, 239-248.
2- ARUZ J; 2003, Art of the first cities, New York.
3- BOUNNI A et TEIXIDOR J; 1975, Inventaire des inscriptions de Palmyre, XII, Damas.
4- CASSIN E; 1960, Le sceau un fait de civilisation dans la Mesopotamie ancienne, Annales economie, societes, civilisations, N4, pp. 742-751.
5- DIXSON A F.; 2011, Venus figurines of the European Paleolithic: symbols of fertility or attractiveness, Journal of Anthropology, Vol 2011, pp. 1-11.
6- FRANKFORT H; 1939, Sculpture of the millennium B.C from Tell Asmar and Khafajah, Chicago.
7- GRADIN C J., ASCHERO C A., AGUERRE A M;1976, Investigaciones arqueologicas en la cueva de las Manos, Relaciones de la Sociedad Argentina de Antropogia, Vol X, Buenos Aires, pp. 201- 250.
8- GUILLEMETTE A; 2002, Les artistes de pharaon, Paris.
9- -HARROD J B.; 2011, The Hohles fels female figurine, The journal of Archaeomythology, Vol 7, California, pp. 204-218.
10- INGHOLT H; 1928, *Palmyrensk skulptur*, Kobenhavn.
11- MARGUERON J C; 2004, *Mari metropole de l euphrate au III et au debut du II millenaire av. J.C*, Paris, p. 407-409
12- OAKLEY-JOHN H; 1988, Attic red-figured skyphoinof corinthian shape, *Hesperia*, vol 75, N 2, Athens, pp. 166-178.
13- OPPENHEIM M V ; 1955, *Tell Halaf*, III, Germany.

14- 1932, Tell Half la plus ancienne capital soubareenne de Mesopotamie, Syria, Tom 13, pp. 242-254.
15- PERROT G; 1882, Histoire de l art dans l antiquite, Tome 1, L Egypte, Paris, chapitre III, IV.
16- SADURSKA A, BOUNNI A; 1994, Les sculptures funéraires de Palmyre, Roma.
17- SADURSKA A, 1975, Recherches sur la sculpture funéraire de Palmyre, Archeologia classica, XXVII, fasc 2, Roma, 304.
18- SALIBY N; 1992, L' hypogée de Sassan fils de Male a Palmyre, Damaszener Miteilungen, Band 6, DAISD, pp. 267- 292.
19- SCHMIDT-COLINET A 1989, L'architecutre funéraire de Palmyre, Archéologie et histoire de la Syrie, Germany, pp. 445- 453.
20- WARD W; 1965, Un cylindre Syrien inscrit de la deuxieme periode intermediaire, Syria, tome 42, pp. 35-44.
21- WILL E, 1949a, La tour funéraire de Palmyre, Syria, XXVI, Paris, 87-116.
22- 1949b, La tour funéraire de la Syrie et les monuments apparentés, Syria, XXVI, Paris, 258-312.
23- YON J B; 2002, Les notables de Palmyre, IFAPO, Beyrouth

فهرس الأشكال

الشكل ١٥: مشاهد ممثلة فوق الأختام تبرز حركات مختلفة لليدين (بلاد الرافدين ٢٥٥٠-٢٤٠٠ ق.م).

ARUZ J; 2003, , p. 109, 447. fig. 60, 319.

الشكل ١٦: تمثال الاله حدد وعشتار. OPPENHEIM M V ; 1955, Tafel 146.

الشكل ١٧: تمثال آلهة بوضعية الوقوف.

OPPENHEIM M V ; 1955, Tafel 133.

الشكل ١٨: الشاهدة ١٩١آ/ ٩٠. تصوير المؤلف

الشكل ١٩: شاهدة عقمتا. تصوير المؤلف

الشكل ٢٠: شاهدة عاليت. تصوير المؤلف

الشكل ٢١: شاهدة دايون. تصوير المؤلف

الشكل ٢٢: مدفن بولحا، تمثال بولحا بن نبشوري. تصوير المؤلف

الشكل ٢٣: تمثال بولحا ابن شقيق مؤسس المدفن. تصوير المؤلف

الشكل ٢٤: مدفن سسن، تمثال باصيل. سادورسكا

A SADURSKA, A BOUNNI; 1994, p.66.

الشكل ٢٥: تمثال أقما، مدفن سسن. تصوير المؤلف

الشكل ٢٦: التمثال رقم ١٧٢٨/ ٦٣٩٩ مدفن عشتور بن ماليكو. تصوير المؤلف

الشكل ٢٧: تمثال مارتا وطفلتها، مدفن أرطبن. تصوير المؤلف

الشكل٢٨: التمثال رقم ١٩٦١ب/ ٧٠٥٣، مدفن سسن. تصوير المؤلف

الشكل ٢٩: تمثال زبديبول، مدفن زبدعته ومقيمو. تصوير المؤلف

الشكل ٣٠: تمثال زبدعته بن ديونيسيوس، مدفن شلم اللات. تصوير المؤلف.

الشكل ٣١: تمثال اقما بنت حيران، مدفن شلم اللات. تصوير المؤلف

الشكل ٣٢: جدول بياني يبين تمثيل حركة اليدين والأصابع مع الرجال خلال المرحلة الأولى- نموذج مدفن سسن

الشكل ٣٣: جدول بياني يبين تمثيل حركة اليدين والأصابع مع الرجال خلال المرحلة الثانية- نموذج مدفن شلم اللات

الشل ٣٤: حركة الإبهام والوسطى والخنصر معاً، تصوير المؤلف.

الشكل ٣٥: جدول يبين تمثيل حركة اليدين والأصابع مع النساء خلال المرحلة الأولى- نموذج مدفن أرطبن

الشكل ٣٦: جدول يبين تمثيل حركة اليدين والأصابع مع النساء خلال المرحلة الثانية- نموذج مدفن شلم اللات

الشكل ٣٧: جدول يبين الاختلاف في تمثيل حركة الأصابع لدى العائلات التدمرية- عدة نماذج

الشكل ٣٨: الحركة الثلاثية للإبهام والسبابة والخنصر، نموذج من مدفن بورفا وبولحا، متحف تدمر، تصوير المؤلف.

الشكل ٣٩: تمثيل حركة الأصابع مع الأطفال، متحف تدمر، تصوير المؤلف.

الشكل ٤٠: مشهد تقديم قرابين من قبل الكهنة، السبابة والخنصر ممددة في اليد اليسرى أثناء سكب الماء المقدس، متحف تدمر، تصوير المؤلف

الشكل ٤١: رمز الهلال للإله عجلبول، وحركة الأصابع السبابة والخنصر. تصوير المؤلف.

الشكل ٤٢: لوح حجري ممثل فوقه آلهة تدمر عجلبول وبعل شامين وملكبول، متحف اللوفر، تصوير المؤلف.

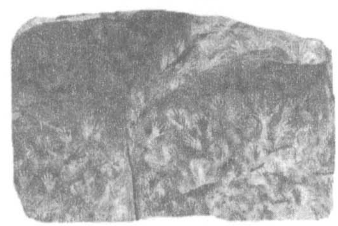
الشكل ٤٣: الغصن النباتي والإناء المستخدم لأغراض الطقوس الدينية. تدمر، تصوير المؤلف.

الشكل ٤٤: تمثال خشبي عبارة عن تقدمة للإلهة إيزيس، متحف اللوفر، تصوير المؤلف.

الأشكال



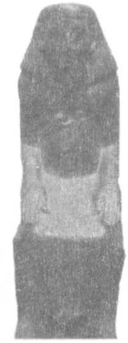
الشكل 1



الشكل 2



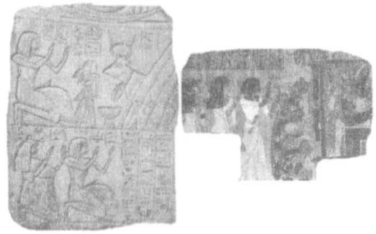
الشكل 3



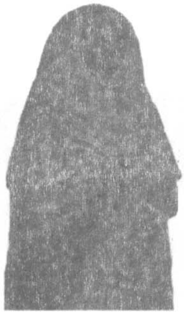
الشكل 4



الشكل 5



الشكل 6



الشكل 7



الشكل 8



الشكل 9



الشكل 10



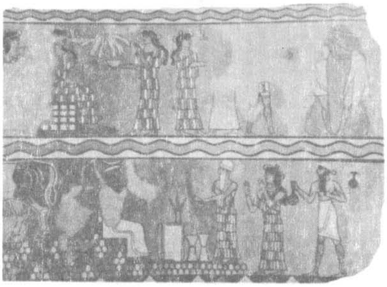
الشكل 11



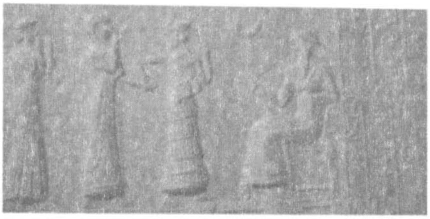
الشكل 12



الشكل 13



الشكل 14



الشكل 15



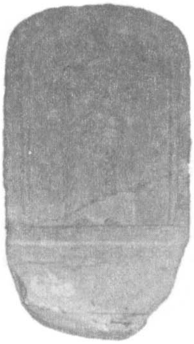
الشكل 16



الشكل 17



الشكل 18



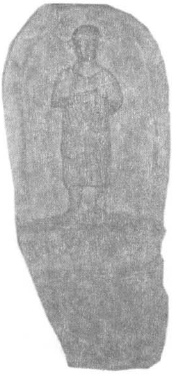
الشكل 20



الشكل 19



الشكل 22



الشكل 21



الشكل 24



الشكل 23


الشكل 26


الشكل 25


الشكل 28


الشكل 27


الشكل 30


الشكل 29



الشكل 31



الشكل 32



الشكل 33



الشكل 34



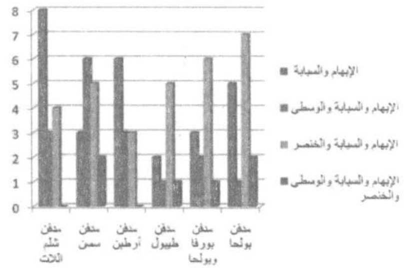
الشكل 35



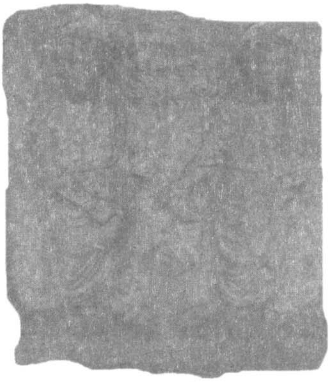
الشكل 36



الشكل 38



الشكل 37



الشكل 40



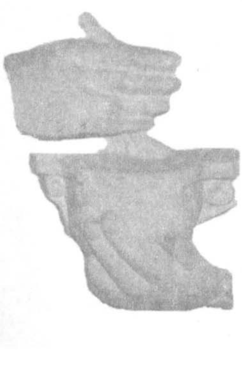
الشكل 39



الشكل 41



الشكل 42



الشكل 43



الشكل 44

رعمسيس الثاني وآثاره في الساحل السوري " لبنان"

د. ابتسام ديوب

قسم الآثار/ جامعة دمشق

يهدف هذا البحث باختصار إلى إلقاء الضوء على حياة هذا الملك العظيم، وعلى مدى العلاقة التي كانت قائمة بين الساحل السوري "لبنان" ووادي النيل في عهد هذا الملك، ومن ثم دراسة لأهم الآثار التي تركها على أرض لبنان " لوحات الحدود".

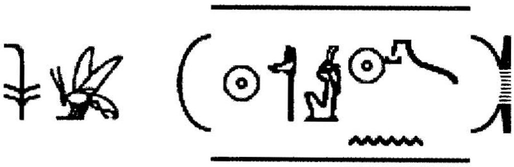
بدأت مصر بعد طرد الهكسوس فترة تاريخية جديدة، وهي الدولة الحديثة "عصر الإمبراطورية"، وأصبحت طيبة عاصمة مصر، ومنها انطلقت الحملات العسكرية للدفاع عن حدود تلك الإمبراطورية، وأقيمت الحاميات والمعسكرات للجند في شرق البلاد وغربها وجنوبها، وتم تنظيم الفرق والألوية والسرايا، وازدهرت صناعة السلاح والمعدات الحربية، وبها بدأت مصر أعظم الفترات التاريخية وذلك بما خاضته من معارك منذ حرب التحرير ضد الهكسوس، حتى ضمت معظم الساحل السوري للسيادة المصرية، مكونة بذلك أول إمبراطورية في التاريخ ممتدة من تركيا شمالاً إلى الصومال جنوباً، والعراق شمالاً وليبيا غرباً. لكن على الرغم مما تمتعت به الدولة الحديثة من رخاء وازدهار وخاصة في النصف الأول من الأسرة الثامنة عشر، والذي اعتبر نقطة تحول في الموقف السياسي الجديد في الشرق الأدنى، وما تبع ذلك من ركود عسكري على الساحة السياسية وخاصة في عصر الملك أمنحتب الرابع "أخناتون" واتجاهاته الدينية الجديدة، وما تبعه من تغيرات في منطقة الشرق القديم، فمع انعدام النفوذ المصري في سورية، والذي كان نتيجة مباشرة لإهمال السياسة الخارجية للإمبراطورية المصرية، بدأت مصر تفقد سيطرتها على الجزء الشمالي من إمبراطوريتها متزامنة مع ظهور قوة جديدة في آسيا "القوة الحثية" خيتا"، والتي قامت بالقضاء على نفوذ مصر وسلطاتها في سورية، وبدأت

المدن السورية تستقل الواحدة تلو الأخرى بأمورها، وأخذت جماعات بدو الصحراء بدورها تحدث اضطرابا في المدن، وعلى الرغم من الجهود المبذولة التي قام بها الملوك الذين سبقوا رمسيس الثاني في الحكم لاستعادة حدود الدولة الحديثة، إلا أن الأمر لم يكن حاسماً، وكان على القائد الجديد رعمسيس الثاني أن يتعامل مع الموقف بشكل أكثر قوة، فكانت أعماله العسكرية " هي الأمل، ولأنها لم تحقق نتائجها المرجوة، كانت معاهدة السلام، وليؤكد للعالم أجمع أنه وصل إلى تلك المناطق أقام لوحات حدود في كل منطقة وصل إليها، إشادة بهذا النصر العظيم.

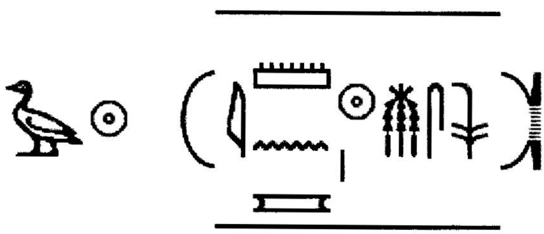
توليه الحكم وأهم أعماله الداخلية والخارجية:

يعتبر الملك رمسيس "رعمسيس الثاني" "Ramesses II" حوالي"١٢٧٩- ١٢١٣ ق.م" ثالث ملوك الأسرة التاسعة عشر، ابن الملك سيتي الأول والملكة تويا، وزوج الملكة المشهورة نفرتاري، شارك أباه في حكم البلاد في السنوات العشر الأخيرة من حكمه، ثم انفرد في حكم البلاد بعد موت أبيه، وبدأ عهده عصراً جديداً أطلق عليه "عصر الإمبراطورية الثانية" حيث عمل على إحياء النفوذ المصري في بلاد الشام والذي ضعف بعد ثورة أخناتون الدينية، وتعتبر حروبه آخر المجهودات الحربية التي بدأها ملوك الدولة الحديثة، لذلك يعتبر من أشهر فراعنة مصر عسكرياً وإدارياً[١].

يعتبر اسم رمسيس الثاني تصحيفاً يونانياً للاسم المصري حسب كتاباته ونطقه في اللغة المصرية القديمة وهو "رع مس سو" أو "رعمسسو" ومعناه "الاله رع الذي خلقني"، أما الاسم الرسمي للملك رعمسيس الثاني هو "Usermaatre-setepenre" ومعناه "وسر ماعت رع سبتن رع" الذي يعني " رع قوي العدالة ومختار رع"[٢].



كما اتخذ لقب "رعمسسو مري آمون" ***meryamun Ramesses*** ومعناه "رعمسيس محبوب آمون".



أما الاسم الحوري للملك رعمسيس الثاني فكان يكتب على الشكل التالي" ***Kanakht Merymaat*** " الذي يشير إلى أن الملك سوف يحقق العدالة على الأرض[٣].



بدأ رعمسيس الثاني حكمه كشريك لأبيه سيتي الأول على عرش البلاد وذلك لمدة تزيد عن الثلاث سنوات على الأقل، ويبدو أن الملك سيتي الأول قد ترك الأمور الداخلية بيد ابنه الأمير رعمسيس الثاني "ابن الملك الأكبر ونائبه على عرش جب "مصر"، وهو لقب

يعني بصراحة أن الأمير قد أصبح الوريث الملكي، بينما اتجه الملك سيتي الأول إلى الأعمال الخارجية(٤).

وعلى الجانب الآخر فقد تزوج الملك رعمسيس الثاني العديد من الزوجات أهمهما " نفرتاري- ست نفرت - مات نفرورع -توي"، إلا أن أشهر زوجاته كانت الملكة نفرتاري كما يظهر ذلك في نقوش قبر الكاهن الأكبر" نب وننف"، وكان لديه الكثير من المحظيات والكثير من الأولاد ٥٢ ابناً و ٣٢ بنتاً (٥).

أعماله الداخلية والخارجية:

على الصعيد الداخلي: أكمل الملك رعمسيس الثاني مسيرة والده في إقامة الكثير من المشاريع العمرانية، حيث عمل على تشييد سبعة معابد في المنطقة الممتدة من الجندل الأول إلى الجندل الثاني، وقام بنحت معبدين له في الصخر عند أبو سمبل في بلاد النوبة "معبدي أبو سمبل"، الأول للملك رعمسيس الثاني، والثاني لزوجته نفرتاري، ثم قام ببناء معبد بيت الوالي جنوب "بيت رعمسيس مري آمون في بيت رع" وقد كرس لعبادة الاله رع رب السماء. ثم معبد "بيت بتاح" خصص لعبادة بتاح وبتاح تانتن وحتحور بالاشتراك مع الملك رعمسيس الثاني، ثم أكمل بناء بهو الأعمدة العظيم لآمون رع في معبد الكرنك، بالإضافة إلى تشييد معبد الرامسيوم بالأقصر وهو المعبد الجنائزي الخاص بالملك رعمسيس الثاني(٦).

لم يقتصر نشاط الملك المعماري على إقامة المعابد بل أمر بنحت الكثير من المسلات والتي أهمها مسلة في معبد الأقصر، ومسلة أخرى نقلت إلى فرنسا ونصبت في ميدان الكونكورد في باريس. ومن ثم أقام العديد من التماثيل، حيث لم يَخْلُ معبد من المعابد التي أقامها من نحت التماثيل أمامها وبداخلها إلا أن أشهر تلك التماثيل هو تمثال رعمسيس الثاني في معبد آمون رع في الكرنك، وتمثال ميدان رعمسيس الشهير

وتمثال متحف المنيه. كما أنشأ مدينة "بر رعمسسو" التي أصبحت العاصمة الجديدة والقاعدة الأساسية لحملته على سورية، وقد بنيت على أنقاض مدينة أفاريس عاصمة الهكسوس قديماً (٧).

أما على الصعيد الخارجي:

بعد أن تحقق له الأمن والاستقرار الداخلي، اتجه بأنظاره نحو الشرق" مملكة خيتا" والتي ما توانت لحظة عن تحريض حكام الولايات التابعة لمصر ليعيد أمجاد الأسرة الثامنة عشر، وقبل أن يتجه نحو الشرق شن عدة حملات على بلاد النوبة وعلى الحدود الليبية لتأمين حدود مصر القريبة، ثم قام بمحاربة قراصنة البحر "الشردانا" في معركة بحرية، فهزمهم وضمهم إلى جيشه وكان ذلك في العام الثاني من حكمه(٨)، ثم اتجه في العام الرابع من حكمه إلى سورية وسارت هذه الحملة من منطقة القنطرة "ثارو أو تارو" نحو بيبلوس ثم توغلت "شرق بيروت" عند مصب نهر الكلب "وفاجأت الأمير "بنتيشينا" حليف الحثيين فقدم لهم الولاء والطاعة، ثم وضع الملك رعمسيس الثاني لوحة تذكارية لانتصاره في هذا الموقع أكدت أن حدود مصر أصبحت تمتد حتى بيروت. ثم عاد إلى مصر، غير أنه اضطر للعودة مرة أخرى في العام الخامس من حكمه، ليقود معركته الشهيرة مع الحثيين " قادش " حوالي عام "١٢٧٤ ق.م"، والتي تعتبر في نظر الملك رعمسيس الثاني من أعظم المآثر الحربية. وقد سجلت وقائع هذه المعركة مراراً وتكراراً على جدران معبده في أبيدوس وعلى جدران معبد الكرنك وعلى جدران معبد الأقصر وصرح الرامسيوم ومعبد أبو سمبل، وأيضاً على العديد من النسخ المدونة على لفائف البردي "كبردية ساليه الثانية "SallierII"، وبردية ريفات "Raifé"، وبردية شيستربيتي الثالثة "Chester Beaty III"(٩).

قاد الملك رعمسيس الثاني جيشه المكون من عشرين ألف مقاتل مقسماً إلى أربع فرق تحمل أسماء "آمون - بتاح - رع - ست"، لملاقاة جيش الحثيين بقيادة

الأمير الحثي "مواتللي" فوصل وادي نهر العاصي حتى مشارف مدينة قادش جنوبي بحيرة قطينة ذات الموقع الاستراتيجي الهام، فكانت معركة سجالاً بين الطرفين، إلا أن نهاية المعركة لم تكن حاسمة وبقيت غامضة بعض الشيء، ومن خلال الدراسة المعمقة للنصوص المصرية والحثية وبخاصة نصوص بتناؤر والنص الحثي الوحيد الذي وجد في "بوغازكوي" عاصمة الحثيين القديمة" حاتوشا" تبين أن التعادل كان النتيجة العادلة للطرفين. ثم استمرت المعارك بين الطرفين مدة ستة عشر عاماً، حتى توجت في النهاية بعقد معاهدة السلام في العام الحادي والعشرين من حكم الملك رعمسيس الثاني مع الملك خاتوشيلي الثالث، وقد احتفظت كل من عاصمة المملكة الحثية والإمبراطورية المصرية بنسخة من المعاهدة مدونة كل بلغتها الخاصة والتي تضم في بنودها وضع الأسس الراسخة لسلام دائم والدليل على ذلك أنه لم تحدث مواجهات عسكرية بين البلدين، بل توج هذا السلام بزواج رعمسيس الثاني من أميرتين حثيتين حيث خُلِّدَ هذا الحدث على لوح حجري بنص سجلت نسخ منه على جدران معابد أبو سمبل – الفنتين – أبيدوس – الكرنك.... ألخ. وقد وجد علماء الآثار نص المعاهدة مكتوباً بثلاث كتابات: الهيروغليفية والبابلية والحثية، وقد تضمنت في بنودها نقاطاً تدل على مدى أهمية هذه المعاهدة من ضمان اتفاق إقليمي في المنطقة، وإقامة تحالف دولي بين الطرفين، واتفاق تعاون متبادل بين الحكومتين ضد العصاة والمتمردين، وبنود تسليم الفارين واللاجئين السياسيين، وضروباً مختلفة من العفو عن بعض الفئات(١٠)، بهذه المعاهدة يعلن رعمسيس الثاني السلام والأخوة للملك الحثي خاتوشيلي.

آثار الملك رعمسيس الثاني في الساحل السوري "لبنان":

اتجه الملك رعمسيس الثاني إلى وضع لوحات حدود أثناء حملاته في الشرق في المناطق التي وصل إليها، وبالتالي استطاع أن يعيد أمجاد الإمبراطورية المصرية القديمة

وأن يؤكد للبلاد المجاورة أن قوة مصر لا يستهان بها محققاً الأمن والاستقرار، ومن هذه اللوحات:

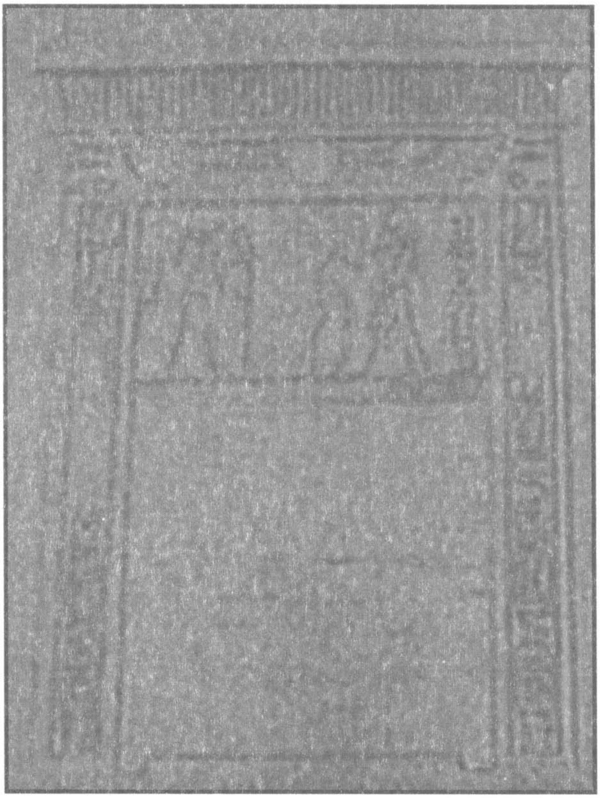
لوحتان من الحجر شرق بيروت، تؤكد وصول رمسيس الثاني إلي تلك المنطقة ووضع لوحات للحدود هناك.

لوحة أخرى عند نهر الكلب في لبنان نحتت في الصخر، تتجلى أهميتها في تحديد مسار الخط العسكري الذي انتهجه الملك رعمسيس الثاني.

لوحات أخرى متعددة في مدن صور – عدلون – جبيل وكلها محفوظة في متحف بيروت الوطني، بالإضافة إلى لوحات أخرى عثر عليها في مناطق الكسوة – ميدعا وحالياً في متحف دمشق الوطني، وكل هذه اللوحات في مضمونها تشير إلى مدى الأهمية الكبيرة التي كان الملك رعمسيس الثاني يعلقها على هذه اللوحات للتأكيد على المناطق التي وصل إليها والتي وقعت تحت سيطرته. ولا يخفى علينا من آثاره الجعارين الكثيرة المنتشرة في أغلب مواقع الساحل اللبناني كما في جبيل وصور وأغلبها في متحف بيروت القومي، التي وجد عليها اسم الملك رعمسيس الثاني وربما التنقيبات المستقبلية تكشف لنا عن آثار أخرى في المستقبل تنير لنا أحداثاً غامضة خافية علينا.

ويمكن تقسيم هذه اللوحات إلى:

– (شكل –١) لوحة الملك رعمسيس الثاني الأولى عند نهر الكلب.

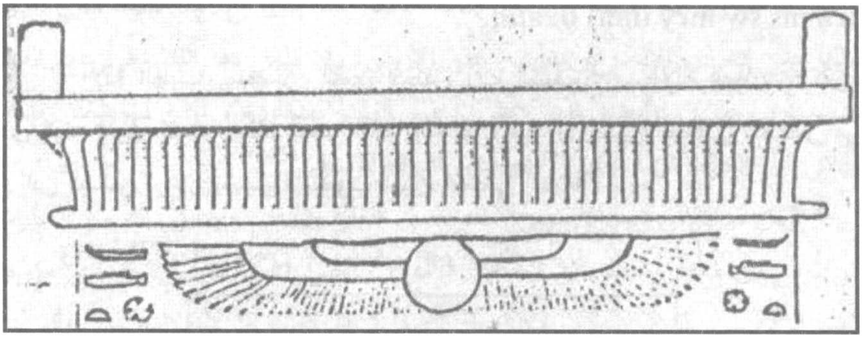


(شكل -١) لوحة الملك رعمسيس الثاني -نهر الكلب- متحف بيروت

نحتت في الصخر ارتفاعها حوالي١,٥٠م، وعرضها١,١٢م، وسمكها ٢٥ سم، نقش عليها من الأعلى قرص الشمس المجنح، تصور الملك "رعمسيس الثاني" وهو يحضر أسيراً راكعاً يمسكه من خصلة شعره ويقدمه للإله "رع حور أختي"، الذي صور واقفاً أمام الملك وقد مثل بجسم إنسان ورأس طائر يعلوه قرص الشمس المجنح ويمسك "بالصولجان وسيف النصر"، بينما الملك رعمسيس الثاني يمسك بيده الأخرى بعلامة "الحقا"، ويرتدي التاج الآتف" الأزرق" الذي يرمز إلى الحرب[١١].

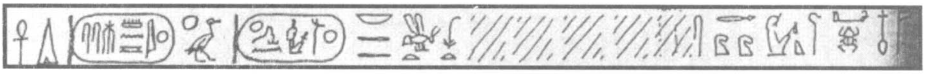
نجد الكورنيش المصري من الأعلى و الأسفل وكتابة على العتب تذكر مرتين عبارة hr- bhdty

"بينهما قرص الشمس المجنح(١٢)



وكان هذا الرمز قد وجد منذ بداية الأسرات " الأسرة الأولى"، حيث صور على المشط العاجي للملك "جت" فوق اللقب الحوري للملك، ثم شاع استخدامه في الحضارة المصرية والسورية على السواء كعنصر زخرفي ديني(١٣).

ومن ثم على الجانب الأيسر نقش سطر محتواه:



ntr nfr nht hpr hg³ ca phty...... nswt bity nb tawy

Wsr maat ra stp n ra) sa ra ra ms sw mry imn) di cnh)

- الإله الطيب، القوي الهيئة، الحاكم، عظيم القوة،....، ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين،" المنتقى من رع"،ابن الشمس،"رعمسيس، محبوب آمون"، معطي الحياة.

وعلى الجانب الأيمن نقش سطر آخر محتواه:



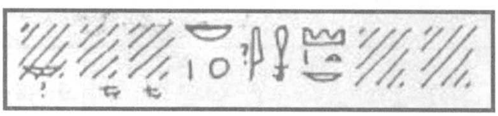
ntr nfr nht pdtyw nb hps...... ntr ca mi aht ms n imn

d[s.f] nsw bity nb tawy (wsr maat ra stp n ra) sa ra

(ra ms sw mry imn) di anh

-الإله الطيب، منتصر "القوي الجند"، رب السيف،......الإله العظيم كالأفق، الذي كونه أمون "نفسه"، ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين المسمى "المختار من رع "ابن الشمس" رع رعمسيس، محبوب آمون "معطي الحياة(١٤).

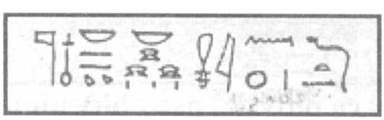
وخلف الإله نقش سطر هيروغليفي عمودي كما يلي:



wast nb mi ? nb...... nb ......

.......، كل القطر الأجنبي، مثل السيد"الإله"......، كل........

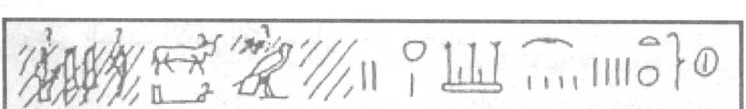
وخلف الملك أيضاً سطر آخر كما يلي:



ntr nfr nb tawy nb haw mi n ra dt

- الإله الطيب، سيد الأرضين، سيد التيجان مثل رع للأبد.

بالإضافة إلى سطر صغير من النص الأصلي:



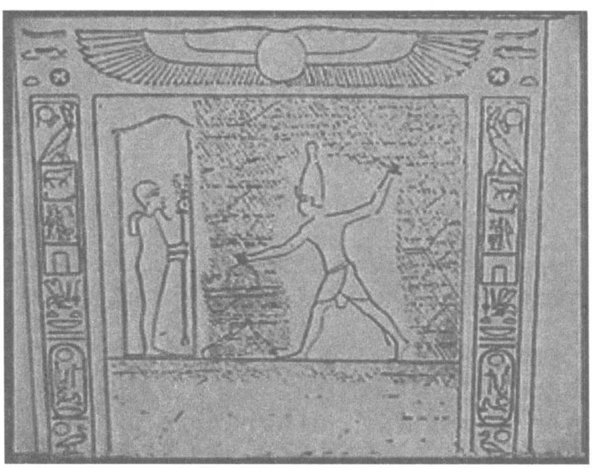
hat - sp 4 abd 4 aht sw 2........ hr ahty ka - nht

– العام الرابع، الشهر الرابع من فصل الفيضان، اليوم الثاني، حورس، الثور القوي، محبوب العدالة[١٥].

قد أكثرت هذه اللوحة من ذكر ألقاب الملك، وأنه "ابن رع" هذا اللقب الذي أظهر الملك على أنه ابن الإله رع، وخليفته على الأرض، وقد ظهر هذا اللقب في عهد الملك "جدف رع وخفرع"، وأيضاً ظهر على أختام الملك "منكاورع"، لكنه لم يأخذ وضعه النهائي قبل الخرطوش الملكي إلا في عهد الدولة الوسطى[١٦].

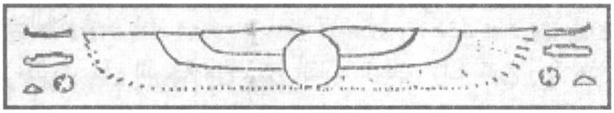
ومن ثم ألقاب سيد الأرضين "ملك مصر العليا والسفلى"، وغير ذلك من العبارات التي ترفع من شأنه وتجعله في مصاف الآلهة، وتتجلى أهمية هذه اللوحة أنها مؤرخة بالعام الرابع من الشهر الرابع من فصل الفيضان، وبالتالي العام الرابع من حكم هذا الملك كان قد وصل إلى البلاد السورية ووضع لوحات حدود لدولته.

٢- (شكل – ٢) لوحة الملك رعمسيس الثاني الثانية عند نهر الكلب في بيروت.



(شكل– ٢) لوحة الملك رعمسيس الثاني الثانية – نهر الكلب – متحف بيروت

إن هذه اللوحة لها مقاييس اللوحة السابقة نفسها لكنها مهشمة، يزينها من الأعلى الكورنيش المصري، ومن الجانبين نجد عبارة- hr "bhdty" "حورس بحدتي"



ونجد من أسفل هذا المنظر الملك رعمسيس الثاني يمسك بزمام أسير، ويهم بضربه بمقمعة القتال التي في يده اليسرى، ويقدمه للإله بتاح الواقف داخل مقصورته، ويرتدي الملك النقبة الملكية القصيرة والتاج الأبيض المصري(١٧).

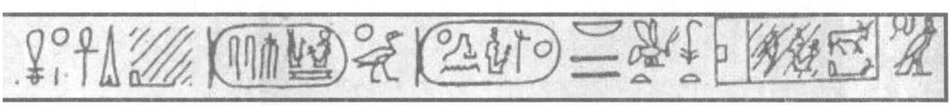
نقش على الجانب الأيمن السطر التالي:



hr ka - nht mry maat nswt bity nb tawy (wsr maat ra stp n ra) sa ra nb haw (ra ms sw mry imn)...... di anh mi ra

- حورس، الثور القوي، محبوب العدالة، ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين، "المختار من رع"، ابن الشمس، سيد التيجان، رعمسيس، محبوب آمون".... ليعطي الحياة مثل رع للأبد.

وعلى الجهة اليسرى ما يلي:

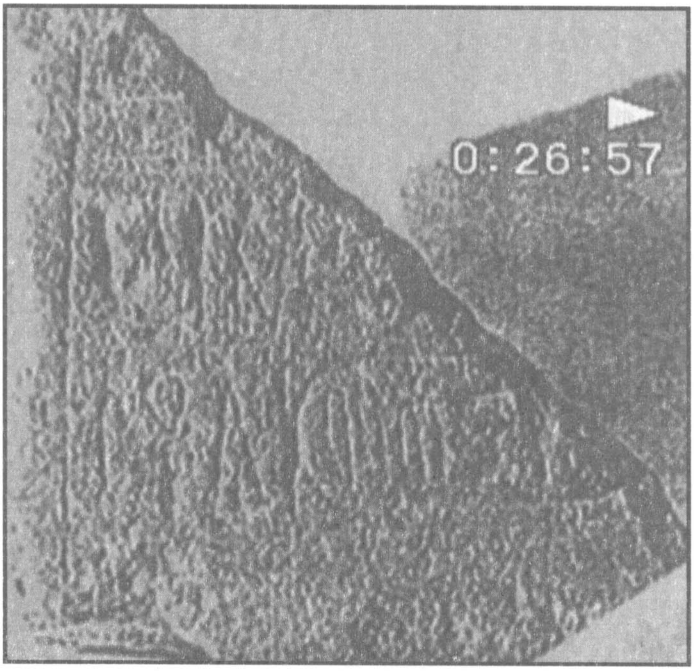


hr ka – nht mry maat nswt bity nb tawy (wsr maat ra stp n ra) sa ra (ra ms sw mry imn)...... di anh mi ra

- حورس، الثور القوي، محبوب العدالة، ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين، "المختار من رع"، ابن الشمس،سيد التيجان، رعمسيس، محبوب آمون".... ليعطى الحياة مثل رع للأبد(١٨).

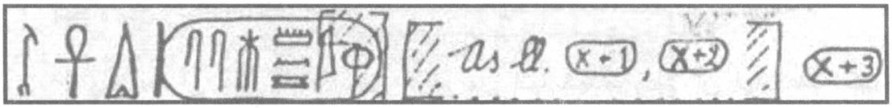
ونلاحظ أن هذه اللوحة على الرغم من أنها مهشمة، إلا أن لها أهمية كبيرة تتجلى في القيمة الكبيرة للحدود التي وصل إليها، وفي تعداد الألقاب التي كان الملك رعمسيس الثاني قد لقب بها.

٣- (شكل – ٣) لوحة الملك رعمسيس الثاني وجدت في مدينة صور.



(شكل – ٣) لوحة للملك رعمسيس الثاني– صور– متحف بيروت

عثر على هذه اللوحة في مدينة صور لكنها مهشمة، ولم يتبق منها سوى بقايا كتابة هيروغليفية، التي ذكرت اسم رعمسيس الثاني. والنقش كما يلي:



[..........] hd

[..........]nhtw hm.f

[..........](ra) ms sw mry imn] di anh was

-.....................، الإبحار شمالاً.

-.....................، انتصارات جلالته.

-.....................، رعمسيس، محبوب آمون، ليعطى الحياة والملك.

وأن هناك لقبا يسبق اسم رعمسيس الثاني وهو كما يلي[١٩]

١. (wsr- M³ct- rc- stp- n- rc) محقق العدالة مثل رع، المختار من رع.

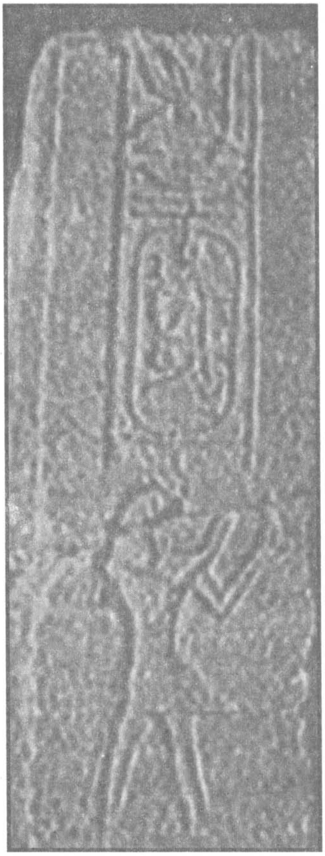
٤- (شكل- ٤) لوحة أخرى للملك رعمسيس الثاني من عدلون.



(شكل - ٤) لوحة أخرى للملك رعمسيس الثاني- عدلون- متحف بيروت

عثر عليها في مدينة عدلون في لبنان الواقعة على بعد حوالي ١٨كم شمال مدينة صور. وجد عليها منظر يمثل الملك رعمسيس الثاني يمسك بناصية عدو، ويقوم بقتله أمام الإله آمون رع، لكن اللوحة أصابها الكثير من التهشم ولم يبق منها إلا القليل من المشهد في الأعلى.

٦- (شكل- ٥) لوحة نقش الملك رعمسيس الثاني عثر عليها في جبيل.

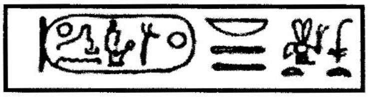


(شكل- ٥) لوحة نقش الملك رعمسيس الثاني- جبيل- متحف بيروت

وجدت تلك اللوحة في مدينة جبيل بارتفاع نحو ١,٨٦سم، وعرض نحو ٥٥سم.

نقش عليها من أعلى خرطوش الملك رعمسيس الثاني، ونجد من أسفل الخرطوش الملك واقفاً رافعاً يديه إلى الأعلى في حالة تعبد.

وقد نقش من أعلى وداخل الخرطوش ما يلي:



Nswt bity nb tawy (wsr maat ra stp n rc)

- ملك مصر العليا والسفلى، سيد الأرضين، المسمى "قوية العدالة رع، المختار من رع"[٢٠].

توفي الملك رعمسيس الثاني حوالي"١٢١٣ ق.م" بعد حكم دام ٦٧ عاماً، وكانت فترة الحكم هذه من أكثر الفترات قوة وازدهاراً، حيث شهدت العمارة والفنون في عهده تطوراً لم تشهده من قبل، من إقامة لآثاره في كل مكان على أرض مصر القديمة.، وقد عثر مؤخراً في وادي الملوك من قبل بعثة الجامعة الأمريكية بالقاهرة على مقبرة تعرف بـ "مقبرة وادي الملوك رقم ٥"، التي يبدو من تخطيطها ومن بعض الأدلة الأثرية واللغوية أنها تخص أحد أبناء الملك رعمسيس الثاني، وهو الأمير "خع – إم – واس". وما زالت مومياء الملك رعمسيس الثاني تزين قاعة المومياءات في المتحف المصري[٢١].

نستنتج من ذلك:

- يعتبر الملك رعمسيس الثاني من أهم ملوك الأسرة التاسعة عشرة على كافة الأصعدة الداخلية والخارجية لما حققه من انجازات عسكرياً وإدارياً.

- تعتبر الحروب التي خاضها في الشرق من أهم المعارك، وآخر المجهودات الحربية التي بدأها ملوك الدولة الحديثة.

- تعد معاهدة السلام التي وضع أسسها مع الملك الحثي خاتوشيلي الثالث، من أقدم معاهدات السلام في الشرق القديم، مدعماً بذلك الأسس الراسخة لسلام دائم، وإقامة اتفاق إقليمي في المنطقة، وتحالف دولي بين الطرفين.

- إن الملك رعمسيس الثاني وصل بحملاته العسكرية حتى الساحل السوري مؤكداً ذلك بوضع لوحات الحدود في تلك المناطق، وذلك للتأكيد على أهمية تلك البلاد استراتيجيا واقتصاديا وتجاريا لمصر القديمه، يدل على ذلك اللوحات التي كان الملك رعمسيس الثاني يحرص على إقامتها في المناطق التي وقعت تحت سيطرته.

- نحتت معظم تلك اللوحات على طريقة نقش اللوحات المصرية من خلال وجود الكورنيش المصري، ووجود الملك بكامل هيئته الملكية المصرية للإشارة إلى عظمة الملك المصري ووصوله إلى مرتبة الآلهة الكبرى.

- وجود الملك رعمسيس الثاني في معظم اللوحات، وهو يهم بقمع ناصية أسير جاث أمامه، ما هو إلا دليل على تأكيد السيطرة المصرية، وخضوع تلك الممالك للإمبراطورية المصرية الحديثة.

- معظم الكتابات التي نقشت تشير إلى مديح الملك القوي، محقق العدالة، القوي مثل الإله آمون- رع، العظيم... الخ. كل ذلك يشير إلى رمزية هذه اللوحات وما إقامتها سوى لوحات تذكارية لما وصل إليه من مناطق.

- أخيراً نجح الملك رعمسيس الثاني أن يعيد للإمبراطورية المصرية الحديثة أمجادها في عهد الأسرة الثامنة عشر، وأن يؤكد للبلاد المجاورة أن مصر ما زالت في أوج قوتها، وبالتالي نجح في تحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة. وذلك من خلال تخليد

العديد من اللوحات التي كانت خير شاهد على قوته ومدى نفوذه في الساحل السوري.

قائمة المراجع و الحواشي

١- كتشن، أ. كنت، فرعون المجد والانتصارات رمسيس الثاني ملك مصر، ت: أحمد أمين زهير، م: محمود ماهر طه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص ٤٠.

مختار السويفي، مصر القديمة، دراسات في التاريخ والآثار، الدار اللبنانية المصرية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٢٧٢.

2- John, Ray," Ramesses the Great", BB, Retneived, 2008, p. 5- 15 .

٣- سوزانا توماس، رمسيس الثاني، ت: اسحق بنيامين، دار الياس العصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٢- ٢٤.

٤- رمضان السيد، تاريخ مصر القديمة منذ بداية الأسرة الخامسة حتى دخول الاسكندر الأكبر مصر عام ٣٣٢، ج ٢، وزارة الثقافة، هيئة الآثار المصرية، ١٩٩٣م، ص ١٥٦.

٥- حول أعمال الملك الداخلية انظر: نيقولا جريمال، تاريخ مصر القديمة، ت: ماهر حويجاتي، مر: زكية طبو زادة، ط ٢، دار الفكر، ١٩٩٣م، ص ٣٣٨- ٣٤٩.
ابراهيم نمير، مصر في العصور القديمة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م، ص ١١٣- ١١٤.

6- James, T., Ramesses 11, Newyourk, 2000, p.10-15.
Tyldesley, Toyce, Ramesses; Egypt greatest Pharaoh, London, 2000, p.161- 163.

Ricke, Wente, Beit Wali, University Chicago, 2008, p. 165-166.

Anneke, Barta, Temples of Ramesses 11, Retrieved, 2008, p.4-23.

٧- حول المسلات والتماثيل التي أقامها رعمسيس الثاني انظر:

Tyldesley, Toyce, Opcit, p.68.

Clayton, peter, Chronology of the Pharaons, Thames, Hudsun, 1994, p.164 .

Bietak Manfred, "Avaris: Capital of the Hyksos, London,1995.

٨- جريمال، مرجع سابق، ص ٣٢٥.

٩- المرجع السابق،ص ٣٢٨.، كتشن، أ.، كنت، مرجع سابق، ص ٨٥- ٨٨.

للمزيد من التفاصيل حول معارك رمسيس الثاني في بلاد الشام انظر: أحمد أمين سليم، دراسات في تاريخ الشرق القديم (مصر، العراق، ايران)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩ م، ص ١٦٥- ١٦٦.، كتشن، أ.، كنت، مرجع سابق، ص ٨٧- ٨٨.

عبد الحميد زايد، الشرق الخالد، مقدمة في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى من أقدم العصور حتى عام ٣٢٣ ق.م، دار النهضة العربية، ص٥٠١- ٥٠٢.

Kuhrt, Amelie, the Ancient Near East (3000- 330) BC, vol 1, London, 1995.

Kitchen Kenneth, Pharaoh Triumphant: the Life and Times of Ramesses II, King of Egypt, London 1983.

Stieglitz, Robert, R., the City of Amurru, JNES,50, 1991.

James, t, G, h., Ramesses II, New York, 2000.

١٠- عبد الحليم نور الدين، تاريخ الحضارة المصرية، الخليج العربي للطباعة، ص ١٩٥.

١١- سليمان حامد سليمان الحويلي، مصر وبلاد الساحل الفينيقي خلال عصر الدولة الحديثة، دراسة أثرية – حضارية، ماجستير، القاهرة، ٢٠٠٠ م، ص ١٤٩.

12- Kitchen, K., A, Ramessid Inscriptions Historical and Biographical, v11,Oxford, 1979, p.1.

الحويلي، مرجع سابق، ص ١٥١.

13- Ibid, p. 1.

14- Ibid.

١٥- ضياء محمود أبو غازي، رع في الدولة القديمة، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ٨- ٩.

16- Chéhab, M.," Nomes de Personnalités Egyptiennes Découverts Liban, " dans: BMB,XXII,1969, p. 33.

Chéhab, M., Relations entre L' Égypte et la Phénice des Origines a Oun Amon, dans:Ward(ed)the Role of the Phoenicians in the Intraction of Medeterranean Civilizations, Beyrouthe,1968, pl.VIIa-,P-M,VII,p. 385 .

17- Kitchen, K, A.,II,Opcit, p. 1-2.

18- K, A, Chéhab, M., BMB, XXII, 1969, p. 33- 37, pl. VIII, 4. ; Kitchen, 11, Op.cit, p. 228.

19- Chechab, M., BMB, OP.cit, p.37.

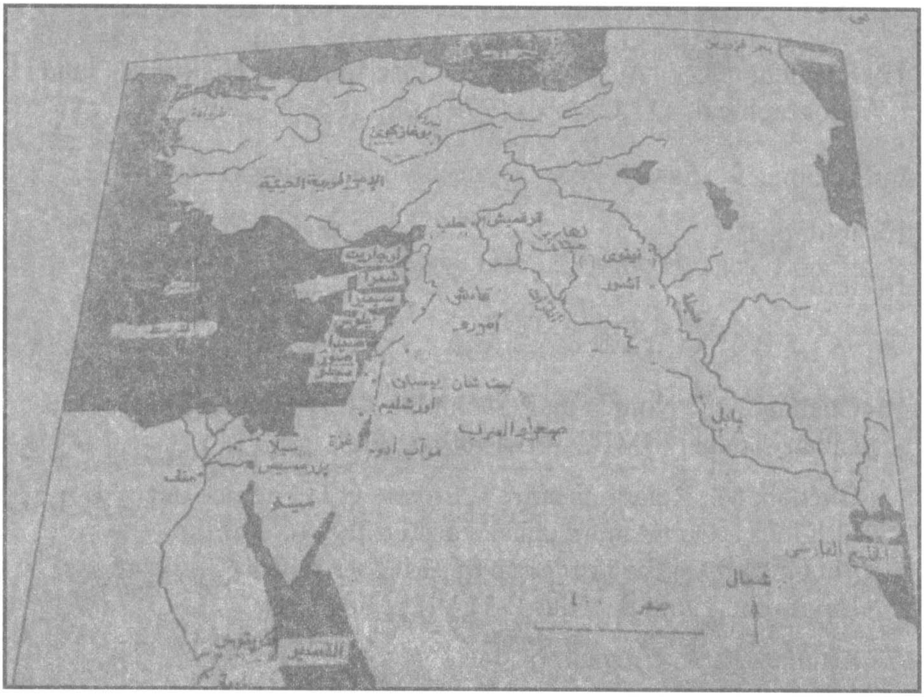
Dunand, M.," Fouilles de Byblos," Tome, 1, (1926- 1932), texte, Paris, 1939, p. 663.

20- Kitchen, K, A., Ramesside Inscriptions Historical and Biographical, VI, Oxford, 1979, p. 400.

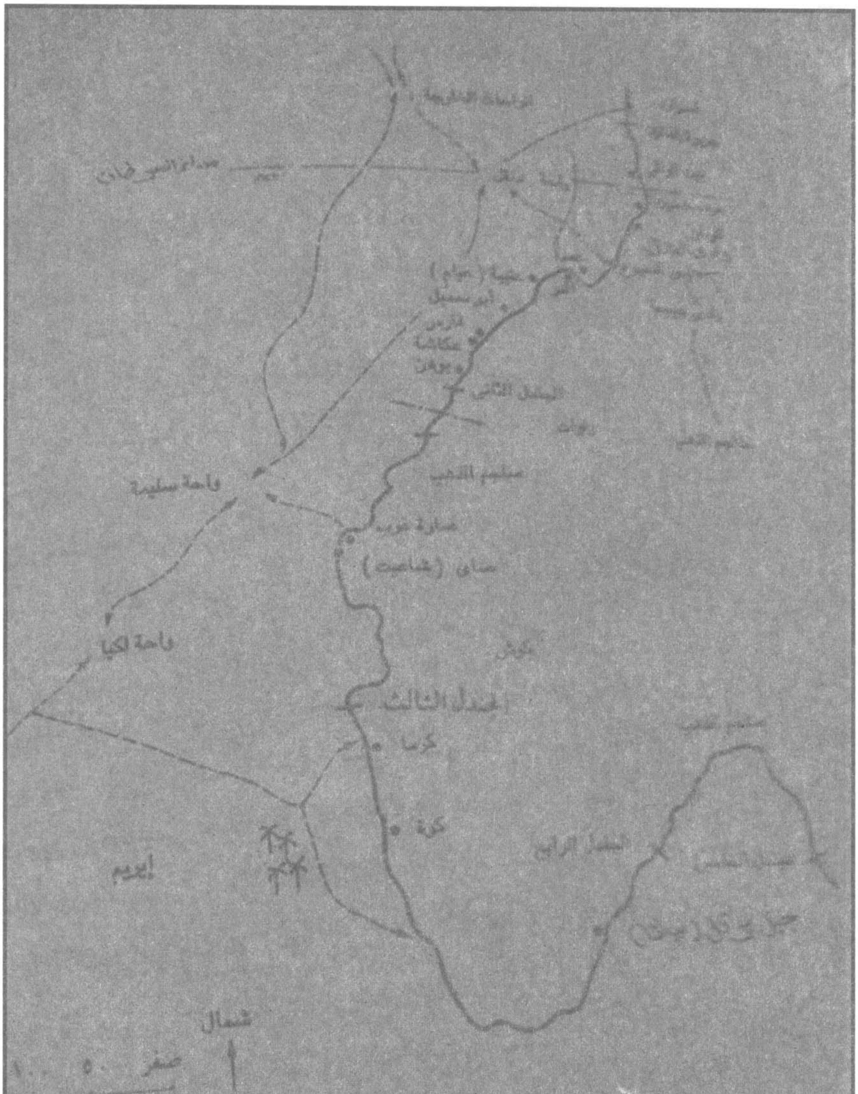
Kitchen, K, A., VII, Op.cit, p.228.

٢١- الحويلي، مرجع سابق، ص ١٤٩.

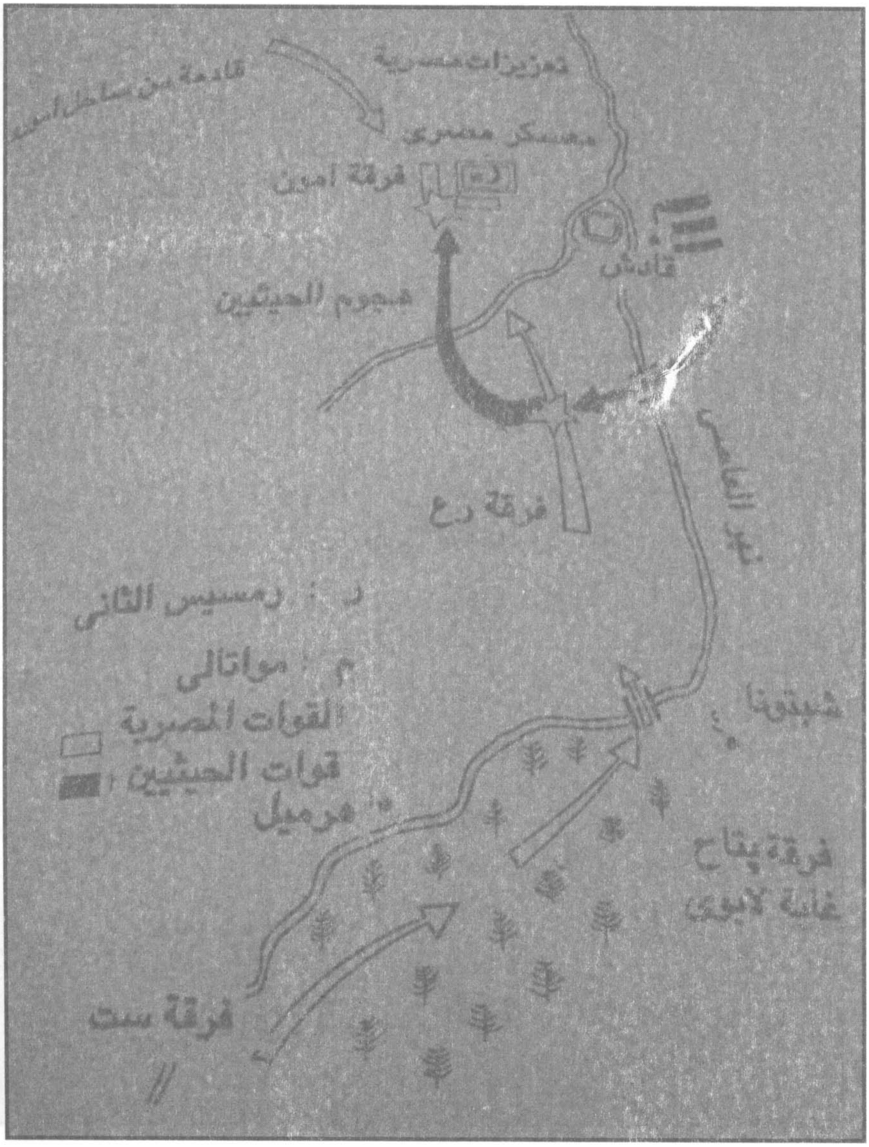
ملحق الخرائط



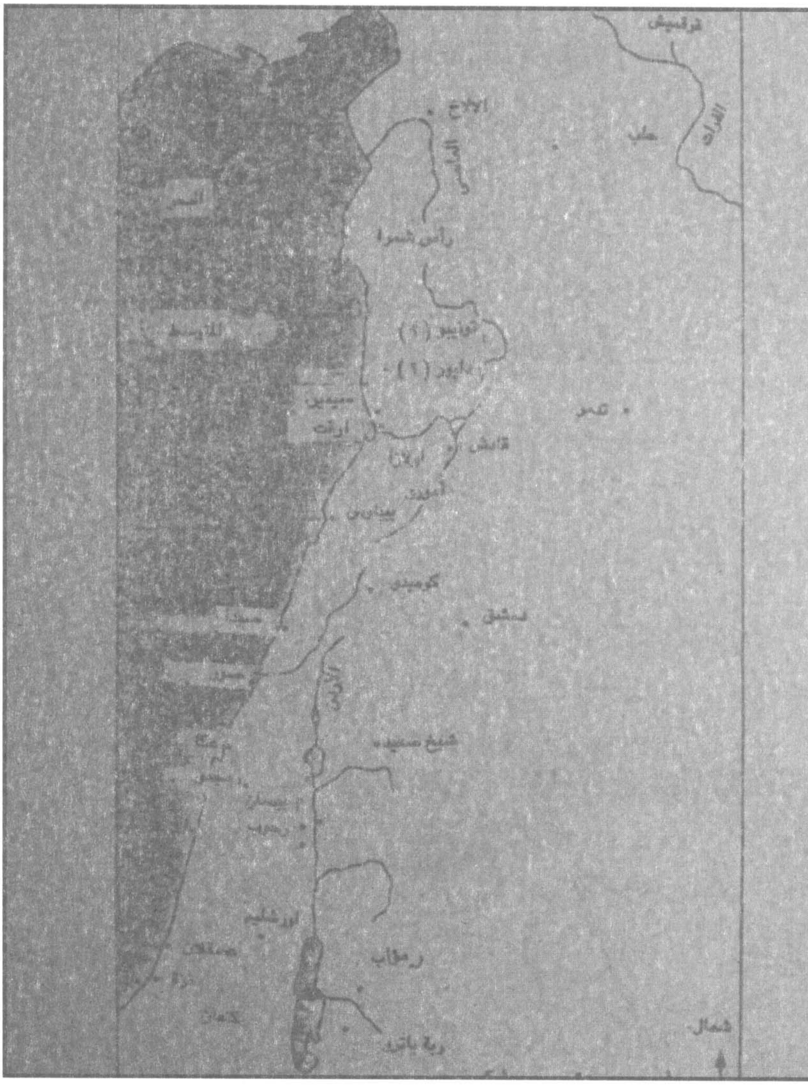
شكل (١): يمثل مناطق الشرق الأدنى في عهد الملك رعمسيس الثاني.



شكل (٢): يوضح أهم المواقع التي سيطر عليها الملك رعمسيس الثاني في النوبة.



شكل (٣): يوضح تحركات القوات المصرية في معركة قادش.



شكل (٤): يشير إلى مواقع حروب الملك رعمسيس الثاني في سوريا.

الآشوريون في الأناضول*

أ. د. عيد مرعـــي

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

قبل البدء بالحديث عن وجود الآشوريين في الأناضول لابد من الإشارة إلى أن العلاقات بين بلاد الرافدين والأناضول هي أقدم بكثير من زمن تأسيس المستوطنات التجارية الآشورية في أواخر الألف الثالث وبدايات الألف الثاني قبل الميلاد.

ولكن بما أن بلاد الأناضول لم تعرف الكتابة قبل قدوم التجار الآشوريين إليها، فإننا نعتمد في الحديث عن الزمن السابق لتأسيس المستوطنات على وثائق مكتوبة من بلاد الرافدين، وبالتحديد من أكّاد. فبحسب إحدى كتابات شاروكين الأكادي مؤسس أول إمبراطورية عالمية في التاريخ وصل هذا إلى جبال الأمانوس وطوروس للحصول على الأخشاب والمعادن (أخشاب الأرز والفضة). وتشير الأسطورة المعروفة باسم "ملك المعركة" شار تمخاري Shar tamchari" أنه قام بحملة قادته إلى داخل بلاد الأناضول بناءً على رجاء تجارٍ من مدينة بوروشخاندا الأناضولية. وإن العثور في منطقة بير حسين بالقرب من ديار بكر على بقايا مسلة نصرٍ لنارام سين، حفيد شاروكين، يمكن أن نُربط بمحاولات هذا الملك للسيطرة على هذه المنطقة(١).

اكتشاف الألواح المسمارية في كول تبي:

ظهرت في العام ١٨٨٠ ألواحٌ مسمارية في سوق قيصرية في وسط الأناضول، واكتفى التجار بالقول إن مصدرها كبادوكيا، وبالتحديد تل كول تبي Kültepe، أو التل المجاور له كراهويوك Karahüyük. وسُميت "الألواح الكبادوكية".

قام الفرنسي شانتر E.Chantre بالحفريات في هذين التلين في العامين ١٨٩٣ و١٨٩٤، لكنه لم يعثر على أية ألواحٍ مسمارية. أيضاً لم تثمر الزيارة القصيرة

للألمانيين هوغو ڤينكلير H. Winckler وغروته H.Grothe وقيامهما ببعض الأسبار في العام ١٩٠٦ عن أية نتيجة. ولم يعط السكان المحليون معلومات دقيقة عن مصدر الألواح التي صارت تظهر بأعداد متزايدة في الأسواق التجارية. وكان هذا شيء طبيعي، فالألواح كانت تجلب للصوص الآثار أرباحاً كبيرة. اعتقد الألماني لاندسبيرغر B.Landsberger في العام ١٩٢٤ أن بقايا مدينة كانيش القديمة موجودة في تل كول تبي (تل الرماد).

في العام ١٩٢٥ بدأ عالم الآشوريات التشيكي بيدريش هروزني B.Hrozny بالحفريات في موقع كول تبي، وكشف عن مبنى كبير نسبياً، لكن لم تتحقق أمنيته بالعثور على ألواحٍ مسمارية. بعد ذلك أرشده تركيان إلى مكان العثور على الألواح، وهو حقل مجاور لكول تبي، حيث عثر على حفرٍ كثيرة قام بها لصوص الآثار.

قام هروزني بتقديم طلب إلى الحكومة التركية آنذاك للحصول على موافقة بتوسيع حفرياته لتشمل الحقل المذكور. وبعد حصوله على الموافقة بدأ بالحفريات في ٢٠ أيلول من العام ١٩٢٥. عثر في اليوم الأول على بعض الألواح المسمارية، ووجد في اليوم السابع عشر نحو ألف لوح وكسرة في حجرة مرصوفة بعداها ٢,٦٠ × ٢,٣٠م.

غير أن هروزني لم يستطع متابعة الحفريات في السنوات اللاحقة. وبقي الموقع مهملاً حتى العام ١٩٤٨ عندما استأنف الحفريات فريق تركي من جامعة أنقرة بقيادة تحسين أوزجوك T.Özgüc وزوجته نعمت الذي نقّب في الموقع لأكثر من خمسين عاماً لصالح الجمعية التاريخية التركية والإدارة العامة للآثار (٢).

وصف الموقع:

يقع تل كول تبي في وسط هضبة الأناضول شمال شرقي سهل قيصرية الخصب الحالي بعشرين كيلومتراً، في منطقة كانت تتقاطع فيها الطرق التجارية المهمة، وبخاصة تلك المتجهة نحو الجنوب الشرقي، أي باتجاه جبال طوروس.

وكان يتألف من مدينة مدورة عليا على تلٍ طبيعي، ومن مدينة سفلى تشكل حالياً تلاً دائرياً كبيراً قطره نحو خمسمائة متر، ويرتفع عن السهل المجاور له نحو عشرين متراً. كانت المدينة العليا بقصورها ومعابدها مكان إقامة السكان المحليين، بينما عاش التجار الآشوريون في المدينة السفلى التي دُعيت كاروم Karum، أي مستوطنة تجارية.

أدت الحفريات إلى الكشف عن عدة طبقات أثرية في المدينة السفلى، رُقّمت من I إلى IV (من الأعلى إلى الأسفل)، هي:

الطبقتان IV -III:

تمثلان أولى طبقات الاستيطان وأقدمها. لم يُعثر فيهما على أية كتابات. اعتقد المنقبون أن السكان كانوا أميين. ويبدو أن هاتين الطبقتين تعودان إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

الطبقة II:

تؤرخ مابين ١٩٧٤- ١٨٣٦ ق.م (حسب التأريخ المتوسط). تم العثور في هذه الطبقة على العديد من الأدوات المصنعة التي كانت تُستخدم لأغراض دينية ودنيوية

تم خلال هذه المرحلة استيطان تجار آشوريين في مستوطنة تجارية (كاروم) ارتبطت بالمدينة التي كانت تسمى آنذاك كانيش. اكتشفت في هذه الطبقة أختام أسطوانية تعود إلى عهد نارام سين الأكادي.

تعرضت هذه الطبقة للاحتراق في أواخر أيامها، ولم تُعرف الأسباب التي أدت إلى ذلك.

الطبقة I B:

تؤرخ مابين ١٧٩٨- ١٧٤٠ ق. م. وقد أعيد خلال هذه الحقبة استيطان الموقع فوق خرائب الطبقة الأقدم، وأصبحت المدينة مركزاً تجارياً مزدهراً. لكن هذه الطبقة دمرتها النيران مرة أخرى، دون معرفة الأسباب.

الطبقة I A:

أعيد استيطان المدينة العليا، دون المدينة السفلى، أي دون المستوطنة الآشورية. وأصبحت المدينة حثية واسمها كانيشا Kanesha الذي اختُصر إلى نيشا Nesha[٣].

تاريخ الموقـــع:

بدأ الاستيطان في موقع كاروم كانيش في العصر البرونزي القديم على ما يظهر، وانتهى، مع إنقطاعات، في العصر الروماني. غير أن الموقع شهد ازدهاراً كبيراً في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد (مابين القرنين ٢٠- ١٨ ق٠م) وذلك بعد قدوم تجارٍ آشوريين إلى المنطقة وإقامتهم فيها بغرض التجارة. وتُعرف هذه الحقبة بعصر الكاروم Karum Age، وتمثلها الطبقتان الثانية والأولى B 0

تألفت المدينة العليا خلال هذا العصر من قلعة في الوسط ومن قصرين شغلا مساحة أكثر من ثلاثة عشر ألف متر مربع، وكانا محاطين بسورٍ قوي له أبراج.

أما المدينة السفلى فقد تم الكشف فيها عن حي سكني كامل هندسة بناء بيوته معروفة، وتم العثور تحت البيوت على قبور كثيرة لأطفال ويافعين مبنية من الطوب أو الأحجار. وعُثر بين الهدايا النذرية على العديد من الأواني الفخارية والمعدنية والأسلحة والجواهر، وعلى الكثير من طبعات الأختام الاسطوانية التي تُظهر تأثيرات بابلية وآشورية وسورية وغيرها.

الألواح المسمارية:

يبلغ عدد الألواح المسمارية المكتشفة في كول تبي أكثر من خمسة وعشرين ألف لوح كُتبت بالخط المسماري وباللهجة الآشورية القديمة التي كانت مستخدمة في آشور في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد (العصر الآشوري القديم). وهناك قسم كبير منها مشوي، وبعضها موجود ضمن مغلفات طينية مختومة بأختامٍ أسطوانية. وتم العثور على معظم الألواح في الطبقة الثانية، وهذا يتيح لنا معرفة العديد من الأمور بشكلٍ واضح،

منها مثلاً أن المستوطنة كانت تُسمى في هذا الوقت كاروم كانيش. أما كلمة " كاروم karum فهي تسمية سومرية تعني: رصيف ميناء، جدار، هيئة تجارية، مستوطنة تجارية(٤). وتشير كلمة " كانيش " إلى المدينة التي بُنيت المستوطنة التجارية الآشورية إلى جانبها.

تُذكر في النصوص القليلة التي نُشرت حتى الآن (معظم النصوص لم يُنشر) أسماء أكثر من سبعين موظفاً آشورياً كبيراً، سُميت السنوات بأسمائهم (ليموEponym).

بناءً على ذلك يمكن القول أن ثلاثة أجيال من التجار الآشوريين خلّفت هذه النصوص.

عدا عن ذلك تُذكر في النصوص، التي معظمها اقتصادي، أسماء بعض الملوك الآشوريين القدماء مثل: إريشوم الأول Irishum I. وشاروكين الأول Sharrukin وبوزور آشور الثاني Puzur-Ashur II. وهي تسمح بالتالي بتأريخ الطبقة الثانية، حسب التأريخ المتوسط، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي نحو ١٩٢٠- ١٨٤٠ ق.م.

كما تعطي ألواح كانيش المسمارية، التي تعدّ أقدم الوثائق المكتوبة المكتشفة في الأناضول، معلومات عن الأوضاع التي كانت سائدة في الأناضول في بداية الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل وصول الحثيين إلى هذه المنطقة . يتبين منها أن هضبة الأناضول كانت مابين ٢٠٠٠- ١٧٥٠ ق.م مقسمة إلى ممالك- مدن مستقلة يحكمها أمراء، وتميزت علاقاتها مع بعضها بتبدل التحالفات ونشوب المنازعات.

دُمّرت الطبقة الثانية كما ذكرنا بالنيران، وقام السكان اللاحقون بالبناء فوق بقايا البيوت المهدمة بعد ثلاثة عقود.

تتميز الطبقة اللاحقة، أي الطبقة I b، عن الطبقة السابقة بطريقة بنائها وفخارها.

هنا أيضاً تم اكتشاف ألواح مسمارية، ولكن بأعداد قليلة. وتؤرخ هذه الطبقة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد في عصر شمشي أدد الأول ملك آشور المشهور. ويبدو أن هذه الطبقة دُمّرت بالنيران في بداية هذا القرن، وتبعتها فترة جديدة خالية من الكتابة.

بما أن معظم النصوص المكتشفة تؤلف محفوظات (أرشيفات) عدد من التجار الآشوريين (١٥- ٢٠ تاجراً) لذلك فمن الطبيعي أن تتحدث عن قضايا اقتصادية في معظمها، بالإضافة إلى بعض القضايا الحقوقية والعائلية. ومن أهم الأرشيفات:

١- أرشيف آشور- ندا Aššur-Nada الذي توفي في كاروم كانيش وتولى ابنه إدّين- عشتار Iddin-Ishtar عمله التجاري.

٢- أرشيف إنبي- عشتار Inbi-Ishtar.

٣- أرشيف بوسو- كين Pusu-Ken.

٤- أرشيف بوزور- آشور Puzur-Aššur.

٥- أرشيف إنليل- باني Enlil-Bani، الذي ورث عمله في كاروم كانيش عن والده وجده.

يتألف أرشيف آشور- ندا من عدة مئات من الألواح المسمارية التي كانت محفوظة في بيت جرى استخدامه مكان عمل مع حجرة منفصلة لحفظ الأشياء المكتوبة(٥).

كيفية إجراء العمليات التجارية:

تتحدث ألواح كاروم كانيش عن نشاط التجار الآشوريين بشكل رئيس، بالإضافة إلى نشاط التجار الأناضوليين. سكن التجار الآشوريون في القسمين الشمالي والأوسط من الكاروم، بينما سكن التجار المحليون في القسم الجنوبي. وكان يوجد إلى جانب هؤلاء تجار من سورية، من إبلا ومن تدمر، يسافرون إلى كانيش. لكن النشاط التجاري الرئيس كان بأيدي التجار الآشوريين الذين يجلبون البضائع من آشور إلى الأناضول،

وبأيدي التجار المحليين الذين عملوا على توزيع البضائع المستوردة على بقية أنحاء الأناضول، أي أنهم كانوا شركاء تجاريين للآشوريين.

بالكاد تُظهر آثار الطبقة الثانية اختلافاً بين محلات التجار الآشوريين ومحلات التجار المحليين. مثلاً كان بيت التاجر الأناضولي بوشو– أخيشو Pushu-achishu يتألف من طابقين، وفيه عشر غرف ومستودعات في الطابق الأرضي.

أيضاً لم تختلف تجهيزات ومفروشات البيوت بين الغرباء والمحليين. وقد تم العثور على فخار وأختام اسطوانية وتماثيل طينية وأدوات من الحجر والمعدن.

وتزوج الآشوريون من نساءٍ محليات، إلا أن بعضهم حرص على أن يُدفن في مقابر العائلة في آشور، فالقوافل كانت تحمل أحياناً جثث متوفين من كانيش إلى آشور [٦].

لم يكن الكاروم محاطاً بسور، وكان تحت حماية الأمير المحلي الذي كان يقيم في قصر في مدينة كانيش.

كان للكاروم سلطته الإدارية الخاصة به، التي كانت تنظم حياة السكان، وتمارس القضاء بينهم، وتُحصّل الضرائب منهم، والتي كان جزء منها يذهب إلى الحاكم المحلي.

لم تكن كاروم كانيش مستوطنة آشورية معزولة في وسط الأناضول بل واحدة من مجموعة مستوطنات تجارية (الصغيرة منها تُسمى وابَرتوم 7)(wabartum) تشكل العاصمة الإدارية لهذه المجموعة التي امتدت من وسط وجنوبي الأناضول إلى شمالي سورية.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الوجود الآشوري في الأناضول لم يكن قائماً على سيطرة عسكرية أو سياسية، بل على اتفاقات ومعاهدات أُبرمت مع الحكام المحليين لخدمة المصالح الاقتصادية المشتركة . وقد مكّنت هذه الاتفاقات والمعاهدات الآشوريين من ممارسة نشاط تجاري واسع مستفيدين من مهاراتهم التجارية.

دُعيت هذه الاتفاقات "ماميتوم" mamitum، وهي تسمية أكّادية تعني: " قَسَم، قَسَم تحالف، قَسَم تبعية"[٨]. • وقد توجب على التجار الآشوريين بموجبها دفع ضرائب عن مواد التجارة للحكام المحليين، مقابل الحصول على حق الإقامة في الكاروم مع الحماية من الاعتداءات والسرقة، وكذلك ضمان الأمن على الطرقات، والتعويض عن الخسائر الناجمة عن أعمال النهب والسرقة في المناطق التي يسيطر عليها الحكام المحليون.

كان ممنوعاً على الآشوريين شراء العقارات خارج الكاروم، واقتناء العبيد من السكان المحليين. وقد عُثر على اتفاقيتين في أحد البيوت في كاروم كانيش من نحو ٢٠٠٠ ق. م، احداهما عُقدت مع حاكم كانيش، والثانية مع حاكم مدينة خاخوم الواقعة في منطقة الفرات الأعلى في سورية.

كان الكاروم يتألف من عدة أجزاء منها : " باب كاريم bab karim " الذي كان يشكل المدخل إلى الكاروم، كما يدل على ذلك اسمه. و"بيت كاريم" "bit karim" الذي أدى دوراً أساسياً في التجارة، حيث كانت تُدفع الضرائب والمكوس فيه، وحيث يمكن للتجار أن يودعوا بضائعهم، وحيث تُعقد الصفقات التجارية • فقد كان بالنسبة للكاروم القلب المحرك لكل النشاطات التجارية وتوابعها.

وكان يوجد في الكاروم معبد للإله آشور، مما يعني أن التجار الآشوريين كانوا تابعين لآشور من الناحية الدينية، وحملوا معهم معتقداتهم وتقاليدهم الدينية إلى بلاد الأناضول.

مواد التجارة:

شكلت الأنسجة والقصدير المادتين الرئيستين اللتين كانت القوافل التجارية تنقلهما من آشور إلى الأناضول.

لم يكن مصدر القصدير آشور نفسها، بل كان يُجلب إليها من مكانٍ آخر، لا تذكره النصوص. إن تقييم المصادر المكتوبة لم يؤد حتى الآن إلى تحديد مصدر القصدير في الشرق القديم. ويبدو أن المنطقة التي يمكن أن تكون بلاد الرافدين قد استوردت منها القصدير تشمل شمال غربي إيران وجنوب شرقي أوزبيكستان وطاجيكستان الحالية. بالطبع كانت الحاجة إليه كبيرة، ليس فقط في الأناضول، بل في معظم مناطق الشرق القديم، وذلك لإنتاج البرونز.

أما الأنسجة فكانت تأتي من بلاد بابل عبر آشور إلى الأناضول، وتذكر النصوص أسماءها ونوعياتها المختلفة. ويبدو أن صناعة النسيج في الأناضول لم تكن متطورة على الرغم من وجود أعداد كبيرة من الأغنام فيها.

كانت الأنسجة تُنقل في أكياسٍ جلدية تُستخدم كحاويات تُختم لمنع الغش والاحتيال، ويُزال الخاتم بوجود شهود حيث تفحص البضاعة وتُوزن.

كان التجار الآشوريون يحصلون من الأناضول، مقابل القصدير والأنسجة، على الفضة بالدرجة الأولى، التي كانت مناجمها موجودة بكثرة في بعض مناطق جبال طوروس، والتي كانت تُرسل أحياناً بكميات كبيرة تتراوح بين ٦- ٧٠ مينة (أي نحو ٣-٥٥ كغ)، وعلى النحاس والذهب بالدرجة الثانية.

القوافـل وطرق التجارة:

تبعد آشور عن كاروم كانيش نحو ألف كيلومتر خط نظر ٠ لكن المنطقة الفاصلة بينهما صعبة العبور، فهناك الجبال والوديان والسهول التي تبعد مناهل المياه فيها عن بعضها مسافات كبيرة نسبياً. وكذلك المضايق الجبلية المرتفعة التي تغلقها الثلوج في فصل الشتاء ٠ ففي إحدى الرسائل نقرأ:

" الصقيع آذانا، وتعاني القافلة من الجوع "[٩].

كان مناخ الأناضول البارد والقاسي ثقيلاً على المسافرين القادمين من بلاد آشور المعتدلة نسبياً. يُضاف إلى ذلك اضطراب حبل الأمن وإمكانية حدوث اعتداءات على المسافرين والقوافل. وبما أن الجمل لم يكن مستخدماً خلال هذا العصر، فإن وسيلة النقل الأساسية كان الحمار البطيء نسبياً بالمقارنة مع حيوانات النقل الأخرى، مما نتج عن ذلك طول مدة السفر.

كانت الرحلة من كاروم كانيش إلى آشور تستغرق نحو ثلاثة أشهر، تعبر القوافل خلالها نحو ثلاثين محطة على طول الطريق ٠ لكن التجارة كانت تتوقف نحو ٣- ٤ أشهر في السنة، أي خلال فصل الشتاء حيث يكون المناخ بارداً جداً وقاسياً.

كانت القافلة تتألف من قائد وحرّاس ومن عدد من الحمير، يمكن أن تصل، بحسب النصوص المنشورة، إلى سبعة عشر حماراً ٠ وبما أن الحمار يستطيع أن يحمل حتى تسعين كيلوغراماً، فإن مثل هذه القافلة يمكن أن تنقل ما مجموعه ٦٥٠ كغ من القصدير، ونحو ٣٠٠ قطعة نسيج(١٠).

بالنسبة للطريق، أو الطرق التي كانت تسلكها القوافل التجارية المتجهة من آشور إلى كاروم كانيش، وإلى غيرها من المستوطنات التجارية الآشورية في الأناضول فمن الصعب معرفة خطوط سيرها بدقة، لأن النصوص المكتشفة والمنشورة حتى الآن لا تتحدث عن ذلك. وأسماء المحطات التي تذكرها النصوص لا يمكن حتى الآن تحديدها بشكلٍ مؤكد. ويبدو أن الأمر كان يتعلق بمستوطنات صغيرة مؤلفة من عدد قليل من البيوت، ومن الصعب التنبؤ بالكشف عنها أثرياً في المستقبل. إلا أنه يمكن القول أن حرّان، التي يرد ذكرها مرات متعددة في نصوص كاروم كانيش، كانت أهم محطة على طريق التجارة الممتدة من آشور إلى وسط الأناضول(١١).

يبدو أن القوافل كانت تغادر آشور متجهة غرباً، لتصل، بحسب وثائق بابلية قديمة، إلى مناطق أعالي بلاد الرافدين الخصبة، وتسير من هناك في وادي الخابور

لتصل إلى البليخ الأعلى. وهناك يتم عبور الفرات بين بيرجيك وسميساط. وربما تفرع من هناك طريقان رئيسان، الأول كان يتابع شمالاً عبر ملاطية، والثاني يذهب جنوباً عبر مرعش، وهو الأقرب إلى التجار القادمين من أورشو وإبلا وغيرها من المدن السورية الذاهبين إلى كاروم كانيش.

ومن المستوطنات التجارية الأخرى التي أسسها الآشوريون في الأناضول، ويرد ذكرها في نصوص الطبقة I B: بوروشخاتوم Burushchattum وخاخوم Chachum وخاتوش Chaattush (ربما خاتوشا التي ستصبح عاصمة الإمبراطورية الحثية فيما بعد) وخَرّاما Charrama ونيخيريا Nichria، ولكن تبقى المشكلة في إمكانية تحديد مواقع هذه المستوطنات[١٢].

توقفت التجارة الآشورية مع الأناضول في أواخر القرن الثامن عشر قبل الميلاد. ولا تشير النصوص إلى أسباب ذلك. وربما ارتبط الأمر مع بدايات تشكل الدولة الحثية في الأناضول. التي استفادت كثيراً من الوجود الآشوري هناك. وتعدّ الكلمات والأسماء الحثية الواردة في نصوص كاروم كانيش أقدم دليل على وجود لغة هندوأوروبية هي اللغة الحثية.

الهوامش

* صدرت دراسات متعددة عن الآشوريين في بلاد الأناضول أقدمها:

Garelli, P., Les Assyriens en Cappadoce, Paris 1963 ; Orlin,L.L., Assyrian Colonies in Cappadocia, Paris 1970 .

ألقي هذا البحث في الندوة التي أقامتها جامعة الفرات التركية في مدينة العزيز Elazig مابين ٢٩- ٣١ / ٥ / ٢٠٠٩.

1- Klengel, H., Handel und Händler im alten Orient, Wien.Köln. Graz, 1979, S. 104 ff.

2- Özgüc, T., Kultepe, Ankara 1959.

3- Kienast, B., in: Reallexikon der Assyriologie IV , Berlin-New 3 . York 1972-1975, S. 468.

4- Von Soden, Akkadisches Handwörterbuch, S.451 b.

5- Ulshofer, Andrea Maria, Altassyrische Texte und Untersuchungen, Stuttgart 1996.

6- Klengel, Op.Cit., S. 110.

7- Von Soden, Op.Cit., S. 599 b.

8- .wabartum:

تعني هذه الكلمة: مستوطنة تجارية آشورية صغيرة. انظر:

Von Soden, Op. Cit., S. 1454 b

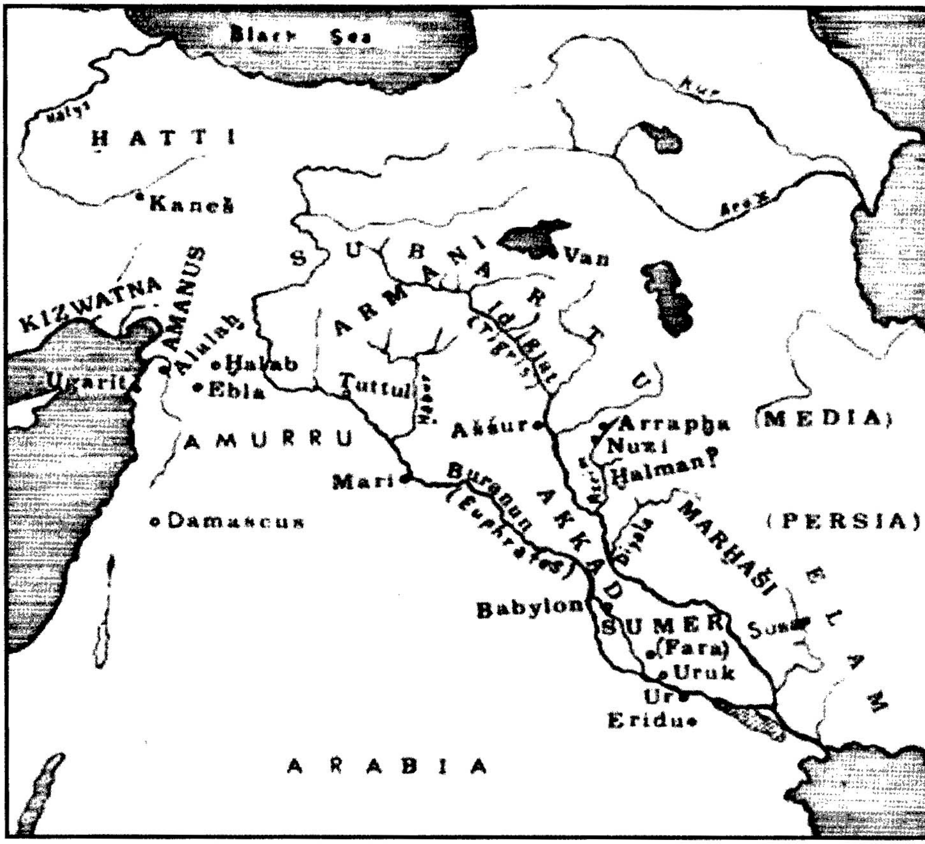
9- Kienast, Op.Cit., S. 469.

10- Veenhof, Aspects of old Assyrian trade and Its terminology, Leiden 1972, P.,85ff.

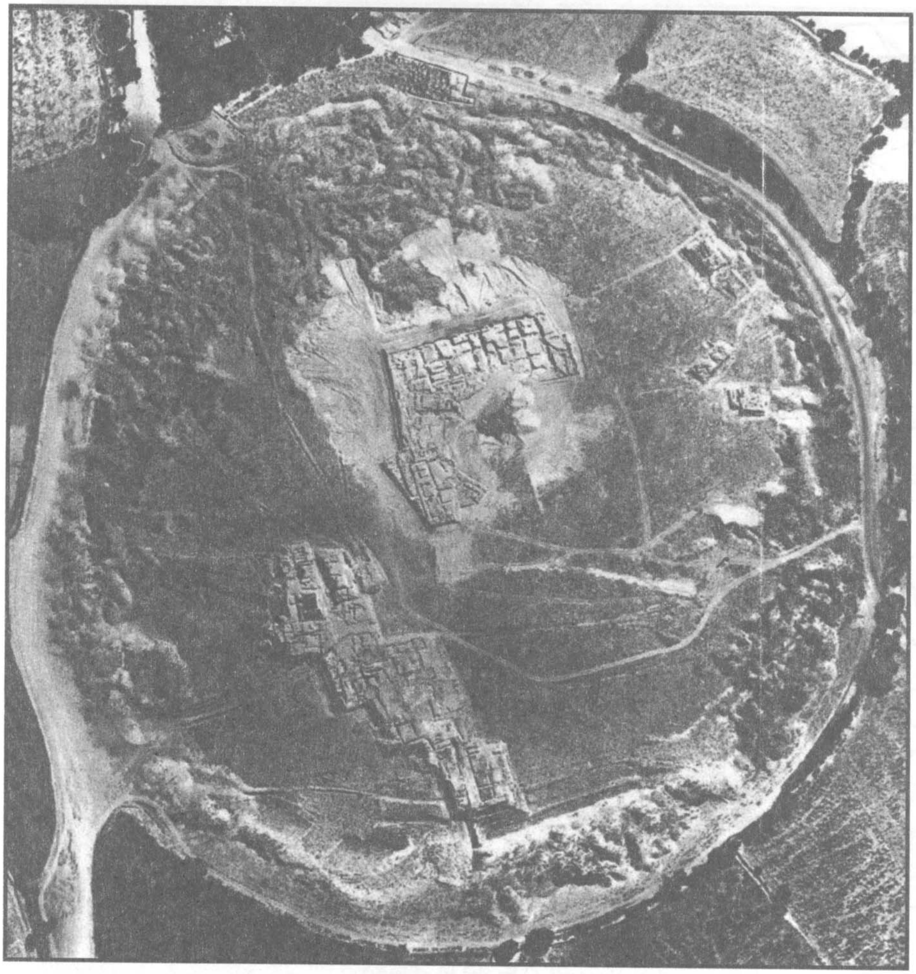
١١- انظر عن تاريخ حران مقالنا: حران في تاريخ الشرق القديم، دراسات تاريخية ١٠٧- ١٠٨ (٢٠٠٩)، ص ٣- ٢٥.

12- Klengel, Op.Cit., S. 121-122

ملحق الصور



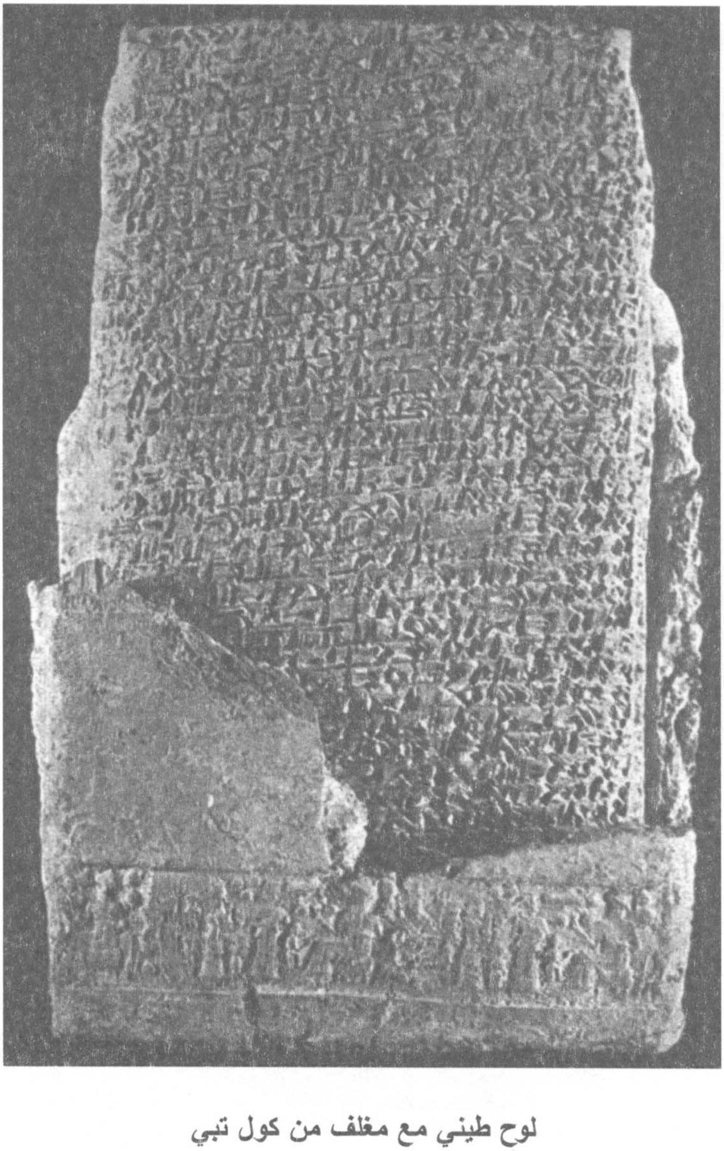
مصور الشرق القديم



صورة جوية لموقع كاروم كانيش



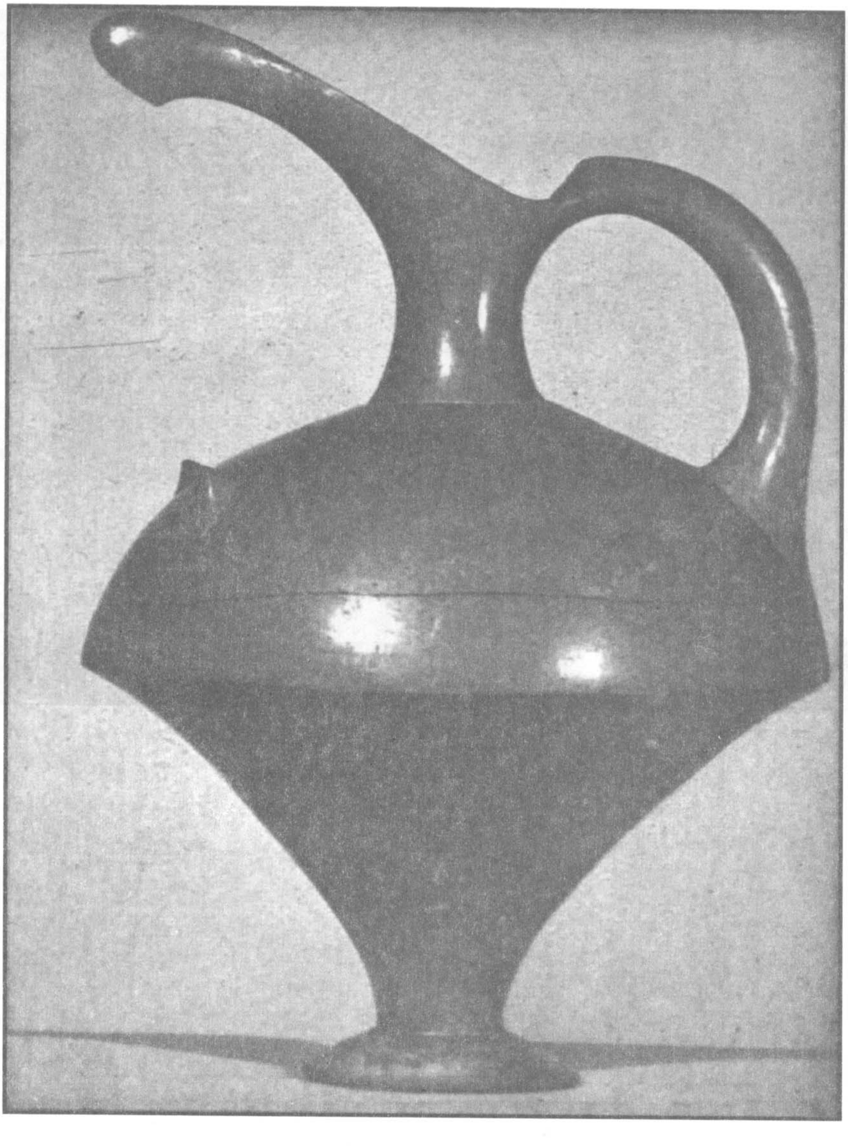
مخطط موقع كول تبي



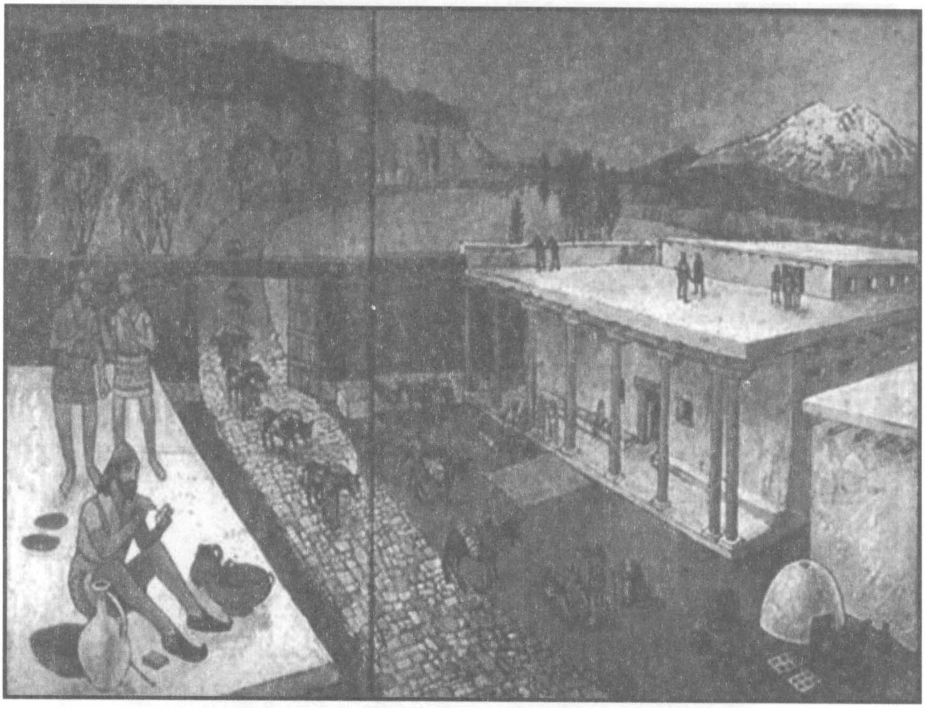
لوح طيني مع مغلف من كول تبي



لوح طيني مع مغلف عليه طبعات أختام اسطوانية



آنية فخارية



رسم تخيلي لمدخل كاروم كانيش

شعوب البحر

د. إبراهيم عبد الله توكلنا

قسم الآثار/ جامعة تشرين

مقدمة:

شعوب البحر the sea peoples هو الاسم الذي أطلقه الأثريون ومؤرخو الشرق الأدنى القديم في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب القديمة التي هاجرت عن طريق البحر الأبيض المتوسط وهاجمت الممالك الواقعة شرقي حوض المتوسط، كما هاجمت مصر خلال فترة حكم الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين، والحثيون في الأناضول. أدت هجمات شعوب البحر إلى سقوط الإمبراطورية الحثية وإضعاف المملكة المصرية الفرعونية لمدة طويلة، وتدمير العديد من مدن شرق المتوسط العامرة كأوغاريت على سبيل المثال.

ومن بين شعوب البحر المذكورة في الرسائل المصرية، يرد أيضا اسم الفلسطينيين الذين سيطروا على أراض واسعة من الساحل الجنوبي لبلاد كنعان، ووجدت نظريات ترى أن هجرة شعوب البحر هي هجرات ارتدادية، إذ أن الفلسطينيين عادوا إلى وطنهم الأصلي فلسطين بعد أن أسسوا ممالك في اليونان، وكانوا أسلاف اليونانيين.

أقدم ذكر لشعوب البحر يعود إلى نهاية القرن الـ١٣ قبل الميلاد حيث يسرد الفرعون مرنبتاح (١٢١٣- ١٢٠٣ ق. م) قائمة من الشعوب التي انتصر عليها، من بينها "شعوب أجنبية تابعة للبحر" كما وصفها في رسائله[١] وبعد نحو ثلاثين سنة يذكر الفرعون رعمسيس الثالث (١١٨٣- ١١٥٢ ق.م) على جدران معبده في مدينة هابو الواقعة على البر الغربي للعاصمة طيبة، هجوماً آخر لهذه الشعوب على مصر ويفتخر

بأنه انتصر عليهم بالرغم من قوتهم التي أدت إلى هزيمة الحثيين وشعوب أخرى. يشك بعض المؤرخين بمصداقية تقرير رعمسيس الثالث، ويظنون أنه نسب إلى نفسه انتصارات مرنبتاح[٢].

والمشكلة التي تواجهنا عندما نحاول التعرف على شعوب البحر هي أنهم لم يتركوا خلفهم إلا دلائل أثرية نادرة جداً خلال اكتساحهم لشرقي البحر الأبيض المتوسط، لاسيما وأن السجلات التاريخية القديمة التي تتحدث عنهم لا تذكر تفاصيل كثيرة عن أصولهم وأسمائهم[٣]، لذلك فإن أهمية البحث تكمن في معرفة أصول تلك الشعوب وأسباب قدومها لمنطقة الشرق القديم، والأهم من ذلك معرفة أصول شعب الفيليست (الفلسطينيين)، وهل هو كما يدعي المؤرخون الغربيون أنه من أصول إيجية أو كريتية لا تمت إلى منطقتنا العربية بأية صلة، وكان هدفنا الأساسي من البحث هو إثبات أن الفلسطينيين هم من أصول كنعانية هاجرت وأسست مستعمرات لها خارج تلك المنطقة ثم عندما حان زمن العودة عادت واندمجت بسرعة ضمن محيطها الذي غادرته في عصور سابقة.

من هم شعوب البحر:

يعتقد الباحثون أن شعوب البحر ضمت تحالفاً مؤلفاً من أقوام وقبائل كثيرة، متنوعة الثقافات والأساليب، وذلك طبقاً لنقوش معبد رعمسيس الثالث في مدينة هابو، هذه القبائل أو ما سمي فيما بعد "شعوب البحر" انطلقت من أراضيها تصطحب معها نساءها وأطفالها ومتاعها، وتقود عرباتها التي تجرها الثيران تبحث عن موطن لإقامتها.

وردت أسماء قبائل شعوب البحر في عدد من المصادر المصرية ولاسيما المعابد الجنائزية للفراعنة الذين جابهوا تلك الشعوب، مثل معبد الكرنك ومعبد مدينة هابو وبعض

البرديات المصرية. وحسب المصادر المصرية التي ذكرت القبائل المهاجمة، نجد أنها تألفت من تسعة شعوب هي التالية:

الدانونا Denyen: شعب إغريقي شكل غالبية جنود شعوب البحر، ذكر في عدد من السجلات المصرية القديمة مثل رسائل العمارنة وبردية هاريس وغيرها.

الإيكواش Ekwesh: هم من قبائل الآخيين، الذين سكنوا في كريت وباقي بلاد الإغريق وعلى ساحل الأناضول، وكانوا مجاورين لبلاد لوكا في الأناضول، وذكروا في النصوص المصرية والحثية على السواء.

اللوكاLukka: ذكروا في النصوص المصرية والحثية، ويعتقد أن بلاد لوكا تقع في الجنوب الغربي من بلاد الأناضول.

الفلسطينيين Peleset: وهم أحد قبائل شعوب البحر، وذكرت النقوش أن بعض جنودهم كانوا في جيش رعمسيس الثالث الذي حارب الليبيين.

الثكالا (الساكالا) Siculi: معلوماتنا عنهم قليلة، ذكروا في نقوش معبد الكرنك ومعبد مدينة هابو، خدم أفراده في جيش الفرعون رعمسيس الثالث كمرتزقة، وهو شعب إيطالي يعود في أصوله إلى جزيرة صقلية.

الشاردانا Sherden: من أوائل القبائل التي ذكرت في النصوص المصرية، وحارب بعضهم في جيش رعمسيس الثاني(١٢٧٩- ١٢١٣ ق.م) في معركة قادش، كما كان بعض عناصرهم من الحراس الشخصيين لرعمسيس الثالث، وهو شعب يعود في أصوله إلى جزيرة سردينية.

التورشا Teresh: جاء ذكرهم في النصوص المصرية منذ عصر مرنبتاح، وهم التيرانيون أجداد الأتروسكيين وهناك احتمال كونهم من بلاد الأناضول.

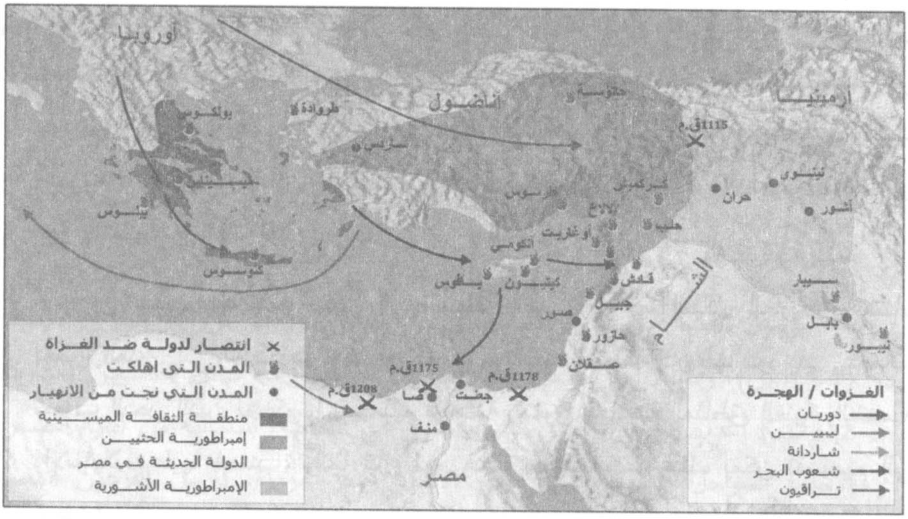
التجيكر Tjekker: تذكرهم النصوص على أنهم شعب من مدينة دور، وهي مدينة كنعانية تقع شمال فلسطين.

المشواش Meshwesh: ذكروا في عدد من النقوش المصرية، وكانوا من الليبيين أو من حلفاء الليبيين في هجماتهم على مصر منذ عهد الفرعون مرنبتاح(٤).

منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي بدأ المؤرخون يضعون الفرضيات حول أصول شعوب البحر، وأرجعوا أصولهم إلى مناطق متعددة، فكثير منهم يعتقد أن هذا التحالف المؤلف من قبائل هندية أوربية Indo-European، قدمت عناصره، حسب الدلائل الأثرية الحديثة، من مناطق أرخبيل بحر إيجة والبلقان واليونان وقبرص ووسط أوربا(٥)، راجع الشكل رقم (١)(٦).

لكن هناك فرضيات ظهرت حديثاً، أخذت منحنىً آخر وهو أن سقوط الإمبراطورية الحثية جاء نتيجة تمرد في الولايات أو الدويلات التي كانت تابعة للإمبراطورية الحثية، بمساعدة وتحالف مع هذه الشعوب، فالشعوب الخاضعة للسلطة الحثية كانت عبر تاريخها الطويل تنتفض من وقت لآخر ضد الإدارة الحثية المركزية، وسقوط الدولة الحثية كان ثمرة إحدى هذه الثورات التي قامت بها شعوب تلك المنطقة، تقودها الدويلات الحثية الجديدة بمؤازرة من قبائل البحر، وما يعزز هذا الرأي هو ألبسة جنود شعوب البحر وأغطية رؤوسهم، إضافة إلى أشكال سفنهم المشابهة لألبسة وسفن شعوب المنطقة المحيطة بالإمبراطورية الحثية(٧). فالتوتر كان على أشده بين أهيياوا Ahhiyawa (٨) والحثيون، ووصل ذروته في ذلك الوقت بالذات، ومن الممكن أن أهيياوا كانت المحرض والمساند لهذه الثورة، وهذا ما أدى إلى نجاحها.

وبعد سقوط الإمبراطورية الحثية، كان الأمر فقط مسألة وقت لتعود مصر الفرعونية إلى ممارسة تأثيرها من جديد على مناطق الشمال السوري(٩).



شكل رقم ١: غزوات قبائل شعوب البحر للشرق القديم

أسباب قدومهم:

بقيت أسباب تحرك شعوب البحر باتجاه المشرق القديم غامضة عند كثير من المؤرخين، لكن هناك إشارات تدل على أن مناطق شرق أوربة شهدت تبدلاً مناخياً ملحوظاً لاسيما على مستوى الهطول المطري الذي تناقص بشكل واضح، مما أدى إلى موجة من الجفاف دعا قبائل تلك المناطق للهجرة إلى مناطق أخرى أكثر خصوبة، وكان المشرق القديم هو المكان المثالي لإقامتهم.

لكن هناك أسباباً أخرى لهذه الهجرة، ففي أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد كانت ميسينا عاصمة الآخيين في بلاد الإغريق التي ازدهرت حضارتها بين القرنين الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد، تملك أسطولاً كبيراً يجوب البحار، فأغارت على بلادهم قبائل بربرية من الإغريق الشماليين من طريق البر واحتلوا بلادهم، فلم يستطع الأسطول الآخي الذي ضم عناصر سكانية متعددة من آسية مثل الآريين ومن بحارة

الجزر المجاورة مثل كريت وجزر بحر إيجة وغيرها العودة إلى البلاد فاتجهوا إلى المملكة الحيثية في آسيا الصغرى، وسقطت تحت ضرباتهم مدن عدة، ثم ساروا عبر سوريا براً وبحراً، ويبدو أن سيرهم كان بمحاذاة المدن الساحلية، حيث خربوا أوجاريت ودمروها، ومنذ ذلك الحين لم تقم لها قائمة، كما دمروا مدناً كنعانية أخرى، ثم ساروا عبر فلسطين إلى دلتا النيل عن طريق البر والبحر(١٠).

إن عدم وجود تدمير كبير في المنطقة التي مرت بها القبائل الغازية، باستثناء بعض المدن التي تم ذكرها يؤكد أن بعض دويلات المنطقة كان لها دور في هجمات شعوب البحر الذين لم يكونوا بمجملهم قراصنة يبتغون مهاجمة المناطق الغنية والخصبة والاستيلاء عليها فحسب، وإنما كان لهم هدف محدد أيضاً، لذلك يمكن تقسيمهم إلى نوعين:

كان منهم أقوام مهاجرون، أُجبروا على ترك أراضيهم والرحيل عنها، تحت ضغط قبائل أخرى جاءت واستولت على أراضيهم، وهذا ما حصل لقبائل الآخيين Akawasha أو achaeans الذين اضطروا إلى الرحيل عن أرضهم، والبحث عن موطن جديد لإقامتهم، نتيجة استيلاء الدوريين القادمين من البلقان على أراضيهم(١١).

وأما النوع الثاني فكانت قبائل وشعوب أصاب القحط أراضيهم، فأرادوا الاستيلاء على أراضٍ خصبة يستقرون عليها، فتوجهوا بأنظارهم وسفنهم إلى مناطق شرقي المتوسط ولاسيما سورية ومصر، وكانت هجماتهم على مراحل، وعلى امتداد ثلاثة قرون(١٢).

وردت بعض أسماء قبائل شعوب البحر في وثائق فراعنة مصر، وملوك الدولة الحثية منذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، حيث كانت تصل أفواج منهم إلى مصر للعمل كمرتزقة في الجيش المصري كالشردانيين، أو في صفوف الدويلات السورية

الموالية لمصر ضد الدولة الحثية مثل قبائل الدانونة Denyen والشاكلاش واللوكي، وكانت قبائل منهم تنزل في منطقة الأناضول وتؤازر الدولة الحثية في حروبها ضد الإمبراطورية المصرية مثل البداسا Baddassa والدرداني Dardani والماسا Massa والكرانيشا Kranisha والإيرونيتا Eronita وغيرها من القبائل.

مسار تحركاتهم:

وصل القسم الأول من هذه القبائل من البلقان، وتألف من الفريجيين والميسينيين (الموكينيين)، وصلوا إلى سواحل آسية الصغرى، واتحدوا مع قبائل الكاشيين (الكازكاز) Kazkaz أعداء الحثيين، الذين كانوا يقطنون في المناطق الشمالية من آسية الصغرى، ولاسيما السواحل الجنوبية من البحر الأسود وبحر مرمرة، فأرسل الفرعون المصري مرنبتاح شحنة عاجلة من الحبوب إلى الدولة الحثية وطلب من ملك أوغاريت عمورابي إيصالها إلى حتي التي كانت تتعرض لمجاعة خطيرة، ويبدو أن هدف الفرعون المصري من مساعدة الدولة الحثية عدوته اللدود هو علمه بأن خطر شعوب البحر بدأ يدنو من بلاده، وأن الدولة الحثية كانت تشكل الدولة العازلة بين تلك القبائل الغازية وبين دول المنطقة ومن بينها وادي النيل. ويتبين لنا الوضع المأساوي الذي وصلت إليه المناطق الحثية التي كانت تشهد اعتداءات شعوب البحر ما تذكره رسالة موجهة من الملك الحثي (الملك الشمس كما كان يلقب) إلى ملك أوجاريت يأمره فيها دون مقدمات ولا تحيات على عكس ما كانت عليه العادة في المراسلات " اجمع ما عندك وابعث به إليّ"(١٣)، لكن الجيوش الغازية لم تمهل الحثيين فاجتاح قسم آخر منها وهم الموشكي الذين قدموا من منطقة "فريجي" العاصمة الحثية حاتوشا، وعملوا على إحراقها وتدميرها، وهكذا انهارت الإمبراطورية الحثية حوالي ١٢٠٠ ق. م، ولم تستطع الصمود في وجه القوات الغازية رغم المساعدات المصرية ومؤازرة المدن الموالية لها كأوغاريت التي وضعت سفن أسطولها تحت تصرفها.

بعد تدميرهم للدولة الحثية تابع الغزاة سيرهم فدمروا أمورو -كما يذكر أحد النصوص المصرية - وربما قتلوا ملكها "وملك أمورو أصبح رماداً"(١٤) وأسر أهلها، ونصب الأعداء خيامهم فيها وجعلوها قاعدتهم ومركز انطلاقهم لمتابعة الغزو. إن المعلومات التي جاءت في نقش للفرعون رعمسيس الثالث الذي يذكر فيه كركميش التي كان ملوكها نواباً للملك الحثي، ضمن الممالك التي دمرتها شعوب البحر غير دقيق لأن التنقيبات التي جرت فيها وما دل عليه تتابع الفخار فيها يشير إلى استمرار الحياة فيها، وأنها لم تتأثر بهجمات شعوب البحر، وهذا يطبق أيضاً على مدينة إيمار (مسكنة) الواقعة على الضفة الغربية للفرات إلى الجنوب من كركميش التي يعزى دمارها إلى جماعات أخرى ربما تكون من الآراميين(١٥).

أما القسم الثاني من القبائل المغيرة، فقد اتجه بسفنه من جزيرة كريت إلى جزيرة قبرص فدمر جزءاً منها ولاسيما مدينة أنكومي، وأجبر حكامها على الانضمام إليه، ثم تابع مسيره إلى أوغاريت حيث دمرها، واتجه إلى أرواد فجعلها قاعدة له للهجوم على الساحل السوري كله، ثم اتجه جنوباً إلى وادي النيل.

كانت لأوغاريت علاقات دبلوماسية وسياسية وعسكرية مع جزيرة قبرص القريبة منها وهذه العلاقات دعت الطرفين لتبادل المعلومات العسكرية بينهما، ومن هذه المعلومات ما تعلق باقتراب سفن غريبة من ساحل الدولتين، فهناك رسالة موجهة من كبير وجهاء ألازيا(١٦) المدعو إشوورا إلى ملك أوغاريت يحذره فيها من أعداء هاجموا سفناً وأناساً من أوغاريت، ويستعدون مع عشرين سفينة لاعتداءات جديدة، ثم هناك رسالة أخرى موجهة من ملك ألازيا نفسه إلى ملك أوجاريت "عمورابي" تذكر سفن الأعداء واعتداءات جديدة، وتوقع مهاجمة أوغاريت، وينصحه ملك ألازيا بتحصين مدنه وتسويرها، وأن يضع جنوده وعرباته الحربية خلفها ويستعد للدفاع عن مدينته، وكان هناك رد من ملك أوغاريت برسالة إلى ملك ألازيا يناديه فيها بعبارة "أبي"، ويخبره

باقتراب سفن معادية وأن بعض المناطق قد دمرتها النيران"[١٧] ليعلم أبي أن سفن العدو أتت هنا، أُحرقت مدني، لقد قاموا بأعمال مؤذية في بلدي، ألا يعلم أبي بأن كل جنودي و عرباتي في بلاد خاتي، وأن كل سفني في بلاد لوكا، وهكذا تركت بلدي لوحدها، ربما يعلم أبي بأن سبعة سفن للعدو أتت هنا وأصابتنا بأضرار كثيرة"[١٨]. كما تتحدث بعض الرسائل عن وجود بعض اللاجئين من سكان أوغاريت في قبرص خلال الاضطرابات التي تتعرض لها[١٩].

دخل الغزاة أيضاً مستوطنة رأس ابن هانئ التابعة لأوغاريت، واستوطن بعض شعوب البحر فيها ثم اندمجوا مع سكانها، وهذا ما لوحظ من بقايا قصرها في القرنين الثاني عشر والحادي عشر[٢٠]، ومن فخارها من النوع الميسيني المحلي الذي دخلت عليه أشكال وزخارف وألوان جديدة، ثم عودة الفخار إلى أشكاله القديمة كناية عن اندماج السكان الوافدين مع سكان المدينة الأصليين[٢١].

وتشير نتائج الحفريات الأثرية إلى انقطاع السكن في تل سوكاس (شوكسي القديمة)[٢٢]، وتل الكزل (سيمرا أو صومورا القديمة) ودمار قصر كامد اللوز (كوميدي القديمة)[٢٣] وذلك بين ١٢٠٠- ١١٠٠ قبل الميلاد.

أما مدن الساحل الجنوبي مثل جبيل وصيدا وصور فلم تتأثر كثيراً بتحركات شعوب البحر، وعادت ونهضت من جديد وبقي يحكمها ملوك محليون مستقلون عن مصر[٢٤].

غزو شعوب البحر لوادي النيل:

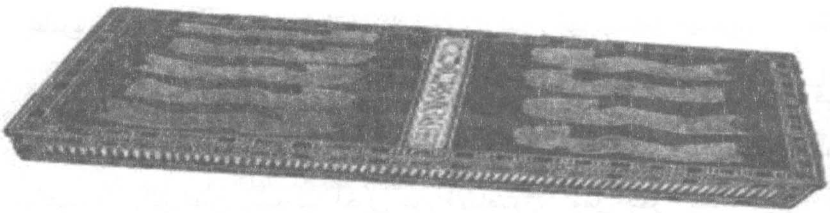
دفع الجفاف الذي أصاب الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط هذه الشعوب إلى اقتحام الأراضي الخصبة، ولاسيما أراضي مصر التي تتميز بفيضانات النيل عليها، فقد ورد ذكر بعض قبائل شعوب البحر في النصوص المصرية منذ عصر العمارنة زمن

الفرعون أمنحوتب الثالث (١٣٩٠- ١٣٥٢ ق.م) أو ابنه أمنحوتب الرابع- أخناتون (١٣٥٢- ١٣٣٤ ق.م) نحو منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهم اللوكا والشاردان، إذ اتهم اللوكيون بمهاجمة المصريين بالتعاون مع الألشيان أو القبارصة سكان ألازيا أو ألاشيا، ثم في زمن الفرعون رعمسيس الثاني الذي ذكر في سنة حكمه الثانية أنه صد هجوماً للشاردان على دلتا النيل وهزمهم وأسر بعض قراصنتهم، وأدمجهم في جيشه للخدمة على الحدود الحثية، وقاتلوا بشجاعة في معركة قادش ضد الحثيين الذين كان من بينهم كذلك بعض قبائل شعوب البحر التي حاربت إلى جانبهم[٢٥].

عثر على عشرة نقوش على المعابد المصرية تخلد معركة قادش وانتصار رعمسيس الثاني "المزعوم" على الحثيين، مع نقش وقصيدة يصفان هذه المعركة. تتعلق القصيدة بأسر رعمسيس الثاني سابقاً للشاردين[٢٦]، اللذين عملا فيما بعد لصالح الملك المصري وأعدوا للملك أيضاً خطة معركة قادش، وكانت فكرتهم في تقسيم الجيش إلى أربعة أرتال، ولم يكن هناك أي دليل على تواطؤهم مع الحثيين أو وجود أية نوايا خبيثة لديهم، وقد قدّر رعمسيس الثاني هذا الأمر لهم وسجله على جدران معابده. كما تسرد القصيدة أسماء الشعوب التي ذهبت كحليفة للحثيين إلى قادش ومن بينهم كان بعض شعوب البحر، ومنهم جنود من بلاد "لوكا"[٢٧].

بدأت هجمات شعوب البحر على مصر منذ عهد الفرعون مرنبتاح، الذي واجه في سنته الخامسة تحالفاً من الغرب ضم شعوب البحر التي نزلت على ساحل ليبيا، واتحدت مع الليبيين[٢٨] سمي هذا التحالف من الأعداء "الأقواس التسعة"[٢٩]، الشكل رقم (٢)[٣٠]، وشكلوا جيشاً ضخماً تألف من أقوام متعددة عدا عن الرماة الليبيين "كان جيش الغزاة زاحفاً نحو ممفيس، يتبعه شعب كامل من نساء وأولاد، وقطعان الماشية والعربات المحملة بأدوات الطعام الفضية والنحاسية"[٣١]، واتجهوا إلى منطقة غرب الدلتا تحت إمرة

الملك الليبي مريي (Meryey)، إلا أن مرنبتاح استطاع صدهم وهزمهم وقتل وأسر الكثير منهم[٣٢].



شكل رقم ٢: مسند للقدمين لأحد عروش الملك توت عنخ أمون، وقد نقشت عليه الأقواس التسعة والتي ترمز للأعداء التقليديين لمصر. وهذه النقوش هي للسجناء، وقد انبطحوا أرضاً وقيدوا معا بالسلاسل وأيديهم موثقة خلف ظهورهم، وكل عدو يتميز بالملابس والمعدات والصفات الخاصة بكل شعب من هذه الشعوب المختلفة، وقد نقشوا على المسند بحيث عندما يجلس الملك على العرش يبدو هؤلاء الاعداء تحت اقدامه.

وخلد مرنبتاح انتصاره على شعوب البحر وحلفائهم في نص على جدران معبد الكرنك، وقد ذكر بعض أقوام البحر في هذه النقوش، وذكر مرنبتاح أنه قتل تسعة آلاف من جنود التحالف ثلثهم من شعوب البحر وأسر تسعة آلاف آخرين، واستولى على محتويات معسكرهم، ثم أحرق الخيام[٣٣].

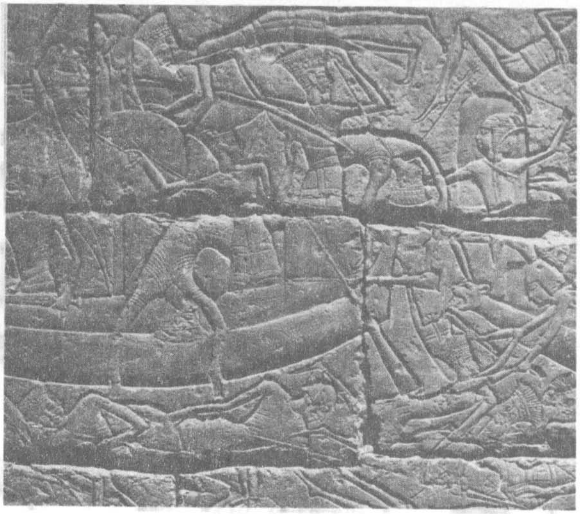
مع وصول رعمسيس الثالث إلى الحكم في بدايات القرن الثاني عشر قبل الميلاد تجددت اعتداءات شعوب البحر على مصر، فقد كانت هذه الشعوب ما تزال في غليان تتدفق على سورية براً وبحراً، ويقول نص منقوش على أحد جدران معبد هابو: " كانت شعوب الشمال تغلي في جميع جزرها ثم تحركت كلها دفعة واحدة، لم يتمكن أي شعب أن يقف في طريقها. بلاد الحثيين والكودة (كيزواتنا Kizzuwatna)، وأرزاوا Arzawa[٣٤] وكركميش وألاشيا Alashia (قبرص)، شملها الاجتياح، لم يقيموا إلا

معسكراً في بلاد أمورو، وقد اندفعوا نحو مصر فوصلوا يقودون الثيران أمامهم، أقوام الفليست والثكال والساغات والدانيين والأواشاش كانت دعائمهم الرئيسة. كل هذه الشعوب كانت متجهة لتجتاح جميع البلدان التي تشملها دائرة الكرة الأرضية، وقلوبهم كانت واثقة عامرة بالطموح"(٣٥).

فقاموا بعدة هجمات في عهد الفرعون رعمسيس الثالث، وكان أخطرها في السنة الثامنة من حكمه، حين تشكل تحالف كبير ضم الآخيين والطرواديين والشيكليش والفيليست والتيرانيين وشعوب أخرى من الأناضول ومن بحر إيجة، واتجه هذا الكم الهائل من المحاربين المسلحين بالرماح والسيوف المستقيمة والدروع الجلدية والدروع المبطنة بالمعدن، وأقاموا في كيليكيا ونشروا الدمار والخراب، واتجهوا إلى كركميش وأرزاوا وقبرص وكريت، ثم بلاد أمورو في وسط سورية حيث تمركزت قواتهم البرية، وبعد أن انتهوا من هذه البلاد لم يعد بينهم وبين مصر أية عوائق أو عقبات، وكان هجومهم على جبهتين: جبهة برية اتجهت فيها الجيوش من وسط سورية وأخرى بحرية اتجهت إلى دلتا النيل(٣٦).

كان رعمسيس الثالث واعياً للخطر القريب من بلاده، واستفاد من الوقت الذي استغرقه سقوط الدولة الحثية لحشد كل ما يلزم للمواجهات القادمة، فحصن الحدود السورية ووسع قواته فضم رجلاً من كل عشرة رجال ليصبح جندياً في جيشه، وجمع أسطولاً كبيراً، إضافة إلى جنوده المدربين وخيرة بحارته المسلحين بشكل جيد وحشد كل ما يمكن له أن يطفوا على سطح الماء لتشكيل أسطوله الحربي من مراكب تجارية وسفن حربية للدفاع عن الموانئ التي ما زال يسيطر عليها ورافق الأسطول عدد من المراكب التي أقامت سداً، كما نشر المراقبين على الشاطئ. وانتظر الفرعون العدو عند فم النيل حيث فاجأهم بكمين وحاصر سفنهم وبدأ بمهاجمتها وإتلافها قبل وصولها إلى الشاطئ، وامتاز المصريون عن القوات الغازية بالقسي التي يتسلحون بها، بينما تسلح المهاجمون

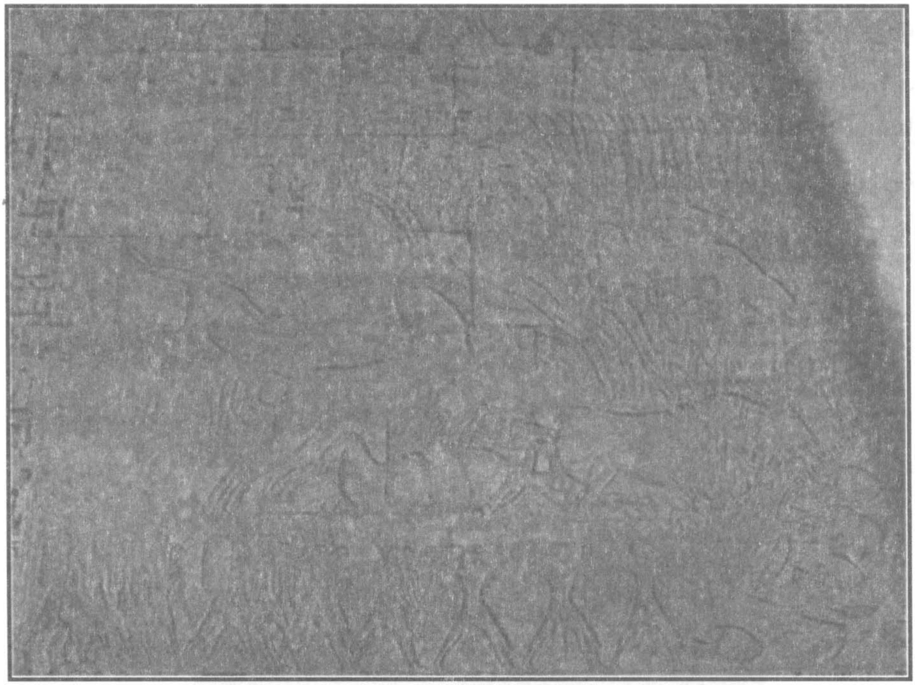
بالسيوف القصيرة التي لا تجدي نفعاً إلا في الالتحام القريب[٣٧]، فأطلق الرماة سهامهم من فوق الجسور ومن البر المصري المقابل للشاطئ فأسقطوا بحارة العدو، ثم اقترب الأسطول المصري نحو الأسطول المعادي ليحتل سفنه ويقتل رجاله، ورميت الكلابات على القوارب المعادية فعلقت بها وصارت تغرقها، وانتشر الذعر بين الأعداء وسحق الأسطول المغير، ثم سحبت السفن المعطوبة إلى الشاطئ، وكان القتلى مكدسون على ظهر السفن، أما الجنود الذين حاولوا الهرب واستطاعوا الوصول إلى الشاطئ فقد قتلوا أو وقعوا في الأسر، وكانت هذه المعركة التي سميت معركة الدلتا هي المعركة البحرية الأولى في التاريخ[٣٨]، شكل رقم(٣)[٣٩].



شكل رقم ٣: إحدى معارك رعمسيس الثالث البحرية، المعبد الجنزي لمدينة هابو

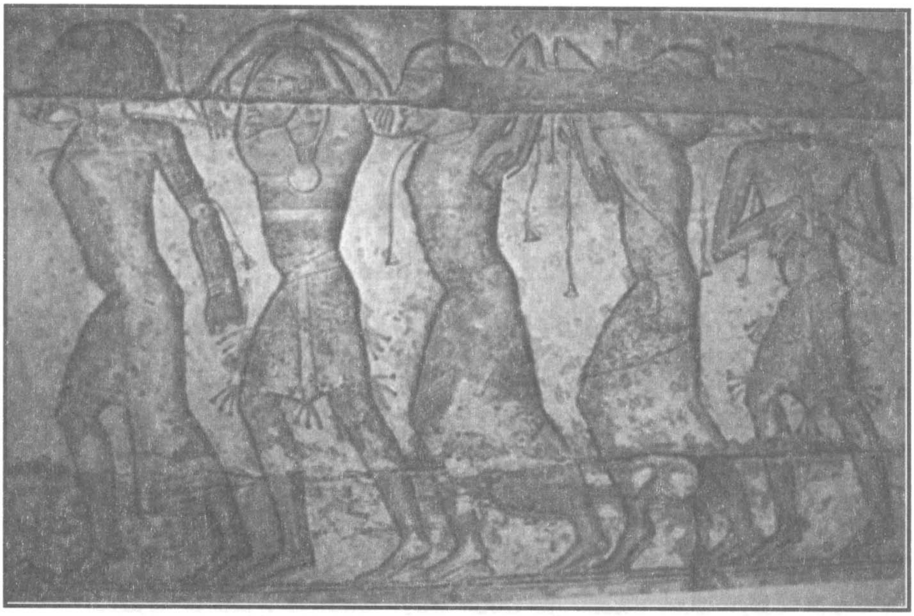
كما تصدت قوات الفرعون رعمسيس الثالث للجيش البري بشكل مستقل عن المعركة البحرية، واستطاعت الانتصار رغم التعزيزات المستمرة التي كانت تصل إلى الأعداء من قاعدتهم في أمورو. كانت تلك المعركة هي الفاصلة، حيث تمكن رعمسيس

من استئصال شأفتهم وإبعاد خطرهم بشكل شبه نهائي عن مصر وغربي آسية، وسخر الأسرى للخدمة في المعبد، وللعمل كمرتزقة في جيش مصر. وقد سجل تفصيلات انتصاراته على جدران معبده[٤٠]، شكل رقم (٤)[٤١].



شكل رقم ٤: مشهد لإحدى معارك رعمسيس الثالث البرية مع شعوب البحر على جدران معبد مدينة هابو

أعاد شعوب البحر وحلفاؤهم الليبيون تنظيم أنفسهم في السنة الحادية عشرة من حكم رعمسيس الثالث، وهاجموا مصر بقيادة ابن زعيم الليبيين المدعو "مششر"، فهزمهم رعمسيس الثالث على حدود الدلتا وتابعهم في الصحراء لمسافة عشرين كيلومتراً وقضى على الكثير منهم ومن بينهم قائدهم، كما أسر عدداً منهم[٤٢]، شكل رقم (٥)[٤٣].



شكل رقم ٥: أسرى شعوب البحر من أصول متعددة، من اليسارإلى اليمين: ليبي، ثكالة، كنعانيان أو سوريان، فلسطيني. رعمسيس الثالث، معبد مدينة هابو، الحرب الليبية الآسيوية

بعد هزيمتهم اتجهت عناصر منهم إلى آسيا الصغرى وجزر البحر الإيجي وسردينيا وإيطاليا، أي أن كل جماعة اتجهت إلى موطنها الأصلي. ودخل كثير من الليبيين في جيش رعمسيس الثالث كجنود مرتزقة وأطلق عليهم اسم الماشواش، وعرفوا بريشة يضعونها فوق رؤوسهم(٤٤)، أما قبيلة الفيليست فقد اتجهت إلى جزء من ساحل الكنعانيين بفلسطين، ويذكر بعض المؤرخين أن المدن التي انضم إلى أهلها الكنعانيون هي غزة –عسقلان –أشدود– عقرون– جات، وقد تبنوا عبادات الكنعانيين المواطنين ولغتهم، ثم ذابوا في الكنعانيين واندمجوا معهم.

أصل قبائل الفيليست (الفلسطينيين)، محاولة لتحديد هويتهم:

تذكر النصوص أن الفرعون رعمسيس الثالث قد وطن قبائل الفيليست في الساحل الكنعاني وسمح لهم بتأسيس بعض المدن على امتداده، وذلك لحماية حدوده الشمالية. والسؤال المهم الذي يدور في ذهن المؤرخين هو من أين أتت تلك القبائل وما أصلها؟

١- عندما بدأ استقرار سكان المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم "فينيقيا" في الألف الثالث قبل الميلاد، اتجه قسم منهم إلى جزيرة قبرص القريبة من الساحل واستقروا فيها، وهذا حصل قبل قدوم قبائل الفيليست إلى "فلسطين" بنحو ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد.

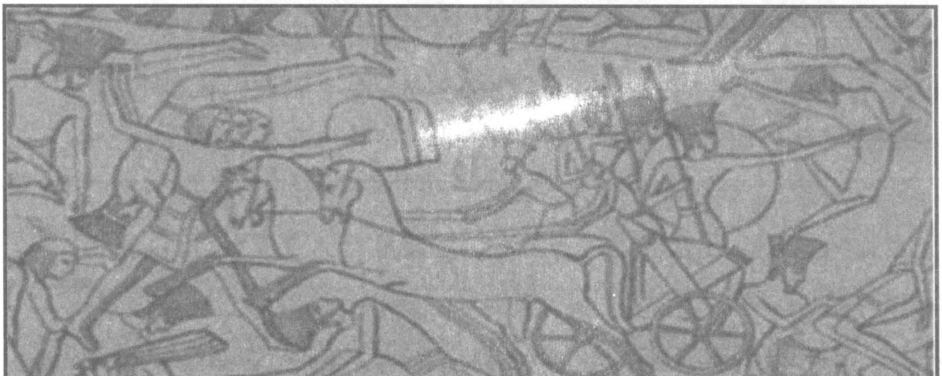
٢- هاجرت جماعات أخرى من منطقة الساحل الكنعاني، نتيجة هجمات الحثيين والكاشيين والحوريين والميتانيين على العراق وسورية، إلى مصر زمن المملكة المصرية الوسطى، في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثاني، في العصر البرونزي الوسيط، لكن ملوك ذلك العصر منعوهم من الاستيطان على أراضيهم، فاتجه معظم تلك الجماعات إلى جزر البحر الأبيض المتوسط ومنها جزيرة كريت وجزيرة قبرص وغيرهما(٤٥).

حافظت تلك القبائل على عاداتها وتقاليدها وتقديس الآلهة التي كانت تعبدها في وطنها الأم قبل خروجها إلى البلاد التي هاجرت إليها. ومن الدلائل التي تثبت أصول قبائل الفيليست إلى منطقة الساحل الكنعاني الفينيقي أن قبائل شعوب البحر بعد مهاجمتها للمشرق العربي عادت إلى بلادها الأصلية، واستقرت قبائل الفيليست بدورها في الساحل الكنعاني دون اعتراض من سكان الكنعانيين عليهم أو محاولة مقاومة وجودهم بينهم، كما عبدت تلك القبائل آلهة سكان المنطقة مثل دجان وعشتار وعنات

وغيرها دون إدخال عبادة آلهة تعود أصولها إلى البلاد التي قدمت منها، وهذه نتيجة طبيعية لشعوب تركت بلادها منذ عصور قديمة ثم عادت واستقرت فيها من جديد[٤٦].

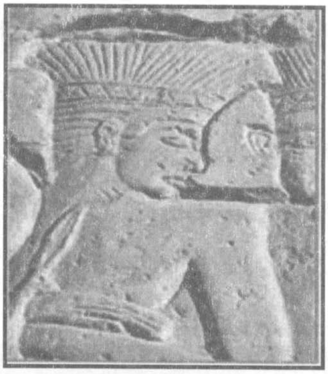
عُرفت الحضارة المادية الفلسطينية بشكل رئيس عن طريق أسلحتها وفخارها الملون ذي الجودة العالية، الذي يُظهر بعض الصلات مع الفخار الميسيني. هذه الإشارة استُخدمت لدعم نظرية الأصل الإيجي للفلسطينيين، هذا الأصل الذي مايزال مثيراً للجدل، والنظرية تؤكد قدوم الفلسطينيين من كابتور التي يعتقد أنها تقع في إيجة في كريت أو في آسيا الصغرى في كيليكية.

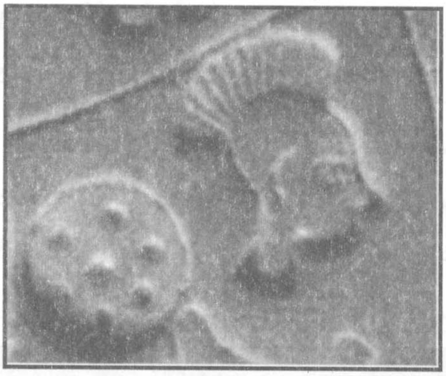
كما تظهر على جدران معبد مدينة هابو مشاهد لعربات حربية فلسطينية ذات عجلات سداسية مزودة بحمالات جانبية للقوس والسهام، والمثير في المشهد أن الجنود الفلسطينيين مسلحون بالرماح والدروع مثل غالبية قواد العربات الحربية الإيجية، شكل رقم (٦)[٤٧].



شكل رقم ٦: مشهد يظهر عربات حربية فلسطينية

تعطينا نقوش مدينة هابو المصرية صورة عن مظهر هذه الشعوب. فالرسم يمثل رجالاً طوال القامة، يسهل التعرف عليهم من خلال غطاء الرأس الغريب ذي الريشة المرتفعة المثبت برباط جلدي تحت الذقن، شكل رقم (٧)(٤٨)، يسافرون على مراكب ذات مجاذيف ومقدمات ومؤخرات لها شكل رأس الطائر، شكل رقم (٨)(٤٩)، أو على عربات ذات دواليب مسمطة تجرها الثيران.





شكل رقم ٧: مشهد لمحارب فلسطيني (إلى اليمين) على أحد جدران معبد مدينة هابو يعتمر خوذة متوجة بالريش، ونقش لمحارب إيجي (إلى اليسار) مؤرخ في القرن السابع عشر ق.م. يعتمر خوذة مشابهة لخوذة الفلسطيني.

كما تمثلت شعوب البحر بشخصية رجل صغير يحمل كوباً، عثر عليه كلود شيفر خلال تنقيباته في المبنى رقم ١٨ في مدينة أنكومي في قبرص. أما ملامح الوجه ولاسيما الشعر والأنف الكبير كالذي وجد على علبة على شكل رجل عثر عليها في أوجاريت، من الممكن أن تدل على وجود أصل إيجي لهم(٥٠).



شكل رقم ٨: صورة لسفينة حربية مصرية (إلى يسار الصورة) نهاياتها على شكل سباع، تلتحم مع سفينة فلسطينية (إلى يمين الصورة) نهاياتها على شكل رأس البطة، والسفينتان تنزلان أشرعتهما لإعطاء مجال أوسع للمحاربين

الخاتمة:

مما تقدم، يمكن لنا أن نستنتج بعض المعلومات عن شعوب البحر وغزوهم لبلدان الشرق القديم، ويأتي في مقدمتها أن قبائل شعوب البحر ليست كلها قبائل غازية هدفها السلب والنهب، وإنما كان بعضها قيائل غُلبت غلى أمرها واستولت قبائل أقوى منها على أراضيها، كما فعل الدوريون مع الآخيين حين استولوا على أراضيهم وطردوهم منها مما اضطرهم للرحيل مع نسائهم وأطفالهم لإيجاد أرض جديدة تحتضنهم بشكل سلمي ودون قتال. كما تبين لنا أن بعض الدويلات السورية الفلسطينية التي كانت تخضع للإمبراطورية الحثية قد ساهمت مع شعوب البحر في إسقاط هذه الإمبراطورية القوية المترامية الأطراف.

وفيما يخص قبائل الفيليست فقد تبين لنا أنها ليست قبائل غريبة عن هذه المنطقة بل تنتمي إليها من عصور قديمة، لكن الظروف دفعتها إلى الرحيل، ولما يسرت لها الظروف العودة إلى بلادها أسرعت بالاندماج مع أشقائها الكنعانيين والاستقرار معها من جديد.

إضافة لذلك كان لغزوات شعوب البحر نتائج مهمة ومؤثرة على مناطق المشرق العربي القديم، ومن أهم هذه النتائج:

- القضاء على إحدى أعظم إمبراطوريات ذلك العصر، وهي الدولة الحثية.
- دمار بعض المدن الفينيقية التي كان لها دور مؤثر في المنطقة، مثل صيدا وصور، وأوغاريت التي اختفت من خارطة التاريخ، بينما نهضت مدينتا صيدا وصور من جديد.
- ويظهر من البقايا الأثرية أن بعض قبائل شعوب البحر قد استقرت في مدينة ابن هانئ التابعة لأوغاريت على الساحل السوري واندمجت مع سكانها.
- استطاعت مصر صد الهجمات التي توجهت إلى أراضيها، لكنها خسرت أراضيها في سورية والساحل الفينيقي، واضطرت إلى التراجع والانكماش في وادي النيل لمواجهة أية هجمات جديدة من جهة الدلتا.
- استقرار بعض قبائل شعوب البحر سكاناً مسالمين في نواحي البحر المتوسط، فقبائل الفيليست، استقرت على الساحل الفينيقي الجنوبي الممتد من دور إلى غزة، ثم انضم الفيليست إلى الكنعانيين والعموريين سكان المنطقة الأصليين وانصهروا فيهم وعبدوا إلههم (دجن)، ومع مرور الوقت أخذت المنطقة اسمهم وأصبحت تدعى فلسطين، أما الشردان فقد توجهوا إلى جزيرة سردينيا واستوطنوا فيها وأعطوها اسمهم، وكذلك الأمر بالنسبة لقبائل الثكالة الذين استقروا في صقلية وسميت

باسمهم، بينما ذهب الأتروسكيون Etruscans إلى شبه الجزيرة الإيطالية وأسسوا دولة لهم في القسم الشمالي الوسيط منها.

- استخدم قبائل شعوب البحر معدن الحديد لصناعة أسلحتهم ولذلك استطاعوا الانتصار في كثير من معاركهم، متوجهين من الشمال إلى الجنوب دون أن يستطيع أي جيش أن يقف في وجههم، حتى استطاع رعمسيس الثالث أن يوقف تقدمهم[٥١].

الهوامش

١- إرمان، أدولف، ورانكة، هرمان، مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، القاهرة، دون تاريخ، ص ٦٢٢.

٢- المرجع السابق، ص ٦٢٣.

3- Morris, Joseph, The Origine oh The Sea Peoples, Florida State University Classics, 2006, p. 2.

4- Morris, p. 36.

- وانظر من أجل أسماء قبائل شعوب البحر وأصولهم: غلاب، محمد سيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ م، ص ٢٧١- ٢٨٢.

5- Morris, p. 2.

٦- الشكل رقم ١ انظر الرابط:

https://sp.yimg.com/ib/th?id=OIP.Mc9997dc39d9fa0af4d75ea72cbf73748o0&pid=15.1&rs=1&c=1&qlt=95&w=170&h=97#inline

7- Sandars, N.K. The Sea Peoples. London, 1978, p. 120-126

٨- أهيياوا أو أخيياوا تعني العالم الإيجي. انظر عصفور، محمد أبو المحاسن، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط ٣، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٣٢٤.

9- Morris, p. 1

١٠- إرمان، المرجع السابق، ص ٣٧.

١١- فيفر، فرانسيس، الفرعون الأخير، رعمسيس الثالث أو زوال حضارة عريقة، ترجمة فاطمة البهلول، دمشق، بلا تاريخ، ص ٤٩.

١٢- المرجع السابق، ص ٤٩.

١٣- سعادة، صفية، أوغاريت،، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ١٠٣.

١٤- كلينغل، هورست، تاريخ سورية السياسي، دمشق، ١٩٩٨ م، ص ٢٠٥.

١٥- المرجع السابق، ص ٢٠٤.

١٦- ألازيا أو ألاشيا هو الاسم القديم لجزيرة قبرص.

١٧- كلينغل، المرجع السابق، ص ١٦٤.

18- Nougayrol, Jean, et al. Ugaritica V, 1968, p. 87-90 no.24

19- Schaeffer, c, Syria, 1970, (1-2), p.209-211

20- Leclant, J, à la parole poor un homage, comptes Rendus de l'Academie des Inscripions et Belles-Lettres, 2000, 1, p.196

21- Bounni (A), Lagarce (J et E); Sqliby (N), Badre (L), Rapport preliminaire sur la troisieme campagne de fouille (1977) à Ibn Hani, Syria, 1979, 3, p. 245

٢٢- تل الكزل: يقع على الضفة الغربية لنهر الأبرش في محافظة طرطوس، وعلى بعد ٣,٥ كم من مصبه في البحر، كشف فيه عن طبقات تعود للعصور الهلنستية والفارسية والعصر الحديدي والعصر البرونزي الأخير، انظر أبو عساف، علي، آثار الممالك القديمة، دمشق ١٩٨٨ م، ص ٣٦.

٢٣- تل سوكاس: يقع إلى الجنوب من مدينة جبلة على الساحل السوري وذكر في المصادر الأوجاريتية، كان مأهولاً من العصر الحجري الحديث وحتى الفتح العربي الإسلامي.

-كامد اللوز: عاصمتها كوميدي، تقع حالياً في البقاع الجنوبي، شملت أراضيها الجولان ودمشق وحوران وإربد تقريباً، فيها آثار هامة، انظر أبو عساف، المراجع السابق، ص ٣٨.

٢٤- كلينغل، المرجع السابق، ص ٢٠٥.

25- Morris, p. 38

٢٦- فيفر، المرجع السابق، ص ٥٢.

٢٧- قاتل جنود من لوكا إلى جانب الحثيين في معركة قادش نحو عام ١٢٧٤، ثم انقلبوا بعد قرن من الزمن ضد الحثيين، وحاول الملك الحثي شوبيلوليوما الثاني القضاء عليهم لكنه لم يستطع ذلك، وقد ساهم جنود اللوكيين في سقوط الإمبراطورية الحثية، ثم ظهر لاحقاً اسم لوكا في النصوص المصرية كإحدى القبائل التي تشكل منها جيش شعوب البحر الذي اجتاح مصر والشرق المتوسطي في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، فضلاً عن شعوب أخرى ستشكل جزءاً من الهجرة الكبرى في بدايات القرن الثاني عشر قبل الميلاد. انظر: عصفور، محمد أبو المحاسن، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر، ط٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨ م، ص ٣٢٥.

٢٨- فخري، أحمد، موجز تاريخ مصر من أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، ط ٣، القاهرة، ١٩٧١ م، ص ٢٨٢.

٢٩- الأقواس التسعة: أعداء مصر، قسمهم المصريون إلى تسعة أصناف من الآسيويين والنوبيين والقبائل الليبية والبدو وغيرهم. انظر: سعد الله، محمد علي، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، الإسكندرية، ٢٠٠١ م، ص ٨٥.

٣٠- الشكل رقم ٢ انظر الرابط:

http://2.bp.blogspot.com/-hTohvPYwO5s/T-w-z4dYg_I/AAAAAAAAD9U/6bcWHp5B8jM/s1600/1.jpg

٣١- أشقر، أسد، تاريخ سورية، ج ١، ق ١، ط ١، د.م ١٩٧٨ م، ص ٢٢٥.

٣٢- فخري، المرجع السابق، ص ٣٥٨.

٣٣- بريستد، هنري، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص ٣١٤.

٣٤- أرزاوا: دويلة ظهرت في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، تقع غربي الأناضول، شكلت تحالفاً مع بعض دويلات المنطقة ضد الدولة الحثية. كيزواتنا: أطلق عليها في مصر القديمة بلاد الكودة، مملكة ظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد، وتقع في المناطق العليا من الجنوب الشرقي للأناضول. انظر:

The Cambridge Ancient History, vol II part 2, p.117.

٣٥- أشقر، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٣٦- إرمان، المرجع السابق، ص ٦٢٤.

٣٧- المرجع السابق، ص ٣٧.

٣٨- بريستد، المرجع السابق، ص ٣١٤.

٣٩- الشكل رقم ٣، انظر الرابط:

http://oi40.tinypic.com/2wn360n.jpg

٤١- الشكل رقم ٤ انظر الرابط:

http://tse2.mm.bing.net/th?id=OIP.Mfd98296884d98f42f90284ac42e7a487o0&pid=15.1&H=120&W=160

٤٢- فخري، المرجع السابق، ص ٣٧٢.

٤٣- الشكل رقم ٥ انظر الرابط:

http://www.historyfiles.co.uk/images/MiddleEast/Anatolia/SeaPeoples_Ekwesh01_full.jpg

٤٤- عصفور، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

٤٥- إبراهيم، نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الثالث، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ١٠١.

٤٦- المزين، عبد الرحمن، الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ، رسالة الماجستير، جامعة حلوان، ١٩٧٥ م، ص ١٦٣- ١٦٤.

٤٧- الشكل رقم ٦، انظر الرابط:

http://www.salimbeti.com/micenei/images/seapeoples59.jpg

٤٨- الشكل رقم ٧، انظر الرابط:

http://www.salimbeti.com/micenei/images/seapeoples36.jpg

http://www.salimbeti.com/micenei/images/seapeopletop02.jpg

٤٩- سيف الدين، إبراهيم، وآخرون، مصر في العصور القديمة، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٠ م، ص ١٢٢.

50- SCHAEFFER Claude, Enkomi-Alasia : nouvelles missions en Chypre 1946-1950, Paris, Klincksieck, 1952 (Publications de la mission archéologique française et de la mission du gouvernement de Chypre à Enkomi, 1), p. 371, ill. 115, pl. 73-75

٥١- غلاب، المرجع السابق، ص ٢٦٧، ٣٧٩.

ثبت المراجع

أولاً- المراجع العربية:

١- إبراهيم، نجيب ميخائيل. مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء الثالث، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦ م.

٢- أبو عساف، علي، آثار الممالك القديمة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٨ م.

٣- إرمان، أ؛ رانكة، هـ. مصر والحياة المصرية في العصور القديمة، ترجمة ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ومحرم كمال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

٤- أشقر، أسد. تاريخ سورية، ج ١، ق ١، ط ١(٣٥٠٠- ٥٣٩ ق.م.)، د.م، ١٩٧٨ م.

٥- بريستد، ج. هـ. تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة حسن كمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٠ م.

٦- سعادة، صفية. أوغاريت، ط١، مؤسسة فكر للأبحاث والنشر، بيروت، ١٩٨٢ م.

٧- سعد الله، محمد علي، في تاريخ الشرق الأدنى القديم، مصر-سورية القديمة، الإسكندرية، ٢٠٠١ م.

٨- سيف الدين، إبراهيم، وآخرون. مصر في العصور القديمة، ط ٢، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨ م.

٩- عصفور، محمد أبو المحاسن. معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، ط ٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨ م.

١٠- غلاب، محمد سيد، الساحل الفينيقي وظهيره في الجغرافية والتاريخ، بيروت، ١٩٦٩ م.

١١- فخري، أحمد. موجز تاريخ مصر من أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق. م، ط ٣، مكتبة الأنغلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١ م.

١٢- فيفر، فرانسيس. الفرعون الأخير، رعمسيس الثالث أو زوال حضارة عريقة، دار الحصاد، ترجمة فاطمة البهلول، دمشق، د. ت.

١٣- كلينغل، هـ. تاريخ سورية السياسي، ترجمة سيف الدين دياب، تدقيق عيد مرعي، دار المتنبي، دمشق، ١٩٩٨ م.

١٤- -المزين، عبد الرحمن، الفن التشكيلي في فلسطين عبر التاريخ، رسالة ماجستير، جامعة حلوان، ١٩٧٥ م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1- BOUNNI, A; LAGARCE, J et E; SALIBY, N; BADRE. Rapport préliminaire sur la troisième campagne de fouille (1977) à Ibn Hani. Syria, Paris, Vol. 3, 1979.

2- LECLANT, J. à la parole pour un hommage. comptes Rendus des Séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, Paris, part. 1, 2000 .

3- MORRIS, J, The Origin oh The Sea Peoples, Florida State University Classics, 2006.

4- NOUGAYROLl, J. et al, Ugaritica. Paris,vol. V, no.24, 1968.

5- SANDARS, N.K. The Sea Peoples. Warriors of the ancient Mediterranean, Revised Edition, Thames and Hudson, London, 1978.

6- SCHAEFFER, C. Enkomi-Alasia, nouvelles missions en Chypre 1946-1950, Paris, Klincksieck, Publications de la mission archéologique française et de la mission du gouvernement de Chypre à Enkomi, 1952.

7- SCHAEFFER, C. Syria, vol. 1-2, 1970.

8- The Cambridge Ancient History, vol II, part 2, Cambridge University, 1975.

أهم المستوطنات الرومانية في ولاية أفريقيا والهدف من إنشائها

د. عبد المجيد حمدان

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مقدمة:

لقد كان هدف الرومان من تأسيس المستوطنات في البلاد التي كانوا يحتلونها، هو حماية حدود الإمبراطورية الرومانية من الدول المجاورة لها، ومن الشعوب والقبائل المتمردة، وكذلك من أجل حماية الطرق التجارية والعسكرية، وتسكين الجنود المسرحين، وإيجاد فرص عمل للفقراء والعاطلين عن العمل من سكان روما وإيطاليا، الذين كانوا بشكل دائم يهددون الأمن العام.

ولتشجيع هؤلاء الجنود المسرحين والعاطلين عن العمل على الهجرة والإقامة في المستوطنات، قامت الدولة الرومانية بمنح كل مستوطن جديد حوالي مائتي فدان روماني معفاة من الإيجار، هذه المساحة الممنوحة لهؤلاء هي ضعف المساحة التي تمنح للأشخاص في إيطاليا، كما منح الإمبراطور (هادريانوس Hadrionus) المستوطنين حق الاتصال به مباشرة إذا وقع عليهم ظلم أو ضيم من وكلاء الإمبراطورية الماليين أو جباة الضرائب الجشعين، لذلك أصبح الإمبراطور (هادريانوس) ١١٧- ١٣٨ م محبوباً من رعايا الإمبراطورية الفقراء ويحظى عندهم بالتقدير والاحترام.

لقد أصبحت أفريقيا منطقة استيطان في عهد يوليس قيصر[١] الذي وضع الأسس الأولى للاستيطان الروماني في قرطاج[٢]، بسبب التوسع الروماني في الأراضي الإفريقية، لذلك أقاموا العديد من المستوطنات خارج المناطق التي احتلوها في عهد يوليوس قيصر ومن جاء بعده من الأباطرة.

هنا يجب أن نتساءل هل كان يوليوس قيصر هو أول من بدأ بتأسيس المستوطنات الرومانية في ولاية أفريقيا؟

- في الحقيقة لقد كانت هناك محاولات عديدة لإنشاء المستوطنات في ولاية أفريقيا الرومانية قبل يوليوس قيصر، وقبل تأسيس ولاية أفريقيا الرومانية، وخاصة عندما انتصر القائد الروماني (سكيبيو الأفريقي Scipie -Africonus) على القرطاجيين في موقعة زاما عام /٢٠٢ ق.م/ حيث وعد جنوده بأن يمنحهم الأراضي في المدن القرطاجية. وبالفعل هاجر عدد من المغامرين الرومان إلى المدن الساحلية في أفريقيا، حيث استقر معظمهم في مدينة (سيرتا – Cirta) عاصمة نوميديا(٣).

ولعل أول مشروع لإنشاء المستوطنات في ولاية أفريقيا يعود إلى عهد (جايوس جراكوس Caius - Gracchus) نقيب العامة في عام ١٢٣ ق.م، حيث قرر إنشاء مستوطنة رومانية في مكان مدينة قرطاج القديمة(٤) بسبب موقعها الاستراتيجي على البحر، وكذلك بسبب خصوبة أراضيها الزراعية(٥) وبالفعل حاول (جايوس جراكوس) إقناع مجلس الشيوخ الروماني بإنشاء هذه المستوطنة من أجل إسكان الجنود والفلاحين الرومان لزراعتها لصالح روما(٦).

كما أن الهدف الآخر من إنشاء المستوطنات هو امتصاص الفائض من سكان روما وإيطاليا، وكذلك إيجاد فرص عمل للفقراء وللعاطلين عن العمل، والذين يهددون الأمن العام، كما أن مجلس الشيوخ الروماني استفاد من إنشاء المستوطنات في إبعاد الزعماء الشعبيين الذين يهددون بحركاتهم الإصلاحية الشعبية مصالح الطبقة الأرستقراطية(٧)، لذلك أرسل مجلس الشيوخ الأشخاص المعارضين لسياسته إلى هذه المستوطنة(٨)، وبالفعل أسست مستوطنة قرطاج الجديدة في مكان قريب من قرطاج القديمة في أفريقيا وسميت بـ (يونونيا 9)(Iunonia)، حيث أرسل الرومان حوالي ستة

آلاف روماني لتعميرها(١٠). لقد كان هدف (جايوس جراكوس) من إنشاء هذه المستعمرة هو كسب تأييد طبقة العوام.

وبعد الانتهاء من بناء المستوطنة قام (جايوس) بتوزيع الأراضي على الذين عمروها لكي يقوموا بزراعتها(١١)، وبما أن أراضي هذه المستوطنة الزراعية كانت خصبة، لذلك أعطى كل شخص خمسين هكتارا = حوالي مائتي فدان روماني، هذه الأراضي التي منحهم إياها كانت معفاة من الإيجار(١٢)، هذه المساحة من الأرض، التي منحت لهؤلاء المستوطنين هي ضعف المساحة التي تمنح للأشخاص في إيطاليا، الهدف من هذا العطاء أو الكرم هو تشجيع الهجرة من إيطاليا إلى أفريقيا، ولأجل زيادة إنتاج القمح في هذه المستوطنة(١٣).

لكن مشروع إنشاء هذه المستوطنة فشل بسبب سياسة الاستعمار الروماني الذي كان يعتبر أن ولاية أفريقيا هي عبارة عن منطقة للإستغلال فقط، والتي يطمح فيها النبلاء وأصحاب رؤوس الأموال الرومان، لذلك كانوا يحاولون الحصول عليها، وخاصة أنها كانت تمتلك ميناء تجارياً هاماً، كما أنها غنية جداً بالمنتجات الزراعية وخاصة القمح، لقد كان جميع الأغنياء يريدون الحصول على أراضي هذه المستوطنة في العصر الجمهوري، لذلك عارض هؤلاء الاستيطان في ولاية أفريقيا الرومانية، من أجل أن يحققوا مصالحهم الخاصة، ولا يشاركهم فيها أحد، ونجحوا في إفشال مشروع (جايوس جراكوس)، لأنه يهدد مصالحهم ويقوي طبقة العوام(١٤).

وبالرغم من أن مجلس الشيوخ كان قد شجع مشروع (جايوس جراكوس) لإنشاء هذه المستوطنة، إلا أنه لم يتردد في توجيه ضربة قوية لجايوس عندما وجدت الذريعة الدينية والأكاذيب، حيث اتهموه بأنه تحدى الآلهة واستخف بما قاله (سكيبو الأفريقي) عندما دمر قرطاج "من أن اللعنة قد حلت على أرضها"(١٥). ثم طلب مجلس الشيوخ الروماني مغادرة المستوطنة، كما حذر الكهنة من إنشاء مستوطنة في هذا المكان، كما دعى

مجلس الشيوخ الجمعية الشعبية للاجتماع في روما واقترح عليها إلغاء قانون إنشاء المستوطنة في هذا المكان وفعلاً فشل هذا المشروع[١٦].

حيث انتهت حياة (جايوس جراكوس) بالانتحار وألغيت المستوطنة في عام ١٢١ ق.م، وألغي قانون روبريوس الخاص بإنشائها بمقتضى قانون آخر هو قانون مينوسيوس Minusius.

وبعد عشر سنوات صدر قانون (توريا Lex turia) لتقرير مصير المستوطنة، هذا القانون أعطى المستوطنين حق الاختيار بين البقاء في المستوطنة أو العودة إلى إيطاليا[١٧]، لقد رفض معظم المستوطنون ترك أراضيهم التي وزعت عليهم، رغم كل الضغوط التي مارسها عليهم أصحاب رؤوس الأموال لبيع أراضيهم والعودة إلى إيطاليا، كما بيعت بقية الأراضي للرأسماليين في مزاد علني، وتم تعويض المستوطنين عنها[١٨].

أما مجلس الشيوخ الروماني فقد احتفظ بجزء من الأرض منها لمستوطنين آخرين بموجب قانون (أوليا – Lex Apullia) عام ١٠٣ ق.م[١٩].

لكن هذا المشروع فشل أيضاً بسبب معارضة مجلس الشيوخ الروماني لإنشاء مستوطنات في خارج إيطاليا.

كما أن مشروع قانون (روللوس – Rullus) الذي صدر في عام /٦٣ ق.م/ والذي ينص على تشكيل لجنة من عشرة بريتوريين مهمتها الإشراف على إقامة مستوطنات في كلٍ من أفريقيا وصقلية وكورنثه وبرجامه، حيث منحت هذه اللجنة عشر سنوات لإنجاز هذا المشروع ولكنه لم ينفذ[٢٠].

- إذاً نستطيع القول بأن كل المحاولات من أجل إنشاء المستوطنات في أفريقيا قبل (يوليوس قيصر) قد باءت بالفشل.
- أما (يوليوس قيصر) فقد اتبع في سياسته إنشاء الولايات الرومانية، نفس الخطة السياسية التي استخدمها في إيطاليا، وهي إقامة المستوطنات خارج إيطاليا، وبدون

أن يأخذ موافقة مجلس الشيوخ الروماني، وبالفعل أنشأ المستوطنات في أفريقيا ثم أرسل إليها حوالي ثمانين ألف مستوطن روماني كان أغلبهم من جنوده[٢١].

- لقد رغب (يوليوس قيصر) من وراء هذه السياسة الاستيطانية نشر الثقافة الرومانية خارج إيطاليا، وكذلك التخلص من فائض السكان، ومن الأعداد الكبيرة من الجنود المسرحين حتى لا يقوموا بثورة ضده[٢٢].
- تعتبر (مستوطنة قرطاج – Colonia Carthago) من أهم المستوطنات التي أسسها يوليوس قيصر في ولاية أفريقيا الرومانية، لأنها تقع على طرق التجارة الهامة جداً، يضاف إلى ذلك وجود الميناءين المناسبين اللذين لا يوجد نظير لهما على ساحل أفريقيا الشمالية، وكذلك الأراضي الزراعية الخصبة جداً.
- ويخبرنا (أبيان – Appian) أن يوليوس قيصر عندما عسكر بقواته بالقرب من قرطاجة ودوّن "قرطاجة يجب أن تعمر"[٢٣]. وبهذا الشكل يكون قيصر قد نجح في إنجاز المشروع الذي بدأه (جايوس جراكوس)[٢٤]. لكن مستوطنة قرطاج الجديدة لم يكتمل استيطانها بشكل نهائي بعهد (يوليوس قيصر)، بسبب اغتياله في الخامس عشر من آذار عام ٤٤ ق.م في مجلس الشيوخ الروماني على يد فئة من المتآمرين بزعامة (ماركوس بروتوس – Marcus Brotus)، وإنما تم استيطانها النهائي في عهد ابن أخته (أوكتافيانوس) الذي انتهى من إنجاز هذا المشروع في عام ٢٩ ق.م[٢٥].
- كما أقام (يوليوس قيصر) عدداً كبيراً من المستوطنات في ولاية أفريقية الرومانية وخاصة حول قرطاج[٢٦]، وأوصى ببناء حوالي ست مستوطنات على طول الحدود مع نوميديا[٢٧]، بعد انتصاره في أفريقيا عام ٤٦ ق.م.
- كما أسس (يوليوس قيصر) عدداً من المستوطنات في ولاية أفريقية الجديدة من أهمها:

١) مستوطنة (هادروميتوم – Hadrumetem) أنشئها في جنوب قرطاجة.
٢) مستوطنة (تيسدروسي – 28) (Colonia Iulid Thysdrus).
٣) مستوطنة (كاربيتانا – Colonia Iulia Carpitana).
٤) مستوطنة (هيبوديارتيوس Colonia Iulid Hippo Diarrhtus) = (بنزرت) غرب أوتيكا.
٥) مستوطنة (كوروبيس = (قربة) – Colonia Iulia Curubis).
٦) مستوطنة (كلوبيا – Clupea).
٧) مستوطنة (نيابوليس – 29) (Colonia Iulia Neapolis).
٨) مستوطنة (ماكسولا – Maxula Colonia)(بجوار قرطاج).
٩) مستوطنة (كاربيس – 30) (Carpis). و...

لقد كان اختيار (يوليوس قيصر) لأماكن المستوطنات موفقاً لاسيما توفر المياه، والأراضي الزراعية الخصبة، وقربها من البحر الأبيض المتوسط من أجل ممارسة التجارة.

ولكن يجب أن نتساءل كيف كان (يوليوس قيصر) يحصل على هذه الأراضي لإنشاء مستوطناته في أفريقيا؟

لقد كان يحصل على هذه الأراضي لإنشاء المستوطنات عن طريق الشراء أو عن طريق مصادرتها من ممتلكات أعدائه، ثم يقوم بتوزيع هذه الأراضي على المستوطنين[٣١] الذين هم من العامة ومن قدماء الجند[٣٢].

- وبهذا الشكل يكون (يوليوس قيصر) قد وضع حجر الأساس لنظام الاستيطان في ولاية أفريقية الرومانية، كما أصبحت المدن التي أسسها عبارة عن مراكز لنشر الثقافة الرومانية، حيث أصبح من الصعب التمييز بين المستوطنين الرومان وبين أهالي البلاد الأصليين، وخاصة الذين منحهم المستوطنات (يوليوس قيصر) الجنسية

الرومانية، وظلت هذه المستوطنات تتطور مع الوقت حتى أصبحت عبارة عن مدن رومانية حقيقية[٣٣].

- وبعد اغتيال (يوليوس قيصر) في مجلس الشيوخ عام ٤٤ ق.م تابع (أوكتافيانوس) سياسة خاله (يوليوس قيصر) الاستيطانية، حيث كلف حاكم إقليم (بايتيكا – Baetica) في جنوب اسبانيا ببناء المستوطنات حيث نجح بذلك نجاحاً كبيراً[٣٤].
- وبعد أن أنتصر (أوكتافيانوس) على خصومه في روما، وكذلك في الشرق، عاد إلى روما في عام ٢٩ ق.م ليجد أمامه جيشاً ضخماً بلغ تعداده حوالي مليون جندي. لقد شعر بأنه لا يحتاج إلى هذا العدد الكبير من الجنود، وإذا ظلت هذه الأعداد الكبيرة من الجنود بدون حرب، أو إذا تأخر في دفع مرتباتهم فسوف يتمردون ويثيرون القلاقل، لذلك سرح حوالي ثلاثمائة ألف جندي، وكافأهم بأن منحهم أراضٍ جديدة، اشتراها لهم وآخر صادره من أراضي خصمه (أنطونيوس) بعض هذه الأراضي كان يقع في إيطاليا والبعض الآخر في المستوطنات التي أقامها لهم على طول الإمبراطورية[٣٥] حيث أرسل (أوكتافيانوس) حوالي ثلاثة آلاف جندي إلى أفريقيا لتسكينهم في المستوطنات التي أنشأها، ولعل أهمها كانت قرطاج[٣٦]، حيث أسكن بها أعداداً كبيرة من جنوده المسرحين ومن سكانها الأصليين، لذلك انتعشت فيها الديانات لاسيما الديانة القرطاجية والرومانية، وبعد أن منح السكان الوطنيين حقوق المواطنة الرومانية، لعب هؤلاء دوراً كبيراً في ثراء قرطاج مرة ثانية. كما أن (أوكتافيانوس) تابع سياسته الاستيطانية من حيث الاهتمام وإنشاء المستوطنات، لذلك أسس عدة مستوطنات في أفريقيا بعد أن أصبح إمبراطوراً ومنح لقب أغسطس في عام ٢٧ ق.م كان هدفه من إنشاء هذه المستوطنات كما ذكرنا من قبل هو تسكين جنوده المسرحين، ومن هذه المستوطنات نجد مستوطنة (أوثينا = Uthina)[٣٧] ومستوطنة (الكاف– Sicca veneria)[٣٨]. إنَّ أغلب المستوطنات التي أسسها

(أوكتافيان) كانت تحمل اسم عائلة (يوليوس قيصر) Iulia مما جعل بعض الباحثين يعتقد بأنها تعود إلى أيام (يوليوس قيصر). لكن ذلك لا يبطل تأسيسها من قبل أغسطس، حيث نجد أن بعضها كان يحمل اسم أغسطس لاسيما

Colonia Iulia Augusta Numidia simitt hensium

حيث ظلت هذه المستوطنة موجودة حتى نهاية عهد الإمبراطور (تيبيرويوس Tiberius 14-37م)[٣٩].

لقد كان اهتمام (اوكتافيان) في قرطاج وأبنائها كبيراً، حيث قام بتوسيعها، كما أن أغلب المستوطنات التي أنشأها كانت شبيهةً بالمستوطنات التي أنشأها (يوليوس قيصر). كما أن ولاية أفريقيا كانت تمون روما بالقمح لذلك كان الاهتمام بها كبيراً[٤٠].

أما لو تساءلنا من كان يعمر هذه المستوطنات الرومانية؟

إن أغلب هذه المستوطنات الرومانية قام بإعمارها قدماء الجنود المسرحين، وكذلك فقراء إيطاليا الذي فقدوا أراضيهم فيها نتيجة الحروب الأهلية لذلك منحوا هذه الأراضي بدلاً من أراضي وطنهم الأصلية[٤١].

أمَّا الهدف من إنشاء المستوطنات فكان:

١. من أهداف الاستيطان العسكري الروماني هو توزع الوحدات العسكرية جغرافياً بحيث تسهل عليها مهمة التدخل السريع كلما اقتضت الضرورة ذلك، وقد قدر (البيرتيني – E.Albertini) المسافات بين المراكز المحاذية للطريق الاستراتيجي المكون للخطوط الدفاعية بأنها تتراوح ما بين ٣٠ و ٣٥ كم[٤٢].

٢. لقد كان (يوليوس قيصر) يهدف من تأسيس المستوطنات تحقيق أهداف اقتصادية، إذ كان ذلك يوفر على خزانة الدولة الرومانية أموالاً طائلة، لأن أراضي الولايات الرومانية كانت أرخص سعراً من أراضي إيطاليا، وكان يأمل أيضاً أن يخلق منها مراكز زراعية وتجارية وعسكرية.

٣. وعالج (قيصر) بالمستوطنات مشكلة ازدحام إيطاليا وروما بأعداد غفيرة من الذين سُدَّتْ في وجوههم أبواب الرزق، معتمدين على هبات القمح التي تقدمها لهم الحكومة، لذلك أصبحوا عبئاً ثقيلاً على الخزانة.

٤. كما حل (يوليوس قيصر) أيضاً مشكلة سياسية، لأن هؤلاء العاطلين عن العمل كانوا مصدراً للشغب، واختلال الأمن، وسلاحاً يستغل في الانتخابات والتطاحن الحزبي.

٥. كما هدف (قيصر) من إنشاء المستعمرات أيضاً إلى نشر الحضارة الرومانية في الولايات، لاسيما اللغة اللاتينية، كما نشروا العمران والطرق والحواضر ذات الطابع الروماني(٤٣).

٦. وكذلك من اجل تسكين الجنود المسرحين حتى لا يقوموا بثورة ضد (قيصر) أو يثيرون القلائل، لذلك أسس (يوليوس قيصر) مستوطنة قرطاج لهذا الغرض.

٧. كما أن وجود هذه المستوطنات في أراضي الشعوب الخاضعة للرومان يحول دون قيام الثورات ضد الرومان، ويضمن ولاء المناطق التي تم إدماجها حديثاً للرومان.

٨. أيضاً مجلس الشيوخ الروماني استفاد من إنشاء المستوطنات في إبعاد الزعماء الشعبيين، الذين يهددون بحركاتهم الإصلاحية الشعبية مصالح الطبقة الارستقراطية، لذلك أرسل مجلس الشيوخ الأشخاص المعارضين لسياسته إلى هذه المستوطنة(٤٤).

٩. وكذلك توفير فرص عمل جديدة للحرفيين والتجار العاطلين عن العمل بسبب الحروب الأهلية والأزمة الاقتصادية التي تمر بها روما، لهذه الأسباب تم اختيار أماكن المستوطنات في الأراضي الخصبة أو في المراكز الصناعية أو التجارية، كما هو الحال في مستوطنة قرطاج في أفريقيا و(كابوا – Capua) و (تارنتوم – Tarentom) في إيطاليا(٤٥).

١٠.كما اتُخذت هذه المستعمرات، كمراكز لتجميع الوحدات العسكرية وتوجيهها بدون إبطاء نحو مكمن الخطر، والاستغناء عن ضرورة إبقاء القوات كلها تحت السلاح، مما يوفر على الدولة النفقات الباهظة التي يتطلبها ذلك، ويقيها من المخاطر التي تنجم عن عادة تجميع قوات كبيرة بلا واجبات تشغلها في وقت السلم، هذا إلى أن أرباب الاقطاعات العسكرية كانوا يقومون باستثمار إقطاعات مستعمراتهم، لذلك يسهمون في إنعاش الحياة الاقتصادية وغير ذلك من الفوائد الآنية المتوقعة(٤٦).

إذاً إن الهدف الأساسي من إنشاء هذه المستوطنات كان هدفاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وبالفعل لقد استطاع هؤلاء المستوطنون الجدد الاندماج مع سكان البلاد الأصليين، ومن ثم نشر الثقافة الرومانية، لاسيما في مملكة نوميديا(٤٧)، وكذلك في ولاية أفريقيا الرومانية(٤٨)، لذلك نجد وبعد أن انتهى (يوليوس قيصر) من حملته على أفريقيا، أنه وافق على رغبة جنوده في البقاء والاستقرار في ولاية أفريقيا، وعدم العودة إلى روما.

وفي الحقيقة إن أعداداً كبيرة من جنود (يوليوس قيصر) المسرحين، قد استقروا في المستوطنة التي أسست في مكان قرطاج القديمة، التي تشتهر بخصوبة أراضيها الزراعية، ومركزها التجاري، كما استقر عدد آخر من المستوطنين في كلٍ من مستوطنات (كاربيس- Carpis). و(نيابوليس= Neapolis) وثيسدروس وهيبوديارتيوس(٤٩).

وبعد أن مُنح هؤلاء الجنود هذه الأراضي الزراعية نجدهم قد فضلوا العمل بالصناعة أو التجارة بدلاً من العمل في الزراعة لأنهم لم يعتادوا على الحياة الريفية(٥٠).

في الحقيقة إن أغلب المصادر تقول: بأن أغلب المستوطنات التي أنشئت في العصر الجمهوري في ولاية أفريقيا الرومانية قد خصصت للجنود المسرحين من الجيش الروماني(٥١).

وكذلك نجد بأن (أوكتافيان) قد أسس المستوطنات لجنوده القدامى المسرحين من الفرقة Veteroni بعد الانتهاء من الحروب الأهلية وانتصاره على قتلة (يوليوس قيصر) وعلى انطونيوس وكليوباترا، لهذه الأسباب فكر أكتافيانوس في إنشاء المستعمرات العسكرية من أجل تسكين جنوده المسرحين فيها. وبالفعل فإنَّ أغلب المستوطنات التي أنشأها في ولاية أفريقيا الرومانية كانت عسكرية، أي كانت مخصصة لتسكين جنوده المسرحين من الجيش فقط، بعكس المستوطنات التي أنشأها (يوليوس قيصر) التي سكن فيها المدنيون والعسكريون. ومن هذه المستوطنات نجد:

- مستوطنة (قرطاج = Cartago).
- مستوطنة (ماكسولا = Maxula).
- مستوطنة (أثينا = Uthin).
- مستوطنة (ثوبوربو الكبرى = Thuburbo Maius)[٥٢].

- لقد أختار (أوكتافيان) مواقع إستراتيجية لهذه المستوطنات لاسيما وقوعها على البحر لكي ينشط الحركة التجارية أو في المناطق الداخلية والتي أراضيها الزراعية خصبة[٥٣]، وحصن هذه المستوطنات ضد خطر القبائل المحيطة بولاية أفريقيا من الجنوب[٥٤]. ومن هذه المستوطنات التي أسست على الحدود الجنوبية مستوطنة (ثيفستي = Theveste)[٥٥].
- كما أسس التجار وأفراد الطبقة الرأسمالية عدداً آخر من المستوطنات في ولاية أفريقيا الرومانية، من أجل تشغيل أموالهم في التجارة والصناعة وبقية الأعمال الأخرى التي تدر عليهم الأرباح، لذلك لم تعترض الحكومة الإمبراطورية على هجرة هؤلاء المواطنين إلى ولاية أفريقيا الرومانية وإنما شجعتهم على ذلك حيث منحهم أغسطس كافة التسهيلات اللازمة لممارسة نشاطهم[٥٦].

- كما أسس (أكتافيان) عدداً آخر من المستوطنات كان الهدف من تأسيسها حماية الموانئ والطرق التجارية الهامة من تعرضها لخطر اعتداءات السكان المحليين، أيضاً نجد بأن هذه المستوطنات الرومانية قد لعبت دوراً مهماً في نشر الثقافة والفكر الروماني[٥٧]، بعهد (يوليوس قيصر)، و(أوكتافيان).

لو تساءلنا هل توقف إنشاء المستوطنات بعد أغسطس؟

في الحقيقة لقد استمر الأباطرة الذين جاءوا بعد (أكتافيان) في إنشاء المستوطنات في ولاية أفريقيا الرومانية، من أجل تسكين الجنود المسرحين من الجيش، كما منحوهم الامتيازات، لاسيما إعفاءهم من الضرائب من أجل تشجيعهم على الاستقرار في هذه المستوطنات الجديدة التي أنشئت في جميع ولايات الإمبراطورية الرومانية، وتشجيعهم على الاندماج مع السكان المحليين[٥٨].

لقد تألفت حركة الهجرة من روما إلى هذه المستوطنات في أفريقيا بالدرجة الأولى من الجنود المسرحين[٥٩]، بسبب الامتيازات التي منحهم إياها الأباطرة، لاسيما الإعفاء من الضرائب ومنحهم المساحات الكبيرة من الأراضي التي تحدثنا عنها، وهذا ما شجعهم على البقاء في هذه المستوطنات ورفضهم العودة للوطن[٦٠].

وفي عهد الإمبراطور (تراجان- Trajan) ٩٨- ١١٧ م، أصبح جنود هذه المستوطنات عبارة عن خليط من سكان الولايات الرومانية الذين خدموا في الجيش الروماني.

وخلال فترة حكم الإمبراطور (هارديان- Hadrian) ١١٧- ١٣٨ م توقف إنشاء المستوطنات في ولاية أفريقيا للجنود المسرحين[٦١].

إلا أن (هارديان) شجع على إنشاء المستوطنات الحربية في أفريقيا، والتي أطلق عليها اسم (المحميات)، ومن خلال أسمها نستطيع أن نؤكد أن مهتمها كانت دفاعية،

هذه المستوطنات الحربية أو المحميات خصصت لسكن المجندين الذين يخدمون في هذه المناطق، حيث كانت تقام بجانب المعسكرات الرومانية[٦٢].

أما الإمبراطور (سبتيموس سيفيروس) ١٩٣- ٢١١ م، فقد اتخذ إجراء آخر لتطوير هذه المستوطنات، حيث انتزع الأراضي من سكان البلاد المفتوحة، ووزعها على هؤلاء الجنود لكي يقوموا بزراعتها في أوقات السلم. لقد كان هدف الأباطرة دفاعياً بالدرجة الأولى بحيث أن هذه المستوطنات الرومانية كانت تحيط بكافة حدود ولايات الإمبراطورية الرومانية[٦٣].

هذه (المحميات) أو المستوطنات كانت تقام بالقرب من المراكز العسكرية الكبرى من أجل أن تؤمن احتياجاتها من المواد التموينية، بينما تقوم هذه المراكز العسكرية بحماية هؤلاء المستوطنين الذين عمروها[٦٤].

ومع مرور الوقت نجد أن هؤلاء الجنود الذين استقروا في مستوطناتهم، وعملوا بالزراعة قد تحولوا إلى مواطنين مدنيين[٦٥].

الخاتمة

لقد اختلف نظام الحكم في المستوطنات الرومانية من مستوطنة لأخرى، وذلك حسب الغرض الذي أنشئت من أجله هذه المستوطنة وطبيعة المستوطنين الذين عمروها، ودرجة تمتعهم بالجنسية الرومانية، وكذلك النشاط الذي يمارسونه سواء كان زراعياً أم تجارياً أم عسكرياً، كما أن كلمة Coloni تعني المستوطنين وكلمة Colonus تعني مالك قطعة صغيرة من الأرض، وهذه الكلمة كانت تعني قديماً عبد أو خادم، ولكنها أصبحت تستخدم للإشارة إلى المستوطن المستقر في أي من المدن الرومانية في الأراضي التي كان يحتلها الرومان منذ العصر الجمهوري.

وقد ظهرت مشكلة تنظيم هذه الأراضي بعد زيادة حركة التوسع الروماني، لذلك لجأ مجلس الشيوخ الروماني إلى سياسة منح جزء من هذه الأراضي للمواطنين الرومان الفقراء ليعمروها، وكذلك إلى الجنود المسرحين من الجيش، ومن هنا جاءت فكرة تأسيس المستوطنات لتكون مراكز رومانية في الأراضي المفتوحة.

إن وجود هذه المستوطنات في أراضي الشعوب الخاضعة للرومان يحول دون قيام الثورات ضد الرومان، ويضمن ولاء المناطق التي تم ضمها حديثاً للرومان، كما أن هذه المستوطنات، قدمت فرص عمل للعمال، وكذلك طورت أحوال الفلاحين، لذلك يعتقد الرومان بأن المواطنين الصالحين والجنود الأقوياء انحدر أغلبهم من هذه المستوطنات، وعدداً كبيراً من زعماء السناتو حتى قيل في القرن الثالث الميلادي إن من بين كل ثمانية من أعضاء مجلس الشيوخ لا بد وأن يوجد واحد منهم مولود في ولاية أفريقيا.

الهوامش

1- Fritz, Neichel Heim Op. Cit. P. 359.

٢- عمار المحجوبي: ولاية أفريقيا – ولاية أفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السويري – تونس، ٢٠٠١ م، ص ٨٩.

3- Gsell, S.: Op. cit., Tom VII. P. 64.

4- Appian: I. VIII. XX. P. 136.

٥- أندري ايمار: تاريخ الحضارات العام (روما وإمبراطوريتها) المجلد الثاني – بيروت، ١٩٨٦ م، ص ٦٦.

٦- محمد البشير الشنيتي: سياسة الروضة في بلاد المغرب، الجزائر، ١٩٨٥ م، ص ١١٧.

7- Appian: I. VIII. XX. 136.

٨- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، القاهرة، ١٩٨٥ م، ص ٦٨.

٩- عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيبريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، القاهرة، ١٩٨٨ م، ص ٢٥.

10- Appian: I.VIII. XX. 135.

١١- محمد البشير الشنيتي: سياسة الروضة في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص ١٢٤.

١٢- عبد اللطيف أحمد علي، المرجع السابق، ص ٢٥.

١٣- شارل أندري جوليان – تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي وبشير بن سلامة، تونس، ١٩٦٨ م، ص ١٥١.

١٤- محمد البشير الشنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني – الجزائر، ١٩٨٤ م، ص ٥١.

15- Appian: III.I.III., 24.

١٦-محمد البشير الشنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، المرجع السابق، ص ٥١.

١٧-محمد البشير الشنيتي: سياسة الروضة في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص١٢٧.

١٨-شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص ١٥٤.

١٩-شارك أندري جوليان: نفس المرجع، ص ١٥٣.

٢٠-سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، القاهرة، ١٩٨٢ م، ص ٢٥٥.

٢١-محمد بشير الشنيتي: سياسة الروضة في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص١٣٠.

22- Dio Cassius: XL III. 14.1.

٢٣-فينفريد الليغر: قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة: د. عيد مرعي، دمشق، ٢٠٠٨ م، ص ١٤٩.

24- Plinius: V.III.P. 175.

٢٥-محمد محفل، محمد الزين: تاريخ الرومان، دمشق، ٢٠٠٣ م، ص ١.

26- Suetonius: Divus Iuliuis. XL II. 1.

27- Gseell, s.: Op. cit., Tom. VIII. P. 177.

٢٨-محمد البشير السنيتي: سياسة الروضة في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص ١٢٩.

29- Haywood, R.M.: Op. cit. P. 31.

30- Plinius: V. III. 24.

٣١-شارل أندري جوليان، المرجع السابق، ص ١٦٩.

32- Gsell, S. : Op. cit., Tom. VIII. P. 172.

٣٣-إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٨٣ م، ص ٦٨٤.

٣٤-سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص ٣٨٦.

٣٥- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، المرجع السابق، ص ٦٩.

٣٦- سيدي الناصري: نفس المرجع، ص ٤٤.

37- Haywood. R. M. Op. cit., P. 27.

٣٨- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص ١٧٠.

39- Gessll. S. Op. cit., Tom. VIII. P. 197.

40- Gessll. S. Op. cit., Tom. VIII. P. 197.

41- Barton. I. M. Africa in the Roman Empire, Accra. 1972. P. 29.

٤٢- عبد العزيز حجازي: روما وأفريقيا، المرجع السابق، ص ١٥٣.

43- E. Albertini: route Forntiere, Bulletin Cinguanteraire de BSGAO, 1928. p. 39.

٤٤- عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، المرجع السابق، ص ٣٠٢.

٤٥- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، المرجع السابق، ص٦٨.

٤٦- سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص ٣١.

٤٧- مفيد العابد - سورية في عصر السلوقيين - دمشق، ١٩٩٣ م، ص ٣٢٨.

٤٨- سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

٤٩- إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان، الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٦٨٦.

٥٠- إبراهيم نصحي: نفس المرجع، ص ٦٨٢.

٥١- رستوفتزف، م: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي- تعريب زكي علي، محمد سليم سالم، الجزء الأول، القاهرة، ص ٦٤.

52- Mahjobi, A. : Op. cit., P. 478.

53- Gsell. S. Op. cit., Tom. VIII. P. 242.

٥٤- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، المرجع السابق، ص ٤٥.

55- Gsell, S. : Op. cit. Tom VIII. P. 242.

٥٦- شارل أندري جوليان: المرجع السابق، ص ١٩٩.

٥٧- روستوفتزف، م: الجزء الثاني، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

٥٨- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، المرجع السابق، ص ١٧، ٤٥.

٥٩- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، المرجع السابق، ص ٤٥.

60- Graham, Alexaner: Op. cit., P. 35.

٦١- محمد البشير الشنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، المرجع السابق، ص ١٩١.

62- Mahjobi, A. : Op. cit., P. 492.

٦٣- عبد الرحمن بن مرزوق: تأسيس مدينة تيمقاد، مجلة التراث، العدد الثاني، الجزائر، ١٩٨٧ م، ص ٤٠.

٦٤- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

٦٥- عبد الرحمن بن مرزوق: المرجع السابق، ص ٤٠.

٦٦- محمد البشير الشنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، المرجع السابق، ص ١٩٢.

67- Clousing. Roth: Op. cit., P. 236.

المصادر والمراجع الأجنبية

1- Appian. The Hisory of Roman, Book 2, loeb classical.

2- Barton. I. M. Africa in the Roman Empire. Accra. 197.

3- E. Albertini: Route forntiere, Bulletin cinguantenaire de BSGAO, 1928.

4- Dio cassius Histaria Romana: Carry. E. Dio's Roman History, loeb classical library London. 1968.

5- Plinius, Historia Naturale: Rackham. H, pling, Natureal History loeb classical lirary, London, 1942.

6- Gsell. S, les monuments antiques de l, Algerie, Tome premier. Paris, 1901.

7- Clousing, R., The Roman Colonate, (1925.(

8- Rostovtzeff, M., Studien Zur Gesch, Combridge 1965.

9- Pliny: Notural History – Book V-VI mrans. By. H. Rackam – loeb classical London 1940.

المصادر والمراجع العربية

١- أندريه إيمار: تاريخ الحضارات العام (روما وإمبراطوريتها، المجلد الثاني، بيروت ١٩٨٦ م.

٢- إبراهيم نصحي: تاريخ الرومان من أقدم العصور حتى عام ١٣٣ ق.م، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٨٣ م.

٣- محمد البشير الشنيتي: سياسة الرومنة في بلاد المغرب، الجزائر ١٩٨٥ م.

٤- محمد البشير الشنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، الجزائر، ١٩٨٤ م.

٥- سيد الناصري: تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري القاهرة، ١٩٨٥م.

٦- سيد الناصري: تاريخ وحضارة الرومان من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية القاهرة، ١٩٨٢ م.

٧- شارل أندري جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي، وبشير بن سلامة، تونس ١٩٦٨ م.

٨- عبد العزيز حجازي: روما وأفريقيا، د. ت ..

٩- عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني، عصر الثورة من تيبريوس جراكوس إلى أوكتافيوس أغسطس، القاهرة، ١٩٨٨ م.

١٠- عبد الرحمن بن مرزوق: تأسيس مدينة تيمقاد، مجلة التراث، العدد الثاني، الجزائر، ١٩٨٧ م.

١١- رستوفتزف، م: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاقتصادي والاجتماعي – تعريب زكي علي، محمد سليم سالم، الجزء الأول، القاهرة، د. ت..

١٢- عمار المحجوبي – ولاية أفريقيا من الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد السوري، تونس، ٢٠٠١ م.

١٣- فينفريد الليغر – قرطاجة مدينة البونيين والرومان والمسيحيين – ترجمة، د. عيد مرعي، دمشق، ٢٠٠٨ م.

١٤- محمد محفل – محمد الزين: تاريخ الرومان، دمشق، ٢٠٠٣ م.

١٥- مفيد العابد: سورية في عصر السلوقيين – دمشق، ١٩٩٣ م.

القباب في العمارة الإسلامية

نشأتها وتطورها حتى نهاية القرن ٧ هـ/ ١٣ م

أ. م. د. محمد شعلان الطيار

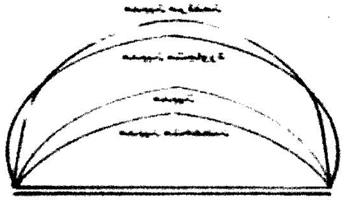
قسم الآثار/ جامعة دمشق

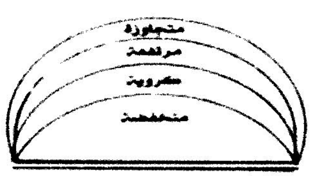
مقدمة:

شكلت العمارة العنصر الفني الأهم والأغنى للدلالة على تقدم الشعوب ورقيها، والتي تُعدّ بمضمونها تجسيداً لكافة المفاهيم واختزالا للقيم والمعتقدات والثقافات الخاصة بأي حضارة لاسيما الحضارة الإسلامية التي كان لها شخصيتها الفنية المتكاملة والمستقلة في مجال العمارة والفنون وتخطيط المدن والمشيدات المدنية والعسكرية، والتي اتسمت بسمات فنية فريدة ميزتها عن غيرها من المنجزات الحضارية السابقة، وأكسبتها هويتها الإسلامية وطابعها الإقليمي والمحلي الخاص، هذا وقد تميز فن العمارة الإسلامي باستيعابه لمجمل المدارس الفنية والإنشائية السابقة التي عمل على صياغتها وتطويرها بما يتوافق مع المفهوم الفكري والعقائدي للحضارة الإسلامية التي أكسبت هذا الفن نمطاً فنياً ومعمارياً مستقلاً ومميزاً وجعلته مصدر الهام واقتباس للحضارات المعاصرة، على صعيد التوزيع الفراغي واستخدام العقود والأقواس والقباب والمقرنصات، كذلك التراكيب الزخرفية ذات المضامين التزيينية والرمزية المستمدة من روح الإسلام التي أكسبت المشيدات المعمارية مسحة روحية وحسية مثيرة للتأمل والتخيل، حيث أشارت فكرة الصحن المحاط بالأروقة أو الأواوين الأربعة إلى جهات الكون الأربعة، في حين عبرت المئذنة عن فكرة التسامي إلى العلا والتوحيد، وأشارت القباب في مضمونها الرمزي إلى القبة السماوية بنجومها وكأنها التيجان

المرصعة بالأحجار الكريمة، وهو ما عبر عنه المقري التلمساني في مؤلفه نفح الطيب بقوله"..*وظهور القباب مؤللة وبطونها مهللة، كأنها تيجان رصع فيها ياقوت ومرجان..*".

والقبة هي أحد أنواع التسقيف المعماري المركب من نصف كرة ذات جسم ثلاثي الأبعاد محدب من الخارج ومقعر من الداخل، ناجم عن تكرار وتتابع مجموعة الأقواس المتقاطعة الأحادية المركز، التي تم التعرف عليها عندما قام مهندسوا البناء الرومان بتدوير مجموعة الأقواس الحجرية حول محور مركزي، حيث اكتشفوا أن الشكل الناجم عن تتابع الأقواس أحادية المركز وفق المنظور الهندسي هي القبة ثلاثية الأبعاد، التي تمتعت بقدرة كبيرة على الصمود أمام ضغط الأحمال الإنشائية مع إمكانية مدها فوق مساحات إنشائية واسعة(١) دون الحاجة لوجود أعمدة داعمة(٢)، نظراً لارتكازها على الرقبة الدائرية، المربعة، المسدسة أو المثمنة التي تسهل عملية نقل وتوزيع الحمل الإنشائي على القاعدة التي تنقله بدورها إلى الجدران الجانبية للمشيدة المعمارية عبر المقرنصات أو الكوابيل القاصرة، التي تعمل على سد الفراغ بين التشكيل الهندسي للجسمين(الحامل والمحمول)، حيث تساعد المقرنصات والكوابيل على نقل وتوزيع وزن القبة على الرقبة المربعة أو المثمنة التي تتخللها مجموعة من نوافذ الإنارة والتهوية للمشيدة المقبية(٣).

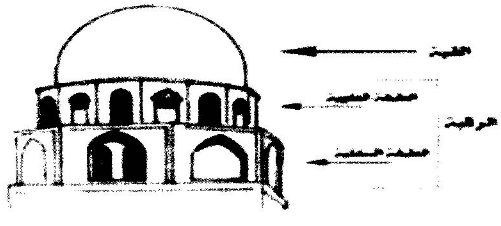




شكل يوضح الفوارق بين اشكال مقاسات القباب

وتتركب القبة بشكلٍ عام من:

- القاعدة: تشكل منطلق تحول مسقط البناء من الشكل المربع إلى المدور وتتخذ الشكل الأسطواني، المربع، المسدس أو المثمن.
- الرقبة: وهي الجزء الحامل للطاسة، وتتركب الرقبة بشكل عام من طبقة أحادية أو مزدوجة أسطوانية، مربعة أو مثمنة السطوح، تتخللها النوافذ ذات القمريات الزجاجية الملونة والمحاريب التزيينية، وغالباً ما يحوي السطح الخارجي للرقبة على نطاق أو سطح مرتد عن مستوى الجدار يتضمن شريطاً من الكتابات القرآنية المنحوتة على القباب الحجرية أو الجصية النافرة على القباب القرميدية.
- الطاسة: وحدة معمارية يغلب عليها الشكل النصف الكروي المنفوخ، المضلع أو المخروطي الشكل المحمول على رقبة أسطوانية أو مضلعة(٤).
- خاتمة القبة: وهي النهاية العلوية للقبة، وتتخذ أشكالاً متباينة تراوحت فيما بين المبسطة، المنفوخة والسهمية الشكل.



- **القباب "نشأتها وتطورها":**

يعد نظام التسقيف بالقباب أحد الأشكال التطورية لعمليات التسقيف الهرمية الأولى الناجمة عن استناد الأغصان أو الجذوع الخشبية أو الشرائح الحجرية المستخدمة في تسقيف المشيدات المحدودة الفراغ، والتي لم تكن تصلح بأي شكل من الأشكال في حال اتساع مجال التسقيف دون وجود دعائم استنادية، الأمر الذي

فرض على المشيد التحول نحو الشكل المقبى الذي يؤمن نوعاً من نقل وزن كتلة التسقيف من الوضع العمودي إلى الوضع المائل الموزع على الجدران الجانبية دون الحاجة لوجود دعائم استنادية، مع إمكانية إعطاء المشيد حرية فرد الجسم النصف كروي فوق الكتل الفراغية المختلفة الأبعاد، الأمر الذي جعل من نظام التسقيف بالقباب يأخذ منحىً تطورياً عبر الزمن، ولعل أقدم أنماط التسقيف البسيطة بالقباب النصف كروية المنتظمة هي التي عرفتها منطقة الجزيرة الفراتية(٥) شمال العراق وشرق سورية المؤرخة على أوائل الألفية الرابعة قبل الميلاد(الفترة ماقبل السومرية)(٦)، قبل أن يقتبسه عمال البناء الإغريق الذين اعتمدوا نظام التسقيف بواسطة القباب ذات الجسم المدبب المنحدر (الأطر الحجرية "عمود، جسر")(٧) في تسقيف المشيدات الجنائزية، في حين حافظت عمارتهم المدنية والدينية على نمط التسقيف الجملوني والمستوي، وذلك على النقيض من الحضارة الرومانية التي اقتبست من الحضارات الشرقية العديد من مقوماتها الفنية والمعمارية وعملت على تطويرها، حيث شهد فن العمارة خلال العصر الروماني تطوراً حقيقياً على الصعيد الهندسي والتقني، من حيث استخدام الحجارة البازلتية والكلسية المنحوتة في عمليات البناء والتسقيف المقبب بدلاً من الآجر والطين(٨)، الأمر الذي مكن المشيدات المعمارية الرومانية من الصمود في وجه عوامل التعرية والإنهاك البيئي، ونجح بعض كبار المهندسين المعماريين الرومان كأنتيموس التراليسي وإيزيدور المليني في تشييد العديد من القباب الرائعة كقبة مبنى البانتينون في روما(١١٨- ١٢٨ م)(٩) التي تعد من أكبر القباب النصف كروية على الإطلاق(١٠)، يليها في ذلك قباب التسقيف الضخمة في حمامات بصرى الشام وشهبا المشيدة من حجر الخفان البازلتي، التي شكلت إلهاماً حضارياً لفن العمارة البيزنطية الذي اعتمد نظام التسقيف بالقباب في مجمل مشيداته المعمارية (بيوت المعمودية، والكنائس والأديرة..)، وخير مثال على ذلك كنيسة سانتا كوستانزا- روما (٣٥٠ م)(١١) التي تميزت بقبتها الحجرية، وكنيسة القديس سمعان

العمودي- حلب (٥٠٠ م) التي تميزت بقبتها الخشبية الكبيرة[١٢]، يليها في ذلك كنيسة القديس جورجيوس في ازرع – حوران (٥١٥ م)، التي تميزت بمسقطها المربع من الخارج، وصحنها المركزي المثمن المسقوف بقبة مخروطية حجرية conical form مرفوعة على أربعة دعائم مثمنة، يحيط بها رواق مثمن مسقوف بالربد البازلتي المستوي، المربوط مع القبة عبر تسويات بازلتية شبه منحنية، وقبة كاتدرائية بصرى الشام، كذلك قبة كنيسة القيامة التي شكلت رمزاً دينياً هاماً في بيت المقدس[١٣]؛ يليها في ذلك كاتدرائية أياصوفيا في اسطنبول(٥٣٢ م)[١٤]، التي تميزت بقبتها النصف كروية المفلطحة التي يبلغ قطرها ٣١ متراً، وتحيط بها النوافذ الموزعة على رقبة القبة المحمولة على أربعة مثلثات كروية pendentives محمولة على عدد من الدعامات الخارجية الضخمة وسلسلة من الأشكال شبه المقببة المتوضعة فوق الصالات المربعة التي تطور عنها المسقط الأفقي للكنائس وبما يتوافق مع استعمال القباب حيث أصبح المسقط عبارة عن صحن مربع كبير مسقوف بقبة مركزية، يحيط به أربعة أروقة على شكل الصليب، سقفت بقبوات مستطيله مهدية الشكل، في حين سقفت الحشوات أو الأركان الأربعة المحصورة بين الصحن وتلك الأذرع بقباب صغيرة أو مصابات نصف دائرية "grointed vaults" أكسبتها نوعاً من الرونق والجمال الذي تجلى في معظم المشيدات البيزنطية التي تركت بصمات واضحة على العمارة الإسلامية خلال فترة الخلافة الأموية، حيث كان أول ظهور واضح لنظام القباب الإسلامي في عمارة قبة الصخرة التي شيدها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في العام (٧٢ هـ/ ٦٩١ م)، والتي تأثرت بشكلٍ واضح بعمارة كنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة ازرع في حوران ودير سمعان العمودي في حلب، حيث اتخذت قبة الصخرة التي يبلغ قطرها الداخلي ٢٠,٤٤م، وارتفاعها ٣٠,٢٠م[١٥]، النمط النصف كروي الخشبي المدعم بالصفائح الرصاصية[١٦]

والمغلف من الخارج بألواح النحاس المذهب، والمرفوعة فوق رقبة اسطوانية محمولة على ستة عشر عقداً مدبباً ترتكز على أربع دعائم متناوبة مع اثني عشر عموداً ذات عقود مدببة مخصصة لدعم الرقبة الاسطوانية الحاملة للقبة التي يتخللها ستة عشر نافذة تؤمن الإضاءة والتهوية للمشيدة المعمارية ذات المسقط المثمن(١٧)، وهو ما أكده الرحالة المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في وصفه لقبة الصخرة(١٨) التي شاهدها في العام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦ م. قائلاً: "*..إنها على بيت مثمن بأربعة أبواب... داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة من أجل الرخام وأحسنه، وهي لا نظير لها. قد عقدت عليها أروقة داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة. مثمن، على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار، والقبة فوق المنطقة طولها من القاعدة الكبرى مع السَّفود في الهواء مائة ذراع ترى فوقها من البعد سفودا حسنا طول قامة وبسطة. والقبة على عظمها ملبسة بالنحاس المذهب. والقبة ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقة والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الأرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح وفي وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصناع لتفقدها ورمها...*" (١٩)، يليها من حيث الأهمية والقدم قبة الجامع الأموي الكبير بدمشق الذي شيده الوليد بن عبد الملك(٢٠)، وكذلك حمامات قصير عمرة في البادية الأردنية ٩٢ هـ/ ٧١٤ م، التي تميزت بقبابها البسيطة المركبة من نصف كرة ملساء الوجهين(٢١)؛ وكذلك قبة حمام الصرح التي تميزت بسطحها الخارجي الأملس وباطنها المركب من قنوات أو ضلوع مقعرة متلاصقة تبدأ من الحافة السفلى للقبة المحمولة على العقود والمثلثات الكروية التي ابتكرها المعماريين الشاميين منذ القرن الثاني الميلادي.

ومن المؤكد أن عملية التسقيف بواسطة القباب قد شكلت انعكاساً طبيعياً للواقع البيئي والمناخي والوظيفي المتمثل في:

- تصريف مياه الأمطار ومنع تجمعها على السطوح وتحويلها نحو خزانات الصرف.

- التخفيف من حدة الحرارة ضمن المشيدات المعمارية.
- القدرة على عكس الحد الأكبر من أشعة الشمس المسلطة على السطح المحدب للقبة، والتخلص من القسم الآخر الذي ينتقل إلى الداخل على شكل طاقة عبر النوافذ الزجاجية الموزعة بشكل متناظر على السطوح المستوية للرقبة.
- تأمين الإنارة والتهوية إلى الصالات الكبرى عبر النوافذ المحيطة بالرقبة.
- توزيع كتلة الوزن الناجمة عن الثقل الوزني للقبة بشكلٍ متوازٍ على الجدران الجانبية الحاملة.
- الاستفادة من الجسم المقوس الأجوف للقبة في تضخيم الصوت ضمن المشيدة وفي بيت الصلاة.
- التقليل من استخدام الحواجز الجدارية عند تسقيف الصالات الضخمة.
- كسر الجمود في المشيدات المعمارية والتخفيف من حدة المنظور في الكتل المعمارية الضخمة الجامدة.

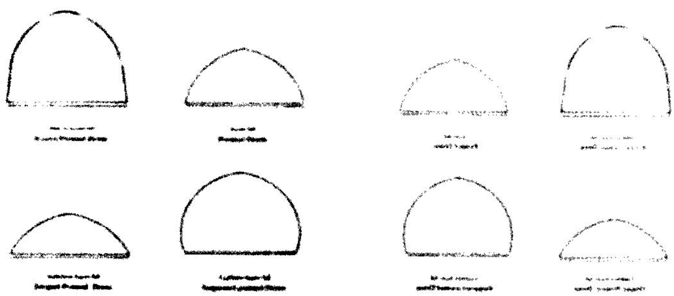
هذا إلى جانب تشكيلها انعكاساً ضمنياً للطابع الرمزي والروحي المتمثل في الكون الذي ترمز إليه القبة السماوية بنجومها وكواكبها وذلك طبقاً للعديد من المصورات الجغرافية القديمة التي رسمت السماء على شكل قبة؛ وإذا أخذنا بهذا الرأي فيمكننا التأكيد على أن التشكيل المقبى النصف دائري والمفلطح بوظيفتيه الخدمية والروحية قد اقتبسه المعماريون المسلمون عن العمائر الكلاسيكية المحلية، حيث أضحت القبة والمئذنة فيما بعد من لوازم العمارة الدينية الإسلامية الهادفة إلى تكوين صورة جمالية متوازنة عن فكرة الكون ومبدأ التوحيد الذي تجلى في المعنى الرمزي للقبة السماوية والمئذنة[٢٢] اللتين أكسبتا المشيدة المعمارية نوعاً من القدسية والعظمة التي تدعو إلى الخشوع والتأمل والتواصل مع الخالق عبر المعنى الرمزي المتجلي بالقبة والمئذنة والمحراب والتراكيب الزخرفية[٢٣].

- **التصنيفات العامة للقباب:**

نظراً لتعقيدات الوضع الهندسي عند تشييد الحيز الفراغي للقباب وضرورة توفر الحامل الاستنادي المؤقت الذي يؤمن عملية رصف حجارة الجسم المحدب للقبة، حيث لجأ مشيدوا القباب على كافة أشكالها وأنواعها إلى استخدام القالب الخشبي أو المعدني المتحرك المستخدم كدعامة مؤقتة تسهل عملية رصف قطع الطوب أو الحجارة وفق النمط المطلوب الذي يختم بالحجر المركزي أو القفل[٢٤] الذي يعمل على تثبيت حجارة القبة وتوزيع قوى الرفس الجانبي والعمودي فيما بينها، وذلك قبل فك وإزالة القالب أو الصقالات الخشبية المعتمدة في تشييد القباب على اختلاف أشكالها والمصنفة ضمن ثلاثة فئات رئيسية:

- الأولى وتشمل القباب نصف الكروية المنتظمة Spherical Domes، التي تفرع عنها مجموعة من الأنماط تراوحت فيما بين النمط الكروي المنتظم، الكروي المرتفع، الكروي المتجاوز والكروي المنخفض ذات السطح الخارجي الأملس، المحزز أو المضلع بأنواعه، والتي تعد في مجموعها الأكثر انتشاراً في الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي.
- الثانية وتشمل القباب المدببة ذات الشكل النصف كروي المتطاول Pointed Domes، الذي تفرع عنه مجموعة القباب المدببة المرتفعة، والمنخفضة، والمتجاوزة والبصلية التي اقتصر استخدامها على المشيدات المعمارية ذات المجازات الفراغية المحدودة المساحة.
- الثالثة وهي القباب ذات الضلوع المتقاطعة Ribbed domes، وتعتمد في تشييدها على نظام تقاطع الأقواس الداخلية التي اتخذت شكل الأعشاش أو الوحدات الهندسية الشبيهة بالأرابيسك، والتي عرفت أول مرة عندما قام مهندسوا الخليفة الحكم المستنصر في الأندلس (٦٩١- ٦٩٦ هـ) بتنفيذ هذا النموذج المحدث عند تشييد

قباب الجامع الكبير في قرطبة (قبة الوضوء عند مدخل الزيادة في البلاطة الوسطى، وقبة مربع المحراب المحاطة بقبتين صغيرتين مضلعتين)[٢٥]. والتي تطورت أشكالها فيما بعد حيث اختلطت الضلوع الزخرفية البارزة بالمقرنصات اختلاطاً مذهلا كما هو الحال في قباب مبنى الأختين وقباب بني سراج في قصر الحمراء.



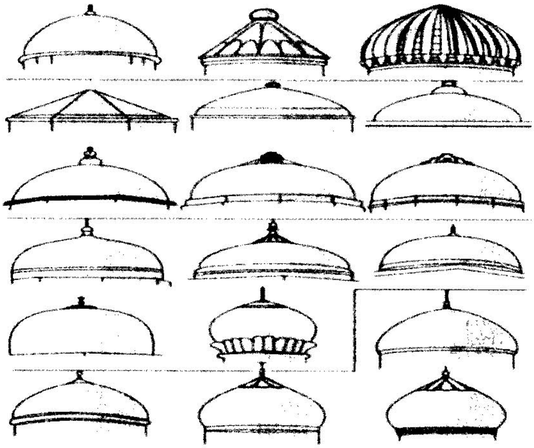
- **الخصائص العامة للقباب الإسلامية:**

على الرغم من تنوع المواد الطبيعية التي استخدمت في تشييد القباب (قوالب الطوب، حجر الخفان، الحجر الدبش أو المشذب)، فقد شكلت قوالب الآجر المشوي أو الطابوق المادة الرئيسة المعتمدة في تشييد الغالبية العظمى من القباب الإسلامية وذلك لخفة وزنها وسهولة قولبتها وفق أشكال وأنماط تتناسب مع الانحناءات المتواجدة في الجسم المحدب والمقعر للقباب التي أخذت بالتطور على الصعيد الشكلي متأثرةً بالأنماط الفنية الموروثة محلياً، حيث غلب على القباب الأموية عملية التقبية نصف الدائرية التي استمدت أصولها من قباب الكنائس البيزنطية المنتشرة في بلاد الشام[٢٦]، ككنيسة القيامة[٢٧] وكنيسة ازرع التي تركت أثراً واضحاً في المخطط العام لقبة الصخرة المشرفة التي أمر بتشييدها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان،

وكذلك الجامع الأموي الكبير بدمشق الذي أمر بتشييده الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، والجامع الكبير في حلب الذي أمر بتشييده الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، الملك، اللذان تميزا بقبابهما الملساء المدببة والمتجاوزة، ومن ثم توالت المشيدات المقببة كقصر عمرة وقصر الحير... اللذان تميزا بقبابهما النصف دائرية ذات السطوح الملساء المنخفضة وهي السمة العامة للقباب الأموية المشرقية على ندرتها، وذلك على النقيض من قباب الخلافة الأموية الثانية في الأندلس التي تميزت بسطوحها الخارجية المضلعة والداخلية القائمة على مجموعة العقود المتقاطعة(٢٨)، في حين غلب على عمارة العصر العباسي القباب النصف دائرية المدببة والمتجاوزة، هذا إلى جانب القباب الهرمية، المخروطية، المقرنصة، المتطاولة والمتجاوزة ذات التأثيرات الشرق أسيوية لاسيما السلجوقية التي اعتمدت في تسقيف المدافن والأضرحة العراقية والشامية، في حين تميزت العمارة الإسلامية في إيران والهند بقبابها البصلية(٢٩)، البيضوية، الهرمية، أو المخروطية المرتفعة المحمولة على رقاب مزدوجة، غلب على طبقتها الأولى الشكل المربع، وعلى الطبقة الثانية الشكل الاسطواني المتطاول، هذا إلى جانب الاستخدام المحدود للقباب المحززة ذات الضلوع البارزة بشكل كلي عن مستوى سطح طاسة القبة المنتهية من الأعلى بتشكيل يأخذ شكل الكأس أو الجذع المقلوب (أمالقا Amalka)(٣٠)، وتنتهي من الأسفل بمجموعة المقرنصات الحاملة والناقلة لوزن الجسم المحدب إلى الرقبة(٣١)

في حين تميزت العديد من مدن الأوزبك الرئيسة في أواسط أسيا خلال العصر التيموري كبخارى وسمرقند(٣٢) بإسهاماتها الباهرة في مجال تشييد القباب الآجرية المضلعة، المكسوة بالبلاطات الخزفية المزججة ذات التراكيب الزخرفية النباتية والهندسية والكتابية، حيث تعد قباب شاه زنده في بخارى خير شاهد على الإبداع الفني البنائي والزخرفي للمسلمين في تلك الأصقاع، في حين تركت قبة مدفن تيمورلنك (غور

أمير)[٣٣] بهندستها المعمارية والتزيينية أثراً واضحاً على العمائر الإسلامية خارج العالم الإسلامي حين قام حاكم مدينة بخارى وبموافقة القيصر الروسي نيقولا الأول بتشييد المسجد الجامع في العاصمة القيصرية سان بطرس برج الذي تميز بقبته المشابهة لقبة غور أمير بألوانها الخضراء والزرقاء؛ في حين تميزت المشيدات المعمارية بمدينة سمرقند بقبابها البيضاوية المضلعة ذات الطبلة المرتفعة والكسوة الخزفية الملونة ذات التراكيب الهندسية والنباتية المتداخلة.



نماذج القباب في العالم الإسلامي

أما على صعيد الانتقال من زوايا الجسم المربع في المشيدات المعمارية إلى التشكيل المثمن للرقبة فقد تميزت المشيدات الشامية باستخدام المثلثات الكروية وذلك على النقيض من المشيدات العراقية التي استخدمت في عملية الانتقال نمط المقرنصات البدائية.

هذا وعلى الرغم من دور الخلافة المشرقية بشقيها الأموي والعباسي في نشر مبدأ التسقيف بالقباب، فقد برزت الأندلس الإسلامية كأحد مراكز الإبداع الهندسي في مجال تشييد القباب المضلعة وما أحدثته من ثورة هندسية كبرى تركت بصماتها على عالم العمارة في العصور الوسطى، حيث ألهمت القباب القرطبية فناني عصر النهضة الفرنسيين في منطقة أبل دي فرانس إلى الحل المعماري الفريد الذي مكنهم من تسقيف مشيداتهم المعمارية بالقباب الضخمة ذات القدرة العالية على تحمل الضغط والثقل الوزني للكتلة المعمارية مع إمكانية فرد وتبسط القبة فوق المجازات الفراغية الواسعة للكنائس دون الحاجة إلى استخدام الأعمدة والدعائم الإستنادية[٣٤]، وذلك من خلال اقتباسهم لفكرة الأضلاع المدمجة والمتعارضة في القبة القرطبية وزيادة عددها بهدف تدعيم القبة وإكسابها المتانة اللازمة التي تسهل عملية فتح أضلاع القوس في القبة طبقاً لسعة المجال المسقوف مع تأمين عنصر الحماية والتدعيم بالأعصاب النافرة التي تعمل على نقل الحمل الوزني إلى الجدران الجانبية، وهو الأمر الذي عبر عنه ليوناردو دافنشي فنان عصر النهضة الذي شرح السبب الكامن في متانة القبة المضلعة من خلال قوله: *"..إن القوس ما هو إلا قوة يسببها ضعفان اثنان... وذلك نظراً لأن القوس في المباني يتكون من قطعتي دائرة، وبما أن كلتا القطعتين ضعيفة جداً بحد ذاتها وتميل إلى السقوط وبما أن الواحدة تقاوم سقوط الأخرى فإن الضعفين يتحولان إلى قوة واحدة..[٣٥]*.

هذا ورغم الإبداعات المعمارية للأقاليم الشرقية من الخلافة الإسلامية في مجال تشييد القباب فقد بقي المغرب العربي بعيداً عن هذا المجال التطوري حتى عصر الدولة المرابطية التي وحدت المغرب والأندلس، وفتحت أبواب المغرب أمام الحضارة الأندلسية التي أخذت تأثيراتها تتوافد على مدن الشمال الأفريقي كسبتة وطنجة وفاس منذ القرن الرابع الهجري، والتي تجلت في مجمل المشيدات المرابطية ومن ثم الموحدية المغربية ذات التأثيرات الأندلسية[٣٦]، كجامع الكتبية بمراكش (٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م) وجامع حسان

في الرباط (٥٩٣ هـ/١١٩٧ م) اللذان تميزا بقبابهما ذات التأثيرات الفنية الأندلسية، وجامع القصبة في الرباط الذي شيده أبو زكريا يحيى الحفصي مؤسس الدولة في العام (٦٢٩ هـ/ ١٢٣١م)[٣٧]على الطراز الموحدي المتأثر بالعمارة الأندلسية.

هذا وتشير العديد من الوثائق الكتابية إلى قيام الخلفاء المرابطين والموحدين بتكليف العديد من المهندسين الأندلسيين بالإشراف على تشييد العديد من الأبنية المغربية، برز منهم المهندس أبو محمد بن عبد الحق بن عبد الله الكناني الغرناطي، وعبد الله وإبراهيم بن محمد وسلمه بن مفرح، كما برز من مهندسي الموحدين مهندسان أندلسيان لعبا دوراً بارزاً في تطوير فن العمارة الموحدي هما الحاج يعيش الأحوص المالقي[٣٨] وجابر بن أفلح الأشبيلي، ومحمد بن أبي مروان بن سعيد الغرناطي، وأحمد بن باسة[٣٩] وغيرهم من المعماريين الذين قاموا بأعمال مميزة، وكان لهم الفضل في نقل النمط الإبداعي الأندلسي في عمارة القباب المضلعة والأقواس المقرنصة إلى شمال أفريقيا، حيث ظهر هذا النمط بادئ الأمر في قبة المحراب بجامع القيروان بتونس (٢٤٨هـ/٨٦٣م)[٤٠]، التي تميزت بضلوعها الداخلية والخارجية المتقاطعة وحنايا الانتقال الركنية، وكذلك في قبة البهو المؤرخة على العصر الأغلبي، والقبتان اللتان تعلوان مدخلي الرواق الشرقي والغربي المؤرختان على عصر الدولة الحفصية، فضلاً عن القبة التي تعلو المدخل الأوسط من الجهة الغربية المشيدة على النمط الأندلسي المضلع[٤١].

وتتميز قباب جامع القيروان بخاصتين رئيستين من حيث كونها:

- الأولى، من حيث تصنيفها كأحد أقدم القباب ذات القطاع المدبب الذي ميز فن العمارة الإسلامية الذي انتقل إلى أوربا في العصور الوسطى وتجلى في مجمل المشيدات الأوربية القوطية والرومانسكية (كاتدرائية بيزا، كنيسة سانتا ماريا دي فيوري- فلورنسا- إيطاليا)[٤٢].

- والثانية، أن ذلك الشكل المدبب من القباب قد أصبح النمط الأعم الذي غلب على مشيدات شرق العالم الإسلامي، بحيث ندر وجود نمط آخر معتمد سواء كانت القبة مركبة من قوسين منطلقين من سطح المبنى أو الرقبة أو القاعدة التي تعلو سطح المبنى بحيث يلتقيان عند نقطة القمة في القبة نفسها، أو كان ذلك القوسان يرتفعان من خطين رأسيين منطلقين من محيط الجسم الأسطواني لزيادة ارتفاعها، بحيث تتركب القبة في هذه الحالة من جزء اسطواني يعلوه جزء مدبب كروي؛ وفي حال كان القطاع ذي نمط حدوي فإن القبة تتخذ الشكل البصلي.

غير أن مايميز قباب جامع القيروان عن غيرها هو نمطها المركب من مجموعة الضلوع المحدبة من الخارج والمقعرة من الداخل، والمشابهة في شكلها لقبة المحراب في جامع الزيتونة المشيد في العام (٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م)، وقباب جامع الحاكم بأمر الله وجامع الأزهر الفاطميين[٤٣] وكذلك قباب العصرين الأيوبي والمملوكي.

هذا وبالرغم من التأثير الواضح لتصاميم قباب قرطبة والقيروان على القباب المرابطية والموحدية لاسيما المضلعة منها، فقد طور المغاربة نموذجهم المحلي من القباب التي شهدت تنوعاً واضحاً، حيث ظهرت النماذج الأولى للقباب الملساء في المغرب الأقصى في جامع القرويين بفاس[٤٤] الذي شهد عدة توسعات في عهد الدولة الزناتية بإسهام من الخلفاء الأمويين الأندلسيين في أيام حكم المظفر بن المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد على فاس في العام ٣٨٨هـ/٩٩٨م[٤٥]، تلاه في ذلك عدة توسعات في عهد الدولة المرابطية حيث تفنن المرابطون في تشييد القباب المضلعة ذات العقود المتداخلة والمتقاطعة والمقرنصة والأقواس المزدانة بالكتابات ذات الطابع الديني والدعائي التي زينت مجموعة القباب الست المقرنصة التي كانت تسقف البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب، والتي تمت المحافظة عليها في عصر الدولة الموحدية إثر إعمال الترميم والزخرفة والتذهيب التي طالت دائرة القبة، هذا إلى جانب تشييد القبة الجصية

المقرنصة[٤٦] التي أنجزها الخطيب محمد بن عبد الله بن موسى المعلم سنة ٦١٧ هـ[٤٧] فوق الباب الغربي الكبير للمسجد.

من جانب آخر يمكننا التأكيد على توافق المظاهر العامة للقباب المشرقية والمغربية، على الرغم من اختلاف السمات المحلية الخاصة بكلٍ منها، حيث ظهرت التأثيرات الزخرفية المركبة من العقود الرفيعة المتشابكة والمتقاطعة الحاصرة لمجموعة الحشوات ذات التراكيب الهندسية التزينية المغموسة أو المفرغة ذات الشمسات الزجاجية الملونة على القباب المغربية، في حين اعتمدت القباب الفارسية على مجموعة الزخارف المركبة من العقود الآجرية المرصوفة على شكل مداميك متوازية ومتداخلة ذات حشوات هندسية صماء صغيرة الحجم[٤٨]، وذلك على النقيض من المشيدات الفاطمية التي تميزت بقبابها الحجرية ذات الطاسة المحززة المرفوعة على الرقبة المزدوجة التي تزيد من ارتفاع القبة المرتبطة مع جسم البناء المربع بواسطة الحنايا الركنية كما هو الحال في جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي، والتي استمرت خلال الفترة الأيوبية في مصر حيث تأثرت مشيداتها بنمط العمارة الفاطمي من خلال الاستخدام الكبير للقباب المحززة والمقرنصة مع الغياب الواضح للقباب الملساء، في حين غلب على العمارة الأيوبية في بلاد الشام الاستخدام الواضح للقباب الآجرية النصف كروية والمدببة، المحمولة على الرقبة الأحادية أو المزدوجة، ذات الشكل الأسطواني المربع أو المثمن المتعاكس والمسقط النجمي (البيمارستان النوري والمدرسة النورية بدمشق) التي تساوى فيها قطر البدن مع قطر القبة أو زاد عنها في بعض الأحيان.

- نماذج من القباب الدمشقية:

تميزت دمشق عن غيرها من المدن الإسلامية من حيث كونها عاصمة الخلافة الأموية الأولى ومركز الثقل السياسي للعديد من الدويلات شبه المستقلة عن نفوذ

الخلافة العباسية فيما بعد، الأمر الذي أكسبها ذلك الكم الهائل من الغنى والتنوع الحضاري على الصعيدين المعماري والفني، حيث حوت ضمن حدودها الإدارية العديد العديد من النماذج المعمارية لقباب المساجد والأضرحة والزوايا والمدارس المتباينة في أشكالها وأنماطها نظراً لتعاقب وتعدد المدارس الفنية التي اقتبس منها المعمار السوري أنماطه المعمارية وعمل على صياغتها وقولبتها وبما يتوافق مع حاجته وذوقه الفني، منها على سبيل المثال لا الحصر:

- قبة الجامع الأموي بدمشق:

تشير الوثائق الكتابية إلى أن القبة الأولى للجامع التي أمر بإنشائها الوليد بن عبد الملك في العام ٩٦ هـ. قد شيدت من الحجر وتعرضت للعديد من التعديلات عبر الزمن نتيجة تعرضها للسقوط، قبل أن يتم استبدالها بالقبة الخشبية الحالية المصفحة بالرصاص(٤٩) المتوضعة فوق المجاز الرئيس القاطع على ارتفاع ٤٤م، والمكونة من طاسة ذات تركيب داخلي نصف كروي وخارجي متجاوز يخترقه ثمانية نوافذ موزعة بشكلٍ منتظم على الطوق السفلي من جدار القبة وبمعدل نافذة فوق كل محور من محاور أضلاع الرقبة الحجرية المزدوجة، التي تميزت العلوية منها بنمطها الداخلي والخارجي المثمن، وسطوحها المزدانة بقوس دائري مغموس يتوسطه نافذتان طوليتان (توأم) محصورتان ضمن قوسين مدببين، في حين اتخذت الطبقة السفلى الشكل الداخلي المثمن والخارجي المربع والتي يتم من خلالها الانتقال التدريجي فيما بين الشكل الدائري للقبة والتشكيل المربع لهيكل البناء عبر مجموعة الحنايا الركنية القاصرة، أما على صعيد الكسوة فقد ازدان السطح الداخلي للقبة بمجموعة الزخارف النباتية والهندسية والكتابات القرآنية(٥٠)، في حين حافظ السطح الخارجي على تصفيحه الرصاصي الأملس.

- قبة المدرسة النورية الكبرى(٥١):

شيدها السلطان نور الدين محمود بن زنكي في العام ٥٦٧ هـ في المنطقة المعروفة اليوم بسوق الخواصين (الخياطين) وأوقف عليها وعلى التربة المجاورة لها حمام سوق القمح بالبزورية وحمامين بالوراقة خارج باب السلامة.

تميزت التربة النورية بقبتها المخروطية ذات النمط المقرنص من الداخل والخارج، المركبة من خمسة طبقات من المقرنصات المتصاغرة المستوحاة في شكلها من عمارة القباب السلجوقية، حيث تتكون الطبقة السفلية المربعة من مجموعة الأشكال الهرمية المقلوبة، التي يتوسط كل ضلع منها نافذة مقوسة، في حين شغلت الطبقة الثانية بمجموعة العناصر المركبة من النوافذ المقوسة والمحاريب التوأم، وغلب على الطبقة الوسطى الأشكال الهرمية المقلوبة، يليها طبقة أصغر تحتوي على النوافذ المفتوحة والمحاريب الصماء، ومن ثم الطبقة العلوية وهي الأصغر والأضيق وتتألف من نوافذ صماء مقوسة يعلوها طاسه صغيرة ذات قبة مفصصة على هيئة الصدفة.

هذا وتختلف قبة التربة النورية عن قبة البيمارستان النوري من حيث كون الأخيرة أكثر ارتفاعا هذا إلى جانب تملك القبة لعدد من الضوايات الزجاجية التي تساعد على إنارة البيمارستان.

- قبة ضريح صلاح الدين الأيوبي(٥٢):

تتألف التربة من بناء بسيط تعلوه طاسه مدببة ذات نمط محزز مركب من ستة عشر ضلعاً، تستند على رقبة أحادية ذات ستة عشر ضلعاً، تزينها بالتناوب ثمانية نوافذ مقوسة متناوبة مع ثمانية محاريب صماء ذات صدفة سباعية الحزوز.

- قبة المدرسة البدرية(٥٣):

تعرف باسم تربة البدري أو التربة البدرية وتقع في ساحة الميسات شمالي تربة أراغون الحافظية شرق الجسر الأبيض، وتنسب إلى الأمير بدر الدين حسن ابن

الداية المعروف بلالا أو لؤلؤ وتعني المؤدب وهو أحد أمراء السلطان نور الدين زنكي.

تميزت المدرسة بقبتها المدببة المرتفعة ذات الشكل المضلع قليلاً، القائمة فوق رقبة مزدوجة مؤلفة من طبقتين، العلوية ذات ستة عشر ضلعاً تزينها وبالتناوب ثماني نوافذ مقوسة مع ثمانية محاريب ذات صدفات سباعية الحزوز، في حين تشكلت الطبقة السفلية من ثمانية أضلاع تتناوب فيها أربع نوافذ توأم ذات أقواس مدببة مع أربع نوافذ صماء مقوسة.

- قبة مدرسة العالمة أم اللطف(٥٤):

من مشيدات العصر الأيوبي، تنسب إلى الشيخة العالمة أم اللطف بنت الشيخ ناصح الحنبلي التي شيدتها في العام ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م في منطقة العفيف بجوار التربة الكنجكية، لصيق المدرسة اليغمورية من الشرق، وفيها قبر أم اللطف التي توفيت ودفنت في مدرستها في العام ٦٥٣ هـ، وهي عبارة عن بناء مشيد بالحجر الأبلق (الأبيض والأسود)، تعلوه قبة نصف كروية محززة محمولة على رقبة مزدوجة مركبة من اثني عشر ضلعاً، يتخللها اثنا عشر نافذة مقوسة في الطبقة الأولى، أما الطبقة الثانية فتتركب من أربع وعشرين ضلعاً تتناوب فيها ستة نوافذ مقوسة مع ستة محاريب ذات طاسه ملساء واثنا عشر ضلعاً أملساً، تعلوها قبة نصف كروية ذات حزوز متجانسة ومتطابقة مع أركان الأضلاع في الرقبة التي يبلغ عددها أربعاً وعشرين ضلعاً، الأمر الذي جعل من هذه القبة نموذجاً فريداً من حيث عدد حزوز القبة وأضلاع الرقبة.

- قبة المدرسة القيمرية الصغرى(٥٥):

تنسب إلى واقفها الأمير أبو الحسن يوسف بن أبي الفوارس بن موسك بن سيف الدين القيمري، الذي شيدها في منطقة العمارة الجوانية قبلي دخلة عبد الهادي في المدخل الشرقي لزقاق السبع طوالع (القباقبية العتيقة) وقد بقي من المدرسة مسجد صغير يعرف حالياً باسم القحفي والديناري، وتضم المدرسة قبره وابنه محمد، وتتميز بقبتها

نصف الكروية المنخفضة الارتفاع، وطاستها التي تنفتح ضمنها نافذة مقوسنة صغيرة وهو أمر غريب على القباب الدمشقية، حيث تستند القبة على رقبة أحادية ذات اثنا ضلعاً تزينها اثنا عشر نافذة مقوسة.

وفي الختام يمكن التأكيد على أنه وبالرغم من تعدد أشكال القباب وانتشارها في مجمل المشيدات المعمارية نظراً لوظيفتها الجمالية والخدمية، فقد كان من الضروري التأكيد في المجمل على السمات والملامح العامة للقباب المعتمدة في المشيدات الإسلامية التي أكسبتها هويتها المحلية على الرغم من الأصول الغير إسلامية لذلك النمط المعماري، الذي شاع استخدامه في الغالبية العظمى من المشيدات المعمارية نظراً لأهميتها والوظيفة الخدمية والجمالية التي تضفيها القباب على المشيدات المعمارية على اختلاف أشكالها، حيث شاع في بلاد الشام خلال الفترة الأموية الاستخدام الملحوظ للقباب الملساء النصف كروية والمتجاوزة وذلك على النقيض من العمارة المغربية والأندلسية الأولى التي تميزت بالاستخدام الواضح للقباب الهرمية الملساء ذات السطوح المائلة والكسوة الخارجية المنفذة بالقرميد، ومن ثم القباب الحجرية ذات الضلوع المتقاطعة والحشوات الجصية التي شاع استخدامها في العمارة المرابطية والموحدية المغربية إلى جانب القباب الهرمية ذات الهيكل الداخلي الخشبي والكسوة الخارجية القرميدية.

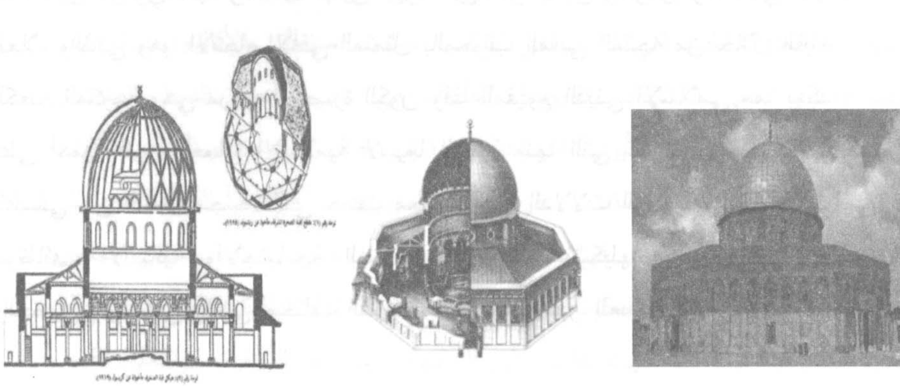
في حين تميزت العمارة السلجوقية والزنكية بشيوع عملية التسقيف بواسطة القباب المخروطية والهرمية والمقرنصة ذات التدريجات المتعددة المعتمدة في تسقيف الأضرحة والمقامات، واعتماد المقرنصات كعنصر إنشائي بديل عن الحنيات الركنية لتقليص وتشذيب زوايا الانتقال في القباب وحمل شرفات المآذن، هذا إلى جانب وظيفتها التزيينية المعتمدة في كسوة طاسه القبة والمحاريب ومداخل المشيدات(٥٦).

في حين تميزت المشيدات المعمارية الأيوبية على الرغم من بساطتها باعتماد نظام التسقيف بواسطة القباب التي تباينت في أشكالها حسب المناطق والأقاليم، حيث غلب النمط المدبب على المشيدات الأيوبية الحلبية، في حين سيطر النمط المقرنص والمفصص على المشيدات الأيوبية الدمشقية، هذا إلى جانب الاستخدام المحدود للقباب المقرنصة أو المحززة التي استندت على الرقاب المزدوجة(٥٧)، (العليا المركبة من اثني عشر ضلعاً والسفلى المربعة)، في حين استند البعض الآخر من القباب على الجدران مباشرة عبر وسائل الانتقال المكونة من المقرنصات والكوابيل الثلاثية التي انتقلت إلى العمارة المملوكية فيما بعد حيث غلب على الشامية منها نمط التسقيف بواسطة القباب النصف كروية والمتجاوزة الملساء، في حين غلب على المشيدات المملوكية المصرية الاستخدام الملحوظ للقباب المحززة، المضلعة، كذلك الملساء ذات الزخارف والأعصاب البارزة.

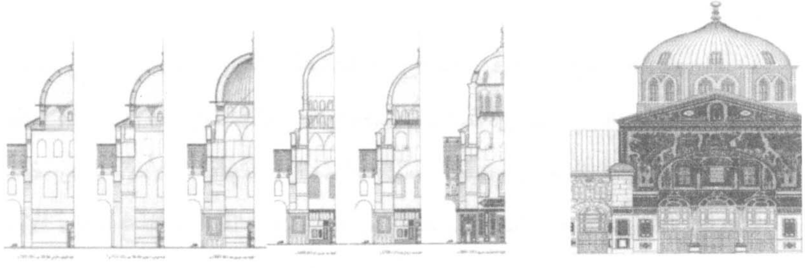
أما على الصعيد الوظيفي فيمكن التأكيد على الدور الخدمي الذي قدمته القباب في عملية تلطيف الجو ضمن المشيدة المعمارية، وذلك من خلال العكس الحراري للقدر الأكبر من أشعة الشمس وتوفير الظل والظلال والتهوية، الأمر الذي خفف من نسبة الأحمال الحرارية داخل المشيدة، حيث ساعد تحدب القبة وارتفاع الجزء الأوسط الداخلي من السقف على امتصاص الهواء الداخلي الحار من ضمن المشيدة الذي يرتفع إلى الأعلى نتيجة تزايد حركة الهواء البارد السفلية، مما يؤدي إلى نوع من التوازن الحراري ضمن المشيدة والتخفيف من وطأة الجو الحار؛ هذا إلى جانب وظيفة القبة في تضخيم وتوزيع الصوت ضمن المشيدة.

أما على الصعيد الروحي والرمزي فقد دلت القبة في مضمونها الرمزي على القبة السماوية والتوحيد ومركز الكون الذي أختصر المضمون الرمزي لتخطيط المساجد ومفرداتها المعمارية المفتوحة باتجاهين: الأول وهو الاتجاه الرأسي الذي تمثل في

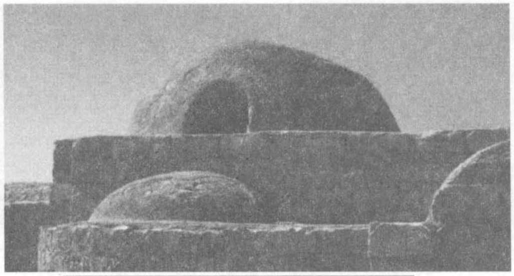
المضمون الرمزي للقبة والمئذنة اللتين عبرتا عن فكرة الكون والتوحيد والتسامي نحو العلا، والثاني وهو الاتجاه الأفقي المتمثل بالمحراب المقبى المتجه من خلال القبلة الكعبة المكرمة وهي مركز أو صرة الكون وفقاً للمفهوم الديني الإسلامي مما يؤكد على أهمية فنون العمارة الإسلامية لاسيما الدينية منها التي عبرت في مضمونها الفلسفي عن اللغة المجسدة التي حملت مجموعة من الدلالات الروحية والمادية ذات الوظائف الإنسانية والاجتماعية المختلفة من حيث تشكيلها المنعكس الفكري والحضاري والثقافي والفني لمختلف الشرائح الاجتماعية عبر العصور.



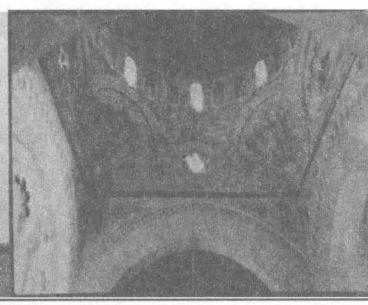
قبة الصخرة

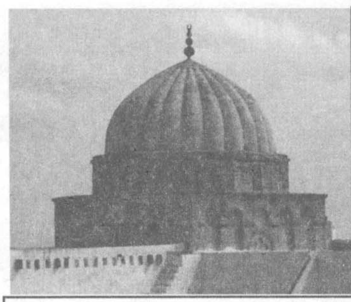


قبة الجامع الأموي بدمشق وتطور شكلها عبر عمليات الترميم

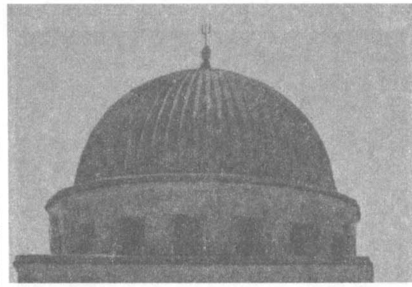


قبة الحمام بقصير عمرة

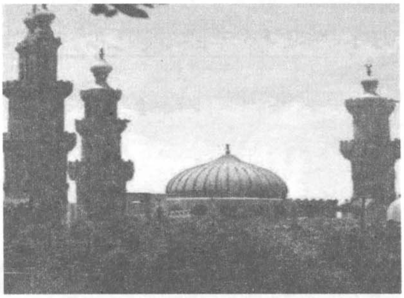




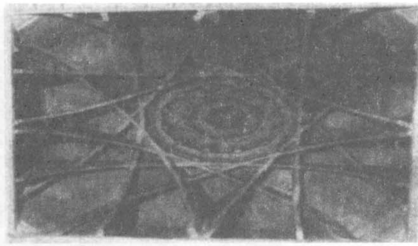
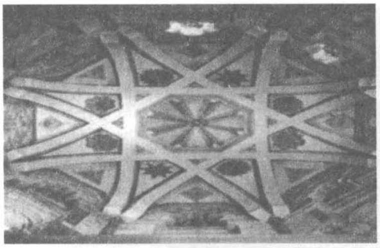
١- قبة المحراب بجامع القيروان. ٢- منطقة انتقال القبة من الداخل



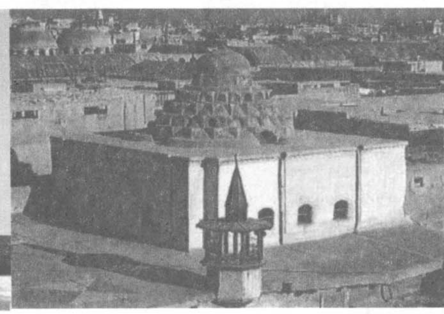
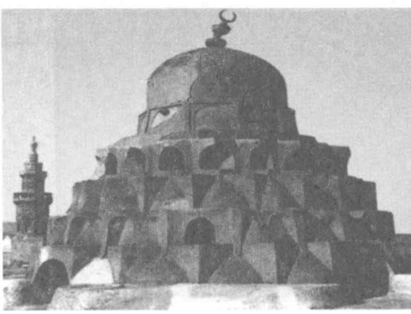
القباب المحززة في جامع عقبة بن نافع- القيروان- تونس



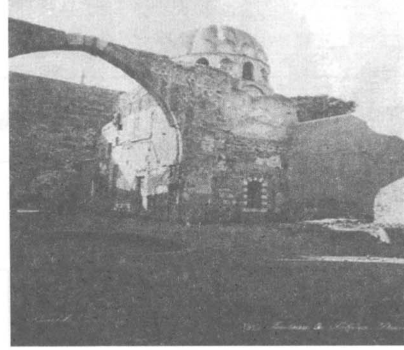
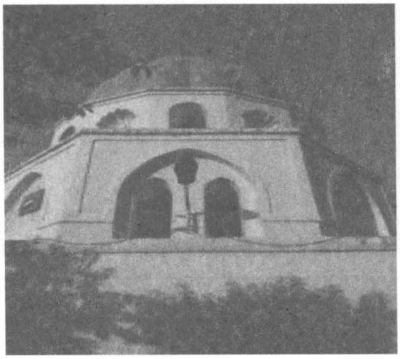
القبة المحززة في الجامع الأزهر- القاهرة

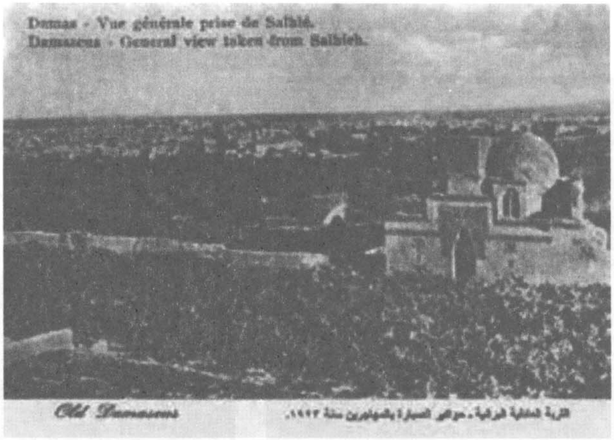
– قبة المقصورة المضلعة في جامع قرطبة الكبير – قبة رواق الأعلام- اشبيليا

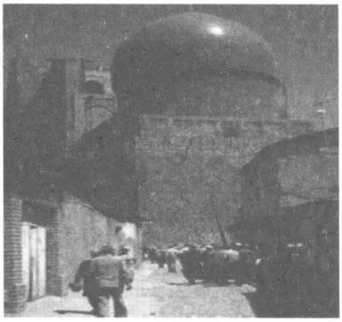



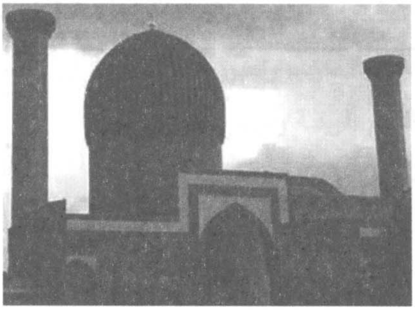
– القبة المقرنصة في البيمارستان النوري – المدرسة النورية الكبرى بدمشق

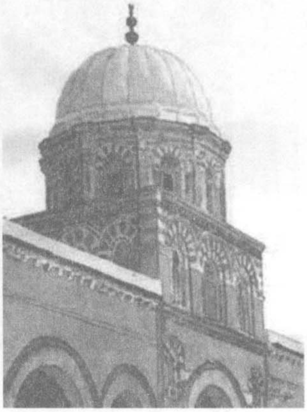
– المدرسة العزيزية وقبر السلطان الناصر صلاح الدين – قبة المدرسة البدرية

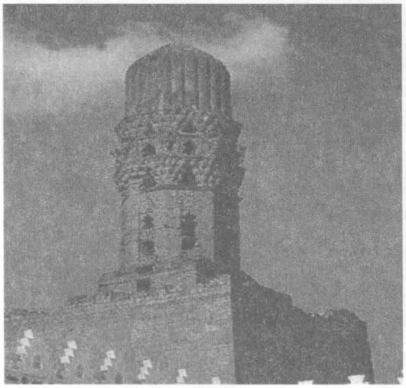






الجامع الكبير في سمرقند — مدفن غورامير (تيمورلنك)- سمرقند





قبة جامع الزينونة بتونس - قبة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي

الهوامش

(١) الموسوعة الحرة (ويكيميديا)، ج ٤، حرف القاف، ص ٣٩١.

(٢) لمعي، صالح: (القباب، أشكاله، مصادرها، تطورها، بيروت، ١٩٧٧ م. ص ١١.

(٣) غالب، عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية، ط ١، بيروت، ١٩٨٨ م. ص ٣٠٩.

(٤) سالم، عبد الله نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة في القاهرة.. ص. ٢٢٤.

(٥) محمود نصرة، محمد علي: جماليات الكتابات العربية في العمارة الإسلامية كمدخل لتجميل واجهات المباني، جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، ٢٠٠١ م، ص ١٠٣.

(٦) سالم، عبد الله نجيب، مرجع السابق، ص ٣٩٢.

(٧) أكدت أعمال التنقيب الأثري على استخدام الإغريق لنظام التقبية البسيطة في تسقيف الأكواخ الطينية الدائرية ومخازن الحبوب والقبور، وذلك قبل أن يعمم هذا النمط ليشمل أماكن متفرقة من بلاد الشام أفريقية وأوربا.

- الموسوعة الحرة، مرجع سابق، ص ٣٩٢.
- شكري، محمد أنور: العمارة في مصر القديمة. القاهرة، ١٩٧٠ م، ص ٣٠٨.
- لمعي، صالح: القباب، إشكالها، مصادرها، تطورها. بيروت، لبنان، ١٩٧٧ م، ص ٥.

(٨) الأطر الحجرية: نمط معماري معتمد في تشييد قباب المدافن الإغريقية، ويعتمد على التناوب فيما بين الدعائم والجسور لتشكيل القباب المنحدرة وهو ذات الأسلوب الذي برع فيه المعماريين المصريين والكنعانيين.

(9) Huerta, Santiago:Arcos,Bovedas y cupulas. Geometria y Equilibrio en el calculo tradicional de estructuras de fabrica.Instiyuyo Juan de Herara.Escula Tecnica Superior de Arquitectura Madrid. 2004. Pg. 11.

(١٠) مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية ترجمة بشير السباعي الجزء الثاني. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٣م، ص ٣٧٧.

(١١) يبلغ ارتفاع قبة البانتينون في روما ٤٣ م. وترتكز على اسطوانة دائرية يبلغ قطرها ٦م، محمولة على ثمانية دعائم حجرية.

(١٢) كنيسة سانتا كوستانزا أو القديسة كوستانزا وهي ابنة الإمبراطور قسطنطين الأكبر، شيد لبناء كمدفن لها وبعد وفاتها نصبت كقديسة وتمت توسعة البناء ليشمل المدفن والكنيسة.

(١٣) كريزويل، ك: الآثار الإسلامية الأولى. ت. عبد الهادي عبلة وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة ط ١، دمشق ١٩٨٤ م، ص ٥٩.

(١٤) عزب، خالد: الرمزية السياسية للعمارة الإسلامية، العمارة لغة الحوار الحضاري. ص ٣٠٧.

- شكلت الوحي والإلهام الذي استمد منه مهندسي قبة الصخرة المسلمين مقاييسهم المعمارية التي توافقت في تخطيطها وتوزيعها شكل الصخرة المقدسة، ولتي شكلت فاتحة تشييد القباب في الحضارة الإسلامية.

(١٥) شيدها الإمبراطور جوستنيان الأول في العام (٥٣٢ م)، وتحولت إلى مسجد بعد الفتح الإسلامي للقسطنطينية (٨٥٧ هـ/ ١٤٥٣ م).

(١٦) فان برشيم، مارغريت: القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشيم. ت.عطا الله دهينة وآخرون. دار الشام ١٩٩٤ م، ص ٤١.

- أخذت قياسات هذه القبة من قياسات قبة كنيسة القيامة التي كانت تشكل رمزاً دينياً هاماً في بيت المقدس، والتي كان لها أثراً هاماً في نفوس المسلمين مما ساهم في أن تصبح القباب سمة هامة من سمات المساجد.

(١٧) على الرغم من أن القبة الأساسية التي شيدها عبد الملك بن مروان قد جاءت حجرية على شكل نصف كرة أي عقدها على هيئة نصف دائرة كما في المنشآت الرومانية والبيزنطية، إلا أن القبة الأساسية قد تداعت إثر الزلزال الذي ضرب القدس في عهد الخليفة العباسي المهدي ولم تفلح جميع الجهود في ترميمها مما اضطر المعماريون إلى استبدال القبة الحجرية بهيكل خشبي مغطى بألواح أو رقائق معدنية مذهبة.

- العمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المسالك والآثار والأقاليم. السفر الأول. ت. عبد الله بن يحيى السريحي. أبو ظبي، ٢٠٠٣ م، ص ١٨٩- ١٩٠.
- كريزويل، ك: مرجع سابق الآثار الإسلامية الأولى. ص ٢٥، ٤٩.

(١٨) محمد حسن، زكي: فنون الإسلام. دار الرائد العربي. بيروت، ١٩٤٨ م، ص ٣٧.

- بهنسي، عفيف: الفن الإسلامي. دار طلاس، ط ١، ١٩٨٦ م، ص ١٤١.
- كول، أرنست: الفن الإسلامي. ت. أحمد موسى. بيروت، ص ٢١.
- رفاعي، أنور: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر ط ٢، ١٩٧٧ م، ص ٦٤.

(١٩) المقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. المختار من التراث١٣، غازي طليمات منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠ م، ص ١٥٨.

(٢٠) المقدسي البشاري، أبو عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١ ص١٦٤-١٧٠

(٢١) المقدسي، محمد بن أحمد: مرجع سابق أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.. ص ١٤٥.

(٢٢) محمد حسن، زكي: مرجع سابق فنون الإسلام.. ص ٤٥.

(٢٣) وزيري، يحيى: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، ج ٢، ط ١، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص ٧٩.

- عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ط ١، القاهرة، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٤ م، ص ٣٣٩.

(٢٤) سالم، عبد الله نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة القاهرة.. ص ٢٢٤.

(٢٥) إضافة إلى الطريقة السابقة القائمة على قوة التثبيت بواسطة الضغط الجانبي والعلوي، لجأ بعض المشيدين إلى استخدام نوع من المادة الإسمنتية المركبة من عجينة لزجة قوامها الكلس والرماد الخشبي، تستخدم في لصق الحجارة مع بعضها وتشكل نوع من المخدة اللينة التي تمنع تشقق وتخلخل الحجارة نتيجة التبادلات الحرارية بين الليل والنهار.

(٢٦) يوجد نماذج من القباب المضلعة في أماكن أخرى من الأندلس، منها قبة رواق الأعلام في في مدينة القصر بإشبيليا وقبة كنيسة Cristo de la luz (١٠٠٠ م) وقبة كنيسة سان ميلان في لوغرونيو (٩٨٤ م).

- Machado Reboucas, Caroli&Patricia Bolkmann, Andrea Estudios de la Vobeda Arabe de la Capilla de Villaviciosaen la Catedral de Cordoba. Madrid 2014. Pg. 8. -
- العمارة الإسلامية في عصورها المبكرة (القرن ١-٣ هـ/ ٧-٩ م) ف١: ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ص ٤٤.
- صلاح سالم، عبد العزيز: تطور عمارة القباب الإسلامية في المغرب الأقصى. ص ٢٥٦.

(٢٧) مثل كنيسة مارجرجيوس في ازرع – حوران، وكنيسة القديس سركيس وباخوس في معلولا وكنيسة القيامة في بيت لحم) وغيرها من الأديرة والكنائس المنتشرة في بلاد الشام.

(٢٨) المقدسي، محمد بن أحمد: مرجع سابق أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.. ص ١٤٩.

(٢٩) على الرغم من قيام الخلفاء الأمويين بتشييد أولى القباب في العالم الإسلامي فقد بقي استخدامها محدوداً ومحصوراً في مجموعة بسيطة من المشيدات الأموية وذلك على النقيض من عصر الخلافة العباسية التي بدأ فيها نظام التسقيف بالقباب ينتشر مع تسارع حركة التشييد والبناء.

- عيد، يوسف: الفنون الأندلسية وأثرها في أوربا القروسطية. دار الفكر اللبناني ط ١، بيروت، ١٩٩٣ م، ص ٢٨.

(٣٠) تميز ضريح تاج محل (يوجد ضمنه قبر شاه جيهان وزوجته ممتاز محل) بقبته البصلية الضخمة القائمة فوق رقبة طويلة، ويحف برقبة القبة أربعة قباب محمولة على ثمانية عقود مفصصة ترتكز على دعائم.

- عزب، خالد: مرجع سابق الرمزية السياسية للعمارة.. ص ٣٢٥.
- بهنسي، عفيف: مرجع سابق الفن الإسلامي.. ص ٢٣٠.
- مرجع سابق العمارة الإسلامية في عصورها المبكرة (القرن ١-٣ هـ/ ٧-٩ م).. ص ١٦٥.

(٣١) Amalka: هي التسمية الهندية للتشكيل الكأسي المقلوب المكون للقمة العليا من القبة، والتي تقوم مقام الرمح أو الهلال في القباب الإسلامية المشرقية.

(٣٢) المقرنص في العمارة الإسلامية هو عنصر اعتمد على فن الرقش بأبعاده الفلسفية عدا كونه عنصراً معمارياً للربط البصري بين الانتقال الشاقولي والخط المنحني.

- لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ت. عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ٥٣٠.

(٣٣) عرفت القباب السمرقندية في مصر حيث ظهر هذا النوع من القباب في مدرسة صرغتمش وقبة يوسف الدوادار.

- محمد حسن، زكي: مرجع سابق فنون الإسلام. ص ١٥٤..

(٣٤) بهنسي، عفيف: مرجع سابق الفن الإسلامي.. ص ٢١٨.

- كول، أرنست: مرجع سابق الفن الإسلامي.. ص ٨٨.

(٣٥) لمعي، صالح: القباب، أشكالها، مصادرها، تطورها. دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٧٧ م، ص ١١.

(٣٦) ساعد الاتصال بين إسبانيا وفرنسا على انتقال التأثير العمراني والمعماري الإسلامي إلى عمائر الفرنسيين، ويكمن الفضل في ذلك إلى قرطبة وكنائس المستعربين والآثار الإسلامية التي كانت قائمة وقتئذ في إسبانيا المسيحية، وهكذا استطاع فن قرطبة أن ينتشر في كيان الفن المسيحي دالاً على فضل الحضارة الإسلامية في الأندلس على الحضارة الغربية في فرنسا وإسبانيا. وخير مثال على

ذلك كاتدرائية مدينة بوي Puy القرنسية (القرن ١٢ م/ ٦ هـ) التي تميزت بمجموعة قبابها المضلعة المقتبسة عن العمارة القوطية ذات التأثيرات القرطبية الأندلسية، والتي كان لها أكبر الأثر قباب كنيسة سان مارتين دي ليون وكنيسة فيليب دي تورنوس.

- عيد، يوسف: مرجع سابق الفنون الأندلسية، ص ١١٩.

(٣٧) حمدي عبد المنعم، محمد حسين: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة لجامعية، الإسكندرية ١٩٩٧ م، ص ٣٠٣.

(٣٨) سالم، عبد العزيز: قرطبة د حسين: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة لجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧ م، ص ٣٠٣.

(٣٩) سالم، عبد العزيز: حاضرة الخلافة في الأندلس. ص. ٥٢.

(٤٠) جلاب، حسن: دعواة الحق "ازدهار العلوم في عصر الموحدين" العدد ٣١٨، أبريل ١٩٩٦ م.

(٤١) الحاج يغيش المالقي، أندلسي من مالقة أرسله الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي مع المهندس الأندلسي أحمد بن باسة ٥٥٥ هـ/ ١١٢٠ م، للإشراف على أعمال البناء بجبل طارق، وهو المشرف على بناء المقصورة بجامع مراكش، وبناء جامع الكتبية.

- أحمد بن باسة قرطبي الأصل أمره الخليفة أبو يعقوب يوسف بالإشراف على بناء جامع اشبيلية وغيرها من المشيدات.
- سالم، عبد العزيز: مرجع سابق قرطبة حاضرة الخلافة، ص ٥٢، ٥٣.

(٤٢) تعد قبة المحراب المضلعة بجامع القيروان في تونس أول وأقدم القباب في المغرب العربي التي استخدم في تشيدها الضليعات الداخلية والخارجية.

- طويلي، أحمد: تاريخ القيروان الثقافي والحضاري، تونس، ٢٠٠١ م، ص ٣٥، ٤٥.

(٤٣) تمت عملية الانتقال من القبة نصف الدائرية التي بلغ ارتفاعها خمسين ذراعاً من مستوى الأرض إلى الهيكل المربع بواسطة أربعة محاريب مخروطية موضوعة في أركان الغرفة وهذه الطريقة (أصلها ساساني من بلدان الفرس). وهي القبة القديمة، أما في العام (٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م). فقد أضاف أبو إبراهيم أحمد بن الأغلب قبة جميلة فوق مسجد القيروان، قطرها ٥,٨٠ أمتار وهي مضلعة من الداخل ومكونة من ٢٤ ضلعاً وطريقة الانتقال من القاعدة المربعة إلى الدائرة، حيث ينتهي المربع من الأعلى بكورنيش يشكل منطقة الاستناد والانتقال للمحارات الركنية التي تحمل الرقبة المثمنة الصغيرة المحمولة على ثمانية محاريب مخروطية تعلوها القبة المستديرة.

- صلاح سالم، عبد العزيز: تطور عمارة القباب الإسلامية في المغرب الأقصى. ص ٢٥٥.
- بهنسي، عفيف: مرجع سابق الفن الإسلامي.. ص ١٦٤.
- كريزويل، ك: مرجع سابق الآثار الإسلامية الأولى.. ص ٣٩٣.

(٤٤) عيد، يوسف: مرجع سابق الفنون الأندلسية، ص ٨٥.

(٤٥) كول، أرنست: الفن الإسلامي. مرجع سابق، ص ٤٨.

(٤٦) شيد جامع القرويين بفاس في عهد العاهل الإدريسي يحيى الأول في العام ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م. وشهد عدد من التوسعات والتعديلات شملت بناء القبة المضلعة فيه أيام المنصور بن أبي عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد على فاس.

(٤٧) جزائي، علي: جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس. ت. عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١ م، ص ٦٧، ٦٨.

(٤٨) طه، جمال أحمد: مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م إلى ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م، دراسة سياسية وحضارية، الإسكندرية ٢٠٠١ م، ص ٢٧٦.

- بهنسي، عفيف: مرجع سابق الفن الإسلامي.. ص ١٩٦.

(٤٩) عثمان، إسماعيل عثمان: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج ١، ط ١، الرباط، ١٩٩٢ م، ص ٢٧٤.

(٥٠) بهنسي، عفيف: الفن الإسلامي. مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٥١) وصفها الرحالة ابن جبير القبة الخشبية للجامع الأموي عندما زاره في العام ٥٨٠هـ

- سراج، محمد علي: درر وتحف من تراث السلف. ج٢. منشورات وزارة الثقافة. دمشق ١٩٨٦ م، ص ١٨١.

- بهنسي، عفيف: الفن الإسلامي، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٥٢) عقيلي، طلال: الجامع الأموي بدمشق، دمشق ٢٠٠١ م، ص ١٣٨، ١٤٣.

(٥٣) زارها الرحالة ابن جبير في العام ٥٨٠هـ وابن بطوطة في العام ٧٢٥هـ.- حسن العلبي، أكرم: خطط الشام، دراسة تاريخية شاملة، دار الطباع، ط ١. ١٩٨٩ م، ص ٢٢٦- ٢٢٧.

(٥٤) تعود العهد الأيوبي، وتقع في حي الكلاسة في الجهة الشمالية من الجامع الأموي، شيدت على أنقاض المدرسة العزيزية التي شيدها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي.

(٥٥) حسن العلبي، أكرم: خطط الشام، مرجع سابق. ص ١٧٢- ١٧٣.

(٥٦) الشهابي: مرجع سابق، ص ٣٩٧- ٣٩٩.

- حسن العلبي، أكرم: خطط الشام، مرجع سابق، ص ٢٤١.

(٥٧) تنسب إلى العهد الأيوبي، - حسن العلبي، أكرم: خطط الشام، مرجع سابق، ص ١٥٥

- الشهابي: مرجع سابق ص ١٨٦.

(٥٨) إن الشكل العام للمقرنص مشتق في تركيبته عن الحنية التي تشبه المحراب بعد تجزئتها إلى مجموعة من المحاريب الصغيرة الموزعة على طبقات متعددة.

(٥٩) خماش، نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية الأولى، دمشق، ١٩٨١- ١٩٨٢ م، ص ١٤٩.

المراجع

- عمري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المسالك والآثار والأقاليم، السفر الأول، ت. عبد الله بن يحيى السريحي، أبو ظبي، ٢٠٠٣ م.
- مقدسي البشاري، أبو عبد الله محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩١ م.
- بهنسي، عفيف: الفن الإسلامي، دار طلاس، ط ١، ١٩٨٦ م.
- جزائي، علي: جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، ت. عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩١ م.
- جلاب، حسن: دعواة الحق "ازدهار العلوم في عصر الموحدين" العدد ٣١٨، أبريل ١٩٩٦ م.
- حسن العلبي، أكرم: خطط الشام، دراسة تاريخية شاملة، دار الطباع، ط ١، ١٩٨٩م.
- حمدي عبد المنعم، محمد حسين: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧ م.
- خماش، نجدة: دراسات في الآثار الإسلامية الأولى، دمشق، ١٩٨١- ١٩٨٢ م.
- دهمان، محمد أحمد: في رحاب دمشق، دار الفكر، ١٩٨٢ م.
- رفاعي، أنور: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- ريحاوي، عبد القادر: العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق ١٩٧٩ م.
- سالم، عبد العزيز: حاضرة الخلافة في الأندلس.
- سالم، عبد العزيز: تطور عمارة القباب الإسلامية في المغرب الأقصى.

- سالم، عبد الله نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة في القاهرة.
- سراج، محمد علي: درر وتحف من تراث السلف، ج ٢، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦ م.
- شكري، محمد أنور: العمارة في مصر القديمة، القاهرة، ١٩٧٠ م.
- شهابي، قتيبة: مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصرها الفنية، دمشق، ١٩٩٥ م.
- صلاح سالم، عبد العزيز: تطور عمارة القباب الإسلامية في المغرب الأقصى.
- صلاح سالم، عبد الغزيز: قرطبة د حسين: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧ م.
- طه، جمال أحمد: مدينة فاس في عصر المرابطين والموحدين ٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م إلى ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م، دراسة سياسية وحضارية، الإسكندرية، ٢٠٠١ م.
- طويلي، أحمد: تاريخ القيروان الثقافي والحضاري، تونس، ٢٠٠١ م.
- عثمان، اسماعيل عثمان: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى، ج ١. ط ١، الرباط، ١٩٩٢ م.
- عزب، خالد: الرمزية السياسية للعمارة الإسلامية، العمارة لغة الحوار الحضاري.
- عقيلي، طلال: الجامع الأموي بدمشق، دمشق، ٢٠٠١ م.
- عكاشة، ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ط ١، القاهرة، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٤ م.
- عمارة الإسلامية في عصورها المبكرة (القرن ١-٣ هـ/٧- ٩ م) ف ١: ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
- عيد، يوسف: الفنون الأندلسية وأثرها في أوربا القروسطية. دار الفكر اللبناني، ط ١، بيروت، ١٩٩٣ م.
- غالب، عبد الرحيم: موسوعة العمارة الإسلامية. ط ١، بيروت، ١٩٨٨ م.

- فان برشيم، مارغريت: القدس الإسلامية في أعمال ماكس فان برشيم. ت. عطا الله دهينة، شوقي شعث وسامي حسن، دار الشام، ١٩٩٤ م.
- كريزويل، ك: الآثار الإسلامية الأولى. ت. عبد الهادي عبلة وأحمد غسان سبانو، دار قتيبة ط ١، دمشق، ١٩٨٤ م.
- كول، أرنست: الفن الإسلامي. ت. أحمد موسى، بيروت.
- لمعي، صالح: القباب، أشكالها، مصادرها، تطورها. دار الفكر العربي، بيروت ١٩٧٧ م.
- لوبون، غوستاف: حضارة العرب. ت. عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٦٩ م.
- مانتران، روبير: تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة: بشير السباعي الجزء الثاني، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٣م.
- محمد حسن، زكي: فنون الإسلام. دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٨ م.
- محمود نصرة، محمد علي: جماليات الكتابات العربية في العمارة الإسلامية كمدخل لتجميل واجهات المباني. جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، ٢٠٠١ م.
- معاذ، خالد: مدافن الملوك والسلاطين في دمشق، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، ١٩٥١ م، م ١، ج ٢.
- مقدسي، محمد بن أحمد: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. المختار من التراث١٣. غازي طليمات منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٠ م.
- موسوعة الحرة (ويكيميديا). ج ٤، حرف القاف.
- وزيري، يحيى: موسوعة عناصر العمارة الإسلامية. ج ٢، ط ١، القاهرة، ١٩٩٩ م.
- Huerta, Santiago:Arcos,Bovedas y cupulas. Geometria y Equilibrio en el calculo tradicional de estructuras de fabrica.Instiyuyo Juan de Herara.Escula Tecnica Superior de Arquitectura Madrid. 2004

- Machado Reboucas, Caroli&Patricia Bolkmann, Andrea Estudios de la Vobeda Arabe de la Capilla de Villaviciosaen la Catedral de Cordoba. Madrid 2014 .

قضاة القضاة في عصر المماليك

٦٤٨- ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧ م

د. عمار محمد النهار

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

- المقدمة:

قاضي القضاة منصب إسلامي ديني ودنيوي، ابتُكر خلال العصر العباسي أيام خلافة هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣ هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩ م)، بعد أن ظهرت الحاجة الملحة إلى فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية بعد أن ازدهرت الدولة العربية الإسلامية وتنوعت مرافقها وتوسعت، واستمر هذا التطور على مختلف الصعد في العصور اللاحقة.

فلقد ازداد النشاط الديني في عصر المماليك (٦٤٨- ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م) دلَّ على ذلك كثرة المراكز الدينية والعلمية من المساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا، وكثرة الأعياد والاحتفالات الدينية، وكثرة الوظائف الدينية من الحسبة والنظر في المظالم ووظائف الأوقاف والقضاء، وغير ذلك.

وإن أبرز ما حدث من تطورات على نظام القضاء في عصر المماليك يتعلق بقاضي القضاة، فمع قيام دولة المماليك استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة فقط، حتى أوائل أيام السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨- ٦٧٦ هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٧ م)، عندما أحدث سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م أهم تطور في النظام القضائي، فقام بتعيين قاض للقضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي)، وبهذا العمل أصبح بيبرس أول سلطان يعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة.

لذلك لا بد من معرفة أسباب هذا التحول، سواء الأسباب التي ذكرتها المصادر أو التي من الممكن استنتاجها من الوقائع. ويرتبط بذلك محاولة معرفة المهام أو الوظائف التي كانت تُناط بقاضي القضاة، وأهم أحوال هذا المنصب.

أولاً- القضاء في العصور العربية الإسلامية:

لم يكن للعرب قبل الإسلام أنظمة وقوانين يعمل بها، وكان شيوخ ووجهاء القبائل يمارسون الأحكام وفق الأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع(١).

وبعد ظهور الإسلام صارت القضايا تُرفع إلى النبي ﷺ، فكان يحكم بين الناس بما ينزله الله عليه من الوحي ووفق جوهر الدين، وكان الرسول ﷺ يقول: « البينة على المدعي، واليمين على من أنكر»(٢).

وباشر أبو بكر الصديق رضي الله عنه (١١- ١٣ هـ/ ٦٣٢- ٦٣٤ م) موضوع الحكم بين الناس بنفسه في خلافته(٣).

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣- ٢٣ هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤ م) في خلافته، وكان أول قاض في الإسلام، وأول من عيَّن القضاة في الولايات العربية الإسلامية(٤)، وكان القضاة يعينون من قبل الخليفة أو الوالي إذا كانت ولايته عامة، بمعنى أن تكون له الولاية على الخراج والصلاة معاً(٥).

وتطور القضاء في العصر الأموي؛ وصارت الأحاديث النبوية الشريفة موضع جدل عنيف بين فقهاء المسلمين والمحدِّثين ونَقَدة الحديث، وذلك تبعاً لدرجة صحة الأحاديث أو ضعفها، وتبعاً للآراء الاستنباطية.

وفيه أنشأ عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦ هـ/ ٦٨٥- ٧٠٥ م) منصب صاحب المظالم للنظر في أحوال المتخاصمين في المشاكل العويصة التي يعجز عن حلها القاضي أو التي هي خارج صلاحياته.

وتميز القضاء الأموي بأنه أقل تأثراً بالسياسة، إذ كان القضاة مستقلين في أحكامهم، لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة، وكانت كلمتهم نافذة حتى على الولاة وعمال الخراج(٦).

وتطور القضاء كثيراً في العصر العباسي بسبب توسع انتشار الإسلام، فتفرق العلماء والفقهاء والرواة في الأمصار، واتسعت دائرة القضاء(٧).

وتميز العصر العباسي بظهور أئمة المذاهب المعروفين والمشهورين، فانحاز الناس كل إلى إمام، أخذ عنه علمه ونشر مذهبه، فمن هؤلاء الأئمة من بقي مذهبه معمولاً به ومعروفاً إلى الآن، وهم: أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وجعفر الصادق رضي الله عنه، ومنهم من باد مذهبه ولم يبق له أتباع وهم كثيرون، منهم: الأوزاعي وداود الظاهري والطبري وغيرهم(٨).

وأول من دُعي بقاضي القضاة في الإسلام: أبو يوسف الأنصاري (ت ١٨٢ هـ/ ٧٩٨ م) وهو يعقوب بن إبراهيم أبو يوسف بن حبيب بن سعد بن معاوية(٩).

ثم اتسعت سلطة القاضي، فبعد أن كان ينظر في الخصومات المدنية والجنائية، أصبحت صلاحياته تشمل الدعاوي والأوقاف وتنصيب الأوصياء، والشرطة والمظالم والقصاص والحسبة ودار الضرب وبيت المال(١٠).

ثانياً- أسباب تعدد منصب قاضي القضاة في عصر المماليك:

بقيام دولة المماليك استمر المذهب الشافعي كمذهب لقاضي القضاة فقط، حتى أوائل أيام السلطان الظاهر بيبرس، عندما أحدث سنة ٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م أهم تطور في النظام القضائي بأن جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة (الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي) قاض للقضاة، مع بقاء الرئاسة للشافعيَّة. وفي سنة ٦٦٤ هـ/ ١٢٦٦ م، حذت دمشق حذو القاهرة وأصبح لكل مذهب قاضي قضاة، ثم أصبح في كل نيابة من نيابات الشام أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة(١١).

وبهذا العمل أصبح بيبرس أول سلطان بمصر يعين أربعة قضاة قضاة يمثلون مذاهب السنة الأربعة[١٢].

ولا بد أن تُناقش أسباب هذا التعدد من خلال المصادر التي تحدثت عن ذلك، ثم من خلال الاستنتاجات التي تستند على بعض وقائع ذلك العصر.

فهناك مصادر متعددة أتت على ذكر توجه الظاهر بيبرس نحو جعل قضاة القضاة أربعة، وتباينت الأسباب فيما بينها، فمنها ما اختصر ومنها ما فصَّل.

وهذه أبرز النصوص التي وردت في هذه القضية، وأولها ما أورده القلقشندي (ت٨٢١ هـ/ ١٤١٨ م) كونه المختص في التأريخ الإداري، يقول: «إن الديار المصرية كان يليها قاض واحد، إلى أن كانت الدولة الظاهرية في أوائل الدولة التركية، وقاضي القضاة يومئذ القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز الشافعي (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م)، فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب، فاقتضى رأي السلطان تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض، وقرر القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز في قضاء قضاة الشافعية على حاله، وكتب لكل منهم تقليد بذلك»[١٣].

ويُلاحظ أن قوله: «فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب»، يدل على حدوث إشكالات بين أصحاب المذاهب وأتباعهم، ويظهر أنه هو السبب الواضح (المباشر) لتقرير أربعة قضاة، كما بيَّن القلقشندي.

ويضيف القلقشندي سبباً مباشراً آخر في كتابه (مآثر الإنافة في معالم الخلافة)، ويظهر ذلك في قوله التفصيلي الآتي: «وفى أيامه في سنة ستين وستمئة رتَّب السلطان الملك الظاهر القضاة أربعة من كل مذهب قاض... وكان سبب استقرار القضاة الأربعة أن القاضي كان في أول الدولة الظاهرية ابن بنت الأعز، وكان شافعياً، فكان إذا ورد عليه شيء من غير مذهبه توقف في إثباته، فاختار السلطان أربعة قضاة ليحكم كل منهم بما يسوغ في مذهبه»[١٤].

وواضح أن القلقشندي هنا يجعل من توقف ابن بنت الأعز عن حسم القضايا التي كانت تأتيه من غير مذهب الشافعي سبباً مباشراً لتعدد قضاة القضاة، والعبارة واضحة: «فكان إذا ورد عليه شيء من غير مذهبه توقف عن إثباته».

ويُكمل لنا القلقشندي الأسباب في الجزء الرابع من (صبح الأعشى) بقوله: «ثم استقر الحال في الأيام الظاهرية (بيبرس) في سنة ثلاث وستين وستمئة على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة... وكان السبب في ذلك فيما ذكره صاحب (نهاية الأرب)[١٥] أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذ بيد القاضي تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز بمفرده، وكان الأمير جمال الدين أيدغدي (ت ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤م) أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدم ذكره يعانده في أموره، ويغض منه عند السلطان، لتثبته في الأمور وتوقفه في الأحكام. فبينما السلطان ذات يوم جالس بدار العدل إذ رُفعت إليه قصة بسبب مكان باعه قاض... ثم ادعى ذريته بعد وفاته أنه موقوف، فأخذ الأمير أيدغدي يغض من القضاة بحضرة السلطان، فسكت السلطان لذلك، ثم قال للقاضي تاج الدين: ما الحكم في ذلك؟ قال: إذا ثبتت الوقفية يُستعاد الثمن من تركة البائع، قال: فإن عجزت التركة عن ذلك، قال: يُوقف على حاله، فامتعض لها السلطان وسكت، ثم جرى في المجلس ذكر أمور أخرى توقف القاضي في تمشيتها، وكان آخر الأمر أن الأمير أيدغدي حسَّن للسلطان نصب أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، ففعل»[١٦].

ويذكر ابن قاضي شهبة في كتابه: طبقات الشافعية (ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٨ م) أن امتناع ابن بنت الأعز عن إحالة قضية إلى القاضي الحنفي هو سبب تعدد منصب قاضي القضاة، وكانت هذه القضية لا تُسوغ على مذهبه، وهذا يدل على التوجه العام نحو تيسير الأمور بالانتقال بالحكم من مذهب إلى آخر، يقول: «وفي أيامه قبل موته بسنتين جُعلت القضاة أربعة، فإنه طُلب منه أن يُفوض قضيته إلى حنفي لكونها لا تُسوغ

إلا على مذهبه، فامتنع، وكانت العادة أن يستنيب من كل مذهب واحداً ليحكم في الأمور السائغة على مذهبه ولكن بإذن، فلما امتنع من تلك القضية أُشير بتولية أربعة مستقلين من المذاهب، ففعل ذلك بمصر في سنة ثلاث وستين، ثم بدمشق سنة أربع وستين»(١٧).

على أن ابن قاضي شهبة يُشير في تاريخه إلى أن سبب التعدد هو خلاف قاضي قضاة الشافعية ابن بنت الأعز مع الأمير جمال الدين أيدغدي(١٨).

ويبدو أن الذهبي (ت ٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧ م) استطاع أن يجمع معظم الأسباب وبعبارة مختصرة، فبيَّن أن قاضي القضاة ابن بنت الأعز عطَّل كثيراً من الأحكام، فتعطلت أمور الناس، فكثرت الشكايات منه بسبب ذلك، وحدث شيء من ذلك أمام السلطان الظاهر بيبرس، وكان الأمير جمال الدين أيدغدي حاضراً، فاستغل ذلك، وأشار على بيبرس بتولية أربعة قضاة واحد لكل مذهب، فأخذ السلطان برأيه، وهذا قول الذهبي: «وفيها جدد بالديار المصرية القضاة الأربعة، من كل مذهب قاض، وسبب ذلك توقف القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز عن تنفيذ كثير من الأحكام، وكثر توقفه، فكثرت الشكاوي منه، وتعطلت الأمور. فوقع الكلام في ذي الحجة بين يدي السلطان، وكان الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي يكره القاضي تاج الدين، فقال له: نترك لك مذهب الشافعي، ويُولى معك من كل مذهب قاض. فمال السلطان إلى هذا. وكان لأيدغدي العزيزي محل عظيم عند السلطان... ثم فعل ذلك بدمشق»(١٩).

ويزيد السيوطي (ت٩١١ هـ/ ١٥٠٦ م) سبباً جديداً بقوله: «وكان إحداث القضاة الثلاثة في سنة ثلاث وستين وستمئة، وأقام ابن بنت الأعز قاضياً إلى أن توفي سنة خمس وستين، وكان (ابن بنت الأعز) شديد التصلب في الدين، فكان الأمراء الكبار يشهدون عنده فلا يقبل شهاداتهم، وكان ذلك أيضاً من جملة الحوامل على ضم القضاة الثلاثة إليه»(٢٠).

ويُقدم النويري (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢ م) توضيحات أكثر تُكمل بعض التفاصيل التي ذُكرت في المصادر المتقدمة الذكر، يقول: «وفي ذي القعدة سنة ثلاث وستين وستمئة أَسْنَدَ السلطان القضاء بالقاهرة والديار المصرية لأربعة قضاة، لكل مذهب قاض. وسبب ذلك أن الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي كان يكره قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ويغمز من مكانته عند السلطان لتثبته في أحكامه وتأنيه واحترازه، فاتفق أن السلطان جلس بدار العدل، فقُدمت له مسألة... تتضمن شراءهم داراً من قاض... وأن ورثته بعد وفاته ادعوا أنها وُقفت قبل ذلك، فأخذ الأمير جمال الدين أيدغدي ينتقص المتعممين، فقال السلطان للقاضي تاج الدين: هكذا تكون القضاة؟ فأجابه بالآية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[٢١]، قال: فكيف العمل في هذا؟ قال: إذا ثبت الوقف يُستعاد الثمن من الورثة من مال مورثهم، فقال السلطان: فإن عجزوا عن الثمن؟ قال: الوقف باق على أصله. فامتعض السلطان لذلك، فلم يتم الكلام حتى تقدم رسول صاحب المدينة النبوية وقال: حملت كتاب السلطان إلى قاضي القضاة أن يسلم إلي المال الذى تحت يده من الوقف لأنفقه على فقراء أهل المدينة، فلم يفعل. فسأل السلطان القاضي عن ذلك، فقال: صدق هذا الرجل، أنا لا أعرفه، ولا أُسلم المال إلا لمن أعرفه وأثق بدينه وأمانته، فإن تسلمه السلطان أحضرته بين يديه، فقال السلطان: تُخرجه من عنقك وتجعله في عنقي، لا تسلم المال إلا لمن تختاره وترضاه. وتقدم بعض الأمراء في المجلس وشكي من القاضي تاج الدين في قضية أخرى هي شهادة لم يثبتها لبعض أولاد خشداشيته[٢٢]، فقال القاضي: لم تأتن بينة، فقال الأمير: حضرت البينة فلم تسمعها، فسأله السلطان عن امتناعه من سماع البينة، فقال: لا حاجة إلى ذكر الجواب. فقال الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزى للقاضي: نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولي السلطان من كل مذهب قاضياً. فرجع السلطان إلى قوله، وفوَّض النظر في الأحكام والقضايا إلى حكَّام أربعة»[٢٣].

هذه هي الأسباب (المباشرة) التي ذكرتها مصادر ذلك العصر، ولكن من الممكن تفسير عمل بيبرس هذا في عدة أسباب (غير مباشرة):

الأمر الأول: كان الناس في مجتمع عصر المماليك (وغيره) موزعين - في الاتباع - على المذاهب الأربعة، ويؤيد ذلك انتشار المدارس التي درَّست فقه هذه المذاهب، وقد قام الباحث بدراسة توزع مدارس الفقه في مصر في عصر المماليك، فكانت نتيجة دراسته كالآتي:

كانت المدارس الفقهية أوسع المدارس انتشاراً، واختلفت اختصاصاتها في ذلك، فمنها ما درَّس فقه المذاهب الأربعة، ومنها ما درَّس فقه مذهبين، وأخرى درَّست فقه مذهب واحد. وكان توزعها كالآتي:

- مدارس فقه المذهب الشافعي:

اختصت مدارس كثيرة بتدريس الفقه الشافعي، تتفوق بعددها على المدارس الفقهية الأخرى، فدُرِّس هذا المذهب في المدرسة الفائزية، والمدرسة القطبية، والمدرسة الشريفية، والمدرسة الناصرية، والمدرسة الطيبرسية، والمدرسة الحسامية، والمدرسة البقرية، والمدرسة الملكية، والمدرسة السابقية، والمدرسة المجدية الخليلية.

- مدارس فقه المذهب الحنفي:

كثرت المدارس المختصة بتدريس الفقه الحنفي أسوة بمدارس الشافعية، فدُرِّس هذا الفقه في المدرسة السيوفية، والمدرسة الأزكشية، والمدرسة الجمالية، والمدرسة البوبكرية، والمدرسة المهمندارية، والمدرسة الصرغتمشية.

- مدارس فقه المذهب المالكي:

وهي مدارس قليلة مقارنة بمدارس الفقهين الشافعي والحنفي، وكان منها المدرسة القمحية، ومدرسة العادل، ومدرسة ابن رشيق، والمدرسة الصاحبية.

- مدارس فقه المذهبين الشافعي والمالكي:

مدارس ليست بالكثيرة اختصت بتدريس فقه المذهبين الشافعي والمالكي معاً في موضع واحد، فكان منها المدرسة المسلمية والمدرسة الفاضلية.

- مدارس فقه المذهبين الشافعي والحنفي:

اختصت مدارس مصرية كثيرة بتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي معاً في مدرسة واحدة، ومن تلك المدارس المدرسة الظاهرية والمدرسة الفارقانية والمدرسة الأقبغاوية، وغيرها.

- مدارس فقه المذهبين الحنفي والمالكي:

ولم يقف الباحث في المصادر إلا على مدرسة واحدة اختصت بتدريس فقه هذين المذهبين، وهي المدرسة المنكوتمرية التي بناها الأمير سيف الدين منكوتمر الحسامي (ت ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٨ م) أحد مماليك السلطان حسام الدين لاجين (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٦ – ١٢٩٩ م).

- مدارس فقه المذاهب الأربعة:

اختصت هذه المدارس بتدريس فقه المذاهب الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية، فمثَّلت ما يُعرف بالدراسات المقارنة، وكانت المدرسة الصالحية أول مدرسة في الديار المصرية تختص في تدريس المذاهب الأربعة، وكان قد شيَّدها الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٠- ١٢٤٩ م) عام ٦٤٠ هـ/ ١٢٤٢ م، ورتَّب فيها عام ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م دروساً أربعة لفقهاء المذاهب الأربعة. ومن أبرز هذه المدارس مدرستين: المدرسة والقبة المنصورية، والمدرسة الناصرية، وغيرهما[٢٤].

ولا شك أن انتشار مدارس المذاهب الفقهية بهذا الشكل لن يسمح بتفرد الشافعية فقط بمنصب قاضي القضاة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يمكن لقاضي قضاة الشافعية أن يتابع – لوحده – قضايا أصحاب المذاهب الأخرى، الذين من الممكن –

أيضاً – أن لا يقبلوا بحكمه، بسبب تعصبهم لمذاهبهم. وهذا ما يمكن أن يؤدي إلى قلاقل وإلى ثورة على الحكم، ولا بد أن بيبرس قد أدرك ذلك، ففعل ما فعل من سن تعدد قضاة القضاة.

ولا بد أن بيبرس أدرك أن من أفضل الأعمال التي من الممكن أن تضفي شرعية على حكم المماليك هو تلبية هذه الحاجة العاطفية والنفسية والدينية لدى أصحاب المذاهب الأخرى.

ويرتبط بهذه القضية موضوع تزايد السكان وتزايد قضاياهم ومشاكلهم، والتي لا بد أن تُلبى، وهذا يحتاج إلى تعدد قاضي القضاة وإلى بناء المدارس لهم في الوقت نفسه.

ومن التفاسير التي من الممكن أن تكون صحيحة في هذا المضمار؛ قضية التنافس بين أصحاب المذاهب الفقهية في بناء المدارس التي تُدرس فقههم، ويقاس على ذلك تنافسهم في دعم مذهبهم، ولا أفضل من طريقة لدعمه من إنشاء قاض للقضاة له.

وقد التقط الباحث هذا التنافس من مصادر عصر المماليك، فوجد أن من أسباب بناء المساجد والمدارس في ذلك العصر ذلك التنافس بين أصحاب المذاهب الفقهية ورجال الدولة، كلٌ منهم يريد بناء مدرسة تؤيد مذهبه الفقهي:

- فمثلاً في عام ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م قام الأمير يلبغا بتجديد درس «بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر أربعين درهماً وإردب قمح، وذُكر أن جماعة من غير الحنفية انتقلوا إلى مذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا الدرس»[٢٥].
- وبعد أن أسس الأمير صرغتمش مدرسته وقفها على الفقهاء الحنفية[٢٦]، وقد اشتهر عنه التعصب للمذهب الحنفي[٢٧].
- وكذلك جعل الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري مدرسته الحسامية برسم الفقهاء الشافعية[٢٨].

- ووقف الأمير سيف الدين بكتمر البوبكري الناصري مدرسته البوبكرية على الفقهاء الشافعية[٢٩].
- وخصص الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالي مدرسته الجمالية للحنفية[٣٠].

وقد كتب أحد الباحثين عن هذا الموضوع من الوجهة الفقهية، ومما بينه: أنه من الممكن أن تكون هناك أدلة ضعيفة في مذهب معين، فيُستعان بمذهب آخر أدلته أقوى، وهذا يُحقق مرونة في الأحكام والأقضية.

فهناك مثلاً موضوع الزواج الذي يُحتاج فيه أحياناً إلى أحكام المذاهب الأخرى. وموضوع المزارعة الذي تختلف أحكامها من مذهب لآخر، وبالتالي من مدينة لأخرى. وموضوع أعمال الهرطقة التي يفرض المذهب المالكي القتل بحق مرتكبيها، بينما ترى الأغلبية المحافظة على حياة هؤلاء وحثهم بشتى الوسائل على العودة إلى حظيرة الإسلام.

وذكر الباحث إحصائية عن القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، هذا القرن الذي سُجل فيه (٢٦) حالة هرطقة، (٤) منها انتهت بالإفراج عن المتهم، بينما لم يُفرج عن الـ (٢٢) الآخرين لأن حكمهم كان بيد القاضي المالكي.

وهذا كله – برأيه – يؤكد الحاجة إلى تعدد منصب قاضي القضاة[٣١].

وقد أفادني الدكتور سهيل زكار برؤيته في هذه القضية، فبين أن الظاهر بيبرس يعد المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، وامتلك مؤهلات عسكرية وإدارية وسياسية متميزة، وواجه أخطاراً متعددة: مملكة القدس الثانية في عكا، والخطر المغولي المتمثل بالدولة الإيلخانية، وأرمن كيليكيا. وأمام هذا الواقع لجأ بيبرس إلى اعتماد سياسة دينية، فأعاد افتتاح الأزهر، وأراد بالوقت نفسه إبقاء المذاهب من دون خصومات، وكانت دولة المماليك قد ورثت الدولة الأيوبية التي اعتمدت المذهب الشافعي، ولكن كان في البلاد

أحناف، وصار في الشام ومصر حنابلة جاؤوا من العراق، ومالكية قدموا من الأندلس والمغرب الكبير.

فاقتضت الحال الاعتراف بشخصية كل مذهب من هذه المذاهب، ولذلك صار لكل مذهب قاضي قضاة، وأرضى هذا أتباع المذاهب ومصالح مماليك السلطة وسواهم.

ثالثاً- تقليد[٣٢] القاضي وقاضي القضاة:

كان يتم تقليد القاضي أو قاضي القضاة في عصر المماليك بالأسلوب الآتي:

- كان السلطان إذا ما قلَّد أحدهم قضاء القضاة على مذهب معين، فإنه يجتمع به ليوليه القضاء ويخلع عليه خلعة صوف ويعطيه بغلة لركوبها.
- وأحياناً يطلب السلطان أحد القضاة من خارج مصر، بواسطة البريد، وذلك لتقليده كقاضي قضاء في مصر. وهكذا كان ينقل قاضي قضاة أحد المذاهب من دمشق إلى مصر، وكذلك من مصر إلى دمشق وغيرها، ليتولى قضاء مذهبه.
- وعندما يخرج قاضي القضاة من دمشق إلى مصر لتولي القضاء يخرج القضاة والأعيان لتوديعه وأحياناً يرسل عائلته قبل رحيله لتسبقه في قافلة من الجمال.
- وعند وصوله إلى مصر يتوجه إلى السلطان ليسلم عليه[٣٣].
- وكان يتم تقليد القاضي أو قاضي القضاة في دمشق بالأسلوب التالي:
- كان التقليد يتم عند وصول البريد من مصر، ومعه كتاب السلطان بالتقليد والخلعة في قضاء قضاة مذهب معين، أو بتجديد توقيع قاضي القضاة. وكان التقليد يتم في الجامع الأموي، حيث يجلس قاضي القضاة في محراب المقصورة، بعد أن يلبس الخلعة، علماً أن هناك مقصورة لكل قاضي قضاة من المذاهب الأربعة.
- ثم يقرأ كتاب التقليد بحضور القضاة والأعيان، ويجلس القارئ، ويكون أحد الشيوخ المحدثين عادة على السدة تجاه المحراب.

- وبعد ذلك يسير قاضي القضاة في موكب حافل إلى دار السعادة ليسلم على نائب السلطنة.
- وفي اليوم التالي، يباشر قاضي القضاة عمله حيث يحكم في المدرسة النورية أو الجوزية، أو العادلية وغيرها، وهناك يتلقى السلام والتهنئة من الناس الذين يتوافدون عليه[٣٤].

فإذا جلس القاضي أو قاضي القضاة للحكم ساعده على تنظيم قاعة الجلسة عدد من الموظفين، نذكر منهم: الجلواز[٣٥] وحاجب القاضي والأعوان والعدول والأمناء والكاتب والترجمان.

وما يميز عصر المماليك من معاوني قاضي القضاة هو:

- **الأمناء:** يُحدد قاضي القضاة تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م) مهمتهم بحفظ أموال اليتامى والغائبين، ومن ذلك أنهم كانوا يحولون دون اقتراض بعض القضاة أو غيرهم شيئاً من هذه الأموال[٣٦].

ويروي لنا ابن بطوطة (ت ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥م) الدافع إلى استحداث هذا المنصب أو الوظيفة في مصر، وهو أن أيدي بعض القضاة امتدت إلى مال اليتامى، وروى أن قاضي أسيوط في عهد السلطان الناصر محمد (وهو شرف الدين عبد الرحيم) كان يُلقب «حاصل ما ثم» لأنه كان إذا أتاه أحد اليتامى يطلب شيئاً من استحقاقه، قال له «حاصل ما ثم»، أي لم يبق من المال المتحصل باسمه شيء، يقول: «وسافرت... إلى مدينة أسيوط، وهي مدينة رفيعة أسواقها بديعة... وقاضيها شرف الدين بن عبد الرحيم الملقب بحاصل ما ثم، لقب اشتُهر به، وأصله أن القضاة بديار مصر والشام بأيديهم الأوقاف والصدقات لأبناء السبيل، فإذا أتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ما قدر له، فكان القاضي إذا أتاه الفقير يقول له حاصل ما ثم؛ أي لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه»[٣٧].

رابعاً- مهام قاضي القضاة[٣٨]:

تعددت الأعباء والمسؤوليات الملقاة على عاتق قاضي القضاة في عصر المماليك، فتشعبت التزاماته كثيراً، وكي تتضح الصورة، يمكن تقسيم مهامه إلى ثلاثة أنواع:

١- مهام قضائية:

ومنها تعيين وعزل القضاة: إذ كان تعيين القضاة يأتي بأمر من قبل السلطان بالقاهرة، ولا سيما قضاة المدن الكبرى في مصر والشام، أما بالنسبة للقرى والبلدات التابعة لقاضي القضاة؛ فكان يحق له أن يعين فيها قضاة وعلى مذهبه فقط، وقد اعتمد هذا النظام كل من القاضي الحنفي والمالكي والحنبلي منذ سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، وصار ذلك معروفاً كما كان الحال على المذهب الشافعي[٣٩].

ومنها محاكمة الوزراء[٤٠] والأشخاص الذين يهددون الدين؛ فكان قاضي القضاة يشترك في محاكمة الأطراف الآتية:

- الوزراء إذا كانت التهمة تتعلق بتدبير مؤامرة ضد الدولة.
- الأشخاص الذين يتعرضون للنبي والصحابة بالسب والشتم.
- كل من يهدف إلى إفساد العقيدة الإسلامية[٤١].

وكان القضاء والحسبة يُسندان في بعض الأحيان إلى رجل واحد، مع ما بين هذين العملين من التباين، فعمل القاضي مبني على التحقيق والأناة في الحكم، أما عمل المحتسب فمبني على الشدة والسرعة في الفصل.

وأشهر من تولى الحسبة والقضاء معاً في دولة المماليك، تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) قاضي قضاة الشافعية في مصر[٤٢].

وكان قاضي القضاة يفتي في الأمور التي تهم المصلحة العامة، إذ لما كثرت الكلاب في دمشق سنة ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٥ م، استُفتي قاضي قضاة الشافعية بدمشق تقي

الدين السبكي (ت ٧٥٦ هـ / ١٣٥٥ م)، في قتلها، فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك، فرسم بإخراجهم إلى الخندق ظاهر باب الصغير، يقول ابن كثير في ذلك: «استُفتي في قتل كلاب البلد، فكتب جماعة من أهل البلد في ذلك، فرسم بإخراجهم يوم الجمعة من البلد الخامس والعشرين منه، لكن إلى الخندق ظاهر باب الصغير، وكان الأولى قتلهم بالكلية وإحراقهم لكي لا تنتن الناس بريحهم على ما أفتى به الإمام مالك بن أنس من جواز قتل الكلاب ببلدة معينة للمصلحة، إذا رأى الإمام ذلك، ولا يعارض ذلك النهي عن قتل الكلاب، ولهذا كان عثمان بن عفان يأمر في خطبته بقتل الكلاب وذبح الحمام»[٤٣].

٢- محكمة النظر في المظالم:

وكانت مما يليه قاضي القضاة، وقد أفادنا ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٨م)[٤٤] بوصف شامل لجلوس السلطان في محكمة النظر في المظالم في دار العدل[٤٥]، وجلوس قضاة القضاة، وباقي من يحضر هذه المحكمة[٤٦].

يقول العمري: «فإذا قعد للمظالم كان جلوسه على كرسي إذا قعد عليه يكاد تلحق الأرض رجليه، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذي هو تخت الملك.

ويجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم الوكيل عن بيت المال[٤٧]، ثم الناظر في الحسبة.

ويجلس على يساره كاتب السر[٤٨]، وقدامه ناظر الجيش[٤٩]، وجماعة الموقعين[٥٠] تكملة حلقة دائرة.

ثم وزير من أرباب الأقلام، كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف، وكذلك إن كان نائب يقف مع أرباب الوظائف.

ويقف من وراء السلطان صفَّان عن يمينه وشماله من السلاحدارية[٥١] والجمدارية[٥٢] والخاصكية[٥٣]، ويجلس على بعد تقدير خمسة عشر ذراعاً عن يمينه ويسرته ذوو السن من أكابر أمراء المئين، وهم أمراء المشورة.

ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوف، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة.

ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحُجَّاب والدوادارية[٥٤]، لإحضار قصص الناس، وإحضار المساكين، وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه، ويأمر في البقية بما يراه»[٥٥].

٣- مهام عامة:

بالإضافة إلى المهام القضائية، عمل القضاة وقاضي القضاة بمهام أخرى لا تتعلق بالقضاء، ومنها:

مرافقة موكب الحج؛ إذ كانت تولّى أحياناً إلى قاضي القضاة: إمارة الحج، والأمثلة على ذلك عديدة؛ ومنها:

في سنة ٦٦٧ هـ/ ١٢٦٩ م، رافق السلطان الظاهر بيبرس إلى الحج قاضي القضاة صدر الدين سليمان الحنفي (ت ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م)[٥٦].

وأيضاً حجَّ مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون كل من قاضي القضاة بالديار المصرية جلال الدين محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي القزويني الشافعي (ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٩ م) [٥٧]، وعز الدين عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الشافعي (ت ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م)، وقضاة المذاهب الثلاثة الأخرى[٥٨].

ومن المهام: التدريس والخطابة والنظر في الجوامع ومشيخة الشيوخ؛ وأوضح مثال عن ذلك قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز الذي جمع في مصر

سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م بين القضاء والخطابة والحسبة ومشيخة الشيوخ ونظر الأحباس والتدريس في عدة مدارس وإمامة الجامع ونظر الدواوين، وكان بيده خمس عشرة وظيفة، وباشر الوزارة في بعض الأوقات(٥٩).

وفي دمشق، تولى قاضي القضاة ابن خلكان الشافعي (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م)، نظر الأوقاف والجامع والمارستان وتدريس سبع مدارس منها: العادلية والناصرية والفلكية والركنية والبهنسية، وعندما فتحت المدرسة النجيبية سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م، حضر ابن خلكان تدريسها، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى(٦٠).

وفي سنة ٧٢٧ هـ/ ١٣٢٨ م، خلع على القزويني الشافعي – المتقدم ذكره – بقضاء قضاة مصر، مع التدريس في المدرسة الصالحية، والمدرسة الناصرية، ودار الحديث الكاملية، وخطابة جامع القلعة شركة مع ابن القسطلاني(٦١).

وكذلك قاضي القضاة تاج الدين السبكي؛ إذ تولى تدريس الشافعي، والخطابة، والميعاد بالجامع الطولوني، وتدريس الشيخونية، وإفتاء دار العدل، مضافاً إلى ما بيده بدمشق من التداريس، وهي: تدريس الشامية البرانية، والعذراوية، والأمينية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية. فأقام بمصر علي هذا الحكم واستناب بمدارسه الموجودة في دمشق بإذن السلطان له في ذلك(٦٢).

وأحياناً يوكل إلى قاضي القضاة أمر دار الضرب ووكالة بيت المال، كقاضي القضاة صدر الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن هبة الله ابن سني الدولة (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ م) الذي تولى وكالة بيت المال مع التدريس في الإقبالية والجاروخية(٦٣).

وكذلك قاضي القضاة تقي الدين محمد الشافعي المعروف بابن رزين (ت ٦٨٠هـ/ ١٢٨١ م) الذي تولى في دمشق النظر في الجامع ودار الضرب ووكالة بيت المال في أيام الملك الناصر مع تدريس الشامية(٦٤).

وكان قضاة القضاة يدعون لقتال الأعداء عن طريق الخطبة في الجوامع، فمثلاً عندما وصل الخبر إلى دمشق بأن مراكب العدو تقترب من ساحل بيروت سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥ م، خطب قاضي القضاة تاج الدين الشافعي بالناس يوم الجمعة كعادته، وحرَّض الناس على الجهاد، وألبس جماعة من غلمانه لباس القتال، وعزم المسير مع الناس، وكان قد نودي في دمشق أن لا يتخلف أحد من أجناد الحلقة(٦٥) عن السفر إلى بيروت، وبعد أن ورد الخبر بأن المراكب التي شُوهدت في البحر هي مراكب تجارية، صرف النظر عن السفر.

ولم يكتف قاضي القضاة بذلك، بل كان أحياناً يشارك بنفسه في القتال، كما فعل قاضي القضاة حسام الدين أبو الفضائل الحسن بن تاج الدين أحمد الحنفي (ت ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩ م)، عندما اشترك – رغم تقدمه في السن فقد بلغ السابعة والستين آنذاك – مع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في القتال ضد التتر في وادي الخزندار عند وادي سلمية سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م، وفُقد حسام الدين المذكور في هذه المعركة.

وعندما اتجه السلطان قلاوون لحصار طرابلس التي فتحها سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، كان معه خلق كثير من المتطوعة من دمشق يتقدمهم قاضي قضاة الحنابلة نجم الدين أحمد بن حمدان بن شبيب الحنبلي (ت ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٦ م)(٦٦).

خامساً- أحوال قاضي القضاة(٦٧):

ويتعلق ذلك بسن قاضي القضاة، وزيه، ومدى تقبل هذا المنصب أو رفضه، والراتب، وتقلد أُسر بعينها لهذا المنصب، وقيام بعض قضاة القضاة بعزل أنفسهم.

١- سن تعيين قاضي القضاة:

لم تحدد سناً معينة لتولية قاضي القضاة؛ ومع ذلك وبالاطلاع على المصادر؛ لم يجد الباحث أن أحداً من قضاة القضاة قد تقلد هذا المنصب في العشرين أو الثلاثين من

عمره، فقد جرت العادة أن يتقلد هذا المنصب قاض له خبرته الطويلة في القضاء وله هيبته ووقاره وسنه، ويرد هنا مثالين للتدليل على ذلك:

فأبو الربيع الحنفي تقلَّد منصب قاضي القضاة الحنفية في دمشق سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، وهو في الثالثة والثمانين.

وكان ابن دقيق العيد الشافعي (ت ٧٠٢ هـ/١٣٠١ م)، في السبعين عندما تقلَّد منصب قاضي قضاة الشافعية سنة ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م[٦٨].

٢- زي قاضي القضاة:

يقول ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ هـ/ ١٣٤٩ م): «نبدأ بالقضاة والعلماء، وزيهم دلق (لباس من الصوف) متسع بغير تفريج فتحة على كتفه، وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين طويلة، وأما من دون هؤلاء فالفرجية الطويلة الكم بغير تفريج والذؤابة أيضاً، فأما زُهَّادهم فيُقصِّر الذؤابة ويميلها إلى الكتف الأيسر على المسنون، ولا يلبس أحد منهم الحرير ولا ما فيه الحرير، ومنهم من يلبس الطيلسان.

فأما قاضي القضاة الشافعي، فرسمه الطرحة، وبها يمتاز، ويركب أعيان هذه الطائفة البغلات بسروج غير مفضضة، ويتخذ عوض الطمنكيات في السروج عرقشينات (نوع من اللباس تحت السرج لامتصاص العرق) وهي أشبه بثوب السرج، مختصر منها، وهو من جوخ، وقد يكون من أنواع الأديم، ويشق ويعمل بين السرج ومثرته، وقضاتهم تعمل بدلاً من الكنبوش (البرذعة التي تُوضع على ظهر الفرس تحت السرج) الزناري وهو من الجوخ شبيه بالعباءة المجوبة الصدر مستدير من وراء الكفل، لا يعلوه لا ذنب ولا قوش، وربما ركبوا بالكنابيش وهؤلاء لجمهم كبار ثقال الوزن»[٦٩].

وكان القاضي في عصر المماليك يضع طرحة على رأسه، لتمييزه عن باقي الموظفين، وهي عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على

الكتفين، فتحدث تأثيراً جميلاً في هيئة قاضي القضاة، وتكون أحياناً مطرزة أو مرصعة بالذهب في حواشيها.

وكان هذا الزي في الأصل امتيازاً يمنح فقط لقاضي قضاة الشافعية، لكن الظاهر بيبرس أذن سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٤ م لقضاة المذاهب: الحنفي والمالكي والحنبلي بارتدائها(٧٠).

٣- التخلي عن منصب قاضي القضاة أو التمسك به:

كان بعض العلماء لا يقبلون هذا المنصب، وكان بعضهم الآخر يقبل به، لكنه يمتنع عن أخذ راتب مقابل ذلك، ومن مظاهر التمسك بهذا المنصب تقلد أسر بعينها له، في حين كان آخرون يعزلون أنفسهم من هذا المنصب طوعاً.

وفي الأسطر الآتية تفسير لهذه الحالات:

أ- اعتذار البعض عن تقلد منصب قاضي القضاة:

منصب القضاء وخاصة قاضي القضاة من المناصب الخطيرة لأنها تتعلق بمصائر الناس، لذلك وجدنا عدداً من العلماء في عصر المماليك يرفضون تولي هذا المنصب، فقد عُرض قضاء قضاة دمشق على العلامة برهان الدين أبو إسحاق الفزاري (ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩ م)، وألح عليه أصحاب السلطة فلم يقبل(٧١).

وكذلك فعل بدر الدين أبو اليسر محمد بن محمد بن عبد القادر الأنصاري (ت ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٩ م)(٧٢).

ب - رواتب قاضي القضاة وامتناع البعض عن أخذه:

كان قاضي القضاة في العصر العباسي يتقاضى راتباً شهرياً مثل سائر القضاة، أما في عصر المماليك؛ فنجد من خلال بعض الإشارات العابرة التي ذكرها ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) أن قاضي القضاة كان يتقاضى أجراً، ومنهم العالم القاضي ابن فضل الله العمري، وكان يتقاضى ألف درهم. وتقاضى بدر الدين

محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م)، ألف درهم وعشرة أرادب قمح في الشهر[٧٣].

ومن ناحية ثانية، نقف على قضاة رفضوا أخذ أجر على القضاء، كشرف الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح المالكي (ت ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م)، الذي قبل تولي المنصب بشرط أن لا يأخذ عليه أجرة[٧٤].

ج- تقلد أُسر بعينها منصب قاضي القضاة:

نجد ذلك واضحاً في مصادر عصر المماليك، فمن العائلات الكبرى في دمشق التي كان منصب قاضي القضاة من نصيب معظم أفرادها: ابن الزكي قاضي القضاة بهاء الدين أبو الفضل يوسف (ت ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م) ابن قاضي القضاة محيي الدين يحيى (ت ٦٦٨ هـ/ ١٢٦٩ م) ابن قاضي القضاة محيي الدين أبي المعالي محمد (ت ٥٩٨ هـ/ ١٢٠٢ م) ابن قاضي القضاة منتخب الدين محمد بن يحيى القرشي (ت ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢ م) [٧٥].

وكذلك تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز (ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٧ م) هو وولداه صدر الدين عمر بن عبد الوهاب (ت ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ م) وتقي الدين عبد الرحمن بن عبد الوهاب ابن بنت الأعز (ت ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٤ م) [٧٦].

د- عزل القضاة وقضاة القضاة:

كانت قضية عزل القضاة بيد السلطان نفسه، وإن كان في كثير من الأحيان يمكن لنائب السلطنة في المدن الكبرى أن يقوم بهذا العمل، لكن ذلك لم يكن يحظى بموافقة السلطان في كثير من الأوقات، فكان يعطي أوامره بإعادة القضاة المعزولين إلى مناصبهم؛ فمثلاً قام صرغتمش نائب السلطنة بدمشق بعزل قضاة الشافعية والحنفية والمالكية في سنة ٧٥٩ هـ/ ١٣٥٨ م، لكن السلطان رسم بإعادتهم فيما بعد[٧٧].

ونقف على ظاهرة ملفتة هنا، إذ من قضاة القضاة من أقدم على عزل نفسه من منصبه، رغم تدخل كبراء وأعيان الدولة على ثنيه عن التراجع عن هذا القرار، فقد عزل زين الدين بن عبد السلام بن عمر الزواوي المالكي (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م) نفسه عن منصب قاضي قضاة المالكية بدمشق، وذلك تورعاً وزهداً(٧٨).

ووصل الأمر أحياناً إلى إلحاح نائب السلطنة الأمير يلبغا (ت ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٦ م) على قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن بدر الدين بن جماعة الشافعي (ت ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٧ م) بأن لا يعزل نفسه عن قضاء قضاة الشافعية بمصر سنة ٧٦٦ هـ/ ١٣٦٤ م، لكنه أصرَّ على موقفه، وصمَّم على ذلك، فبعث الأمير الكبير يلبغا الأمراء يسترضونه فلم يقبل، فركب إليه بنفسه ومعه القضاة والأعيان فتلطفوا به فلم يقبل وصمم على الانعزال ليتفرغ للعبادة ومجاورة الحرمين الشريفين، فعين الأمير الكبير مكانه قاضي القضاة بهاء الدين أبو البقاء السبكي الشافعي (ت ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م) (٧٩).

- **الخاتمة:**

كان الفضل الأكبر في تطور نظم القضاء عبر التاريخ المملوكي للظاهر بيبرس الذي قام بتوزيع منصب قاضي القضاة على المذاهب الأربعة السنية المشهورة، وذلك لتيسير أمور الناس عامة ولتستقيم أمور الحكم من جهة ثانية.

وكانت المهام التي كان يمارسها قاضي القضاة في عصر المماليك مهمة وحساسة في كثير من الأحيان، وتدل على أن قضاة القضاة كانوا مشغولين في جل أوقاتهم، يتنقلون من وظيفة ومهمة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر.

ولم يقتصروا على خدمة المجتمع بالقضاء فقط، بل إن جلهم مارس التدريس والخطابة في المدارس والمساجد، إلى جانب وظائف أخرى مدنية.

وهذا يدل على أن من كان يصل إلى هذا المنصب الحساس كان يجب أن يكون من العلماء الحاذقين وأصحاب الخبرات الكثيرة.

وكانت مكانة القضاة وقضاة القضاة لدى السلاطين متقدمة، حيث ينالون منهم الاحترام والتقدير.

ومما دل على سمو أخلاقهم؛ رفض بعضهم أخذ الأجرة على القضاء، ورفض بعضهم تولي هذا المنصب، وعزل بعضهم لنفسه عن القضاء.

والنقطة الأهم؛ هو تحقق (التعددية القضائية) و(التفاعلات بين المؤسسات)، فلا أوضح من التعددية القضائية من التحول الذي حدث في عصر المماليك، إذ تم الانتقال من تفرد أصحاب المذهب الشافعي بمنصب قاضي القضاة إلى تعدد هذا المنصب لدى أصحاب المذاهب الأخرى، فأصبحنا أمام أربعة مناصب لأربعة مذاهب؛ وهذا مثَّل تعددية قضائية وتعددية فكرية، بل: حرية فكرية، تتمثل بأربع مدارس فقهية فكرية.

أما التفاعلات بين المؤسسات، فلقد بيَّن هذا البحث كيف أن صاحب منصب قاضي القضاة كان يتفاعل مع جهات قضائية وأخرى غير قضائية؛ فلقد تفاعل وتعاون مع مؤسسة القضاء: مع السلطان، ومع مؤسسة الحسبة، ومع مؤسسة الإفتاء، ومع محكمة النظر في المظالم.

وتفاعل وتعاون مع مؤسسات غير قضائية؛ كمؤسسة الحج، ومؤسسات التعليم كالمدارس والجوامع، ومؤسسة سك العملة، والمؤسسة المالية لما تولى وكالة بيت المال.

والصورة الأوضح للتفاعل بين المؤسسات؛ هي تلك المتمثلة بمحكمة النظر بالمظالم، ففيها كان ينشط التعاون والتفاعل فيها بين مختلف المؤسسات، كالمؤسسة المالية المتمثلة بوجود وكيل بيت المال، والمؤسسة الإدارية الدواوينية المتمثلة بوجود كُتَّاب وموقعي الدست وكاتب السر، والمؤسسة العسكرية المتمثلة بوجود السلاحدارية والخاصكية.

حواشي التوثيق

(١) انظر شبارو، محمد عصام: قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢ م، ص ٩.

(٢) رواه البيهقي من حديث ابن عباس، وهو في الصحيحين بلفظ: «ولكن اليمين على المدعى عليه». (السنن الكبرى، ٥/ ٣٣٢)، (١٠/ ٢٥٢). صحيح البخاري، رقم (٢٥١٤) وصحيح مسلم، رقم (١٧١١).

(٣) كحالة، عمر رضا: مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٣٩٤ هـ، ١٩٧٤ م، ص ٢٢٠. الكحلي، يحيى بن أحمد: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١ م، ص ٥٣.

(٤) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ج ١، ص ٤٧٥، الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٤، ج ٤، ص ٢٤١.

(٥) اليافعي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ، ص ٧٤- ٧٥.

(٦) الماوردي، علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، ١٩٠٩ م، ص ٧٣. كحالة: مباحث اجتماعية في عالمي العرب والإسلام، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٧) عرنوس، محمود: تاريخ القضاء في الإسلام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مطبعة الحلبي مصر، ص ٣٨- ٣٩. كحالة: مباحث اجتماعية، ص ٢٢٣. شبارو: قاضي القضاة في الإسلام، ص ١٠.

(٨) عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، ص ٤٠.

(٩) التنوخي، المحسن بن علي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالجي، دار صادر بيروت، ١٩٧١- ١٩٧٣ م، جـ، ص ٢٥٣. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية بيروت، ج ١٤، ص ٢٤٢.

(١٠) كحالة: مباحث اجتماعية، ص٢٢٤.

(١١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٧٧. شبارو: السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤ م، ص ١٤٨. طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م، ص ١٥٢. النهار، عمار محمد: تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ط ١، ٢٠١٣- ٢٠١٤ م، ص ٢٧١، ٢٧٢.

(١٢) حتي، فيليب: تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط ٨، ١٩٩٠ م، ص ٧٦٧.

(١٣) القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٧٣، ١٧٥.

(١٤) القلقشندي، أحمد بن علي: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تح: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ط ٢، ١٩٨٥ م، ج ٢، ص ١١٩.

(١٥) هنا ذكر القلقشندي قول النويري مختصراً، وسيأتي ذكر قوله التفصيلي.

(١٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦. والأمر الواضح هنا أن بيبرس لم يأخذ برأي الأمير جمال الدين أيدغدي مباشرة وإنما فيما بعد، لأن هذا الأمير توفي سنة ٦٦٢ هـ/ ١٢٦٤ م.

(١٧) ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد: طبقات الشافعية، تح: عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ، ج ٢، ص ١٣٨، ١٣٩.

(١٨) ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد: التاريخ الكبير، تح: أحمد الدالي، رسالة ماجستير، إشراف د. عمار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٤- ٢٠١٥ م، ص ٤٧٤.

(١٩) الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣ م، ج ٤٩، ص ٥١.

(٢٠) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط١، ١٩٦٧م، ج ٢، ص ١٦٤- ١٦٨.

(٢١) سورة الأنعام، الآية ٦٤.

(٢٢) تعني الخشداشية: الزمالة وما هنالك من عاطفة بين مجموعة من المماليك نشؤوا في كنف أستاذ واحد ونُسبوا إليه، كالمماليك الظاهرية نسبة إلى الظاهر، والأشرفية نسبة للأشرف، والصالحية نسبة للصالح، فصاروا كالأخوة يربط بينهم أب واحد. انظر عاشور، سعيد: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، سوسة، تونس، دار المعارف، ص ١٦، ١٧.

(٢٣) النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣ هـ، ج ٣٠، ص ١١٧، ١١٨.

(٢٤) المقريزي، أحمد بن علي: الخطط المقريزية، بيروت، دار صادر، ج ٢، ص ٣٨٠- ٤٠٠. ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروضة البهية الزاهرة في خطط

المعزية القاهرة، تح: أيمن فؤاد سيد، القاهرة، مكتبة الدار العربية، ط١، ١٩٩٦م، ص ٨٥ – ٨٨.

(٢٥) ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م، ج ١٤، ص ٢٥٤.

(٢٦) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٤٠٤.

(٢٧) انظر عنه الصفدي، خليل بن أيبك: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٨ م، ج ٢، ص ٥٥٨، ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط ٢، ١٩٦٦ م، ج ٢، ص ٣٠٦.

(٢٨) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٨٦.

(٢٩) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٩١.

(٣٠) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٩٢. وانظر عن هذا التنافس النهار: تاريخ المماليك، ص ٣٧٣، ٣٧٤.

(31) Rapoport, Yossef; Legal Diversity in the Age of Taqlid: The Four Chief Qadis under the Mamluks. Source: Islamic Law and Society, Vol. 10, No. 2, The Madhhab (2003), pp. 210-228.

(٣٢) يقول القلقشندي: «التقاليد جمع تقليد؛ قال: قلَّدته أمر كذا إذا ولَّيته إيَّاه». القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٠١.

(٣٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٨٦، ٢٠٤، ٢١٧.

(٣٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٣٠. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بيروت، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ٢٠١١ م، بحث عمار النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ١٥- ١٧.

(٣٥) الجلواز «جمعه جلوازة»، لجلوزتهم، أي شدة سعيهم بين يدي الأمير وهو بمعنى الشرطي. وهو الذي يقوم بحفظ النظام، وترتيب الخصوم بحسب حضورهم، ومنعهم من التقدم إلى القاضي أو قاضي القضاة في غير دورهم، ويلزمهم مراعاة الآداب في مجلس القضاء، وكان يحمل بيده سوطاً يقرع به كلّ من يحاول الخروج على النظام. وكانت الأمانة أهم صفاته؛ حتى لا يجد الخصوم سبيلاً إلى التأثير فيه عن طريق الرشوة. انظر حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية ط ٢، ١٩٤٨ م، ص ٢٩٠. عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، ص ١٢٨ ، ١٢٩.

(٣٦) السبكي، عبد الوهاب بن علي: معيد النعم ومبيد النقم، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧ م، ص ٥٤. حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص ٢٩١.

(٣٧) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ج ١، ص ٣٦. و (ثم) هنا ظرف مكان بمعنى هنا، والمراد بها: ما هنا من الحاصل شيء حتى أعطيكه.

(٣٨) انظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث عمار النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ١٩ وما بعد.

(٣٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٩١.

(٤٠) كانت منصب الوزارة في عصر المماليك من أجل المناصب، وكانت تولية الوزير تتم من قبل السلطان، وكان صاحبها ثاني رجل في الدولة إلى أن أُحدث منصب النيابة، فتأخرت الوزارة، حتى ألغاها الناصر محمد بن قلاوون، فوُزعت مهمات الوزير على ناظر المال؛ ومهمته تحصيل المال وصرف النفقات والكلف، وعلى ناظر الخاص؛ ومهمته تدبير جملة من الأمور وتعيين المباشرين؛ وكاتب السر؛ ويقوم بالتوقيع في دار العدل، وهؤلاء الثلاثة لا يستطيعون الاستقلال بأي أمر إلا

بعد مراجعة السلطان. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨، ١١٨. المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٤١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٨٣، ١٨٤، ٣١٤، ٣٥٧، ٣٥٩، ٤٠٠. ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م، ج ٩، ص ١٧٢. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ١٩، ٢٠.

(٤٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٩٥. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ٢٠، ٢١. حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط ١٤، ١٩٩٦ م، ج ٣، ص ٣٦٦.

(٤٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٣٢. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ٢١.

(٤٤) أتى على ذكر تفاصيل محكمة النظر بالمظالم كل من العمري والمقريزي والقلقشندي، واكتفى الباحث هنا بذكر العمري لأنه الأقدم ولتشابه ما ذكره هؤلاء جميعهم، وعدم وجود خلاف فيما قالوه.

(٤٥) لما تسلَّم السلطان المنصور قلاوون الحكم (٦٧٨- ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩- ١٢٩٠ م) سنة ٦٧٩ هـ/ ١٢٨٠ م بنى «الإيوان» واتخذه مقراً لهذه المحكمة. وبقي كذلك طوال عهد ابنه الأشرف صلاح الدين خليل (٦٨٩- ٦٩٣هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩٣م) الذي أدخل عليه بعض الإصلاحات، واستمر الحال على ذلك حتى هدمه السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣- ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٣- ١٢٩٤ م) سنة

٧٢٧ هـ/ ١٣٢٦ م وأعاد بناءه، وزاد في مساحته وأنشأ به قبة عظيمة وأقام به عُمداً جلها من بلاد الصعيد، ونصب في صدره سرير الملك الذي صنعه من العاج والأبنوس، وقرر أن يجلس فيه يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع على نحو ما كانت عليه الحال في عهد السلطان بيبرس. انظر المقريزي: الخطط، ط ١٩٩٨ م، ج ٣، ص ٣٦٤.

(٤٦) ألحقنا رسماً توضيحياً في نهاية هذا البحث عن ذلك.

(٤٧) وكالة بيت المال وظيفة دينية تتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته، ولا يتسلمها إلا أهل العلم والدين، ومجلسها بدار العدل. انظر دهمان، محمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م، ص ١٥٥، ١٥٦.

(٤٨) وظيفة اختصاصها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها، وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٢٧.

(٤٩) وهو الذي يتحدث بأمر الجيوش وضبطها. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٥٠.

(٥٠) وظيفتهم كتابة ما يريد السلطان، ويضعون توقيعهم بدله بإذنه نيابة عنه، وتُرسل للتنفيذ. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٧٥.

(٥١) السلحدار لقب لمن يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ومعناه: ممسك السلاح. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٩١.

(٥٢) الجمدار أو الجامدار: هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، ومعناه: اللباس داخل البيت، ومنها البيجاما. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٥٤.

(٥٣) هم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته، ويجعلهم في حرسه الخاص، وهذا الإسم يختص بهم لأنهم يحضرون على السلطان في أوقات خلواته وفراغه. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ٦٦.

(٥٤) الدوادار هو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، وموضوع وظيفته: نقل الرسائل والأمور عن السلطان، وعرض القصص والبريد، وأخذ الخط السلطاني على عامة المناشير. انظر دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص ١٢٧.

(٥٥) العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٤٢٣هـ، ج ٣، ص ٤٣٦، ٤٣٧. المقريزي: الخطط، ج ٣، ص ٣٦٤- ٣٦٥. القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ٢١- ٢٥. وفي عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون تغير ترتيب جلوس قضاة المذاهب الأربعة في محكمة المظالم عما كانت عليه في عهد السلطان بيبرس. وقد تغير ترتيب جلوس أعضاء محكمة المظالم مرة ثالثة في عهد أبناء السلطان الناصر محمد وأحفاده، كذلك تغير نظام العمل بمحكمة المظالم في يوم الخميس، فسمح للقضاة وناظر الجيش بالحضور إلى الإيوان في ذلك اليوم، كما أصبحت القصص تقرأ والشكايات تقدم ويفصل فيها أسوة بنظام العمل في تلك المحكمة في يوم الاثنين. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥. المقريزي: الخطط، ط ١٩٩٨ م، ج ٣، ص ٣٦٥. ابن بطوطة: تحفة النظار، ج ١، ص ٣٢. النهار: تاريخ المماليك، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

(٥٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٩٩.

(٥٧) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ١٥٩.

(٥٨) ابن العماد، عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤ م، ج ٦، ص ٢٠٩.

(٥٩) النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ١١٦، ١١٧. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٩، ص ٩٥.

(٦٠) النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م، ج ١، ص ١٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٣٣.

(٦١) المقريزي: السلوك، ج ٣، ص ٩٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٦٨.

(٦٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٢١.

(٦٣) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٢٩١.

(٦٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٦٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٣١.

(٦٥) هم أحد فرق جيوش المماليك، وهم الجيش الذي لا يتغير بتغير السلطان، أي هم الجنود الثابتون الذين احترفوا الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم عصب الجيش المملوكي والقوة الضاربة الرئيسية فيه. انظر القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥، ١٦.

(٦٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٤١، ١٧٤، ٤٠٨. وانظر عن كل ذلك مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ٢٧- ٣٢.

(٦٧) انظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث عمار النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص٣٢ وما بعد.

(٦٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١١٨، ١٦٣.

(٦٩) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج ٣، ص ٤٤٩.

(٧٠) المقريزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٨. ماير، ل. أ: الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، الهيئة المصرية للكتاب، ص ٩٣. دوزي، رينهارت: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، ١٩٧١ م، ص ٢١٢.

(٧١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ٢٧٦. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٢٨٢.

(٧٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٣٢. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ١٢٣، ٣٧٤.

(٧٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٣٤٢، ٢٦٨. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ١٠٦، ١٦٠.

(٧٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٠٣.

(٧٥) اليافعي: مرآة الجنان، ج ٤، ص ١٥٢. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٩٤.

(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٩٥- ١٣٠- ١٦٥.

(٧٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص٣٦٦.

(٧٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ١٣٢. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٧٤.

(٧٩) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٩، ص ٤٠٠. ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٠٩. وانظر مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بحث النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك)، ص ٣٢- ٣٩.

مصادر ومراجع البحث

- **المصادر:**

- ابن العماد، عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٩٤ م.
- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي.
- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.
- ابن حجر، أحمد بن علي: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تح: محمد جاد الحق، مطبعة المدني، ط ٢، ١٩٦٦ م.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد: طبقات الشافعية، تح: عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد: التاريخ الكبير، تح: أحمد الدالي، رسالة ماجستير، إشراف د. عمار النهار، جامعة دمشق، ٢٠١٤- ٢٠١٥ م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨ م.
- التنوخي، المحسن بن علي: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح: عبود الشالجي، دار صادر بيروت، ١٩٧١- ١٩٧٣ م.
- الخطيب البغدادي، أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

- الذهبي، محمد بن أحمد: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٣ م.
- السبكي، عبد الوهاب بن علي: معيد النعم ومبيد النقم، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٧ م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط ١، ١٩٦٧ م.
- الصفدي، خليل بن أيبك: أعيان العصر وأعوان النصر، تح: علي أبو زيد وآخرون، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٨ م.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط ٤.
- العمري، أحمد بن يحيى: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م.
- الماوردي، علي بن محمد: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة، ١٩٠٩ م.
- المقريزي، أحمد بن علي: الخطط المقريزية، دار صادر، بيروت.
- المقريزي: الخطط المقريزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد: الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.

- النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣ هـ.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ.

- **المراجع:**

- حتي، فيليب: تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- حسن، علي إبراهيم: تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية ط ٢، ١٩٤٨م.
- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل، بيروت، ط ١٤، ١٩٩٦ م.
- دهمان، محمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٩٩٠ م.
- دوزي، رينهارت: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة: أكرم فاضل، ١٩٧١ م.
- شبارو، محمد عصام: قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٢ م.
- شبارو: السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٤ م.
- طقوش، محمد سهيل: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩ م.

- عاشور، سعيد: نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، سوسة، تونس، دار المعارف.
- عرنوس، محمود بن محمد: تاريخ القضاء في الإسلام، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مطبعة الحلبي مصر.
- كحالة، عمر رضا: مباحث اجتماعية في علمي العرب والإسلام، مطبعة الحجاز بدمشق، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.
- الكحلي، يحيى بن أحمد: معالم النظام الاجتماعي في الإسلام، دار النهضة، بيروت، ١٩٨١ م.
- مؤتمر الأنظمة القضائية في تاريخ العالم الإسلامي الوسيط والحديث، بيروت، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ٢٠١١ م، بحث عمار النهار (نظرة في قضاء عصر المماليك).
- ماير، ل. أ: الملابس المملوكية، ترجمة: صالح الشيتي، الهيئة المصرية للكتاب.
- النهار، عمار محمد: تاريخ المماليك، جامعة دمشق، ط ١، ٢٠١٣- ٢٠١٤ م.
- Rapoport, Yossef; Legal Diversity in the Age of Taqlid: The Four Chief Qadis under the Mamluks. Source: Islamic Law and Society, Vol. 10, No. 2, The Madhhab (2003).

ثورة دمشق المجهُولة في العصر العثماني ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م

د. عبد المنعم الأحمد

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مقدمة:

بعد سيطرة الدولة العثمانية على بلاد الشام إثر معركة مرج دابق عام ١٥١٦ م، بدأت بتوطيد حكمها، حيث اعترفت بالزعامات المحلية ورؤساء العشائر البدوية التي كانت قائمة قبلهم في الشام، فأبقت من قدم الولاء لها، وسعت إلى كسبه وإدخاله في نظامها الإداري، وحاربت من تمرَّد عليها، وشقَّ عصا الطاعة.

وفيما بعد حاولت السلطنة العثمانية حماية تجارتها؛ لأن الدافع الاقتصادي كان من العوامل الرئيسة المحرِّكة للسيطرة على بلاد الشام؛ لذا بادرت الدولة العثمانية لإقامة الامتيازات مع الدول الأوربية، واستيراد سلعها على حساب الصناعات المحلية؛ فضلاً عن ذلك فرضت الضرائب والرسوم الباهظة على السكان، وهذا كله أثر في الحياة الاجتماعية.

وبالتالي كانت الإدارة الاقتصادية للدولة العثمانية سلبية أكثر منها ايجابية على ولايات بلاد الشام، وهذا بدوره أدَّى إلى وقوع المواطن بمعاناة كبيرةٍ من مساوئ تحكم الولاة، وتسلط الحاشية التي تدير أمور الولاية.

ويشير رضا نور "أن بعض الولاة في الشام مارس ظلماً غير متوقع مستغِلاً حالة الاضطراب والضعف الذي انتاب السلطنة؛ فضلاً عن محاولتهم جمع الضرائب وتحصيلها بالقوة"(١).

رغم المعاناة لم يرفض الأهالي تقديم الولاء للسلطان العثماني، وإنما كان احتجاجها على كثرة الضرائب التي فرضها الولاة، والتي بدورها أرهقت كاهل الأهالي؛ فاضطروا

إلى رفع عصا الطاعة معلنين احتجاجهم عليها، وقد قدموا شكاوى عدّة لولاة الأمر يطالبونهم بالتخفيف والنظر بحالهم، غير أنّ ولاة الشام تجاهلوا شكاوى الأهالي، وشكلوا سدّاً منيعاً في منع إيصال أصواتهم إلى السلطان العثماني.

ويذكر جوّدت في تاريخه "أن الولاة تذرعوا بحجة جمع الضرائب للاغتناء الشخصي على حساب الأهالي، وعلى حساب صيتهم، وكرامتهم وكرامة الدولة التي تولى أمر إدارتها حفنة من السفلة والخصيان؛ ولهذا عمّت المظاهرات مختلف الولايات العثمانية"(٢).

بالطبع كل هذا التململ إنما نجم عن ضعف الدولة العثمانية الذي ارتبط بضعف شخصيات السلاطين أنفسهم، وتخليهم بالتدريج عن المساهمة الفعلية في قيادة الجيش والإدارة، ورافق ذلك تلاعب بالأموال العامة نتيجة لفساد كبار الموظفين، فكثرت ممارسات الغش، والرشوة، والظلم، والاستغلال، وشراء المناصب بينهم، بما فيها منصب الوالي(٣).

لذا فإنّ أول عمل يقوم به الوالي حين تعيينه على الولاية يكون في تعويض ما خسره من جراء شرائه للمنصب؛ وذلك بفرض الضرائب، والرسوم المجحفة بحق الأهالي وتحصيلها بالقوة، وهذا ما ينطبق على ولاة دمشق. لكن من وقف في وجه هؤلاء الطغاة؟ هم الجند الشامي، والعساكر الوطنية(٤) الذين تكوّنوا من خلال اندماج الانكشارية بالأهالي بعد سوء الوضع المعاشي لهم، بسبب انهيار العملة، وغلاء المعيشة، وتراجع الإقطاع العسكري، وتراجع الحروب، فلم تعد حياتهم محصورة في قلعة دمشق، وحمايتها، وحماية أبوابها، والقيام بأعمال الشرطة فيها، وإنما انطلقوا يمارسون الحرف والتجارة أيضاً، وفيما بعد انتمت الانكشارية إلى عائلات وطوائف دمشقية نتيجة تزاوج أفرادها مع نساء محليات، وانخراطهم مع أولادهم في ميادين التجارة والصناعة(٥).

ووفقاً لما سبق تشكلت الانكشارية اليرلية أي "المحلية" التي وقفت في وجه ظلم الوالي وعساكره، وتعسفهم "القابي قول" أي "عبيد الباب" الذين بقي ولاؤهم للإدارة المركزية في إستنبول.

وهكذا اصبح في دمشق طائفتان انكشاريتان: الانكشارية اليرلية؛ أي المحلية التي أوكل إليها نظرياً حراسة منازل الحج التي أصبح معظم أفرادها من السكان المحليين، وانكشارية القابي قول التي تمركزت في القلعة، وعلى السور، وعند أبواب المدينة، وكانت ترفد الأخيرة بين الحين والآخر، بفرق جديدة لتدعيم ولائها للإدارة المركزية، وزاد هذا الأمر في عدائها للانكشارية المحلية التي كانت تهتم بمصالحها. ومما أزمَّ العلاقة بين الطائفتين أن الوالي استخدم القابي قول للبطش بزعماء اليرلية، كما أن محاولة بعض أفراد القابي قول دخول ميدان التجارة والانتساب إلى الحرف، والقيام بنشاط اقتصادي؛ وخصوصاً في حي الميدان الذي أصبح أكثر أفراده من اليرلية، وعدّ الشريان الاقتصادي لولاية دمشق، وعنبر حوران، وهذا بدوره أثار حفيظة أعدائهم اليرلية، وزاد من العداء بين الطائفتين.

لذا عاشت ولاية دمشق ما بين عام ١٦٦٠ م حتى تاريخ الغاء الانكشارية عام ١٨٢٦ م، فترة حافلة بالصراع الحاد بين الفئتين(٦).

مما سبق يتبيّن لنا أن سبب التمرّد والعصيان في ولاية دمشق هو فرض الضرائب وتحصيلها بالقوة من قبل الولاة ووقوف اليرلية إلى جانب الأهالي ضد تعسف الولاة، وعساكرهم القابي قول. لكن ثورة دمشق التي اندلعت عام ١٨٣١ م، هل كانت ضريبة الصليان (السنوية) هي السبب أم أنَّ هناك أسباباً أخرى أدت الى إندلاعها؟ ومن وقف إلى جانب الأهالي ضد تعسف الوزير محمد سليم باشا؟ وهذا ما سوف نعرفه عندما نتطرق لأحداث الثورة.

كان السلطان العثماني محمُود الثاني الذي حكم بين عامي ١٨٠٧- ١٨٣٩ م بأشد الحاجة إلى جمع الضرائب، والرسوم لتغطية مشاريعه الكبيرة، ولاسيما إنشاء "الكتائب المحمدية المنصورة"، وهو الجيش الجديد الذي أوجده بعد القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦ م. وكانت روسيا قد فرضت عليه في معاهدة أدرنة سنة ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩ م، دفع مليون ونصف المليون دوقة هولندية. وبما أن الأهالي في دمشق سئموا من الضرائب المتواصلة، وسوء الوضع الاقتصادي الذي أسفر عنه غلاء المعيشة، كل هذا خلق عندهم جو استياء، وعدم ارتياح كبيرَين.

فعندما أرسل السلطان محمود الثاني إلى دمشق الوالي "عبد الرؤوف باشا" ومعه فرمان بفرض ضريبة الصليان على الدكاكين والمخازن وما يُغلق عليه ما عدا الدور السكنية ضريبة قدرها مصريتان كل شهر، وعرفت هذه الضريبة أيضاً باسم "رسم الاحتساب" وهي نوع من الضرائب السنوية كانت تفرض على العقارات، والتي عدّت بدورها تحول جذري في النظام الضريبي الاجتماعي في ولاية دمشق، فعارضها الأهالي لكثرة ما اعتادوا على رؤية المظالم؛ ففقدوا الحس بالعدل، وبما أن الوالي عبد الرؤوف باشا كان عادلاً طمعت به أهل الشام(٧).

فعندما نادى بتحصيلها عسكر الوالي في الأسواق، وشدّدوا في النداء، وعلى أثرها أعلن أهل البلد "الإضراب" و"سكَّروا (أغلقوا) دكاكينهم" على حد قول المؤرخ المجهول.

وتجمعوا، وحضروا إلى باب الجابية وضربوا المنادين، فوصل الخبر إلى السرايا، مكان القصر العدلي اليوم، وهي قريبة من باب الجابية، وسار المتظاهرون نحوها، على الفور أمر الكتخدا عثمان باشا مجموعة من الجنود المأجورين من الموصل وكركوك ومعهم الأوضباشي (رئيس التشريفات في الولاية) للذهاب إلى مكان التمرد، فلما وجدوهم، أطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوا اثني عشر رجلاً، وردّ المتظاهرون على ذلك، فقتلوا عدداً من العسكر ونهبوا بيوتهم، واستمر الحال نحو ثلاثة أيام. وتداركاً للفتنة، بادر الوالي عبد

الرؤوف باشا، ونادى في البلد بأن "الصليان بطّالة" وطرد جنوده من المدينة منعاً لاندلاع الفتن من جديد(٨)، واسترضاءً للدمشقيين، عادت الأسواق لتفتح من جديد لكن قتل عسكر الوالي بقي مستمراً، وخصوصاً الجنود المأجورين حيث يقول المؤلف المجّهول" كلما نظروا موصلي وكوركتلي يقتلوه (يقتلونه) وكل يوم يطوش الحال معهم على المواصلة والكراكته حتى عملوهم شغلتهم، فلما رأى أعيان البلد أن هذه الطوشات يومية ولا هو مأمول أن بانحسامها تراموا إلى الوزير أنه مادام المواصلة والكراكته في البلد فلا يخلص هذا الشر، فأمر الوزير بأن يرحلوا من البلد فتوجهوا جميعاً خارج دمشق، وراقت البلد"(٩).

ولما حان موعد الحج تم سحب عدد كبير من العسكر من المدينة لمرافقة قافلة الحج، حيث تهيأ الوالي رؤوف باشا لأداء مناسك الحج، ويبدوا أن الإجراءات التي اتخذها الوالي قد هدّأت النفوس. ولما عاد الوالي إلى الشام كان قد بلغ مسامع العاصمة إسِتنبول فشله في تحصيل الضريبة الجديدة، فتم عزله من منصبه وتعيين الوزير سليم باشا والياً على دمشق(١٠).

لكن من الجدير ذكره أن ضريبة الصليان قد فرضها الوالي خورشيد باشا على أهالي حلب ما بين عامي ١٨١٩-١٨٢٠ وفقاً لما ذكره المطران أبراهام يكينيان- كوبليان (١٧٨٦ – ١٨٣٢ م). كشاهد عيان للأحداث آذاك(١١).

حيث ذكر المطران:لقد فرض الوالي خورشيد باشا ضريبة "الصليان" على الحلبيين (الصليان أصلها سليان جمع "سال" من الفارسية وتعني "سنة ": وهي نوع من الضرائب السنوية كانت تفرض على العقارات). وقد فرضت لجمع المال لجر مياه الساجور إلى حلب لانخفاض منسوب نهر قويق بسبب الجفاف. فرض ٤٠ –٧٠ قرشاً على كل بيت، وكان هناك بيوت لا تساوي قيمتها الضريبة المفروضة. وعندما ذهب خورشيد إلى الساجور، فاجتمع بغيابه زعماء البلد، ورفضوا دفع الضريبة، وطلبوا عزل المتسلّم.

وعندما رفض الوالي، بدأت الثورة يوم السبت ٢٣ تشرين الأول ١٨١٩ م، وشارك فيها الأشراف (السيدا)، ووجهاء البلد والانكشارية الناقمة، والملاحَقة من قبل الحاكم. هجم في البدء الحلبيون على بيت الكتخدا(نائب الوالي العسكري) سليمان بك، وقتلوه مع العديد من عسكر الوالي، وطالبوا بعزل المتسلّم. رفض خورشيد طلبات الثوار، وأمر بمحاصرة المدينة وضربها بالمدافع، وقطع الماء، والذخيرة عنها، وحاول القبض على رجال الثورة، فرفض الشعب الاستسلام، ووقف صفاً واحداً.

دامت الثورة مئة يوم ويوماً، عانى فيها الشعب الجوع، والحرمان، وهدمت الدور وأُحرِقت الأسواق، وقُتِل الكثيرون. وحصل انقسام في النهاية بين مؤيد للقتال، ومؤيد للصلح، واتفق على الصلح مع خورشيد. فدخلت جيوشه، وتمت تصفية الثوار، والزعماء، وكان في مقدّمتهم محمد قجّة واثنا عشر قائداً ووجيهاً، واقتحموا بيت الشاعر الطرابلسي الذي كان يحرّض الثوار بأشعاره الحماسية[١٢].

وبالتالي ضريبة الصليان كانت معروفة قبل فرضها على أهالي دمشق، حيث كانت عبئاً ثقيلاً أسفرت عن قيام ثورتي حلب ودمشق.

دُخول محمد سليم باشا إلى دمشق:

دخل إلى دمشق يوم ٥ ربيع أول ١٢٤٧ هـ/ ١٥ آب ١٨٣١ م، بموكب عظيم ومعه خمسة آلاف عسكري، وهو عدد كبير ما جرت العادة بدخول مثله مع الوالي الجديد.

وكانت أخباره قد وصلت إلى دمشق قبل قدومه، كما هي العادة مع كل الولاة، ولم تكن الصورة التي أخذها أهل الشام عنه حسنة؛ بل كانت على عكس ذلك.

- فهُو كان صدراً أعظم.

- وكان الساعد الأيمن للسلطان محمُود الثاني في إبادة أوجاق الانكشارية الذي كان الناس- بتأثير من العلماء- يرونه الدرع الذي يدفعُ عن الدولة شرَّ الأعداء، والطامعين.
- وعلم الناسُ أنه قتل العلماء، وبضعة رجال من عرب عنزة في حماة، وقيد البرازي في القيود واصطحبه معه إلى دمشق، فدهش أهلها، وأدركوا خطره عليهم.
- وكان مما وصل من أخباره السَّيئة أنَّه غرَّق ستة آلاف امرأة من نساء الانكشارية[١٣].

ولذلك فإنه لما دخل دمشق خاف الناسُ منه قبل أن يشاهدوا شيئاً من أفعاله، لأنه دخل متنكراً بموكب عظيم، ودار في المدينة دورة كبيرة، وفي اليوم التالي نادى بدمشق أنَّ على الناس "تعزيل جميع الحارات" ومن شدَّة خوف الناس منه بادروا خلال أربع وعشرين ساعة إلى تنظيف جميع حارات البلد....

وعندما كان يتجوَّل في البلد يهرب الناس من وجهه، وتغلق الأسواق والمقاهي[١٤].

وأول ما فعله بدمشق، وهو مما يدلُّ على سوء نيَّته، أنه دخل إلى القلعة، وصعد إلى أبراجها، وصار ينظر إلى حارات الشام، وأدرك أنها جميعاً تقع على مرمى مدافعه، وشحن (ملأ) القلعة بالذخيرة، فازدادت شكوك الناس به.

ثم أعلن في الملأ أن مراده أن يمشي الصليان، وأن يحضر القنصل الإنكليزي إلى دمشق فكرهه الناس، ولم تكن أحداث سلفه عبد الرؤوف باشا غائبة عن أذهانهم؛ ولذلك كانت كل الدلائل تشير إلى حصول صدام عنيف بين أهل دمشق، ومحمد سليم باشا وعساكره. وعدّوا أن الصليان ما هو إلاَّ جزية سببها الكفار.

وممَّا زاد في خطورة الموقف ما كان يمارسه محمد علي باشا بواسطة عملائه، وفي مقدمتهم والي صيدا عبد الله الخزندار، والوالي كنج يوسف باشا، عدا عن أن "أوجاق النيكجرية" بدمشق ومركزه الرئيس في الميدان كان مصمماً على القضاء تماماً على من

أباد رفاقهم في الآستانة، ودعمه بذلك أهل البلد على اختلاف أهداف كل فريق، فأهل البلد يريدون رفع الصليان، وعدم دخول القنصل، والآغاوات يريدون قتل الوالي وحزبه[١٥].

أ- بدايات الثورة:

دار متسلم دمشق علي الشوربجي، ومعه علي آغا الخزنة كاتبي، وأحد الكتاب وسجّلوا محلات الميدان، والقنوات، وباب سريجة. وعندما وصلوا إلى سوق البزوريين، البزوريَّة- وجدوا العالم "ضايجة جداً" على حسب تعبير ميخائيل الدمشقي، وكلما سأل صاحب المحل عن اسمه يقول له: حنا، جرجس، فوبخهم علي آغا المتسلم، "وعملوا ضجَّة" في السوق وهمّوا بقتل الكاتب، وكانوا بقولهم يسخرون من الضريبة، ومن السلطان، ومن الوالي معاً[١٦].

وقام علي آغا بإخبار الوالي بما حدث، فدعا الوالي أعيان دمشق، وعلماءها إلى الحضور إلى الديوان لبحث الأمر.

وفي ديوان دمشق تكلم الوالي بلطف زائد لم يكن من عادته، وأفهم المجتمعين أن الصليان من إرادة السلطان، وأنه ليس له من الأمر شيء.

فقال الأعيان: إنَّ هذا الصليان ثقيل، ولا يمكن للأهالي أن يقبلوه على أنفسهم[١٧].

فانزعج الوالي "وخاشنهم بالكلام" وأظهر وجهه الآخر، وقال لهم:

"إن أيام عبد الرؤوف قد ولّت، وإنه غير عبد الرؤوف، وإنه لا بد أن "يمشي الصليان".

فأجابوه أن أمره نافذ، وأنه سيصير خير، وأن أهالي البلد طائعون للدولة العلية والسلطان.

فأعطاهم الأوامر، وأذِن لهم بعقد ديوان عام في دار المفتي.

واجتمعوا في دار المفتي لإنفاذ الصليان ظاهراً، وأما في الباطن، فقد اجتمعوا لتجديد الرفض والإصرار على المواثيق التي التزموا بها في "الربوة".

وكان قد اجتمع في مَنتزَّه "الربوة". آغاوات البلد، وأعيانها، وكبار أهاليها، وحلفوا بالطلاق، ووضعوا يدهم على السيف، والمصحف بأن يكونوا يداً واحدة، ورأياً واحداً في قضيَّة الصليان؛ وهو أنهم لم يُمشّوا الصليان ولو قتلوا عن آخرهم(١٨).

ووصل الخبر إلى الوزير بأن الأعيان وافقوا على جمع الصليان؛ فأمرهم بكتابة حارات الشام، ومحلاتها.

وبدأت الكتابة نهار الخميس رابع شهر أيلول ١٨٣١ م، فكتبوا الميدان، وباب السريجة والقنوات/ ربيع الأول ١٢٤٧ هـ.

وفي عصر يوم الجُمُعة وصلوا إلى البزوريَّة ومنها إلى حي العمارة، وهناك ضرب الأهالي الكاتب، ومن معه، وحملوا السلاح، واستعدَّ كل طرف للقتال(١٩).

وانضمَّ أهل العقيبة والصَّالحية إلى أهل العَمارة، وأرسل الوزير عساكره إلى العمارة، فأغلق أهلها البوَّابة "باب الحارة" وأطلقوا الرصاص على العسكر الذين اتخذوا من جامع المعلَّق بالمناخلية(٢٠) قلعة لهم بسبب متانة بنائه، وارتفاع مئذنته، كما تمركز العسكر في خان الدالاتية مقابل الجامع، والتجأ معظم أهل المدينة إلى الخانات التي كانت أشبه بالقلاع، مثل خان سليمان باشا، وخان أسعد باشا، وخان الصدرانية، خان التوتن، وخان الجمرك، وخان الحرير، وغيرها.

٢- الثورة:

وبدأ القتال عندما أرسل الوزير جنوده إلى الميدان، فتحرك أهالي الميدان، وأنجدهم أهالي الشاغور، وهاجموا العسكر عند مقابر الباب الصغير، وقتلوا عدداً منهم، وقطعوا رؤوس خمسة منهم، وأقاموا المتاريس في الدرويشية، ارتعب الوزير، وخاف من انضمام أهالي القنوات إلى أهالي الشاغور، والميدان، فأرسل إليهم فرماناً بالأمان، والاطمئنان...

وفي مساء ذلك اليوم؛ يوم السبت أمر الوالي بفتح ثغرة من السرايا إلى حي القنوات، واحتل العسكر زقاق العدَّاس[٢١]، وحسب رواية المؤرخ المجهول، أخذوا عدداً من نساء القنوات "وعملوا فيهنَّ عملاً يرثى له" وعلم أهالي الحارات بما حصل، فأصبحت المدينة كلها تحت السلاح[٢٢].

ونشب القتال في القنوات، وكُسر العسكر؛ فانسحبوا إلى السرايا والدوالك، فهاجمهم أهل البلد في الدوالك، وأشعلوا فيها النار؛ فهرب العسكر منها إلى السرايا.

وهاجمهم أهل البلد في السرايا، ونقبوا المطبخ، وأشعلوا النار في السرايا، فتوجّه الوالي إلى باب الهوا، أحد أبواب السرايا، فخلعه الثوار؛ فهرب الوزير، ومن بقي معه إلى قلعة دمشق[٢٣].

وبدأ بضرب دمشق بالقنابل والرصاص في الليل والنهار، ولكن الوالي لم يستفد شيئاً، لأن "القلّة"، أي " القذيفة" التي كانت تقع في دارٍ تخرق الطبلة – الجدار الصغير– وتقع دون أن تقتل أحداً.

وقام أهل دمشق بنهب السرايا، واستمر النهب يومين كاملين، ونهبوا كيلار "مونة" الحج، والمحمل...

وألقى أعوان الوزير من القلعة النّار على المناطق المحيطة بها، فاحترق سوق الجديد – سوق الحميدية فيما بعد– وسوق الأروام، وقسم من الدرويشية، وجامع عيسى باشا بباب السرايا وسوق قميلة مقابل السرايا، والبنايات العظيمة، ولولا اجتماع آغاوات البلد على قطع النار؛ لأتت على الكثير من الأحياء، كل ذلك من سوء تدبير الوزير[٢٤].

وبعد نهب السرايا توجَّه أولاد البلد إلى جامع المعلّق، وخان الدالاتية، فهرب العسكر منه إلى الجامع الذي اجتمع فيه زهاء ١٥٠٠ عسكري.

وحاول أهل البلد إحراق الجامع، فلم يستطيعوا، لأنهُ مبنيٌّ بالحجارة الكبيرة.

واتخذ الجنود من مئذنة الجامع مكاناً مناسباً لقنص الناس. وكان كبيرهم يدعى "قاضي قران" وهو ضابط العسكر الذي حضر مع الوزير، وقد فتك بكثير من أهل الشام؛ لأن هدفه لم يكن يُخطئ.

واستمر القتال ستة أيام، نفذت بعدها الذخيرة والميرة عند العسكر؛ فطلبوا الأمان من رشيد آغا الشوملي، فنزل ومعه بقية آغاوات البلد إلى الجامع، وتسلموا كيخية الوزير وابن أخيه، ورسول السلطان، وقاضي قران، وساقوهم إلى المرجة، وقتل الناس التفنكجي باشي، وبعض العسكر لإسرافهم في القتل(٢٥).

ولم ينسَ الآغاوات – وهم قادة الثورة – أمر اليهود والنصارى، ومصيرهم في هذه الثورة، وخافوا من امتداد يد الأذى إليهم. وهذا يدل على وعي ممتاز بالأحوال العامَّة في البلد.

لذلك اتفقوا معهم على وضع مجموعات مسلحة في حارات اليهود والنصارى، تتقاضى أجرها من اليهود والنصارى نقداً، علاوة على وجبات الغداء، والضيافات الخاصة.

وقد ذكر صاحب المذكرات أنَّ الصرَّاف اليهودي روفائيل شحادة كان تحت تصرّفه ١٥٠ مسلحاً من جميع حارات الشام، وكان كل يوم يذبح ثلاثة رؤوس غنم، ويطبخ ثلاث حلل من الأرز المفلفل، ويقدم التنباك، والفواكه، والعَرَق، والنبيذ، والإكراميات لرجال الثورة(٢٦).

وكانت فرق الحراسة منتشرة في أحياء باب توما، وباب شرقي، وأمام الكنيسة المريمية، وعند البحرة المسودة، وعند نصارى باب المصلّى(٢٧).

وممن قتل في هذه الثورة تاجر عراقي يدعى قاسم آغا العقيلي، وكان قد تعهَّد للسلطان بجمع "الصليان"، ولما رأى الثورة تنكّر، واختفى في الصالحية، فوصل إليه الثوار، وقطعوه إلى أربع قطع(٢٨).

وفي وسط هذه المعارك كتب أهل البلد محضراً إلى السلطان محمود الثاني قالوا فيه:

"دخل الوزير محمد سليم باشا الشام، فخضعنا له الخضوع التام وكتبنا له الصليان من جميع الحارات إلا حارة اسمها العمارة سكانها فلاحين (فلاحون) غشم حواوين...

ثم قالوا: والوزير يضرب المدينة بالقنابل من أول وصوله، وعساكره احتلت الجوامع وصاروا يقاتلون منها، كما أنهم أطلقوا النار في البلد فاحترقت الأسواق والمحلات...

ونحن عبيدكم ورعاياكم وخاضعين (خاضعون) لركابكم وطائعين (طائعون) أوامركم...، وأرسلوا هذا المحضر مع سليم آغا السقا أميني، الخبير بالطرق، واشترطوا عليه أن يذهب ويعود في غضون ٤٥ يوماً فقط، فسافر هذا على وجه السرعه(٢٩).

ولم يستسلم الوزير؛ بل جمع إليه ١٥٠٠ من العساكر، وصادر جميع دور القلعة، وجمع التموين بيديه، وتفرَّغ لمتابعة القتال، وضرب القنابل.

واستمر القتال أربعين يوماً ليلاً ونهاراً، وسلّط أولاد البلد مدافعهم على القلعة، وكان مركز قيادتهم العام في دار البكري في درب الوزير . الحريقة اليوم . (٣٠).

ولم يحصل ضرر على اليهود والنصارى، وكما قال المؤرخ المجهول، وهو نصراني:

"إن جميع آغاوات البلد كانت توصّي ببطريرك الروم متوديوس، وفي النصارى عموماً" والضرر الذي أصاب النصارى كان في تسخيرهم لعمل الاستحكامات؛ لأن معظمهم من النحاتين، وكذلك تسخيرهم لحفر الأرض من حول القلعة لعمل الألغام(٣١).

وأدرك الوزير أنه مأخوذ، فأخرج السَكبان من البلد الذين كانوا معه، ليتخلَّص من أذيتهم للأهالي، وراسل أغاوات الشام طالباً الصلح، وذلك بعد أربعين يوماً قضاها في القلعة.

فاجتمع أهل البلد وأعيانها، وكتبوا حجة للوزير بالأمان، وأخرجوه ليلاً عند الساعة الرابعة، وكان معه مئة وسبعة رجال، ووضعوه في قصر محمد باشا العظم وآنسوه وقدموا له الطعام والشراب والفرش، ووزعوا عسكره على الحارات؛ لإقامتهم وإطعامهم، وكان ذلك يوم الأربعاء.

وفي يوم الخميس شاع الخبر؛ ففرح الناس، وصار الأمان، ورفعت المتاريس، وفتحت الدكاكين.

وفي يوم الجمعة قام أهل الشام بتسفير العسكر الذين كانوا مع الوزير، وأوصلوهم إلى شمالي دوما(٣٢).

وفي ذلك اليوم، بدأ تنفيذ المؤامرة بالوزير، وابن أخيه، والكيخية.

ذلك أنه بعد تسفير العسكر، نقلوا الوزير إلى دار الكيلاني، ونقلوا إليه ابن أخيه، والكيخية.

وهكذا اجتمع في بيت الكيلاني الوزير، وأعوانه، وأقرباؤه. وكانت المدينة هادئة تماماً.

ويقول المؤرخ المجهول: إن أولاد البلد دخلوا إلى بيت الكيلاني في الساعة الرابعة(٣٣) من ليلة السبت.

وفيه الوزير وأخيه (أخوه) – وبعضهم يقول خاله– والقبجي، والسلحدار، والخزندار، وحامل الأختام: المهردار دون أن يعلم الوزير بما حصل.

ولما شاهد "الثُّوَّار" في ساحة الدار، أغلق عليه باب القاعة، وكان عنده مملوك، وطواشي، وقام بإطلاق النار على الثوار. وعلى رأي المؤرخ (صاروا يدقوا له، وهو يقوّص) ويجعر حتى قتل ستة أنفار، وهو خلف الشبابيك، فتسلق الثوار إلى ظهر القاعة، ونقبوها، وأطلقوا عليه النار، فاندلع الحريق، وحرقت الباشا بعدما قتل بالرصاص، ولم يعد بالإمكان معرفته لذلك، وقُتل المملوك، والطواشي.

ثم ألقوا القبض على من معه، وعددهم ١٠٧ من العسكر "وشلّحوهم بالزلوط" وصادروا ما معهم من الأموال والتحف، وكان معهم من ذلك شيء يدهش الأبصار؛ لأنهم كانوا خاصة الوزير، وكان بينهم ثلاثة من النصارى(٣٤).

وقامت حكومة بدمشق برئاسة محمد الجوربجي الداراني، وعضوية عدد من أغاوات المدينة.

ثم حضر زعيم الميدان رشيد آغا الشوملي، وحلّ مكان الجوربجي، وصار مع بقية الآغاوات يسيّرون أمور الولاية، وكان في مقدمتها الحصول على عفو السلطان، وأمر الجوربجي بمغادرة دمشق إلى عكا.

ووضعوا اثنين من الأغاوات في القلعة، هما: علي آغا عرمان، وأبو خليل الدقاق ومعهما مئتا نفر.

وأُرسل المنادي باسم الشرع حسبما رسم آغاوات البلد، ونصبوا تفنكجي باشي –قائد العسكر– رجلاً اسمه خليل آغا وردة من الميدان، وضبطوا البلد، وسكنت الفتنة، وفُتحت الدكاكين، ومارس الناس أشغالهم وباشروا بإصلاح ما تهدَّم من القلعة(٣٥). لكن الأعيان أخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم، فعندما ورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي إلى الشام سكن روعهم لبعض الشيء، ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله أهالي دمشق وأرسلت والياً عليهم اسمه علي باشا، وأخذت الدولة تؤول عمل أهل الشام، وأصبحت كالمحامية عنهم تخلق لهم الأعذار عما بدر منهم؛لأن السياسة اضطرتها إلى ذلك(٣٦).

لكن من الجدير ذكره؛ في أثناء القتال العنيف، ومحاصرة الوزير محمد سليم باشا داخل القلعة حضر من عكا محمد الجوربجي الداراني ومعه كيخية عبد الله باشا الخزندار؛ لإجراء المصالحة بين محمد سليم باشا، وأهل الشام.

ودخل البلد "بعراضة عظيمة" وأخبر أن الدولة أمرت عبد الله باشا بإسعاف محمد سليم باشا؛ فتظاهر بالموافقة، لكنه في واقع الأمر رأى أنه إذا نجح محمد سليم باشا في مهمته، وفرض الصليان، فمعنى ذلك أنه – أي عبد الله باشا – سيُلزم بدوره – بجمع الصليان من ولايته.

لذلك كلف الجوربجي الداراني بإذكاء نار الفتنة، ومساعدة آغاوات الشام على التخلص من محمد سليم باشا، مع التظاهر بالرغبة في مساعدته.

عبد الله الخزندار وراء مقتل سليم باشا:

وفي وثائق عابدين وثيقة مفادها" أن إبراهيم باشا سأل عبد الله الخزندار إن كان قد طلب من آغاوات الشام قتل سليم باشا، فأجاب أنه أوعز إلى الآغاوات شفوياً بقتله، ولم يكتب كتاباًبخطه. أنَّ الذي تولى قتل سليم باشا هو الكتخدا، وكلَّفهم احتجاز الوالي الجديد في دمشق، علي باشا إلى حين حضوره "(٣٧).

ومن هذه الوثيقة يتضح أن أهل الشام لم يكونوا يريدون قتل محمد سليم باشا؛ وإنما الامتناع عن دفع ضريبة الصليان، وأن بعض الآغاوات، بالاتفاق مع عبد الله الخزندار، هم الذين استغلوا الفوضى التي سادت بدمشق، وقتلوا الوالي المذكور، رغم استسلامه لهم، وانهزامه أمامهم، ومثَّلوا به، وبمن معه.

وكان رد فعل السلطان محمود الثاني عما حدث متواضعاً، فقد وجَّه إلى دمشق الفرمان التالي:

"إن الصدر الأعظم السابق سليم باشا، والي دمشق سابقاً. قد نشأ من سوء إدارته، وقبح سيرته، ومعاملته ما أوجب توجُّس أهالي دمشق، ونفورهم، وحدوث الاختلال، والثورة.

وقد كنَّا عزلنا المذكور حسماً للنزاع، وأسندنا منصب الشام إلى الدستور المكرَّم الحاج علي باشا، وأرسلنا أحمد همَّت متسلماً.

ولكن قبل وصول نبأ إرادتنا السنيَّة، أقدم أراذلُ الناس على قتل المشار إليه سليم باشا. وقد أرسلنا إلى دمشق مأموراً من رجال دولتنا العلية، حاملاً أمرنا بشأن مقتل سليم باشا..

وكان الرأيُ أن نُرسل جيشاً كبيراً لتأديب هؤلاء الأشقياء والرعاع الذين تجاسروا على ارتكاب هذه الجريمة، ولكنْ حفظاً لحياة الفقراء والعجزة وحمايتهم، صرفنا النظر عن ذلك بشرط الإسراع بمجازاة أولئك الجبناء الذين تجاسروا على ارتكاب الجريمة تلك، وإياكم التأخر في ذلك، في أواخر جمادى الآخرة ١٢٤٧ هـ/ كانون أول ١٨٣١ م[٣٨].

٣- الخاتمة:

لماذا عارض أهل الشام ضريبة الصليان بهذا العنف؟

والسُّؤال المهم: لماذا عارض أهل دمشق هذه الضريبة بهذه الشدَّة؟ مع أن هناك العشرات من الضرائب غير الشرعية التي فرضت عليهم من دون أن يقوموا بثورة، مثل: ضريبة العوارض، والسورسات، والبادهوا، وعشرات الضرائب المماثلة. مع أن قيمة ضريبة الصليان لا تتجاوز المصريتين عن كل ما يُغلق عليه باب، ما عدا الدور، يعني ٢٤ مصرية أو بارة في السنة فقط.

يرى البعض بما أن أكثر المتمردين الظافرين كانوا من آغاوات الميدان، أمثال: (محمد آغا شربجي الداراني، وابن اخيه خليل آغا... فإن المحرض على الثورة لم يكن الخوف من إصلاح ينال من القوات المحلية شبه العسكرية (اليرلية)، وهو بالتأكيد الأمر الذي أُرْسِلَ الوزير سليم باشا من أجله، وفرض ضريبة شخصية سنوية على مسلمي الشام عرفت بالصليان؛ وإنما الخوف من استعادة عصبة آل العظم نفوذها تحت سيطرة عثمانية أشد وطأة، وهذا بدوره يضعف موقع أهل الميدان، ويعزز مكانة خصومهم. وعليه فإن ابتداء تحصيل الضريبة من أهل الميدان، وباب سريجة له دلاله[٣٩].

بالإضافة الى ذلك هناك جواب مهم للغاية:

ذلك أن أهل دمشق، وغيرهم نظروا إلى ما قام به السلطان محمود الثاني -ولاسيما إبادة الانكشارية؛ ذلك الجيش الإسلامي الذي دوَّخ أوروبا- نظرة حذر وشك، وظنوا أن هذا السلطان يريد القضاء على الشرع الشريف، وفتح البلاد أمام الأجانب.

وقد ذكر مؤرخنا المجهول المعاصر للأحداث، أن الوالي محمد رؤوف باشا الذي سبق محمد سليم باشا، فشل في جمع "الصليان" وإقرارها؛ وبالتالي نادى بإبطالها، ومنع قنصل الإنكليز في بيروت من الحضور إلى دمشق، أما محمد سليم باشا، فمراده أن "يمشّي" الصليان" ويُحضر قناصل الفرنج إلى دمشق، ويعاقب من يعترضه في ذلك(٤٠).

وهكذا نجد أن أهالي الشام كانوا يعارضون "السياسة المتفرنجة" التي يمارسها السلطان، وواليه محمد سليم باشا(٤١).

وهناك أمر مهم للغاية "هو أن أهل دمشق كانوا يكرهون الأجانب كراهية شديدة للغاية. وكانت دمشق مدينة مغلقةً تماماً عن الأجانب، بعكس الآستانة، وبغداد، والقاهرة.

وكان الأجانب بين معجب بهذا السلوك، وناقم خبيث.

يقول "جورج سالفرت":

لقد أصبحت دمشق مركزاً لمقاومة النفوذ الغربي، لقد احتفظت بشرقيتها أكثر مما احتفظت بها إستنبول والقاهرة...(٤٢).

وقال أديسون:

دمشق مدينة شرقية بحق، لا وجود لحي إفرنجي، وما من أحد يقلد الزي الأوروبي المُضحك، إنها مدينة تفوق كل المدن التي شاهدتها.

وذكر جوزيف ميشو أن دمشق كانت تعمل جاهدة لمنع روح أوروبا الفاسدة من العصف بها، وإنه أي ميشو- أجبر عندما وصل إلى أطراف دمشق سنة ١٢٤٧ هـ/ ١٨٣١ م، أي سنة قدوم محمد سليم باشا – أن ينزل عن فرسه، وينزع مسدساته من حزامه؛ لأنه على "الكافر" ألا يدخل المدينة المقدسة إلا وعليه سيماء الذلة...(٤٣).

وعندما دخل رينسون البلد، طُرح أرضاً، وأخذ الناس يشتمونه، ونزعوا عمامته، فهرب من المدينة خائفاً يترقب، يتبعه جمع من الأولاد، والنسوان وهم يرمونه بالحجارة.

وعندما زار الشاعر الفرنسي لامارتين دمشق ١٢٤٨ هـ/ ١٨٣٢ م، قال: إن الناس أصرُّوا على منع القنصل الإنكليزي في بيروت من دخول دمشق(٤٤).

ويقول المؤرخ المجهول:

إنه حضر قنصل الإنكليز إلى بيروت في عهد الوالي عبد الرؤوف باشا، وأراد دخول دمشق، فلم يستطع، وأقام في بيروت ينتظر الإذن الذي جاءه في عهد إبراهيم باشا بن محمد علي.

إذن كان السَّبب وراء هذه الثورة العارمة المحافظة على وجه دمشق الإسلامي الذي يسعى السلطان، ووزيره، والقناصل إلى تغييره، وفتح المدينة أمام الأوروبيين الذين لا يمكن بحسب رأي أهل دمشق، أن يأتي منهم خيرٌ أبداً.

وكان أهل دمشق محقّين في ذلك تماماً. ففي يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ١٢٤٩هـ، دخل القنصل البريطاني المدعو Farren دمشق، واستقبله أمير اللواء من طرف إبراهيم باشا، وبصحبته ألف عسكري.

وكان يرافق القنصل ٢٤ خيالاً، وثمانية قوّاصين للحراسة، وعبدان، ومترجمون، وإداريون، ومشى نحو مقرّه يتقدمه العساكر، والقواصون. والجميع يركبون الخيول في أبهى صورة، وانتشر الناس من ساحة المرجة إلى السرايا، وسوق الجديد، والحميدية، وسوق الحرير، والبزوريّة، ومئذنة الشحم، ثم الخراب، ثم طالع القبة، ثم حمام المسك، ثم باب توما، ثم حمام البكري حيث نزل في دار "قزّيها" عند قناة الحطب، ودخل العساكر إلى الدار، ورفعوا العلم الإنكليزي لأول مرة في سماء دمشق على رأس السطوح(٤٥)....

ومن ذلك اليوم بدأت دمشق تفقد استقلالها شيئاً بعد شيء تحت ستار التجديد والدستور حتى سقطت دمشق، ومعها الدولة العثمانية، وهذا ما كان يخشاه أهل الشام،

ومن أجله كانت ثورتهم، وفي حقيقة الأمر كانت ثورة دمشق على الأجانب، وليس على السلطان.

الحواشي

(١) رضا نور، **تورك تاريخي**، استنبول، ١٣٢٧ هـ، ج ٥، ص ٣٧٨.

(٢) احمد جودت باشا، **تاريخ جودت**، ج ٩، دن، استنبول، ١٣٢٤ هـ، ج ٣، ص ٣٧٢.

(٣) نجاح محمد، وكاميليا أبو جبل، **تاريخ الوطن العربي الحديث** (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦ م، ص ٢١٠.

(٤) محمد الأمين المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ج ٤، القاهرة ١٨٦٩ م، ج ٤، ص ٣٣١.

(٥) ليلى صباغ، **تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨٥ م، ص ١٣٢.

(٦) عبد الكريم رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق، ١٩٨٥ م، ص ٦٩، ٩٣.

(٧) ليندا شيلشر: **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ت: عمرو الملاح، ودينا الملاح، دار الجمهورية، دمشق، ط ١، ١٩٩٨ م، ص ٤٥. وأيضاً انظر: عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥ م، ص ٩٥.

(٨) خالد بني هاني، **تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها خلال الحملة المصرية**، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٥ م، ص ٦٢. وأيضا انظر: **مذكرات تاريخية عن حملة**

ابراهيم باشا على سوريا، لمؤلف مجهول، تحقيق أحمد سبانو؛ دار قتيبة، دت، ص ٢٢.

(٩) **مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا**، لمؤلف مجهول، ص ٢.

(١٠) ليندا شيلشر: **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص ٥٥.

(١١) هو ا أبراهام يكينيان- كويليان (١٧٨٦ - ١٨٣٢) مطران الأرمن الكاثوليك، ولد في مدينة كلّس في ٨ كانون الثاني١٧٨٦ وفي ٢ ربيع الآخر عام ١٢٠٠ هـ. وفي سنة ١٢٣٥ أرمنية كما يعلمنا والده في وثيقة ميلاده (ونفهم من ذلك أن التقويم الأرمني يبدأ عام ٥٥١ ؛ أي يجب إضافة ٥٥١ إلى التقويم الأرمني للحصول على التقويم الميلادي). انظر: عبدالله حجار ((**ثورة الحلبيين على الوالي خورشيد باشا (١٨١٩ - ١٨٢٠)...يوميات المطران أبراهام كويليان**))، جريدة الجماهير، ٢٠٠٨ م.

(١٢) عبدالله حجار ((**ثورة الحلبيين على الوالي خورشيد باشا (١٨١٩ - ١٨٢٠)...يوميات المطران أبراهام كويليان**))، جريدة الجماهير، ٢٠٠٨.

(١٣) **المذكرات التاريخية**، لمؤرخ مجهول، وهو من نصارى الأرثوذكس ومن كتَّاب الحكومة بدمشق، نشرها الخوري قسطنطين، المخلص في حريصا حوالي سنة ١٩٢٦ م. ص ١. وأيضاً انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٦، مكتبة النوري، دمشق، ط ٣، عام ١٩٨٣ م، ج ٣، ص ٤٢.

(١٤) **مذكرات تاريخية عن حملة ابراهيم باشا على سوريا**، لمؤلف مجهول، تحقيق احمد سبانو، دار قتيبة، د ت، ص ٢٢.

(١٥) **المذكرات التاريخية**، لمؤرخ مجهول، وهو من نصارى الأرثوذكس ومن كتَّاب الحكومة بدمشق، المصدر السابق، ص ٢.

(١٦) ميخائيل الدمشقي، **تاريخ حوادث الشام ولبنان**، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة بدمشق، ١٩٨٢ م، ص ٧٧.

(١٧) ميخائيل مشاقة، **الجواب على اقتراح الأحباب**، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٠٩.

(١٨) المذكرات، المصدر السابق، ص ٢.

(١٩) جميل الشطي، **روض البُشر**، دمشق ١٣٦٣ هـ، ص ١٤٠.

(٢٠) يعرف بجامع بردبك وجامع المعلق، وهو من المساجد المملوكية، بناه بردبك سنة ٨٦٢ هـ، انظر: **خطط دمشق**، ص ٣٥٤.

(٢١) مكان شارع فخري البارودي اليوم جنوب القصر العدلي، أسعد طلس، **ثمار المقاصد في ذكر المساجد**، بيروت، ١٩٧٥ م، ص ٢٣٩،

(٢٢) المذكرات، المصدر السابق، ص ١٠.

(٢٣) المذكرات، المصدر السابق، ص ١١.

(٢٤) المذكرات، المصدر السابق، ص ١٣.

(٢٥) المذكرات، المصدر السابق، ص ١٧.

(٢٦) المذكرات، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢٧) المذكرات، المصدر السابق، ص ١٤.

(٢٨) الدمشقي، **تاريخ حوادث الشام**، ص ٧٥، والمذكرات، المصدر السابق، ص ٣١.

(٢٩) الدمشقي، تاريخ حوادث الشام، ص ٧٦.

(٣٠) المذكرات، المصدر السابق، ص ٢١.

(٣١) المذكرات، المصدر السابق، ص ٢٦.

(٣٢) المذكرات، المصدر السابق، ص ٢٩.

(٣٣) يبدأ الليل في التوقيت الغربي مع غروب الشمس، ويستمر حتى شروقها. الساعة ٤ هنا أي بعد الغروب بأربع ساعات. انظر: حسن العلبي، **التقويم والتاريخ**، ص ١٥.

(٣٤) المذكرات، المصدر السابق، ص ٣١. وايضا انظر: كرد علي: **خطط الشام**، ج ٣، ص ٤١.

(٣٥) المذكرات، المصدر السابق، ص ٣٣.

(٣٦) محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج ٣، ص ٤١.

(٣٧) محفظةُ عابدين رقم /٢٣٥/ وثيقة /٧٠/، نقلاً عن **تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها**، ص ٣٩٣.

(٣٨) محفوظات عابدين ٣٧/٢٣١، نقلاً عن **تاريخ مدينة دمشق وعلماؤها**، خالد بني هاني، ص ٣٧٣.

(٣٩) ليندا شيلشر: **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ص ٥٨.

(٤٠) المذكرات، مصدر سابق، ص ٦.

(٤١) ميخائيل الدمشقي، مصدر سابق، ص ٧٧.

(٤٢) جيرارد جورج، **دمشق عبر العصور**، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧ م، ص ٦١٣.

(٤٣) جيرارد جورج: المصدر نفسه، ص ٦١٤، ٦٠٩.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٦١١.

(٤٥) المذكرات، المصدر السابق، ص ٩٣.

مصادر البحث

اولاً: المؤلفات:

- احمد جودت باشا، تاريخ جودت، ج ٩، دن، استنبول، ١٣٢٤ هـ.
- خالد بني هاني، تاريخ مدينة دمشق خلال الحملة المصرية، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٥ م.
- جميل الشطي، روض البُشر، دمشق ١٣٦٣ هـ.
- محمد الأمين المحبي، خلاصة الأثر في اعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ١٨٦٩م.
- مذكرات تاريخية عن حملة إبراهيم باشا على سوريا، لمؤلف مجهول، تحقيق احمد سبانو، دار قتيبة، د ت.
- المذكرات التاريخية، لمؤرخ مجهول، وهو من نصارى الأرثوذوكس ومن كتَّاب الحكومة بدمشق، نشرها الخوري قسطنطين، المخلص في حريصا حوالي سنة ١٩٢٦م.
- ميخائيل، تاريخ حوادث الشام ولبنان، تحقيق: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة بدمشق، ١٩٨٢ م.
- ميخائيل مشاقة، الجواب على اقتراح الأحباب، بيروت، ١٩٨٥ م.
- رضا نور، تورك تاريخي، استنبول، ١٣٢٧ هـ.
- محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٦، مكتبة النوري، دمشق ط ٣، ١٩٨٣ م.

- عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، ١٩٨٥ م.
- عبدالله حجار ((ثورة الحلبيين على الوالي خورشيد باشا (١٨١٩ - ١٨٢٠)... يوميات المطران أبراهام كوبليان))، جريدة الجماهير، ٢٠٠٨ م.
- ليندا شيلشر: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ت: عمرو الملاح، دار الجمهورية، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ليلى صباغ، تاريخ العرب الحديث والمعاصر، مطبعة ابن حيان، دمشق، ١٩٨٥ م.
- أسعد طلس، ثمار المقاصد في ذكر المساجد، بيروت، ١٩٧٥ م.
- جيرارد جورج، دمشق عبر العصور، دار قتيبة، دمشق، ٢٠٠٧ م.
- حسن العلبي، التقويم والتاريخ، دمشق، ١٩٩٥ م.
- نجاح محمد، وكاميليا أبو جبل، تاريخ الوطن العربي الحديث (بلاد الشام والعراق)، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦ م.

ثانياً- الوثائق:

- محفظةُ عابدين رقم /٢٣٥/ وثيقة /٧٠/ شهر محرم سنة ١٢٤٨ هـ.
- محفوظات عابدين رقم /٢٣١/ وثيقة /٣٧/ أواخر شهر جمادى الآخر سنة ١٢٤٧ هـ.

المؤتمر السوري الأول ١٩١٩ في ظل الحكومة العربية الأولى (العهد الفيصلي)

أ. د. سمر بهلوان

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مخطط البحث:

مقدمة:

يعدّ تأسيس الحكومة العربية الأولى في دمشق عام ١٩١٨ من الإنجازات الأهم للحركة القومية العربية، (النهضة القومية العربية)، التي أخذت تنهض منذ ما قبل الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بعد أربعة قرون من الحكم التركي (١٥١٦- ١٩١٨). آخذين بالاعتبار دور الرابطة الإسلامية كقاسم مشترك بين العرب والأتراك منذ مطلع القرن السادس عشر كون غالبية العرب من المسلمين، لكن العرب احتفظوا بسماتهم القومية من أرض , لغة وتاريخ وآلام وآمال، وركزوا جهودهم حول بناء مستقبل عربي أفضل. رافضين سياسة التتريك العثمانية التي برزت في القرن التاسع عشر، ومجمل تأثيرات السياسة العثمانية والغربية، أمام مزيد من بعث الشعور القومي العربي بين صفوف المجتمع بفئآته كافة بعد ركود طويل(١).

ومما لابد من ملاحظته أنّ أفكار النهضة القومية لم تنتشر بين الأوساط الشعبية كونها مازالت تحافظ على الموروث المتخلف (الديني، القبلي، الإثني) هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تتمكّن القيادات المثقفة حينها من نشر أفكارها النهضوية على الملأ بحكم العمل السري الذي فرضته سياسة القمع والاضطهاد في فترة الحكم الحميدي. إلى جانب سياسة جمال باشا الإرهابية القمعية التي أبعدت الجميع عن تركيا العثمانية، ودفعت بهم إلى الثورة، (الثورة العربية الكبرى ١٩١٦) وهذا ما ذكره الجنرال الألماني فون ساندرز بقوله: "إنّ تأثير حكم جمال باشا الإرهابي لم يحرم سورية من زعامة الثورة بل زاد في الشعب روح الثورة"(٢). مما جعل الأفكار القومية تنطلق من الأوساط المتعلمة الواعية والمثقفة، التي كانت تتحين فرصة نشرها وتفعيلها بين الجميع عبر الوسائل المتاحة آنذاك. تلك هي الفئآت المثقفة الواعية، (التي تشكلت منها معظم قيادة الحركة الوطنية)، وهي التي تداعت إلى عقد المؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩، بمجرد انتهاء الحرب وتنفيذ القوى الإستعمارية المنتصرة سياسة تمزيق المشرق العربي واستعماره بما

يلبي مصالحهم التي اتفقوا منذ ما قبل بدء الحرب العالمية الأولى وخلالها، (معاهدة سايكس- بيكو ١٩١٦ ووعد بلفور ١٩١٧).

وكان انتصار الحلفاء في الحرب، المجال الأنسب لتنفيذ اقتسام المشرق العربي فيما بينهم وفقاً لمصالحهم الخاصة. ولم تكد الحرب تنته عام ١٩١٨، إلاّ وكان كل من بريطانيا وفرنسا قد بدأتا بتطبيق اتفاقاتهم متنكرين لوعودهم بالاستقلال والتحرير، التي سبق وأعلنوا عنها. وهو ما دفع بالشعب العربي عامة وفي بلاد الشام خاصة، لمباشرة العمل الثوري بمختلف أساليب النضال السياسي والمسلح، سعياً لتحقيق أهدافهم في الحرية والاستقلال، خاصة بعد احتلال الفرنسيين للساحل السوري وتنكر الأمريكيين لمباديء الحرية وحق تقرير المصير. وضمن تلك الظروف الصعبة التجزئة والضعف والاحتلال الأجنبي، كان تشكل الحكومة العربية الأولى عام ١٩١٨، وتداعي السياسيين والمثقفين القوميين العرب،(خاصة في المشرق العربي)، للمؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩. فما هي الغاية من هذا المؤتمر؟.. وأبعاده السياسية.. وأهدافه القومية والوطنية الآنية والأبعد مدى..؟

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على المؤتمر السوري الأول الذي انعقد في دمشق عام ١٩١٩، في ظل الحكومة العربية الأولى (١٩١٨ – ١٩٢٠)، ولم يأخذ حقه من البحث الأكاديمي الوافي، خاصة أنّه يعدّ النداء العربي القومي الأهم آنذاك، في وقت اتفقت فية القوى العظمى على تجزئة ما تبقى من الوطن العربي (المشرق العربي) خارج سيطرتها، وبالتالي استيضاح فيما إذا كان تشكل المؤتمر وانعقاده ناتجاً عن نضال حركة التحرر الوطنية العربية التي ترتب على قيادتها (بعد الرحيل العثماني وتبلور سياسة التكالب الأوربي الاستعماري على ممتلكات الأمة العربية) ضرورة مجابهة واقع الهيمنة الأجنبية والصهيونية والتخلف والتجزئة، أم أنّ المؤتمر انبثق عن الدور السياسي الذي

أدته الحكومة العربية الأولى في دمشق عام ١٩١٨ تلبية لطموحها الكبير في تحقيق وطن موحد ومستقل في مشرق الوطن العربي؟.

أولاً- التطورات السياسية الدولية والعربية وفي المشرق العربي عشية انتهاء الحرب العالمية الأولى:

شهدت الأيام الأخيرة للحرب العالمية الأولى نشاطاً سياسياً مكثفاً على مختلف الصعد، لاسيما بين الدول المنتصرة التي كانت آنذاك متسارعة لتنفيذ قانون " إرادات القوى" في تحصيل مصالحها وفي تطوير مفهوم هذه المصالح، هذا القانون المحكوم بصراع المصالح وتناقضاتها وتكاملها وتوافقها أو اتفاقها، مما أدى لتطورات وتغييرات سياسية كبيرة على المستويات كافة: الدولية، والإقليمية، والعربية، وفرض خرائط جيوسياسية جديدة، وواقعاً جديداً من التجزئة لشعوب المنطقة عامة والمشرق العربي خاصة.

١- أبرز التطورات السياسية الدولية:

أدرك الاتحاديون الأتراك مع نهاية الحرب العالمية الأولى حتمية خسارتهم وحليفتهم ألمانيا، بعد أن أصبحت تركيا تحت حكم الحلفاء، وانسحاب العثمانيين من دمشق في ٢٧ أيلول عام ١٩١٨، ومن حلب في ٢٥ تشرين الأول، وتوقيع العثمانيين على هدنة مودرس في ٣٠ تشرين الأول عام ١٩١٨، في جزيرة لمنوس، القاضية بالتسليم دون قيد أو شرط، (باستثناء "تسليم الجيوش العثمانية الموجودة في سورية والحجاز والعراق وغيرها من الأماكن) إلى دول الحلفاء[٣]. وأتمّت انسحابها الكامل من سوريا في ١٢ تشرين الثاني بعد أن أخلت دير الزور[٤]، واحتل الحلفاء جميع الممتلكات العثمانية ووضعوها تحت المراقبة. فكان للفرنسيين ولاية أضنه، وللبريطانيين ولايات سمسون ومرسيفون وأورفه ومرعش وعينتاب، والإيطاليين احتلوا أنطاليا وقونية وإكشهير وأفيون وقره حصار، وكان الأتراك يعتقدون أن مبادئ ويلسون التي نصّت في مادتها

الثانية عشرة على تمتع الأجزاء التركية من الإمبراطورية العثمانية بالسيادة الكاملة ستنفذ، ولكن اعتقادهم خاب عندما احتل اليونانيون أزمير بالإتفاق مع الحلفاء ولم يفد احتجاجهم في مؤتمر الصلح شيئاً[٥]، وكانوا على استعداد لدخول أزمير وضواحيها[٦]، وهذا يعني أنّ العدوّ مازال جاثماً على الأراضي التركية[٧]. كما بدأت سلسلة مؤتمرات دولية بين الدول المنتصرة (الحلفاء) لإصباغ "الشرعية الدولية" على تنفيذ الاتفاقيات السرية التي عقدتها الدول المتصارعة حول مناطق الوطن العربي (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية) لا سيما الاتفاقيات التي تمّت خلال الحرب من قبل بريطانيا وفرنسا تحديداً إزاء بعض المناطق العربية الآسيوية أي المشرق العربي (سورية الطبيعية والعراق)، مثل سايكس – بيكو ١٩١٦ ووعد بلفور ١٩١٧، هذه الاتفاقيات التي كشفتها ثورة ١٧ اكتوبر السوفياتية عام ١٩١٧، وعززت أطماعها الاستعمارية– الصهيونية، مما أثار شكوك العرب وحفيظتهم تجاه الحلفاء وأدى لتوتر العلاقة الودية التي كانت تربط العرب بهم قبل الثورة العربية ١٩١٦ وإبانها.

وبحكم انتصار الحلفاء أصبحت جميع الأراضي الواقعة في نطاق سورية الطبيعية (أي سورية ولبنان والأردن وفلسطين)، خاضعة للإحتلال العسكري من قبل جيوشهم. وكانت المقاومة الوحيدة عند ضواحي حلب التي احتلت في ٢٥ تشرين أول، وصد هجوم تركي قام به مصطفى كمال شمال المدينة في نفس سهل مرج دابق حينما انتصرت قوات سليم الأول قبل ٤٠٠ عام بنصر حاسم جعل الترك أسياداً على سوريا[٨].

ومن اللافت انّ البريطانيين والفرنسيين لم تكن غايتهما إخراج الأتراك (من المنطقة العربية المعنية بالدراسة) وتركها لأصحابها العرب ينعمون بالحرية والاستقلال، فعلى أثر جلاء الأتراك عن بلاد الشام طلب الفرنسيون تنفيذ أحكام اتفاقية سايكس – بيكو، وأن يعهد إليهم إدارة الساحل السوري والمناطق الأخرى التي أعطيت لهم بموجبه،

فماطلهم الإنجليز بعض الوقت، ثم أبرموا معهم اتفاقاً جديداً في ٣٠ أيلول عام ١٩١٨ ينظم إدارة سوريا ريثما يبت في مصيرها نهائياً[٩]. وعلى أثر توقيع اتفاقية الهدنة بين الحلفاء والأتراك في ٣٠/١٠/١٩١٨، سمح الجنرال اللنبي قائد قوات الحلفاء البريطاني لقوات فرنسية صغيرة بالنزول إلى شواطيء المتوسط (سوريا ولبنان) ورفع العلم الفرنسي المثلث الألوان[١٠]. وفي ٧/١١/١٩١٨ صدر إعلان مشترك أكدت بموجبه الحكومتان البريطانية والفرنسية على أنّ: " الهدف الذي قامت من أجله فرنسا وبريطانيا العظمى بمتابعة الحرب التي أثارتها المطامع الجرمانية في الشرق، إنما هو تحرير الشعوب التي رزحت طويلاً تحت ظلم الأتراك تحريراً تاماً ونهائياً، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من ممارسة السكان الوطنيين لحق المبادرة والاختيار الحر"[١١]. لكن لندن شهدت في كانون الثاني عام ١٩١٨، أي عشية انعقاد مؤتمر الصلح ١٩١٩، سلسلة من الاجتماعات بين لويد جورج والماريشال فوش وكليمنصو، وأورلندو والبارون صونينو بغاية: "الإعداد والتشاور مع رجال الدولة لدول الحلفاء لعقد مؤتمر مشترك يعقد في باريس.. والاتفاق على مخطط للصلح ليطرح في المؤتمر[١٢]، وذلك كما ورد في جريدة التايمز اللندنية الصادرة بتاريخ ٢ ك١ /١٩١٨. وكان الاجتماع الذي عقد بسرية تامة بين لويد جورج وكليمنصو من أهم الاجتماعات واللقاءآت التمهيدية التي تمّ فيها إجراء تعديلات على اتفاقية سايكس- بيكو بعد أن طلب لويد جورج نقل الموصل وفلسطين إلى نصيب بريطانيا من الإرث العثماني، وقد وافق كليمنصو بشروط ثلاث هي:١- منح فرنسا نصيباً من نفط الموصل. ٢- مناصرة بريطانيا لفرنسا إزاء اعتراضات الولايات المتحدة (التي أخذ دورها يبرز بين الدول الساعية للهيمنة).٣- إذا تمّ الاتفاق على نظام الانتداب فإنّ دمشق وحلب والإسكندرون وبيروت يجب أن تقع ضمن انتداب واحد (الانتداب الفرنسي)[١٣]. والواقع أنّ تنازل كليمنصو عن الموصل جاء من باب التسليم بالأمر الواقع، فقد احتلت الجيوش البريطانية مدينة الموصل نفسها

في ١٥ت٢ عام ١٩١٨، كما أنّ قبوله بانتداب بريطاني على فلسطين جاء بسبب التعقيد الشديد لمصير فلسطين، وصدور وعد بلفور[١٤]، ومطالب الحركة الصهيونية، إضافة لمطالب الفاتيكان وإيطاليا بحماية مصالحهم في الأراضي المقدسة، ووضع بريطانيا القوي عسكرياً في المنطقة عموماً، مقابل الوضع الضعيف والمعدوم لفرنسا. وزيادة في البيان والإيضاح فقد كسب البريطانيون من الفرنسيين مقابل الجلاء المزايا الآتية: ١- عدم المطالبة بإدخال ولاية الموصل ضمن الحدود السورية. ٢- عدم المنازعة في تقرير مصير فلسطين، أي أن تكون لبريطانيا. ٣- عدم المنازعة في وضع العراق تحت الانتداب البريطاني، ٤- إبقاء مقاطعة شرق الأردن (وكانت يومئذ جزء من سوريا) تحت الاحتلال البريطاني[١٥]. هذه العوامل المتضافرة معاً، دفعت بفرنسا لتقديم التنازلات سابقة الذكر، يضاف إلى ذلك أنّ هذا كان قد تقرر في اتفاقية سايكس- بيكو، وكان من الطبيعي ألا توافق بريطانيا على ذلك إلاّ إذا وافقت فرنسا على مطاليبها هي. وقد علق أحمد قدري على هذا الاتفاق بقوله:"إنّ البريطانيون تخلوا عن العرب لقاء تنازل الفرنسيين لهم عن ولاية الموصل التي كانت داخلة في حدود سوريا العربية بموجب اتفاق سايكس – بيكو وعن ثروتها البترولية العظيمة. وكان من الظاهر أنه لو لم يحصل هذا التخلي لَمَا قَبِلَ لويد جورج إعطاء فرنسا حرية العمل في سوريا الداخلية"[١٦]، ولهذا السبب صارت هذه القضايا مثار خلاف مزمن بين الحليفتين، وبقيت الأمور معلقة إلى أن اضطر الطرفان إلى قبول مطاليبهما المتقابلة "وتحت ضغط الوقائع وجبرها"[١٧]، وهذا ما كشف في الوقت ذاته عن مدى تناقض التعهدات البريطانية وعلّو مصلحتها على أي مصلحة أخرى. لذلك اتخذت من مؤتمر السلم المنعقد في ١٨ كانون الثاني عام ١٩١٩، حجة للتنصل من وعودها ومن مسؤولياتها، خاصة وأنّ مصالِحَها في سورية كانت تتركز في فلسطين، لأنّ مصالِحَها متفقةً تماماً مع الحركة الصهيونية التي وقفت كطرف آخر يعارض تحقيق المطالب العربية في مؤتمر السلم. إذ أنّ الحركة

كانت قد أرسلت وفداً للمؤتمر بهدف الحصول على تأييد دولي لتصريح بلفور (رغم أنّ اليهود حينها كانوا لا يشكلون سوى ١٠% من سكان فلسطين)[١٨]، وعارضت الصهيونية منح الانتداب لفرنسا خوفاً من السياسة الفرنسية التي تهدف إلى دمج الأقاليم الخاضعة لإدارتها في المجتمع الفرنسي. كما خشيت من منح الانتداب لأمريكا لأن الرئيس ولسون كان ينادي بإجراء استفتاء في فلسطين لارتباط ذلك بتطبيق حق تقرير المصير[١٩]. وكسب الوفد الصهيوني إلى جانب الدعم البريطاني دعم الوفد الأمريكي وعلى رأسه ويلسون، الذي اعتبر الوطن القومي لليهود أحد اثنين من إنجازات الحرب إلى جانب عصبة الأمم. ومن جهة أخرى، جاء اشتراك الولايات المتحدة الأمريكية في مؤتمر الصلح، ممثلاً بحضور رئيسها ويلسون ليُكْسِب المؤتمر قوة معنوية، وذلك بالنظر إلى طبيعة الدعوة الأمريكية في ذلك الحين ولعدم وضوح أطماع مباشرة للولايات المتحدة في المناطق "الموروثة" عن الامبراطورية العثمانية، إذ أنها أعلنت عن سياستها الديموقراطية وحق الشعوب في تقرير مصيرها.

بذلك تتضح صورة الوضع الدولي الذي سيسفر عن أسس جديدة تفرضها سياسة " الأمر الواقع" الناتجة عن هيمنة القوى العظمى من جهة، وسعيها لكسب "شرعية" دولية جماعية تجاه مصالحها المفروضة على دول العالم الأضعف من جهة أخرى.

أبرز التطورات السياسية العربية:

إنّ ضغط الظروف التي واجهها العرب أثناء الحرب وما بعدها وما تركه الرحيل العثماني من تدهور اقتصاديٍ وسياسي حال دون قيام دولة عربية واحدة من مشرق الوطن إلى مغربه، خاصةً وأنّ الشمال الافريقي العربي كان مقسماً ومستعمراً منذ عام ١٨٣٠. ولذلك تركز اهتمام الدول العظمى في مؤتمراتهم السرية والعلنية على المشرق العربي، وقد عكست نتائج اجتماعاتهم مساوئ سياساتهم المتناقضة تجاه تلك المنطقة

من الوطن العربي أثناء الحرب، وصراعاتهم ومناوراتهم واختلاف وجهات النظر، ولعبت فيها عوامل خفية قررت مصير أجزاء كثيرة منه خلال السنوات التي تلت الحرب.

وكان العرب كسائر الشعوب الضعيفة، يتطلعون إلى قرارات مؤتمر السلم من أجل تحقيق المبادئ السامية التي عرضها الرئيس الأمريكي ويلسون على العالم خلال الحرب: حول تطبيق العدالة، وروح الديبلوماسية المفتوحة، والمساواة بين الأمم، ومبدأ رضى المحكومين كقاعدة أساسية لتشكيل أي حكومة، وحق تقرير المصير كمبدأ إلزامي في المنازعات الإقليمية، وهذا ما صرّح به الأمير فيصل في البيان الذي ألقاه في مؤتمر العشرة المنعقد في "كي دوررسي" في مبنى وزارة الخارجية الفرنسية في ٦ شباط عام ١٩١٩ بقوله:".. لما كنت أمثل والدي قائد الثورة العربية ضد الترك بطلب من بريطانية وفرنسا، فقد حضرت كي أطلب الاعتراف بالشعوب العربية في آسية اعتباراً من خط الاسكندرونة – ديار بكر وحتى المحيط الهندي جنوباً، كشعوب مستقلة السيادة بضمان من عصبة الأمم..."(٢٠). وأربكت سياسة ويلسون الجديدة دول العالم القديم التي تمّت محادثاتها واتفاقاتها حول التسوية قبل دخول الولايات المتحدة الأمريكية على شكل معاهدات سرية. وهذا ما يتضح من خلال مقابلة بين السيد بولك رئيس وفد الولايات المتحدة في مؤتمر السلم وعوني عبد الهادي ومعه نوري السعيد اللذين شرحا مدى مخاطر تمزيق أوصال البلاد العربية فيما إذا وضعت تحت إشراف دولة غير الولايات المتحدة، وعلى ضرورة استفتاء أهلها فيمن سيشرف عليها، وكان الجواب الذي أتاهما وهو يشير إلى خارطة فلسطين المعلقة في مكتبه قائلاً: " إذا كانت إنجلترا ستأتي إلى هنا، وهي مصممة على أن تأتي، ففرنسا لا بد وأن تأتي إلى هنا واضعاً إصبعه على خارطة سوريا، وإلاّ فليس هناك ما يمنع من أن ينشب بينهما نزاع ينقلب إلى حرب"(٢١).

ورغم اختلاف الأوضاع بعد الحرب إلاّ أنّ الادعاءآت التي قدمتها الدول الكبرى إلى مؤتمر السلم كانت ادعاءآت المعاهدات السرية نفسها، مع فرق في الشكل وليس في

المحتوى. وللأسف أثبتت مبادئ ويلسون أنها أحسن وسيلة للدعاية أثناء الحرب، إلاّ أنها عديمة الجدوى لإرساء قواعد السلم. في وقت كان الشعب يتأجج وطنية وحماساً، ويردد عبارات "الاستقلال الذاتي.. الوطن، الأمة، الحرية الشخصية، الجنسية... وهي التي يقوم بها كل شعب حي..."(٢٢).

وعانى العرب أسوأ معاناة من المخطط الجديد للسياسة الدولية في فترة ما بعد الحرب، فكانت القضايا المتعلقة بمصير الدولة العثمانية أهم المشاكل المعقدة أمام المؤتمر، ونظراً لمصالح الدول الكبرى في أجزاء مختلفة منها فقد اختلفت آراؤها حول مصير تلك الدولة النهائي، كما كان مصير سورية الطبيعية مثار جدل في مؤتمر باريس، الذي عكس قمة المساومات والمتناقضات فيما بين الدول الأوربية، بينما ظلت الجزيرة العربية باستثناء بعض المصالح المحدودة خارج نطاق المؤتمر.

وكان الوفد العربي المرافق لفيصل هو الوفد الوحيد الذي يمثل القضية العربية في مؤتمر السلم، واعتبر فيصل من قبل المؤتمر ممثلاً لمملكة الحجاز وليس للبلاد العربية، وأصر الشريف حسين على أن يكون فيصلاً ممثلاً للحكومة العربية التي تعني الحجاز إلى جانب الحكومة التي أقيمت باسمه في دمشق وأي حكومة محتملة ستقام في العراق، وكان الأمل يحدو فيصلاً أن يخرج من المؤتمر ممثلاً لملك العرب. وكانت تعليمات الحسين إلى فيصل تنص على التمسك بالعهود البريطانية (وحسب تفسير الحسين لها)، والمطالبة بالاستقلال لجميع البلاد العربية في المشرق. لكنّ المسيطرون على المؤتمر لم يتركوا فرصة لنجاح فيصل لأنهم كانوا قد خططوا مستقبل المشرق العربي مسبقاً ضمن معاهدات واتفاقات عقدت فيما بينهم لتلبية مصالحهم.

أبرز التطورات السياسية في سورية الطبيعية:

إثر اتفاق ٣٠ أيلول ١٩١٨ البريطاني – الفرنسي، (المشار إليه سابقاً)، تمّ حصر السلطة السياسية العسكرية في يد الجنرال اللنبي القائد العام للحملة الفرنسية،

على أن يلحق به مندوب سام فرنسي يلقب بـ " المستشار السياسي الخاص" لاستشارته في (أمور المنطقة الساحلية السورية)، ولإدارة شؤونها السياسية والإدارية بالاتفاق مع القائد الأعلى، وأن يكون من حق المستشار السياسي الخاص أن يعين المستشارين السياسيين.. لسوريا الداخلية، بعد الحصول على موافقة الحكومة أو حلف الحكومات العربية التي ستنشأ هناك، كما يقوم بمهمة الوسيط بين القيادة العليا والحكومات العربية المزمع إنشاؤها في جميع الشؤون السياسية والإدارية الخاصة بمناطق نفوذ فرنسا. واشترط اتفاق ٣٠ أيلول أن تصدر بريطانيا وفرنسا تصريحاً مشتركاً يوضحان فيه أنهما لا يرغبان في ضم المنطقة التي ستنشأ فيها الحكومة أو حلف الحكومات العربية(٢٣). ويحق لهذا المستشار أيضاً بمقتضى هذا الاتفاق إنشاء إدارة لضبط الأمور في المنطقة الساحلية وتعيين الموظفين اللازمين على أن يرفع أسماؤهم إلى القيادة العليا ويكونوا مسؤولين أمامها، وعلى القائد العام أن يبلغ المستشار الفرنسي خلاصة القرارات التي يقررها والتدابير التي يتخذها خارج الشؤون العسكرية. وقد أسندت وظيفة المستشار السياسي إلى جورج بيكو المندوب السامي الفرنسي في الشرق. وعلى أثر عقد هذا الاتفاق قسمت القيادة العليا البلاد السورية إلى ثلاث مناطق، وأطلقت عليها اسم (بلاد العدو المحتلة)، وصدر التصريح البريطاني- الفرنسي (الذي سبقت الإشارة إليه) في ٧ تشرين الثاني عام ١٩١٨. وفي الواقع لم يكن هذا التصريح إلاّ تغطية للنوايا الاستعمارية للدولتين، وهذا ما تكشّف في مؤتمر الصلح الذي سينعقد في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩. وأعلن القائد العام لقوات الحلفاء منشوراً يتضمن أسلوب إدارة البلاد العربية المحتلة من قبل جيوش الحلفاء وتقسيماتها بالشكل الذي طالب به الفرنسيون بموجب البيان المذكور أعلاه، وهو اتفاق سايكس- بيكو، قاصدين من وراء ذلك تولي أمور إدارة السواحل السورية مباشرة والمناطق الأخرى(٢٤).

مع انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ تابعت القوى الدولية الاستعمارية المنتصرة سياساتها (حسب الاتفاقات الدولية المعلنة والسرية) وفقاً لمصالحها. ودخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق على رأس خيالتة في ١٩١٨/١٠/٣ ورفع العلم العربي في سمائها. وبعد يومين أعلن الأمير فيصل تأسيس دولة عربية مستقلة تشمل سائر أراضي سورية الطبيعية

وقد أثار هذا الإعلان حماس الشعب، انتصاراً لحريته واستقلاله، في جميع المناطق السورية، وارتفعت شعبية الأمير فيصل بين أفراد الشعب السوري (مسلمين ومسيحيين)، وأصبح مركزه السياسي معترفاً به في جميع أرجاء سورية الطبيعية العروفة باسم (بلاد الشام)[٢٥]. ورغم الصعوبات الكبيرة التي كانت تعانيها البلاد على مختلف المستويات في هيكلية الدولة "اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً، وإدارياً، وقانونياً.."خاصةً وأنّ الانسحاب العثماني السريع، أوجد نوعاً من الفراغ في مرجعية السلطة والإدارة. فكانت مهمة إعادة تنظيم البلاد وإدارة شؤونها صعبةً تتعدى الامكانيات المادية المتوفرة، والإمكانيات البشرية المؤهلة لإدارة هذه الأعمال[٢٦]، ذلك لأنّ "البلاد كانت تدار كولايات، مراجعها في العاصمة العثمانية، وكانت جميع القوانين والمعاملات مدونة باللغة التركية"[٢٧].

إزاء هذا الواقع وفي محاولة أولى لتأسيس الدولة، لجأ الأمير فيصل إلى النخب الثقافية وامتداداتها الشعبية لتدعم موقفه وتسانده في المواجهات اللاحقة، وكانت أكثرية هذه القوى من أعضاء جمعيتي "العهد" و" العربية الفتاة". وعَيَّنَ رشيد رضا باشا الركابي رئيساً لوزراء سورية الذي احتفظ بصفته كحاكم عسكري، وعادل أرسلان (جبل لبنان) معاوناً للحاكم العسكري، سعيد شقير(بيروت) مديراً للمالية، اسكندر عمون (جبل لبنان) مديراً للعدلية، رشيد طليع (جبل لبنان) مديراً للداخلية، سليم موصلي (دمشق) مديراً للصحة، ساطع الحصري (حلب) مديراً للمعارف، ياسين الهاشمي (العراق) رئيساً لميرة

الجيش، نوري السعيد (العراق) مستشاراً عسكرياً[٢٨]. كما قام بتعيين مدراء لمصالح الدولة، ولجان لتعريب القوانين والمعاملات الإدارية، وباشر بتقوية الجيش، وزيادة عدده بفتح باب التطوع، وقبول الضبا ط العائدين من الجيش التركي "فتأسست بذلك أول دولة عربية قامت على أساس قومي غير إقليمي"[٢٩]، ويشير هذا التشكيل إلى التمسك بوحدة البلاد واعتبارها دولة واحدة لها حكومة واحدة، بالرغم من وجود قوات عسكرية للحلفاء على مساحة واسعة من أراضيها. كما يشير إلى تطلعات القوى الوطنية في بناء الدولة في مختلف مصالحها، بناءً ذاتياً يكفل لها استقلالها، ويصون سيادتها، ويمكن القول أنّ تشكيل الحكومة بهذا الشكل جاء بمثابة إعلان عن قيام الدولة السورية الموحدة المستقلة.

لكن تدخل الجنرال اللنبي بعد أيام قليلة ومطالبته بإنزال العلم العربي عن الأماكن التي رفع فيها على الساحل السوري وخاصة سراي بيروت، وفق إرادات القوى العظمى المنتصرة، كان اعترافاً صارخاً بأحقية فرنسا بالسيادة على تلك المناطق حسب اتفاقية سايكس- بيكو وهذا ما قام اللنبي بشرحه إلى الأمير فيصل في الإجتماع الذي عقد بينهما في دمشق "فندق فكتوريا" في ٣ت١/١٩١٨ ووضّح بأنه " طالما كانت العمليات الحربية مستمرة، فإنّ القائد العام يتولى المسؤولية الكاملة حتى يتم عقد السلم وتظل سورية خلال تلك الفترة جزءاً من أراضي العدو المحتلة"[٣٠] وفي ٢٣ت١/١٩١٨ ثبت الجنرال اللنبي الإجراءآت الخاصة بتنظيم الإدارة العسكرية في سورية، بتقسيمها إلى مناطق ثلاث: جنوبية تحت الإدارة البريطانية، شمالية تحت الإدارة الفرنسية، شرقية تحت الإدارة العربية... وكانت "هذه التقسيمات بالفعل تتوافق مع بنود اتفاقية سايكس- بيكو "[٣١].

وهكذا بدا أن منطلقات الاستقلال والحرية والسيادة التي سعى إليها الشعب وقيادته الوطنية سنين طويلة بقيت نظرية إلى حد كبير لأنّه منع من تطبيقها، تحت عوامل الضغط التي أخذت تمارسها الدول العظمى (بريطانيا وفرنسا). لهذا حاولت

الحكومة العربية تلك تكريس نهج سياسة لتواجه "الأمر الواقع" الآخر البريطاني – الفرنسي، فتعمدت تجاهل تبعيتها للقائد العام اللنبي في كثير من الأحيان، وحاولت " إرساء قواعد حكومية قومية في منطقة عربية حدودها سورية كلها رغم مخططات ساسة أوربا"[٣٢] وخصوصاً فرنسا التي كانت تعارض بشدة إقامة هذه الدولة، مستقدمة أسطولها البحري للاستيلاء على المدن الساحلية، وخصوصاً الموانئ، واعتبار سورية ماتزال تحت وقع العمليات الحربية، مما يستدعي تعليق مصيرها لحين عقد مؤتمر الصلح، وهذا ما شكل حافزاً قوياً للوطنيين العرب للوقوف مع الأمير فيصل والحكومة العربية الأولى في محاولة لإزالة التحديات والأخطار المهددة للاستقلال والسيادة. انطلاقاً من تلك المجريات، رأس فيصل الوفد العربي السوري إلى مؤتمر الصلح في لندن في ١٠ك١/١٩١٨، بعد أن مارست بريطانيا ضغطاً على فرنسا (الرافضة حضوره المؤتمر) للقبول بحضور فيصل المؤتمر، في وقت لم " يحظ العرب الآخرون بأي حضور، رغم أنّ الحركة الوطنية في مصر كانت تناضل للوصول إلى مؤتمر الصلح، وبذلك بقي الوفد المرافق لفيصل هو الوفد الوحيد الذي يمثل القضية العربية في مؤتمر السلم"[٣٣]. لم يستطع الوفد أن يكسب أي بعد سياسي، بل استمر الضغط البريطاني على فيصل للتفاهم مع فرنسا والقبول بسيطرتها على سورية" و" كان اتفاق فيصل – كليمنصو بين شخص تخلى عن حليفه وآخر حصل على الورقة الرابحة من يد نفس الحليف"[٣٤]، لأنّ بريطانيا غير مستعدة لأن تخاصم فرنسا حول مشكلة سورية"[٣٥]، وهذا يعني تخلي بريطانيا عن وعودها للعرب بالاستقلال، مما جعل الأمير يبحث عن حل بديل، فاتجه نحو الولايات المتحدة[٣٦]، ومن ثم كان اجتماعه بالدكتور وايزمن للمرة الثانية[٣٧]، الذي توصل معه إلى الاتفاق الشهير المعروف باتفاقية " فيصل – وايزمن ". لقد كان فيصل كوالده واثقاً من قدرة العرب على التوصل إلى تسوية ودية حول فلسطين والعراق مع الحكومة البريطانية، بحكم صداقتها مع العرب، فكانت مشكلته الأهم هي

التخلص من الادعاءات الفرنسية في سورية والبحث عن دعم بريطاني لمقاومتها، وأدرك أنّه لا يمكن تأمين هذا الدعم إلاّ بالتنازل عن بعض المصالح العربية وكان أولها التفاهم مع الصهيونية، ويبدو أنّ فيصل لم تكن لديه أفكار واضحة عما تعنيه المقترحات الصهيونية، وحينما توضّحت الصورة (فيما بعد)، وأنّ خطة بريطانيا هي الوصاية على فلسطين تمهيداً لتنفيذ وعد بلفور، تغيرت سياسته تجاه الصهيونية وخاصةً بعد قرار المؤتمر السوري بمعارضة الصهيونية، ولم تُجْدِ مجمل التحركات السياسية للوفد نفعاً، وكانت أهم الأعمال التي أنجزها خلال مدة المؤتمر:

١- رفع مذكرة إلى مؤتمر الصلح في ١ كانون الثاني ١٩١٩، تضمنت شرحاً وافياً عن هدف الحركة القومية العربية في وحدة العرب في أمة واحدة، وذلك أنّ "البلاد الواقعة ضمن خط يمتد من الاسكندرونة إلى إيران وجنوباً إلى المحيط الهندي هي موطن العرب"[٣٨] وهي قادرة على تصريف شؤونها.

٢- رفع مذكرة إلى مؤتمر الصلح في ٢٩ كانون الثاني ١٩١٩تتضمن طلب الاستقلال والسيادة للشعوب الناطقة بالعربية في آسيا في دولة " من خط اسكندرون – ديار بكر حتى المحيط الهندي" وذلك بضمان من عصبة الأمم مع إمكانية "إنشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها"[٣٩].

٣- قيام الأمير فيصل بعرض القضية أمام المؤتمر في ٦ شباط عام ١٩١٩ في مقر وزارة الخارجية الفرنسية وطالب الحلفاء بالوفاء بالوعود التي قطعوها على أنفسهم، خاصةً مضمون التصريح "الفرنسي – البريطاني" الصادر في ت ٢ عام ١٩١٨.

٤- في اجتماع فيصل وكليمنصو في ١٦نيسان عام ١٩١٩، تمسّك الأمير باستقلال سورية رغم إصرار كليمنصو على إرسال الجيش الفرنسي ليحل محل الجيش البريطاني، وقد ورد اعتراف كليمنصو في الرسالة التي سلمها إلى الأمير "بحق

سورية في الاستقلال بشكل اتحاد فيدرالي يتألف من حكومات محلية تتمتع بالاستقلال الذاتي مما يتناسب مع تقاليد السكان ورغباتهم"(٤٠).

وبالمقابل عكست النقاشات الدائرة حول سورية مدى التنافس الحاد بين بريطانيا وفرنسا ودخول الولايات المتحدة الأمريكية كطرف له رأي وموقف في هذه المسألة(٤١)، خاصة بعد تعذر التوصل إلى حل للمسألة السورية بعد انتهاء الحكم العثماني، وصولاً إلى الاجتماع السري الذي عقده رؤساء الدول الأربع الكبار(٤٢) في ٢٠ آذار عام ١٩١٩. ولم يتم التوصل إلى إقرار حل نهائي للمسألة، إذ أنّ فرنسا بقيت متمسكة بمصالحها في المنطقة وهذا ما أكده وزير خارجية فرنسا السيد بيشون أثناء جلسة مناقشة في الجمعية الفرنسية العامة بقوله:" إنّ لفرنسا حقوقاً في الامبراطورية العثمانية"(٤٣)، ووضّح تلك الحقوق بقوله أيضاً " إن لفرنسا حقوقاً في سورية وفلسطين ولبنان حقوقاً لا تقبل الاعتراض يجب علينا صيانتها نظراً إلى أنّها مؤسسة على أسس التقاليد التاريخية والاتفاقات المتقابلة وعلى رغائب الأهلين منذ أمد طويل. فنحن مضطرون إلى تأييد تلك الرغائب". وبناء على هذا كله اقترح الرئيس الأمريكي ويلسون على مؤتمر السلم باتخاذ قرار في ٢٥ آذار ١٩١٩ بإرسال لجنة تحقيق دولية (اقتصرت فيما بعد على الأعضاء الأمريكيين فقط برئاسة كينغ كراين) للتعرف على رأي السوريين ورغباتهم بمصيرهم وحياتهم. وعلى هذا تشكلت لجنة "كينغ كراين" لاستفتاء السكان حول مصيرهم ومصير بلدهم الذي كان قد تقرر من قبل وفقاً لمصالح القوى القائمة على المؤتمر وهذا يعني أنّ الوفد لن يتمكّن من تحقيق أيٍّ من أهدافه. وكما تَذْكُر الكثير من المصادر أن الأمير فيصل كان قد اتفق مع كليمنصو شفهياً على " أن يستعمل فيصل جهوده مع شعبه من أجل تأمين انتداب فرنسي على سوريا مقابل أن تعترف فرنسا باستقلال سوريا"(٤٤). وعاد الأمير فيصل إلى سوريا في ٣٠ نيسان عام ١٩١٩ واعداً أنّه سيستعمل سلطته ونفوذه ليسكن من روع أحزابه المتطرفه(٤٥). ويعقد آمالاً كبيرة على لجنة التحقيق الدولية ويعتقد

أن هذه اللجنة ستحدد مصير سوريا. وحينما عاد الأمير إلى سوريا "استقبل استقبالاً فخماً لم تعهد الشام مثله منذ زيارة الامبراطور غليوم، وكان مما فعله أن نشر بياناً في الصحف قال فيه أن مبدأ الاستقلال قد تقرر، وأنّ لجنة دولية لاستفتاء الأهالي في مصيرهم ستَؤُم البلاد"[٤٦]. في وقت اهتاج فيه الشارع العربي بسبب ما أفشاه مؤتمر الصلح من حقيقة نوايا الدول الاستعمارية.

وبذلك فإنّ ردود الفعل الوطنية والشعبية تجاه ما كان يجري من تآمر على استقلال البلاد وحرية الأمة كانت قوية جداً، لأنّ الشعب (سواء القيادة الوطنية أو عامة القوى الوطنية) كان يدرك تماماً عظم المؤامرة على استقلال البلاد، وهذا ما سيدفع الجميع إلى التحرك النضالي بأساليبه كافة، وهذا ما عكسه أيضاً تقرير الكولونيل "ك. كورنواليس"[٤٧] حول الوضع السياسي في البلاد العربية بتاريخ ١٦أيار ١٩١٩ الذي تضمن: "أنّ رجال السياسة في دمشق يعتمدون مبدأين أساسيين لا ثالث لهما.
أولاً: يريدون الاستقلال، وثانياً أنهم لا يريدون فرنسا. إنّ شعور العداء لدى النخبة منهم نحو الفرنسيين عنيف إلى حد يدعو إلى الاستغراب..."[٤٨].

هكذا كانت الأجواء عامة في سورية، وكان على فيصل أن يواجه الهيئات الوطنية والشعبية في البلاد متحملاً وزر المؤامرة البريطانية الفرنسية، ومطالباً بتحقيق الاستقلال. وقد اتضح ذلك في خطبته التي ألقاها حين عودته إلى بيروت في ١٩١٩/٥/٣ ودعا فيها إلى عقد المؤتمر السوري العام[٤٩]، التي شكل محتواها انعطافاً مميزاً في مسار آلية العمل السياسي لمستقبل سورية، لاسيما بتأكيدها على ضرورة الاستقلال، والانتقال بالحياة السياسية من " الحالة العرفية " التي يتم فيها استبعاد الأمة إلى الحالة المدنية التي تفعّل دورها، والنهوض بالبلاد، وهذا يعني الاعتراف بشرعية دولة وطنية عربية، وحكم ذاتي. وقد حصل فيصل على إجماع وطني شمل الطوائف والأقليات كافة، وقد أكد فيصل على توجهه السياسي هذا في حديث آخر له في حزيران

أثناء مروره في حلب وضّح فيها تلك المعطيات بالتفصيل(٥٠). وفي الواقع وصلت أزمة البلاد إلى أوجها بعد صدور قرارين فرنسيين، وعلى درجة كبيرة من الخطورة، متعلقين باستقلال سورية ووحدتها(٥١)، هما:١- وصول فرق إمداد فرنسية إلى البلاد. ٢- قرار مجلس إدارة جبل لبنان في ٢٠ أيار عن إعلان الاستقلال للبنان " بحدوده التاريخية والجغرافية والطبيعية"(٥٢). وبذلك يتضح مدى خطورة قرارات كهذه تستهدف استقلال البلاد ووحدتها، خاصة وأنّ لبنان امتداد طبيعي لسورية بكل الأبعاد التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. وبذلك فقد شكلت مجمل هذه المجريات مقدمات فعلية للإقدام على تنفيذ فكرة عقد مؤتمر وطني يؤكد على استقلال سوريا.

المؤتمر السوري الأول :١٩١٩

١- تأسيس المؤتمر:

استناداً إلى مجمل التطورات السياسية الجارية في سوريا (الطبيعية)، التي شملت في سياقها معظم القرارات السياسية الأوربية إزاء المشرق العربي والمطالب الوطنية، ومسار النضال الوطني بكل أبعاده ومستوياته التي تُرَكِّز جلّها حول الاستقلال الخالص، والتي شكلت الظروف الذاتية الملائمة لتداعي معظم القادة السياسيين والمثقفين الوطنيين في تلك المنطقة من الوطن العربي إلى عقد المؤتمر السوري الأول عام ١٩١٩.

تشكيل المؤتمر: صدرت الدعوة الرسمية لتشكيل المؤتمر عن الحاكم العسكري العام رئيس الحكومة رضا الركابي بناء على توجيهات الأمير فيصل الذي أراد أن يثبت قدرته على حكم البلاد، وهذا ما ورد لدى الدكتور أحمد قدري الذي رافق الأمير إلى أوربا، وظل معه يعزو نشوء الفكرة إلى تشاور الحاشية مع الأمير فقد ذكر:" وبما أن الحكومات الكبيرة والرأي العام العالمي يجعل لآراء المجالس النيابية المَقَام الأول، فقد اتفقنا مع سمو الأمير على دعوة "مؤتمر سوري عام" يمثل سوريا كلها(٥٣). وأطلق عليه الأمير اسم" المؤتمر السوري العام المؤقت " في كلمتيه في ٣ أيار في بيروت و٥ أيار في دمشق

بعد أن تبنّى الفكرة التي تداولها مع القيادات الوطنية السورية خاصةً (إثر ما حصل في مؤتمر الصلح وما تكشّف عن نوايا وخطط استعمارية بريطانية فرنسية استهدفت حرية الوطن وأبنائه)، وما يؤكد ذلك أيضاً ما ورد في مذكرات يوسف الحكيم بقوله: "... بما أنّ الحكومات الكبيرة والرأي العام العالمي يجعل لآراء المجالس النيابية المقام الأول فقد اتفقنا مع سمو الأمير على دعوة "مؤتمر سوري عام " يمثّل سورية كلها"[٥٤]. كما كانت فكرة المؤتمر قائمة عند عدد من أعضاء حزب حديث التكوين عرف باسم "حزب الاستقلال العربي"، ولم يكن سوى جمعية الفتاة السابقة في لبوس جديد، ومنح فيصل تلك الحركة تأييده وحاول أن يوجهها في طريق دستورية منظمة..[٥٥]، آملين في الوقت ذاته أن تعيد فكرة المؤتمر بعض الثقة بين الشعب وسلطته السياسية المعنية بمجمل ما يحدث على أرض الوطن. وهذا يعني أنّ فكرة الأمير حول المؤتمر كانت وليدة الظروف السياسية التي فرضتها الدول الاستعمارية، وما لذلك من أثر في فقدان الشعب ثقته بالأمير فيصل. مما يدل بوضوح على نمو وعي القوى الوطنية التي تضافرت جهودها ولا يمكنها أن تقبل المساومة على حرية بلادها.

استناداً لما سبق، تمّ توجيه الدعوة إلى السوريين لانتخاب أعضاء المؤتمر السوري الذي سيعقد في دمشق، وبالاعتماد على قانون الانتخاب العثماني. ففي المنطقة الداخلية "انتخب النواب المنتخبون الأولون الذين انتخبوا المبعوثين في الدورة الأخيرة لمجلس (المبعوثان) العثماني في مطلع الحرب العالمية الأولى، حتى أنّ أعضاء كثيرين كانوا في الحقيقة نواباً سابقين في مجلس المبعوثان"[٥٦]. وفي المناطق الغربية والجنوبية فقد شارك ممثلوها في المؤتمر بمضابط توكيل من الأعيان والزعماء دون أن تجري أي انتخابات، وكان بعض النواب الذين مثلوا المنطقة الغربية قد منعتهم السلطات الفرنسية من السفر إلى دمشق[٥٧]. وتمّ استكمال العدد النهائي لأعضاء المؤتمر على مراحل، ففي الداخل تمّت في أوائل حزيران، بينما "دعا السيد عارف الكنفاني نخبة من شباب

بيروت إلى اجتماع في منزله للتداول بشأن اختيار مندوبي البلدة للمؤتمر السوري، واقترح أن يشمل الترشيح للمؤتمر الفئتين من الشعب، فئة الزعماء المدربة، وفئة الشباب المثقف وانتخب المجتمعون بالاقتراع السري مرشحي الشباب. وفي الثامن من تموز عام ١٩١٩ اجتمع المنتخبون الثانويون في دار سليم الطبّارة وانتخبوا بالاقتراع السري عشرة من بيروت أعضاء للمؤتمر السوري، وكذلك انتخبت المدن الأخرى مندوبيها"(٥٨). وفي المنطقة الجنوبية كما الغربية، فقد تمّ اللجوء إلى الناخبين الثانويين كمصدر لانتخاب الممثلين النواب، " وكان بعض الذين انتخبوا للمؤتمر موجودين في دمشق، فأرسلت إليهم توكيلات من مدنهم مثل الدكتور أحمد قدري، والشيخ سعيد مراد، ورفيق وأمين التميمي، والحاج أمين الحسيني، لذلك فقد تمَّ تمثيل فلسطين في المؤتمر بشكل أشمل من تمثيل المنطقة الغربية، فقد كان جميع ممثلي فلسطين يحملون توكيلات جمعياتهم أو أندية مدنهم موقعة من قبل عدد كبير من ذوي الرأي"(٥٩). أما العملية الانتخابية التي أشرنا إليها والتي اقتصرت على المنطقة الداخلية، فقد كانت تتم على مرحلتين: **الأولى**، لكل مجموعة من ٥٠٠ مقترع مؤهل للانتخاب الحق بتسمية منتخبين للمرحلة **الثانية** وكانت أهمية الناخب مُحَدَّدَةً بقيمة الضرائب المباشرة وغير المباشرة المدفوعة للحكومة والمقترعون يسمون في المرحلة الأولى ونصت المادة ٦٥ من الدستور العثماني على أن تكون نسبة التمثيل في مجلس المبعوثان تعادل عضواً واحداً لكل خمسين ألف نسمة من الذكور، على ألاّ يتعدى الكسر ٢٥ ألفاً، وقد اعتمد فيصل على الممثلين الثانويين الذين انتخبوا عام ١٩١٣ بسبب ضيق الوقت وجرى انتخاب المندوبين في منطقة الحكم العربي بطريقة الانتخاب حسب الأقضية. وبلغ عدد مندوبيهم ٦٠ مندوبا. أما المناطق الغربية والجنوبية (فلسطين – الساحل) الواقعة تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي فقد بلغ عدد مندوبيها بين ٥٠- ٦٠ ممثلاً(٦٠). مع ملاحظة ممانعة السلطات الفرنسية الشديدة للمرشحين من السفر، وسعيها لمنع إجراء الانتخابات من حيث المبدأ.

دعت حكومة الركابي أعضاء المجاس العمومي في كل من ولايتي حلب ودمشق "المنتخبين على مقتضى القانون العثماني"، ليكونوا أعضاء في المؤتمر السوري. أما في الساحل وفلسطين، فقد اكتفي بانتخابات خاصة عن طريق توقيع عرائض من الأهالي بانتخاب من يريدون من قبل أنصار الحكم العربي، بحيث تمثّلت المناطق الثلاث بمجموعة من الأدباء والمفكرين والوجهاء والقادة الشباب، وهؤلاء معظمهم من مؤيدي الحكم العربي(٦١). وكان المؤتمر مدعوماً من حزب الاستقلال، وحزب الاتحاد السوري، لاتفاقهما في أهدافهما وغاية المؤتمر، كما أنّه يعد ممثلاً شرعياً وحقيقياً للبلاد. وهذا ما أكدته لجنة كينغ كراين في تقريرها (كما سيتضح لاحقاً) وكانت قلة ضئيلة من أعضاء المؤتمر من أنصار الانتداب الفرنسي، إلاّ أنها لم تكن ذات صوت مسموع، كما أنّ النواب المسيحيين كانوا أكثر عدداً من نسبتهم إلى السكان(٦٢). وكان عدد الأعضاء الخمسة وثمانين، يمثلون دمشق وحلب ومناطقهما وحماة وحمص ودير الزور وحوران وجبل الدروز والكرك (شرقي الأردن) وانطاكية واللاذقية وبيروت وطرابلس وجبل لبنان وفلسطين(٦٣). وهذا يعني أن المؤتمر مثل جميع مناطق سوريا الطبيعية، واتفق الجميع على ضرورة الاستقلال.

٢- التركيبة الاجتماعية والسياسية للقوى المشاركة في المؤتمر:

كان معظم الأعضاء الممثلين عن أحزابهم يتمتعون بأهلية ثقافية واجتماعية مميزة وضمت المجموعات عدداً من أصحاب المهن المختلفة، شملت المحامين والضباط وعلماء الإسلام وأصحاب الأراضي وزعماء العشائر وكان عدد منهم قد سجن أو نفي من قبل الأتراك لأسباب سياسية. وبشكل عام كان المؤتمر يبدو وكأنه مُؤَلّفٌ من مجموعة من الرجال الذين مثلوا الشعب السوري في ذلك الوقت وبشكل مناسب(٦٤). وكان العديد منهم خريجاً من المعاهد التركية العسكرية منها أو الحقوقية مثل هاشم الأتاسي، سعيد حيدر، ابراهيم هنانو، صبحي بركات وغيرهم.. إضافةً إلى تميّز البعض

بقدرات إدارية وفنية مثل عزة دروزة سكرتير المؤتمر الذي كان محركاً أساسياً لإدارة المؤتمر وترتيب أوضاعه، كما تميّز البعض الآخر بقدراتهم الحقوقية مثل عثمان سلطان وهاشم ووصفي الأتاسي، وسعيد حيدر الذين تولوا مشروع القانون الأساسي للدولة السورية. لكن من اللاّفت أيضاً أنّ أغلبية الأعضاء الحاضرين في المؤتمر غلبت عليهم صفة الأرستقراطية، مما فسح لهم مجال السيطرة على الأجواء العامة (رغم أهمية دور حزب الاستقلال أيضاً في المؤتمر) لذلك عقدوا اجتماعاً لنواب ولايتي دمشق وحلب في دار "محمد فوزي العظم " وانتخبوه رئيساً للمؤتمر، وانتخبوا الغني الكبير عبد الرحمن اليوسف نائباً له(٦٥). وكان هذان من (الطبقة الأرستقراطية) الموالين للأتراك ثم مالا للفرنسيين، لكن اليوسف قتل لتعاونه مع الفرنسيين بعد الاحتلال على يد الوطنيين، وانتخبوا هاشم الأتاسي من العربية الفتاة رئيساً للمؤتمر في أول جلسة رسمية في ١٩ حزيران ١٩١٩.

وكان من أهم القوى السياسية (الحزبية) الأكثر تمثيلاً في المؤتمر، حزب الاستقلال، الاتحاد السوري، والعربية الفتاة، والجبهة الشعبية، والنادي العربي، واللجنة الوطنية العليا، الحزب الديموقراطي، الحزب الحرّ المعتدل، حزب التقدم، الحزب الوطني. و ظهر أنّ معظم النواب يطالبون بالاستقلال والوحدة، وأنهم كانوا لا يمانعون في الانتداب الأمريكي أو البريطاني، على أساس أنّه مساعدة فنية. ووجدت أيضاً أقلية تطالب بالانتداب الفرنسي، وأقلية أخرى لا تفرق بين الانتدابين(٦٦). لاشك بأن هذه التركيبة لأعضاء المؤتمر التي تمتد بجذورها إلى الطبقة الميسورة الحال مادياً (البرجوازية بدرجاتها المختلفة من الصغرى للمتوسطة وصولاً إلى الأرستقراطية منها) والتي استطاعت بغالبيتها أن تحصل على مستوى تعليمي وثقافي متميز، مع استفادتها من تأثيرات الفكر الغربي بجوانبه القومية والوطنية والتحررية والديموقراطية، لاسيما من تلقى

تعليمه خارج البلاد، فشكلت تلك الفئات الأساس لقيادة العمل الوطني والذي سيتابع نضاله في المراحل اللاحقة.

٣- أعمال المؤتمر وأهدافه:

كانت مهمة المؤتمر الأساسية وضع قانون للبلاد، والإشراف على أعمال الحكومة(٦٧). والاتفاق مع اللجنة الوطنية للدفاع عن وحدة سورية واستقلالها، ومقاومة التدخل الأجنبي، وخاصةً الفرنسي. أما غاية فيصل نفسه فكانت".. تمثيل البلاد أمام اللجنة الأمريكية، وعرض مطاليبها وأمانيها عليها، ثمّ سن القانون الأساسي مع ضرورة وضع نصوص صريحة فيه لحفظ حقوق الأقليات"(٦٨)، والسعي لتنفيذ سياسته، وتبنّي المؤتمر لها في (وحدة سورية واستقلالها)، حتى تتبين بوضوح أهداف الشعب أمام(٦٩) اللجنة الأمريكية التي وصلت يافا في ١٠ حزيران. لذا تابع نشاطه بهذا الاتجاه وهو ما عكسته زيارته إلى حلب خلال لقائه مع الكثيرين من أبناء الشعب وإظهار تفاؤله من قدوم اللجنة الأمريكية، وأوضح أنّ مستقبل الأمة يتوقف على ما ستقوله أمام اللجنة فقال: " أنتم أحرار في بلادكم وستقولون ما تريدون وسيعمل ما تريدون"(٧٠). وأوصاهم بالوحدة كمواطنين سوريين وعرب لأنّ السوريين عرب رغم اختلاف الأديان، وأيده الحاضرون وضمنوا النجاح لسياسته في حلب أيضاً(٧١). وبعد عودة فيصل من حلب إلى دمشق بدأ المؤتمر بعقد جلساته ابتداء من أوائل شهر حزيران عام ١٩١٩ وحتى أواخر تموز عام ١٩٢٠ حيث يقول عزة دروزة: " بعد التعارف جرت انتخابات للرئاسة ونيابة الرئاسة والسكرتارية ففاز في الأولى محمد فوزي العظم(٧٢)... وفي الثانية عبد الرحمن اليوسف وفزت أنا بالسكرتاريا" أما صبحي العمري فيقول: "وعقد المؤتمر أول اجتماع له في صالة النادي العربي وانتخب لرئاسته محمد فوزي العظم ولأمانة السر عزة دروزة، وفي ٧ حزيران ١٩١٩ افتتح المؤتمر رسمياً.. وعقد خلال تلك المدة ثلاث دورات، الأولى بعد انتخابه وعند مجيء لجنة الاستفتاء، والثانية عند حدوث أزمة استبدال

الجيوش الإنجليزية، والثالثة قبل إعلان الاستقلال"[٧٣]. وكانت أهم الجلسات (ما عرفت بجلسة الاستقلال) في حزيران التي طالب فيها معظم النواب بوحدة سورية واستقلالها التام الناجز، وانتداب أمريكا أو بريطانيا إن لم يكن بد من الانتداب، ورفض انتداب فرنسا[٧٤]. وبغض النظر عما جرى من تبدلات إدارية في المؤتمر خاصة بعد وفاة العظم[٧٥]، وفوز هاشم الأتاسي نائب حمص برئاسة المؤتمر. وفي الحقيقة أنّ التوصل لهذا الرأي تمّ بعد مناقشات طويلة بين فيصل والهيئة الإدارية للفتاة، حيث أفضى فيصل بأسرار كثيرة عن الوعود التي نالها من بريطانيا والعهود التي قطعها على نفسه لتأييد استقلال سورية ومساعدتها على تأمين الوحدة العربية، ووضّح بأن طلب الانتداب من أمريكا أو بريطانيا لا يناقض فعلياً عدم قبول أي انتداب، لأنّ الولايات المتحدة لن تقبل بالانتداب تماشياً مع مبدأ "مونرو" الذي اقتضى بعدم تدخلها خارج أمريكا، ولأنّ بريطانيا سترفض الانتداب أيضاً، لأنها لن تقبل ما يرفضه السوريون من حليفتها فرنسا، حتى لا يصاب حلفهما بالتصدع، أما إذا لم يطلب انتدابهما، فقد يُجْبرُ الحلفاءُ السوريين على قبول انتداب فرنسا بالقوة[٧٦].

وكان من أهم الإجراءات التي أقدم عليها المؤتمر حلّ إشكالية الجيش العربي السوري الذي كان تابعاً (بحكم ظروف الحرب) إلى قيادة المارشال اللنبي، شأن جميع الجيوش المرابطة في "الشرق الأدنى"، وكذلك حلّ إشكالية الحكومة السورية (التي كانت من الوجهة القانونية) لاتزال إدارة عسكرية تدير البلاد وفقاً للقواعد المقررة في حقوق الدول لإدارة "بلاد العدو المحتلة". وكان غريباً أن يعتبر الجيش العربي في سوريا بهذه الصورة مثل الجيش الفرنسي، من الجيوش المحتلة بالنسبة للجيش العربي نفسه وبالنسبة إلى الحكومة المؤلفة من أهل البلاد نفسها. ولم يكن التخلص من هذه الأوضاع الشاذة إلاّ بإفهام العالم بشرعية استقلال سوريا وحريتها في اختيار نظامها السياسي: " انّ هذه البلاد لأصحابها وهم مستقلون فيها"[٧٧]. كما تابع المؤتمر خلال ذلك الوقت عمله

السياسي لوضع دستور للدولة السورية، حسبما ورد في خطاب الأمير فيصل منذ الجلسة الأولى للمؤتمر بقوله: " ومن المستحسن أن يؤلف المؤتمر قبل انفضاضه لجنة لتضع مشروع دستور للدولة السورية المأمولة"(٧٨). وقد تألفت اللجنة التي رأسها هاشم الأتاسي "نفسه رئيس المؤتمر"، وفي الوقت الذي اعتبره المؤتمر مفوضاً، وذلك بعد مقابلة وفده للجنة الاستفتاء في ٣ تموز عام ١٩١٩، حيث يكون قد أتمّ المهمة الأولى المحددة له وهي تمثيل الشعب السوري أمام اللجنة. وفي الواقع لم يتبق للمؤتمر (رسمياً) سوى مهمة وحيدة هي وضع القانون الأساسي للبلاد، وهذا ما عكفت اللجنة الدستورية على إنجازه.

وبذلك استطاع فيصل أن يقنع حزب الفتاة وحزب الاستقلال بخطته في طلب انتداب أمريكا أو بريطانيا ورفض فرنسا. ولم يأل فيصل جهداً في السعي الحثيث لإنجاز الوحدة السورية واستقلالها، فكان يتصل بالعاملين والزعماء الشعبيين ويتابع أيضاً مساعيه الرسمية من أجل هدفه الذاتي في تسلم عرش سوريا.

٤- أهم القرارات والمواقف التي اتخذها المؤتمر إزاء تطورات المرحلة ما بين ١٩١٩-١٩٢٠:

كان وصول لجنة كينغ كراين إلى سورية، والاستفتاء الشعبي الذي أجرته حول الاستقلال، من أولويات اهتمامات المؤتمر، وتعدّ القرارات التي اتخذها المؤتمر السوري العام أهم وثيقة تلقتها اللجنة في ٣ تموز عام ١٩١٩، وقد وصفت اللجنة قرارات المؤتمر بقولها: " إنها وثيقة قدمت للجنة وتستحق أن تدرس بأعظم الاحترام، ولما كانت نتيجة لعملية سياسية واسعة وشاقة فإنها تشكل أساساً يمكن أن يجتمع عليه السوريون، وهي أفضل وأثبت أساس لنظام قومي في سورية. وستجد الدول المنتدبة في هذه القرارات تعهداً بإنشاء حكومة حرة، وهو تعهد عظيم القيمة في إنشاء الدولة الجديدة وتوجيهها التوجيه الصحيح"(٧٩). وشدد تقرير اللجنة على توصيتين هامتين من توصياتها(٨٠) وهما: ١- ضرورة المحافظة على وحدة سورية ٢- النقطة التي تتعلق بـ"الوطن القومي

اليهودي"، فيجب تعديل البرنامج الصهيوني تعديلاً أساسياً لأنّه لا يمكن تطبيقه إلاّ بقوة السلاح(٨١).

أما قرار المؤتمر تجاه اتفاق فيصل- كليمنصو الذي تضمن بنوداً عدة من أهمها:

١- اعتراف فيصل بحاجة سورية إلى التنظيم والإصلاح.

٢- ضمان فرنسا لاستقلال سورية وحدودها.

٣- حق الحكومة الفرنسية في الأولوية التامة بالتعهدات والقروض والموافقة على قيامها بمهمة تنظيم الدرك والشرطة والجيش.

٤- حصر المستشارين والمدربين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الإدارتين المدنية والعسكرية بالفرنسيين وبواسطة الحكومة الفرنسية.

٥- حق الحكومة الفرنسية بتمثيل مصالح سورية الخارجية بواسطة ممثليها السياسيين وقناصلها.

٦- جعل اللغة الفرنسية اجبارية التدريس بصورة ممتازة.

٧- الاعتراف باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي(٨٢).

لقد أثار هذا الاتفاق قلقاً وطنياً كبيراً على مصير البلاد، لاسيما تجاه فرنسا وانتدابها على سوريا كما سبق وأشرنا من قبل، مما دفع الوطنيين وفيصلاً الذي لم يجد مناصاً من الانخراط ضمن دائرة الوطن والمطالبة بالاستقلال (استناداً إلى حق الشعب الشرعي بحريته) إلى اتباع سياسة الأمر الواقع فقرر المؤتمر السوري العام وضع القائمين على مؤتمر الصلح أمام الأمر الواقع وفي ٧ آذار عام ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر قراراً بإعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها، وانتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث(٨٣). وهذا يعني إقرار المؤتمر بحق العرب بالاستقلال والحرية، والتأكيد على تقرير شكل الدولة التي يرغبون فيها ووضع دستور للبلاد. لم يكن هذا الاستقلال خاصاً بالمنطقة الشرقية التي

كانت تحت الإدارة السورية فعلياً، بل كان شاملاً للمنطقة الغربية التي كانت تحت إدارة الجيش الفرنسي، والمنطقة الجنوبية التي كانت تحت إدارة الجيش البريطاني أيضاً، "استقلال سورية بحدودها الطبيعية" استقلالاً تاماً...وطلب المؤتمر كذلك من الحلفاء جلاء جنودهم عن جميع المناطق التي يحتلونها، بما فيها فلسطين ولبنان.

هكذا انتهت مرحلة من تاريخ سورية وبدأت مرحلة أخرى، انتهت مرحلة الإمارة الفيصلية وحكومة مجلس المديرين، لتبدأ مرحلة الملكية والحكومة الدستورية النيابية، التي شكلها علي رضا الركابي في يوم الاستقلال نفسه(٨٤). فكانت أول وزارة دستورية تألفت في عهد الملك فيصل وأصبحت مسؤولة تجاه المؤتمر السوري والملك، أمام المؤتمر فقد انصرف بكليته لدرس الموقف من الحكومة الجديدة لوضع صيغة الدستور الأول لسورية، الذي تتوخاه البلاد من نهضتها ووحدتها واستقلالها وبعثها من جديد(٨٥).

شَكَّلَ إعلان المؤتمر استقلال سورية على المستوى الداخلي (الوطني)، عيداً وطنياً وفرحاً شعبياً عارماً بين مختلف أبناء المجتمع، لأنه كان ملبياً لأهداف نضالهم الطويل وتضحياتهم، وبداية لنهوضهم. وعلى المستوى العربي، قوبل إعلان استقلال سوريا الطبيعية بارتياح كبير في البلاد العربية كافة.

أما على المستوى الدولي، فقد رفضت الحكومتان الفرنسية والبريطانية الاعتراف بشرعية قرارات المؤتمر في دمشق، (رغم الجهود التي بذلتها الحكومة العربية للمحافظة على الصلات الودية مع جميع الحلفاء) لأن مستقبل الأجزاء العربية لا يزال بيد مؤتمر للسلم. وهكذا لم تحصل المملكة السورية الناشئة على الاعتراف باستقلالها من الحلفاء إلاّ بشرط أن تقبل بالانتداب، ولا يمكنها أن تقبل بالانتداب دون أن تتخلى عن الاستقلال وعن ثلثي سكانها، وداخل هذه الحلقة بقيت تدور إلى أن قضي عليها تماماً(٨٦). وهكذا تمت إجراءات الحكومتين البريطانية والفرنسية، فقررت بريطانيا مدّ انتدابها على العراق والأردن وفلسطين، رغم اعتبار فرنسة جميع القرارات المتخذة حلاً مرضياً، لأنها اسمياً

أقل من امتلاك كامل كانت تتوقعه في الساحل وأكثر من منطقة نفوذ كانت تتوقعها في الداخل، إلاّ أنه حسب تفسير فرنسا لالتزامات الانتداب، قد أطلقت يدها في الساحل والداخل والصحراء.

ثالثاً- نتائج البحث:

١- أتت نتائج الحرب في صالح الحلفاء، مما مكّنهم من تنفيذ مخططهم الاستعماري في احتلال المناطق التي أخلتها الدولة العثمانية بعد تجزئة المشرق العربي إلى كيانات سياسية يسهل التحكم فيها، ولم تكن المؤتمرات الدولية سوى غطاءات مكشوفة عن سياسة السيطرة الاستعمارية وفق أسس جديدة تفرضها سياسة " الأمر الواقع" الناتجة عن هيمنة القوى العظمى من جهة، وسعيها لكسب "شرعية" دولية جماعية تجاه مصالحها المفروضة على دول العالم الأضعف من جهة أخرى.

٢- سعي قادة الحركة الوطنية من المثقفين الوطنيين لتحقيق هدفهم في الاستقلال الناجز، فأعلنوا عن الحكومة العربية الأولى في دمشق عام ١٩١٨، ولمزيد من التأكيد على الهدف الوطني في الاستقلال، كانت الدعوة إلى المؤتمر السوري الأول ١٩١٩- ١٩٢٠ بزعامة الأمير فيصل، الذي كان قد تم اختياره حاكماً لبلاد الشام في تشكيل أول حكومة عربية مستقلة عام ١٩١٨.

٣- رغم محاولات القيادة السياسية والنضالية "المؤتمر السوري الأول" فرض سياسة الأمر الواقع في استقلال بلاد الشام، إلاّ أنّ القوى العظمى المنتصرة في الحرب ممثلة بـ "إنجلترا وفرنسا وأمريكا وغيرها..". تابعت تنفيذ مجمل اتفاقاتها ومعاهداتها في تقسيم البلاد واحتلالها.

٤- يكمن السبب الحقيقي في فشل قيادة الحركة الوطنية في تحقيق أهدافها في الاستقلال إلى سببين رئيسيين: الأول انتصار القوى العظمى في النظام الامبريالي الاستعماري العالمي وفرض سياسته على الشعوب المقهورة، وحلّ أزماته الناجمة

عن الصراع والتنافس فيما بين تلك القوى. والثاني ضعف القيادة السياسية الوطنية في بلاد الشام، في مواجهتها للضغوط الخارجية، وخاصة الأمير فيصل الذي لم يتعظ من دروس الكذب والتنكر لوعودهم السابقة في استقلال البلاد خلال الحرب العالمية الأولى.

٥- تمكن الدول الاستعمارية من احتلال البلاد (فرنسا لسوريا ولبنان، وبريطانيا العراق وفلسطين والأردن)، وإنهاء دور الحكومة السورية الأولى والمؤتمر السوري الأول، لتبدأ مرحلة جديدة من النضال الوطني التحرري من أجل الاستقلال.

الهوامش

(١) جورج، أنطونيوس يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٦. و Zein N.Z. Arab – Turkish Relations and the emergence of Arab Nationalisrn, Beirut 1958.

(٢) قلسمية خيرية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨ – ١٩٢٠، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١، ص٢٣- ٢٤.

(٣) عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، دمشق، مكتبة نوبل، ٢٠٠٢، ص ١٥، ١٦.

(٤) عبد الكريم رافق، مقال في مجلة دراسات تاريخية، تصدر في جامعة دمشق، العددان ١٩و٢٠، نيسان، للعام ١٩٨٥، ص ٥٧. وحسن الحكيم، المرجع السابق، ص ١٥- ١٦.

(٥) عدد من المؤلفين، تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك، دار المعارف مصر،لا يوجد عام للنشرص ٩٦.

(٦) فؤاد أفرام البستاني، دائرة المعارف، قاموس عام، المجلد السادس، من أتاتورك إلى أثيوبية، بيرة، ١٩٦٦، ص١٥.

(٧) وديع أبو زيدون، تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ط أولى، عام ٢٠٠٣، ص ٣٤١

(8) Zein , Arab - Turkish Relation, op. cit.

(٩) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ٢، القاهرة، ص ١١- ١٢.

(١٠) وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مجلد ٤، ١٩١٨.

(١١) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية (١٩١٥-١٩٤٦)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٣٧.

(12) Petit Larousse Libraire Paris 1967.

(١٣) زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ط ٣ دار النهار، بيروت ١٩٧٧، ص ٩٥.

(١٤) عبد الرحمن الشهبندر، فيصل بن الحسين، مقال في صحيفة المقتطف العدد ٨٣، عام ١٩٣٣.

(١٥) حسن الحكيم، مصدر سابق، ص ٦١.

(١٦) أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٩٥٦، ص ١٣٩- ١٤٠.

(١٧) ساطع الحصري، يوم ميسلون، ط٢، مكتبة الكشاف، بيروت، ١٩٤٨، ص ٦٦.

(١٨) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٨.

(١٩) محمد حافظ غانم، المشكلة الفلسطينية في أحكام القانون الدولي، معهد الدراسات،جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٠، ص٦٣- ٦٤

(٢٠) خيرية قاسمية، عوني عبد الهادي- أوراق خاصة، منظمة التحرير الفلسطينية ١٩٧٤، ص ٢٨.

(٢١) المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢٢) المرجع نفسه.

(23) Contaut – Birron, R. de; Comment la Frances est instalee en Syrie 1918-1919, Paris 1922 , p.65-66

(٢٤) غالب العياشي، الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي في سوريا، ١٩٥٤، ص ١١- ١٢.

(٢٥) وليد المعلم، سوريا ١٩١٦- ١٩٤٦، دمشق، دار طلاس للدراسات والنشر، ١٩٩٩، ص ٣٣.

(٢٦) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢٧) صبحي العمري، ميسلون، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٩١، ص ١٦.
(٢٨) يوسف الحكيم، سوريا والعهد الفيصلي، ط ٣، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٥- ٣٦.
(٢٩) صبحي العمري، ميسلون، رياض الريس للكتب، لندن، ١٩٩١، ص ١٧.
(٣٠) خيرية قاسمية، الحكومة العربية الأولى في دمشق، مرجع سابق، ص ٥١.
(٣١) المرجع السابق، ص ٥٤.
(٣٢) المرجع السابق، ص ٥٥.
(٣٣) المرجع السابق، ص ٨٥.
(٣٤) المرجع السابق، ص ١٠٢. وخيرية قاسمية، عوني عبد الهادي، أوراق خاصة، مصدر سابق. ص ٢٠، ٢١، ٢٢.
(٣٥) زين نور الدين زين، مرجع سابق، ص ٩٩. وينقل د. علي سلطان عن حنا خباز قول لويد جورج لفيصل: " يا أمير، فرنسا جارتنا، يفصلنا عنها زقاق ضيق، وقد امتزجت دماء أبنائنا بالحرب فلسنا نريد أن نحارب لأجل سوريا"
(٣٦) حسن الحكيم، الوثائق التاريخية، مصدر سابق، ص ٤٠، وما يليها.
(٣٧) زين نور الدين زين، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٣٨) حسن الحكيم، المصد السابق، ص ٣٩- ٤٠.
(٣٩) المصد السابق، ص ٤٣- ٤٤.
(٤٠) زين نور الدين، مرجع سابق، ص ٣٠٧.
(٤١) المرجع السابق، ص ٩٩.
(٤٢) الأربعة الكبارهم: الولايات المتحدة الأمريكية، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا.
(٤٣) زين نور الدين، مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٤٤) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، مرجع سابق، ص ١٠٢.

(٤٥) ج. دي ف. لودر، القول الحق في تاريخ سوريا وفلسطين والعراق، ترجمة نزيه مؤيد العظم، مطبعة دمشق الحديثة، ١٩٢٥، ص ٦٣.

(٤٦) عبد الرحمن الشهبندر، فيصل بن الحسين، المقتطف العدد ٣٣، ١٩٣٣.

(٤٧) كيناهان كورنواليس، ضابط في حكومة السودان عين في منصب نائب هوغارت رئيس المكتب العربي في القاهرة وكان المكتب يصدر نشرة بعنوان "النشرة العربية"بدأ بإصدارها في ٦ حزيران/ ١٩١٦، واستمرت على فترات غير منتظمة حتى نهاية ١٩١٩، وقد تولى كورنواليس تحريرها بشكل دائم بعد لورنس وديفيد هوغارت وكان يطبع من هذه النشرة ٢٦ نسخة فقط توزع على نائب الملك في الهند، والقائدين العامين البريطانيين في مصر والسودان ووزارة الحربية والأميرالية في لندن. هذه النشرة حوت معلومات سرية تشكل الخلفية بشأن العالمين العربي والاسلامي وتجدر الإشارة إلى أن كورنواليس كان برفقة اللنبي حين دخوله دمشق في ٣ ت ١/ ١٩١٨ وقد عينه ضابط الارتباط البريطاني في دمشق. عن خيرية قاسمية، الحكومة العربية، ص ٥٢. ودافيد فرومكين، سلام ما بعده سلام، ١٩١٤- ١٩٢٢، رياض الريس للكتب والنشر، لندن ١٩٩٢، ص ٢٤٩.

(٤٨) زين نور الدين زين، مرجع سابق، ص ١١٦.

(٤٩) حسن الحكيم، مصدر سابق، ص ٥٧.

(50) Tlass Moustapha – Hajjar Joseph. L histoire Politique de la Syrie Contemporaine 1918 -1990. Le royaume arabe unitaire et son effonderment 1918- 1920Damas ;Dar Tllas 1992.

(٥١) المرجع نفسه.

(٥٢) المرجع نفسه.

(٥٣) أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية، منشورات وزارة الثقافة، ط ٢، دمشق، ١٩٩٣، ص ١٢١.

(٥٤) أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، ص١٢١. ولدى حسن الحكيم، سورية والعهد الفيصلي. وساطع الحصري، يوم ميسلون.

(٥٥) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين ط ٨، بيروت ١٩٨٧، ص ٤٠٤- ٤٠٥. ويذكر تاريخ تأسيس حزب الاستقلال في ٥ شباط عام ١٩١٩.

(٥٦) خيرية قاسمية، الحكومة العربية الأولى..، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٥٧) المرجع نفسه.

(٥٨) محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨- ١٩٢٢، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٨، ص ١٠٦، والمنتخبون الثانويون هم الذين انتخبوا سنة ١٩١٣ خلال العهد العثماني بانتخاب أعضاء مجلس المبعوثان.

(٥٩) محمد عوة دروزة، سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣، ص ٣٥٢.

(٦٠) الموسوعة الفلسطينية، ص ٣٥٤. و Mundy Angus The Government in Syria 1918- 1920. M.a dissertion. American Uneversity of Beirut 1965, p. 83.

(٦١) علي سلطان، تاريخ سوريا ١٩١٨- ١٩٢٠، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٢٨-١٢٩.

(٦٢) المرجع السابق، ص١٢٩

(٦٣) المرجع نفسه.

(٦٤) ماري ص ٢٧.

(٦٥) علي سلطان، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٦٦) المرجع نفسه.

(٦٧) المرجع نفسه.
(٦٨) أحمد قدري، مصدر سابق، ص ١٢٢. يوسف الحكيم، مصدر سابق، ص ١٠٠.
(٦٩) علي سلطان، مرجع سابق، ص ١٣٠.
(٧٠) المرجع السابق، ص١٣٠– ١٣١.
(٧١) المرجع نفسه، ص ١٣١.
(٧٢) تشير د. سهيله الريماوي نقلاً عن مذكرات الخطيب في كتابها "جمعية العربية الفتاة، ص ١١٧، إلى أن هاشم الأتاسي ورشيد رضا قد استلما رئآسة المجلس على التوالي بعد وفاة الرئيس الأول محمد فوزي العظم.
(٧٣) صبحي العمري، مصدر سابق، ص ٨٦– ٨٧.
(٧٤) علي سلطان، مرجع سابق، ص ١٣١.
(٧٥) مما لابد من الإشارة إليه أن فوزي العظم وعبد الرحمن اليوسف اللذين ينتميان إلى الاستقراطية البعيدة عن قضايا الشعب وأهدافها، والموالية للفرنسيين، قد قتلا فيما بعد على يد الثوار.
(٧٦) المرجع نفسه، ص١٣١.
(٧٧) ساطع الحصري، يوم ميسلون، مصدر سابق، ص ٩٦.
(٧٨) محمد عزة دروزة، سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية، مجلد ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣، ص ٣٨٥.
(٧٩) نجلاء عز الدين، العالم العربي، ترجمة عدد من الأساتذة، إصدار حسن العروسي، ط ٢، ١٩٦٢، ص ١٤٦.
(٨٠) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، مرجع سابق، ص ٦٠٠– ٦١٦.
(٨١) أمين سعيد، الثورة العربية، ج ٢، مصدر سابق، ص ٥١ – ٨٣.

(٨٢) أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، مطابع بن زيدون، دمشق ١٩٥٦، ص ١٥٤ – ١٥٧. وعزة دروزة،الحركة العربية الحديثة، ج١، ص ١٠١.

(٨٣) المصدر السابق، ص ١٤٠، ١٧٦، ١٨١.

(٨٤) إحسان هندي، معركة ميسلون، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٧، ص ٣٨.

(٨٥) ج. دي ف. لودر، القول الحق في تاريخ سوريا وفلسطين والعراق، ترجمة نزيه مؤيد العظم، مطبعة دمشق الحديثة، ١٩٢٥، ص ٤٣. مصدر سابق، ص٧٧، ٧٨. غالب العياشي، الإيضاحات السياسية، مصدر سابق، ص ٥٧، ٥٨، حيث يوجد نص هذا الدستور.

(٨٦) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، مرجع سابق، ص ١٧٣- ١٧٤.

المصادر والمراجع

- أحمد قدري، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، مطابع ابن زيدون، دمشق، ١٩٥٦.
- أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، ج ٢، القاهرة.
- إحسان هندي، معركة ميسلون، مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٧.
- الموسوعة الفلسطينية.
- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة: ناصر الدين وإحسان عباس، بيروت، ١٩٦٦.
- حسن الحكيم، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية، ١٩١٥-١٩٤٦، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤.
- ح دي ف. لودر، القول الحق في تاريخ سوريا وفلسطين والعراق، ترجمة: نزيه مؤيد العظم، مطبعة دمشق الحديثة، ١٩٢٥.
- خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق بين ١٩١٨- ١٩٢٠، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧١.
- خيرية قاسمية، عوني عبد الهادي، أوراق خاصة، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٧٤.
- زين نور الدين زين،الصراع الدولي في الشرق الأوسط، ط ٣، دار النهار، بيروت، ١٩٧٧.
- ساطع الحصري، يوم ميسلون، ط ٢، مكتبة الكشاف، بيروت، ١٩٤٨.
- صبحي العمري، ميسلون، رياض الريس للكتب، لندن، ١٩٩١.
- عبد الكريم رافق، دراسات اقتصادية واجتماعية في تاريخ بلاد الشام الحديث، دمشق، مكتبة نوبل ٢٠٠٢.

- عبد الكريم رافق، مقال في مجلة دراسات تاريخية، مقال في مجلة دراسات تاريخية، تصدر في جامعة دمشق، العددان ١٩ و ٢٠ نيسان عام ١٩٨٥.
- عدد من المؤلفين، تركيا والسياسة العربية من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك، دار المعارف، مصر.
- عبد الرحمن الشهبندر، فيصل ابن الحسين، مقال في صحيفة المقتطف، العدد ٨٣، ١٩٣٣.
- علي سلطان، تاريخ سوريا ١٩١٨- ١٩٢٠، دار طلاس للدراسات والنشر، دمشق ١٩٨٧.
- فؤآد أفرام البستاني، دائرة المعارف، قاموس عام، مجلد ٦، من أتاتورك إلى أثيوبية، بيرة، ١٩٦٦.
- محمد حافظ غانم، المشكلة الفلسطينية في أحكام القانون الدولي، معهد الدراسات، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٠.
- محمد جميل بيهم، العهد المخضرم في سوريا ولبنان ١٩١٨- ١٩٢٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٨.
- محمد عزة دروزة، سجل حافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية، مجلد ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٦٣.
- وديع أبو زيدون، تاريخ الامبراطورية العثمانية من التأسيس إلى السقوط، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ٢٠٠٣.
- وليد المعلم، سوريا ١٩١٦- ١٩٤٦، دمشق، دار طلاس للدراسات والنشر، ١٩٩٩.

المراجع والمصادر الأجنبية

- Mundy Angus The Government in Syria 1918- 1920. M.a dissertion. American Uneversity of Beirut 1965.
- Zein N.Z. Arab - Turkish Relations and the emergence of Arab Nationalisrn, Beirut 1958.
- Contaut – Birron, R. de; Comment la Frances est instalee en Syrie 1918-1919, Paris 1922.

علاقات الدولة العثمانية مع عبد العزيز آل سعود

بين عامي ١٩٠٢- ١٩١٤ م

د. مؤيد باسم حمزة

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مخطط البحث

المقدمة:

لم تكن الاتصالات السعودية- العثمانية في عهد عبد العزيز آل سعود هي الأولى في تاريخ الدولة السعودية، وإنما جرت اتصالات، وقامت علاقات سلمية وأخرى حربية في عهد الدولتين السعوديتين: الأولى والثانية. وظلت طبيعة هذه العلاقة قائمة على مبدأ عدم الانسجام والتوافق والمصالحة، وظل قوامها الشك وعدم التقابل، ممّا ساهم إلى حد كبير في قيام حروب قاسية بين الطرفين، تمثلت في حروب الدولة العثمانية مع كل من الدولة السعودية الأولى والدولة السعودية الثانية والدولة السعودية الثالثة.

وليس غريباً أن يقوى موقف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية من خلال سيطرة آل الرشيد على نجد في أواخر عهد الدولة السعودية الثانية، وبعد سقوطها عام ١٨٩١م، لأن آل الرشيد ظلوا على ولائهم للدولة العثمانية حتى هزيمتها في الحرب العالمية الأولى. وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تؤيد آل رشيد وتدعمهم بالسلاح والقوات النظامية والأموال(١) وظلت تمنحهم المناصب العليا وترفع من شأنهم(٢).

ولا أحد ينكر أن الدولة العثمانية أصيبت بخيبة أمل ومرارة وضعف من جراء انحسار تأثيرها على شيخ الكويت بعد أن أصبحت الكويت تحت الحماية البريطانية عام ١٨٩٩ م(٣)، مما أفقد الدولة العثمانية مراقبة آل سعود المقيمين في الكويت من جهة، وضعف مركزها الاستراتيجي في الخليج العربي من جهة أخرى. ولا يغيب عن بالنا الخطة الاستراتيجية البريطانية المنظمة في إحكام القبضة البريطانية على ساحل الخليج العربي والأجزاء الجنوبية والجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، وقد سبب هذا المخطط البريطاني حرجاً للنفوذ العثماني في المنطقة، وكان سبباً في ضعف قبضة الدولة العثمانية على سنجق الإحساء، لانقطاع صلة الربط بين هذا السنجق وولاية البصرة العثمانية من جراء انسلاخ الكويت من المنظومة السياسية العثمانية وتأثيرها.

وعلى الرغم من حرج موقف الدولة العثمانية في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية، إلا أنها ظلت مطمئنة على الأوضاع في نجد خاصة بعد تزايد قوة آل الرشيد فيها، وولائهم المطلق لها. واعتماداً على مبدأ ولاء آل الرشيد للدولة العثمانية ظلت الدولة العثمانية تعد وجودها المؤثر في نجد قائماً من خلال الوجود السياسي لآل الرشيد، وهو ما جعل العثمانيين يحاولون تركيز نفوذهم في ساحل الخليج، وخاصة في الإحساء وقطر، تاركين شؤون الداخل لإدارة آل الرشيد، موفرين على أنفسهم عناء جهد عسكري شاق وطويل ومجرب، وعناء وجود إداري مكلف ومرير(٤). وقد أيد العثمانيون آل الرشيد لكونهم قوة حديثة معادية لآل سعود.

أولاً: العلاقات السعودية – العثمانية قبل سيطرة عبد العزيز آل سعود على إقليم الإحساء:

نشطت الاتصالات السعودية – العثمانية في مطلع القرن العشرين بعد أن سيطر عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود على الرياض عام ١٩٠٢ م، وبعد إخراج آل الرشيد من منطقة العارض والمناطق الجنوبية من نجد. فقد تبنى عبد العزيز آل سعود وقتذاك موقفاً تجاه الدولة العثمانية اتسم بأسلوب الموازنة، فهو يركز تماماً على مبدأ الاستقلال التام لكنه في الوقت نفسه مازال في بداية الطريق بالنسبة لمشروعه الكبير الرامي إلى السيطرة على المناطق التي كانت تتبع للدولتين السعوديتين الأولى والثانية. كما أنه ظل يقدر مدى نفوذ الدولة وطاقاتها في الولايات العثمانية المحيطة، ولهذا حاول في البداية أن تكون صلته بالدولة العثمانية واتصالاته معها قائمة على أساس يجمع بين الولاء الرمزي لها وبين المطلب الاستقلالي الذي يعمل من أجله. وكان غرض عبد العزيز آل سعود آنذاك هو تقليل الضغط العثماني عليه من خلال محاولة تحييد الموقف العثماني في نزاعه الحاد وحروبه المريرة مع آل رشيد.

والواقع أنّ عبد العزيز آل سعود لم يكن وقتها في موقف يسمح له بمعاداة الدولة العثمانية بشكل علني وصريح لأن موقفيه السياسي والحربي ما زالا في بدايتهما وخاصة بعد وقعة البكيرية عام ١٩٠٤ م(٥)، التي اشترك فيها جيش عثماني قوامه أحد عشر طابوراً يحارب إلى جانب آل الرشيد الملك عبد العزيز آل سعود، بالإضافة إلى الدعم العثماني المادي والمعنوي لآل الرشيد بهدف القضاء على القوة السعودية الحديثة والنشطة.

وقد بان الموقف العثماني من الملك عبد العزيز آل سعود بعد وقعة البكيرية من خلال ما ورد في رسالة حسن شكري أميرالاي الجيش العثماني الذي وصل إلى القصيم لمساعدة الأمير الرشيدي عبد العزيز بن متعب آل الرشيد بعد انتهاء وقعة البكيرية، جاء فيها: "... أن الخليفة الأعظم بلغه اضطراب الفتنة في بلاد نجد، وأن يداً أجنبية محركة لها... فأنا أنذرك إذا لم تأتنا وتبين الأسباب التي حملتك على إضرام هذه الفتنة بدون مراجعة أي ولاية من ولايات الدولة، واقتصارك على مراجعة صاحب الكويت، وأخذ المدد منه، وأنت تعلم علم اليقين أنه خارج عن طاعة الدولة، وما كان منك الالتئام معه... فها أنا مقيم بأطرافكم إما أن تقدموا إليّ وإما أن تستقدموني وتعرضوا عليّ ما عندكم لأنظر فيه مع أمراء عساكري، وأسير في الحكم طبق إرادة مولانا الخليفة... فإياكم والمخالفة... وأعطيك مدة عشرة أيام تشاور بها القريب والبعيد، وتختار لنفسك ما يصلح لها...".(٦).

وجاء جواب عبد العزيز آل سعود على رسالة الأميرالاي حسن شكري قوياً جداً، فيقول: "... أما قولك إنّ أمير المؤمنين بلغه خبر أمر هذه الفتنة في البلاد العربية وما هان عليه إلا إصلاحها، فسبحان الله! هل تخفى عليه حقيقة الأحوال؟ إنه هو المضرم لها، وهي غاية مقاصده. وما الحامل لمبارك الصباح على التحيز إلى دولة أجنبية إلا سوء أفعال محسن باشا والي البصرة، فهو الذي نفره وأضرم هذه الفتنة، ولذلك لم تبق لي ثقة بوال أو مبعوث تركي. وإنني مختار لنفسي ما اختاره مبارك الصباح، والأحسن

رجوعك من هذا المكان... وأما قولك إن الخليفة المعظم بعثك لتنظر الخلاف بيني وبين آل رشيد، فليس إلا لأنكم تريدون غدر إمارتي. ولو كان الأمر كما زعمت لكنت نظرت في بادئ الأمر لمن تكون بلاد نجد، ولمن كان الأمر عليها من قديم، ومتى كان ابن رشيد أميراً فيها، وكيف دخل هذه الإمارة؟ وأحواله لا تخفى عليكم، وليس له حق في المنازعة...".[٧].

ويبين عبد العزيز في رسالته الجوابية إلى الأميرالاي حسن شكري أنه لا يثق بالدولة العثمانية، ويحمل ولاتها مسؤولية خروج الكثير من الجهات والولايات العربية عن الدولة العثمانية، فيقول في رسالته: "... وأما الآن فلا نقبل لكم نصيحة، ولا نعترف لكم بسيادة، والأحسن أنك ترجع من هذا المكان إذا كنت لا تود سفك الدماء... فلا شك أننا نعاملك معاملة المعتدين علينا... وأن سبب عدم طاعتي هو عدم ثقتي بكم. انظر إلى ولاية البصرة كيف فرطت في الكويت؟ وإلى والي اليمن كيف سلوكه في اليمن فإنه أضرم فيها الفتنة، وانظر إلى الحجاز وأهله التعساء وما يلاقونه هم وحجاج بيت الله الحرام من السلب والنهب..."[٨] ويخلص عبد العزيز إلى القول: "... إنّ كل العمال الذين رأينا، إنهم خائنون منافقون. فلا طاعة لكم علينا، بل نراكم كسائر الدول الأجنبية".[٩].

وبناءً على مبدأ عدم استقرار الوضع العسكري في القصيم وتأرجحه، فإنه لا يستبعد أن يهتم عبد العزيز آل سعود بفكرة التقارب مع الدولة العثمانية لتكون خطوة مرحلية من مراحل الحل الشامل للتدخل العثماني في شؤون نجد. كما أن الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، والد عبد العزيز كان يرى ضرورة الاتصال بالدولة العثمانية ومراسلتها[١٠] لتكون خطة سياسية الهدف منها إشغال الدولة العثمانية بالمفاوضات، وإقناعها بأن آل سعود يودون الصلح والتقارب معها، مما يخفف ضغطها عن الجانب السعودي في حروب القصيم، ومن ثم تضعف قوة آل رشيد ويتهيأ تفوق عسكري لآل

سعود عليهم. والواقع أن الملك عبد العزيز آل سعود لم تكن لديه خطة لمعاداة الدولة العثمانية في مثل هذه الظروف الصعبة، وظل هذا خياراً استراتيجياً لعبد العزيز ووالده الإمام عبد الرحمن قبل السيطرة على الإحساء عام ١٩١٣ م.

وحدث عامل متّن مسألة الاتصالات والمفاوضات بين عبد العزيز والدولة العثمانية، وهو انتصار عبد العزيز في معركة الشنانة في القصيم في ٢٩ أيلول ١٩٠٤م[١١]، تلك المعركة التي كانت جواباً سريعاً لما حدث في معركة البكيرية. فرأت الدولة العثمانية أن لا فائدة ترجى من حملاتها المتكررة على عبد العزيز وقواته ومناطقه بالتعاون مع آل الرشيد. فحاولت أن تأخذ بأسلوب المفاوضات والاتصالات السلمية بعدما وجدت أن الأسلوب العسكري غير مجدٍ، فقررت اتباع سياسية إقناع الملك عبد العزيز بالمناصب العثمانية التي تضمن ارتباطه بها، خاصة وأن بوادر الحرب العالمية الأولى قد لاحت في الأفق، والدولة الآن في أمس الحاجة إلى الأعوان والأتباع والمؤيدين، ليتفرغ جيشها لقضايا أكثر اهتماماً. وهنا تلتقي الرغبتان العثمانية والسعودية على الرغم من أن الملك عبد العزيز لا يثق بالدولة العثمانية ونواياها، كما أن الدولة العثمانية هي الأخرى لا تثق به[١٢].

وفي اعتقادي أن محاولة التقارب هذه تدخل في باب المجاملات السياسية؛ لأن الدولة العثمانية نفسها غير صادقة في نواياها تجاه الملك عبد العزيز؛ لأنه يطلب الاستقلال التام، وهو أمر لا تقره الدولة. وبالمقابل فإن الملك عبد العزيز يرى أن عامل الزمن لصالحه من خلال قراءته لأوضاع الدولة العثمانية من جهة، والأوضاع السياسية والعالمية من جهة أخرى، وظل يعتقد أن الدولة العثمانية دولة متهاوية، وأن قوة أتباعها آل رشيد أيضاً في تناقص. كما أن اهتمامها بشؤون نجد يأتي في الدرجة الثانية في جدول المناطق التي تركز الدولة عليها وتهتم بها. وهذه الظروف مجتمعة حدت بالملك عبد العزيز إلى صياغة قراره السياسي المصيري تجاه الدولة العثمانية.

وبعد موقعة الشنانة جاءت مبادرة المفاوضات من الدولة العثمانية قبل أن تكون من جانب الملك عبد العزيز، وفي اعتقادي أن الثقل العسكري الذي وضعته الدولة العثمانية في القصيم إلى جانب آل رشيد ضد آل سعود كان من أجل تقوية موقفها في تلك المفاوضات؛ لأنه من الصعب على الدولة العثمانية أن تخوض حروباً واسعة في أراضي الجزيرة العربية الداخلية، فرأت أن توسط الشيخ مبارك الصباح في مسألة المفاوضات مع الملك عبد العزيز، فطلبت من الشيخ مبارك أن يبلغ الملك عبد العزيز أن الدولة العثمانية تنوي التفاوض السلمي مع والده الإمام عبد الرحمن، على أن يلتقي الإمام عبد الرحمن مع والي البصرة في بلدة الزبير جنوب العراق. وقد قبل الملك عبد العزيز الدعوة، وسافر والده إلى الكويت ومنها إلى الزبير يرافقه الشيخ مبارك الصباح(١٣). واجتمع الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت مع أحد المسؤولين العثمانيين في سفوان، جنوب العراق عام ١٩٠٥ م لمناقشة عدد من المسائل المعلقة بين الطرفين. وقد تمخضت المحادثات عن اعتراف الدولة بعبد العزيز آل سعود قائماً على منطقة العارض والقسم الجنوبي من نجد، على أن يكون تابعاً لها. واعترفت لابن رشيد بمنطقة جبل شمر على أن يلزم حدوده فيها، وألا يتدخل في شؤون عبد العزيز آل سعود ومناطقه. وأن تكون منطقة القصيم منطقة محايدة بين عبد العزيز آل سعود وابن رشيد، ويكون فيها للدولة العثمانية مركز عسكري ومستشارون عثمانيون(١٤).

ويذكر الريحاني أن الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود لم يقبل بهذه الإجراءات، لكنه قبل إكراماً للشيخ مبارك أن يعرضها على أهل نجد، لكن أهل نجد لم يقبلوا أبداً أن تكون منطقة القصيم على الحياد، ولا أن يكون فيها حامية للدولة العثمانية(١٥). وأكد الريحاني ذلك فأورد أن أهالي بريدة وعنيزة وتوابعهما من القرى والبلدان لم يقبلوا بالسيادة العثمانية أو بشبه السيادة العثمانية عليهم عندما وصل بلادهم

المشير العثماني أحمد فيضي باشا قادماً من بغداد ومعه ثلاثة طوابير من الجند العثماني النظامي وخمسة مدافع، وكذلك وصول الفريق صدقي باشا قادماً من المدينة بطابورين من الجند العثماني(١٦). وعلى أي حال فإن المفاوضات لم تؤد إلى نتيجة، وظلت بعيدة عن القبول والتنفيذ.

أرسل فيضي باشا رسولاً إلى الرياض يخبر الملك عبدالعزيز آل سعود أن الدولة العثمانية لا تريد محاربة أهل نجد، وأنه جاء مسالماً "إنني لا أريد إلا السلم، ولست محققاً مقاصد ابن رشيد". وطلب فيضي باشا أن يأتي الإمام عبدالرحمن إلى عنيزة لمفاوضته، فوافق الملك عبدالعزيز على إجراء المفاوضات، وفتح باب الاتصالات من جديد مع مسؤولي الدولة العثمانية(١٧). ونلحظ هنا أن الدولة العثمانية هي البادئة في طلب المفاوضات بعد الخسائر الكبيرة التي منيت بها في تجربتها العسكرية في حروب القصيم ضد الملك عبدالعزيز وقواته.

وهكذا حدث لقاء سعودي عثماني جديد بين الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود والمشير العثماني فيضي باشا في عنيزة، في شأن إيجاد نوع من المصالحة والتفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود من جهة؛ وبين الملك عبدالعزيز وابن رشيد من جهة أخرى. وكان هدف الدولة العثمانية من وراء ذلك إيجاد نوع من التوازن السياسي في استراتيجيتها في البلاد النجدية تجاه كل من الملك عبدالعزيز وابن رشيد، بقصد ضمان طاعتهما للدولة، خاصة وأن الدولة العثمانية وقتذاك كانت تواجه ثورة عنيفة في اليمن قادها الإمام يحيى حميد الدين، وظلت الدولة تهتم بأن تبقى نجد مستقرة الأوضاع في ظل سيادتها الاسمية على الأقل.

اجتمع الإمام عبدالرحمن مع أحمد فيضي باشا في مدينة عنيزة، وطلب المشير من الإمام أن يكون للدولة العثمانية مركزان عسكريان أحدهما في بريدة والثاني في عنيزة، إجراءً مؤقتاً إلى أن يتم التفاهم والصلح بين الطرفين المتقاتلين في نجد، آل سعود

وآل رشيد. وفي خضم هذه الأحداث أمرت الدولة العثمانية المشير أحمد فيضي بالتوجه إلى اليمن لحل مسألتها المستعصية[١٨]. وناب عنه صدقي باشا الذي اتبع أسلوب سياسة لا حرب ولا سلم ولا مفاوضات. وظل أمر نجد على حاله ممّا أزعج الدولة العثمانية، فأرسلت سامي باشا الفاروقي إلى نجد، وعزلت صدقي باشا. فأرسل سامي باشا الفاروقي إلى الملك عبدالعزيز يطلب مقابلته في البكيرية، فقابله الملك، ولم يتوصل الطرفان إلى تفاهم، بل تنافراً[١٩]. وزادت حدة المواجهة عندما قال الفاروقي لعبدالعزيز آل سعود: "إن أهل القصيم يريدون أن تكون السيادة في بلادهم للدولة". فأجابه عبدالعزيز آل سعود: "ليس لأهل القصيم رأي في الأمر، فهم من أتباعي". فأجابه الفاروقي قائلاً: "التابعية تقتضي الحماية، وأنت لا تستطيع أن تحميهم، ولا ابن رشيد يستطيع ذلك". فرد عبدالعزيز آل سعود: "هل حمتهم الدولة؟ ومع ذلك فهاهم زعماء القصيم في مجلسك، اسألهم يجيبوك. وتكلم أحد زعماء القصيم قائلاً: "إن صالح الحسن افترى عليهم (على أهل القصيم)، وأنه لا يمثلهم بشيء، وأنهم لا يرضون عن ابن سعود بديلاً". وقد لجأ الفاروقي إلى أسلوب التهديد والوعيد قائلاً: "إنكم يا أهل القصيم تجهلون صالحكم وتتوهمون حقوقاً ليست حقوقكم... ما جئنا نسترضيكم ولا نستغويكم. جئنا نعلمكم الإخلاص والطاعة للدولة العلية. ولا معلم اليوم غير السيف". فتكلم الملك عبدالعزيز قائلاً: "إني آسف على ما بدا منك، بل آسف؛ لأن الدولة تكل أمورها إلى أمثالك. ما كان العرب يا سامي ليطيعون صاغرين، لا والله، ولولا أنك ضيف عندنا لما تركناك تقوم من مكانك".

ويبدو أن الفاروقي فهم أن أسلوب القوة والعنف والتهديد لا ينفع، فأرسل رسولاً إلى الملك عبدالعزيز اسمه دياب أبو بكر يقول له: "يسلم عليك الباشا، ويقول إن الدولة تدفع لك عشرين ألف ليرة ومخصصات سنوية إذا اعترفت بسيادتها على القصيم". فأجاب الملك عبدالعزيز آل سعود: "أتتجاسر يا خبيث أن تحمل إلينا مثل هذه الرسالة؟

ألم يردعك شيم العرب؟ ومتى كان ابن سعود يقبل الرشوة، فيبيع بلاده ورعيته لمن يريدون استرقاقها...".[٢٠].

وقد تطورت الأمور إلى الأفضل بالنسبة للملك عبدالعزيز عام ١٩٠٦ م، فأخذ يضغط على القوات العثمانية في القصيم ضغطاً نفسياً، خاصة وأن القوات العثمانية ملت من الحروب والانتظار، وملت من حالة لا حرب ولا سلم، في ظل أجواء مملوءة بالخوف، وعدم الاستقرار، وسوء الأحوال الجغرافية، والبعد عن مراكزهم. فقرر الملك عبدالعزيز أن يتخلص من القيادة العثمانية والجند العثماني وتدخلاته، وقرر أن يضرب ضربته الأخيرة، فأرسل إلى الفاروقي يخبره بأمرين: إما أن يرحل بجيشه خلال خمسة أيام إلى منطقة السّر ليكون بعيداً عن مراكز قوة ابن رشيد، وإما أن يتولى الملك عبدالعزيز نفسه ترحيل الجيش العثماني، فيعاد من جاء منهم مع المشير أحمد فيضي إلى العراق، الذين جاءوا مع صدقي باشا إلى المدينة، وإلا الحرب. وافق الفاروقي على الأمر الثاني، فأرسل الملك عبدالعزيز الجند العثماني إلى العراق وإلى المدينة كما هي الخطة المرسومة[٢١].

ويذكر الريحاني أن السلطان العثماني عبدالحميد الثاني شكر للملك عبدالعزيز معاملته الطيبة للجند العثماني، وسأله إن هو يرغب في إرسال أحد رجاله لمقابلته، فلبى الملك عبدالعزيز الدعوة، وأرسل صالح العذل ومعه اثنين آخرين إلى الاستانة، فنزلوا ضيوفاً على الحضرة الشاهانية، ومنحوا الألقاب والنياشين[٢٢].

ونتوصل إلى قناعة تامة أن المفاوضات والاتصالات السعودية- العثمانية في حقبة ما قبل السيطرة على الإحساء، كانت قد اتسمت بالآتي:

١) لم تكن المحادثات بين الطرفين جادة، بل هي محادثات واتصالات يغلب عليها مبدأ رفع العتب.

٢) لم يكن الطرفان المتحادثان يتوقعان نتائج ترضيهما، فالدولة العثمانية تريد طاعة الملك عبد العزيز وبلاده لها. وبالمقابل كان الملك عبدالعزيز آل سعود يخطط لإنجاز مشروع عريض يرمي إلى توحيد مناطق الجزيرة العربية التي كانت تابعة لحكم أجداده، وبشكل مستقل استقلالاً تاماً.

٣) لم يكن الملك عبدالعزيز مقتنعاً من حياد الدولة العثمانية في نزاعه مع آل رشيد، وهو أمر يشككه في موقفها تجاهه.

٤) ظلت الدولة العثمانية وكذلك الملك عبدالعزيز يريان في اتصالاتهما ومحادثاتهما وسيلة مؤقتة أشبه بهدنة بين الطرفين، لا بد من انفجار الموقف بينهما برمته مع الزمن.

٥) كان الملك عبدالعزيز يعرف مدى ضعف الدولة العثمانية في الجزيرة العربية، حتى إن تأثيرها أخذ يضعف في المنطقة، وبخاصة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية تحت تأثير الضغط السعودي من جهة، وتدخلات بريطانيا وموقفها المؤثر من جهة أخرى.

٦) يغلب على المحادثات والمفاوضات بين الطرفين أنها اتسمت بطابع الند للند، لا وسيط مباشر بينهما.

ثانياً: الاتصالات السعودية- العثمانية بعد سيطرة آل سعود على الإحساء:

تميزت مرحلة الاتصالات والمفاوضات السعودية- العثمانية بعد سيطرة ابن سعود على الإحساء عام ١٩١٣ م[٢٣]، عن المرحلة التي سبقتها، فهذه المرحلة كانت استجابة لرغبة الدولة العثمانية الملحة في جعل الباب مفتوحاً بينها وبين عبد العزيز آل سعود، في ظل فقدانها منطقتين مهمتين من شبه الجزيرة العربية هما: نجد وسنجق الإحساء، الذي يتمتع بمركز استراتيجي سياسي واقتصادي. فهي الآن تفتح باب المفاوضات وقواتها مهزومة عسكرياً أمام القوة السعودية الناشئة، على حين كانت الدولة

العثمانية تفاوض في المرحلة السابقة وهي قوية نسبياً، ولها قوات نظامية في منطقة القصيم، وتناصرها قوة آل الرشيد.

وقد تميزت هذه المرحلة من الاتصالات والمفاوضات، بأن قوة الملك عبد العزيز أصبحت أقوى بكثير مما كانت عليه في مرحلة المفاوضات السابقة. فهو الآن يمد نفوذه على مناطق واسعة، منها منطقة الإحساء التي قوت مركزه السياسي بفضل إطلالها على الخليج العربي، فأصبح للملك عبد العزيز قوة مؤثرة في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية يحسب حسابها في مسألة التوازن السياسي في الساحل الخليجي، بالإضافة إلى العامل الاقتصادي الفاعل في تقوية الدولة السعودية الحديثة النامية والمتطورة.

وتميزت هذه المرحلة كذلك بأن الاتصالات والمفاوضات السعودية – العثمانية لم تبق محصورة في نطاق الطرفين السعودي والعثماني، وإنما أدت قوى سياسية أخرى دوراً في هذه الاتصالات، وتأتي بريطانيا على رأسها، بالإضافة إلى شيخ الكويت وشيخ المحمرة والسيد طالب النقيب، وقد شكل هؤلاء حلقة وصل رئيسة في تلك الاتصالات، وما دار من مفاوضات بين الطرفين الرئيسين السعودي والعثماني. وكان لهذه التدخلات أهميتها وتأثيرها على سير المفاوضات ونتائجها. كما تميزت هذه المرحلة بأنها جاءت في وقت أصبحت فيه الحرب العالمية الأولى وشيكة الوقوع، وأن بوادرها تلوح في الأفق السياسي. وأن مركز الدولة العثمانية قد ضعف في المنطقة العربية وخاصة في العراق، من خلال جهود بريطانيا الرامية إلى تقليص النفوذ العثماني في المنطقة العربية، خاصة وأن الدولة العثمانية اتجهت نحو ألمانيا أهم دول المحور المعادية للحلفاء.

ولا أحد ينكر أن مركز الدولة العثمانية في سنجق الإحساء كان قد ضعف كثيراً من جراء ظهور القوة السعودية الحديثة المدعومة من بريطانيا، وتطور نفوذها في وسط شبه الجزيرة العربية. حيث تشير الوثائق العثمانية إلى حالة الفوضى والاضطراب التي سادت السنجق من جراء تمادي الموظفين العثمانيين المتأخرين في زيادة الضرائب على الأهالي

في السنجق، ومن جراء سوء الإدارة العثمانية والخلافات التي دبت في صفوف المسؤولين رأس الإدارة في السنجق[٢٤]، مما أدى إلى تذمر السكان وتحركهم ضد السيادة العثمانية[٢٥]، واتصال بعضهم بعبد العزيز آل سعود لتخليصهم من الحكم العثماني[٢٦]، مما ساعد على تقوية مركزه، ومن ثم ساعد على نجاحه في طرد القوات العثمانية من المنطقة برمتها دون عناء، وبأقل تكلفة.

- الوساطة البريطانية:

حاولت بريطانيا جس نبض كل من الدولة العثمانية وعبد العزيز آل سعود بخصوص مسألة إقامة مصالحة، ومن ثم عقد صلح بينهما. وقد أسندت الدولة البريطانية إلى السير برسي كوكس (Percy cox) القيام بمهمة فتح الباب "وذلك ليعطي الدولة البريطانية فكرة ما عن الخطوة التي ستكون الحكومة العثمانية ميالة إلى اتباعها إذا رغبت في مصالحة مع ابن سعود إذا ما طلب الأخير مساعينا الحميدة أو رحب بها"[٢٧].

وهنا نطرح السؤال الآتي: لماذا تقوم بريطانيا بدور الوساطة هذه؟ والجواب عنه، أن بريطانيا والدولة العثمانية تسيران باتجاه طريق التفاهم بينهما بخصوص المسألة الخليجية، وخاصة مسألة الحدود، وقد تمثل هذا الاتجاه بتوقيع الاتفاقية الإنجليزية – العثمانية في ٢٩ تموز ١٩١٣ م. ومن جهة أخرى فإن بريطانيا والدولة العثمانية حريصتان كل الحرص في هذا الوقت بالذات على تطبيق مبدأ الوضع الراهن، خاصة وأن بريطانيا ترى في هذا المبدأ فائدة كبيرة لها، لأنها تحافظ على قاعدة التوازن الاستراتيجي في الخليج العربي، ولهذا فهي تحاول جاهدة على بقاء الوضع الراهن على حاله، حتى لا يحدث خلل في سياسة التوازن الدولي هذه، ومن ثم هي لا ترغب أن تقوم الدولة العثمانية بهجوم بحري على قوات الملك عبد العزيز آل سعود في الإحساء، لأن هذا في تقديرها يخل بسياستها الأمنية الخليجية.

وبالمقابل أخذت بريطانيا تشجع عبد العزيز آل سعود على فتح باب المفاوضات مع الدولة العثمانية حتى لا يتخلخل مبدأ الوضع الراهن[٢٨]. وكان عبد العزيز آل سعود يرى أن فتح باب الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية فرصة له لإبقاء الأمور على حالها، وهو الآن يتمتع بمركز خليجي عال، ويكون بذلك قد أوقف خطة الدولة العثمانية الرامية إلى استرجاع الإحساء عن طريق هجوم بحري كبير ومركز قد يؤثر على مركزه العسكري والسياسي[٢٩]. فرأى أنه من المفيد دبلوماسياً أن يقبل بالوساطة البريطانية في ظل المحافظة على الوضع الراهن، وهو أمر يخدم مصالحه ومواقفه السياسية والاستراتيجية.

وقد نالت مسألة الوساطة البريطانية في موضوع المصالحة بين الدولة العثمانية والملك عبد العزيز آل سعود قبول الدولة العثمانية ورضاها معربة عن "شكر الباب العالي للعرض الودي من جانب حكومة صاحب الجلالة بهذا الشأن". وقد بين الباب العالي أنه يجري اتصالات ومفاوضات مع عبد العزيز آل سعود "وأنه إذا دعت الضرورة إلى لجوء الأطراف إلى المساعي الحميدة لحكومة صاحب الجلالة فإن الباب العالي لن يتأخر في طلبها"[٣٠].

وكان التوسط البريطاني يقوم على أساس تشجيع الطرفين على إيجاد تسوية مقبولة بينهما. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن بريطانيا لا تشجع أي منفعة سياسية ضد الدولة العثمانية، وأن كل ما تريده بريطانيا هو الحيلولة دون حدوث اضطرابات وسفك دماء؛ لأن هذا يؤثر بصورة خطيرة على السلام في منطقة الساحل العربي الخليجي، ويخل بسياسة الوضع الراهن، وسياسة التوازن التي تنشدها بريطانيا في منطقة الخليج العربي التي تتمتع بنفوذ استراتيجي فيها. وترى الحكومة البريطانية أنه إذا أقدمت الدولة العثمانية على عمل عسكري ضد عبد العزيز في منطقة الإحساء فستقع خلافات واسعة في مناطق شرقي الجزيرة العربية، مما سيؤثر على مركزها في تلك المنطقة[٣١]. وكشفت

الاستخبارات العسكرية البريطانية عن معلومات تفيد أن قوارب ذات محركات قد شُحِنت إلى البصرة. وأن المقيم السياسي في الكويت قد أُبلغَ أن قوات عثمانية عددها ٨٠٠ جندي وصلت إلى البصرة لتوها على ظهر الباخرة "ساراتوف (Saratov)"[٣٢].

- أطراف أخرى في الوساطة:

رأت بريطانيا أن تشرك في الوساطة بين الدولة العثمانية وعبد العزيز آل سعود من أجل تسوية ودية بينهما كلاً من الشيخ خزعل شيخ المحمرة، والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت والسيد طالب النقيب، نقيب البصرة. ووافق جميعهم على الطلب البريطاني[٣٣]. وكان للسيد طالب النقيب أثر بارز في الوساطة، وله مكانة مرموقة لدى المسؤولين العثمانيين في ولاية البصرة، وكان المسؤولون البريطانيون يقدرون مكانته، ويحترمون شخصيته.

وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الملك عبد العزيز آل سعود قدر للسيد طالب النقيب في نهاية الأمر وساطته هذه، فكافأه على هذا الموقف بأن قدم له مبلغاً وقدره عشرون ألف روبية تثميناً لوساطته وتقديراً لجهده[٣٤]. وكان المسؤولون العثمانيون الممثلين في ولاية البصرة مهتمين بأمر الوساطة والتسوية السلمية مع الملك عبدالعزيز آل سعود، فذكر طلعت باشا ناظر الداخلية أن الدولة العثمانية مهتمة بإيجاد تسوية ودية مع عبدالعزيز آل سعود، وأن والي البصرة يرتب هذا الأمر مع شيخي الكويت والمحمرة وكذلك مع السيد طالب النقيب ليقوموا بدور الوساطة في المساعدة في التوصل إلى صلح وسلام مع عبدالعزيز آل سعود[٣٥].

وأكد طالب النقيب على قبوله لتلك المهمة التي أسندت إليه، فيقول: "إنه والشيخ مبارك شيخ الكويت يسعيان إلى إيجاد نوع من التسوية بين الدولة العثمانية وعبدالعزيز آل سعود الذي يريد نوعاً من الزعامة المستقلة، لكنه يرفض وجود قوات عثمانية في بلاده، ومن المتوقع التوصل إلى حل سلمي[٣٦]. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن ناظر

الحربية العثمانية أنور باشا أرسل هدايا إلى كل من عبدالعزيز آل سعود والشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت(٣٧)، لتكون دلالة واضحة على رغبة الدولة الأكيدة في معالجة الموقف بطرق سلمية وودية قدر الاستطاعة.

والواقع الماثل أمام الملك عبد العزيز أن الدولة العثمانية عازمة على الصلح معه مهما كان الثمن، وهي في الوقت نفسه لم تبدِ أي اهتمام كبير في سبيل استرجاع منطقة الإحساء إلى سيادتها الحقيقية(٣٨)، كما كان الحال عليه قبل أن يسيطر عليها عبد العزيز آل سعود، وهو أمر شجع كثيراً عبد العزيز آل سعود في السير على النهج السلمي والودي تجاه الدولة العثمانية ممثلة بوالي البصرة، معتبراً الاتصالات والمفاوضات مع الدولة العثمانية إنما هي إجراءات عادية، وأن الوقت لصالحه. ومع أن الملك عبدالعزيز يريد التفاوض والحل السلمي مع الدولة العثمانية، إلا أنه في الوقت نفسه ظل مقتنعاً بقدرته على الاحتفاظ بمنطقة الإحساء تحت سيادته.

وبالمقابل كانت بريطانيا ترى في الدولة العثمانية بعد أن توصلت معها إلى اتفاقية بشأن الخليج العربي في ٢٩ تموز ١٩١٣ م، أو ما تعرف بالاتفاقية الإنجليزية – العثمانية، وسيلة ممتازة لمنع الدول الغربية من التدخل في شؤون الشرق، وهذا يؤمن منطقة الهند البريطانية من التدخل الغربي(٣٩)، ولهذا فإن بريطانيا ستستفيد كثيراً من خلال علاقاتها الودية مع الدولة العثمانية. ويمكن الأخذ بهذه الاستراتيجية البريطانية في الوقت الراهن، حيث أن الوضع العالمي متأزم، وأن كلا من الدولتين البريطانية والعثمانية مشغولتان بقضايا عالمية أكثر اهتماماً وأشد إلحاحاً من قضايا تمت تسويتها بين الدولتين.

وبالنظر إلى الاستراتيجية البريطانية القائمة في الشرق على نظرية الحفاظ على طرق مواصلات الإمبراطورية، فإن بريطانيا ترى أن من واجبها القيام بكل مجهود لتجنب

أية أعمال قد تؤدي إلى تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية في آسيا، وعلى بريطانيا أن تعمل بكل طاقاتها للحفاظ على الوضع الراهن بالنسبة للدولة العثمانية[٤٠].

وتفيد الوثائق البريطانية أن السيد محمد عارف بن يوسف مارديني والي البصرة العثماني السابق ووالي سورية آنذاك، كان على اتصال بالشيخ مبارك الصباح، وهو يعرف عائلته حق المعرفة، وقد أدى هذا إلى قيام علاقة وطيدة بين الشيخ مبارك والبكباشي العثماني عمر فوزي ابن محمد عارف. وجرت محادثات في الكويت بين الشيخ مبارك والسيد عمر فوزي ماريني بشأن التوسط في مفاوضات السلام بين العثمانيين والملك عبد العزيز آل سعود. وكانت ولاية البصرة قد انتدبت البكباشي عمر فوزي لإجراء اتصالات مع الملك عبدالعزيز عن طريق الشيخ مبارك[٤١]. وتشير الوثائق البريطانية إلى أن الشيخ مبارك وقتذاك لم يكن متحمساً للوساطة التي يطلبها منه العثمانيون، "ولا يرى أن يساعد أياً من الطرفين، ويرفض أن يساق إلى تلك القضية أو يعطي أية نصيحة، مع أنه يتعاطف مع الطرفين في رغبتهما في تجنب سفك الدماء أو كل ما من شأنه أن يثير العداوة بين المسلمين، وعليه أن يبقى مخلصاً لصداقته لابن سعود"[٤٢].

وكان أنور باشا ناظر الحربية العثمانية قد كلف السيد محمد عارف بن يوسف ماريني والي البصرة بإرسال ابنه البكباشي عمر فوزي إلى الشيخ مبارك الصباح لكي يمكنه بوسائله الخاصة وتوصياته من الاتصال بعبد العزيز آل سعود. وتطلب رسالة محمد عارف الموجهة إلى الشيخ مبارك أن يعطي ابنه رسالة توصية إلى الملك عبد العزيز آل سعود "وعليه نأمل أن تزود ابننا بنصيحتكم، وتعطوه رسالة إلى عبدالعزيز ابن سعود، ذاكراً لكم أن عمر فوزي ابني، وممثل الوزير أنور باشا، وإليه يرجع في بحث كافة المسائل المتعلقة بهذه المناطق (نجد)، وكذلك فالاجتماع معه هو كالاجتماع معي،

والوثوق به كالوثوق بالحكومة وبالوزير أنور باشا، وسوف تكسبون مكافأة طيبة في المستقبل على هذا العمل، وكذلك الثناء الشامل ورضاء السلطان"(٤٣).

ويشير عمر فوزي مارديني في رسالة وجهها إلى الشيخ مبارك أن مهمته الأساس هي مقابلة عبدالعزيز آل سعود، والبحث معه بشكل ودي الإجراءات والترتيبات اللازمة لإنهاء الصعوبات الراهنة بين الدولة العثمانية وعبدالعزيز آل سعود. ويطلب عمر فوزي من الشيخ مبارك أن يخبر عبدالعزيز آل سعود بأن يتوجه إلى مكان مناسب قريب من الكويت، لكي يجتمع به البكباشي عمر فوزي. ويرى عمر فوزي أن يكون المكان قريباً من الكويت حتى يتمكن من الاتصال تلغرافياً بأنور باشا ناظر الحربية العثمانية(٤٤).

ولما عرفت بريطانيا أن العثمانيين يقومون بمبادرات تجاه عبدالعزيز آل سعود عن طريق مبارك الصباح شيخ الكويت والشيخ خزعل شيخ المحمرة، قررت الاتصال بعبد العزيز آل سعود وإبلاغه بأنها سعت لدى الباب العالي أن يقوم بمبادرات سلمية ودية تجاهه، وهو الآن حُر في التفاوض المباشر مع العثمانيين(٤٥). وقد عللت بريطانيا ذلك حتى تأخذ الحكومة العثمانية انطباعاً أن الحكومة البريطانية يهمها أن تبدأ المفاوضات بين الطرفين بصورة مباشرة، وتريد أيضاً أن لا يدخل في ذهن الدولة العثمانية أن بريطانيا ترغب في الاطلاع على شروط الصلح(٤٦)، وأن يكون لها رأي فيه، وإنما تفضل أن تبقى الأمور بين الطرفين المتفاوضين حصراً. وأعتقد أن بريطانيا تقصد من وراء ذلك أن يتجنب كل من الدولة العثمانية وعبد العزيز آل سعود الوساطة التي يمارسها كل من الشيخ مبارك الصباح والشيخ خزعل وتأثيرهما في هذا المجال.

وقد حدث اتصال عن طريق الرسائل بين الملك عبد العزيز آل سعود والوسيط السيد طالب النقيب، فبين الملك للنقيب أنه يرجو كل الخير للدولة العثمانية المسلمة، ويرجوه كذلك أن يقدم تحياته وتمنياته لأنور باشا ناظر الحربية العثمانية الذي كلف البكباشي عمر فوزي ماريني بالاتصال به من أجل إقامة علاقات ودية، وعلى الهدية

التي أرسلها إليه وهي القرآن الكريم. ويقدم الملك تحياته للبكباشي عمر فوزي، وصداقته واحترامه إلى جميع المسؤولين العثمانيين. كما أنه قبل هدية أنور باشا بكل احترام وسرور، وأن غايته هي وحدة الإسلام، وجمع شمل القلوب المتفرقة من أبنائه. وفي رسالة الملك عبارات المجاملة للباب العالي كولائه للدولة العثمانية ورجائه الخير لها ولبلادها، لكنه أشار في رسالته إلى وجود أمور لا يستطيع أن يقوم بها تجاه الدولة العثمانية[٤٧]. ويقصد بذلك مطالبها التي تتركز على تبعيته للدولة العثمانية، وأن يكون لها جند عثماني في بلاده دلالة على الولاء والطاعة[٤٨].

وهكذا فإن الدولة العثمانية وكذا الدولة البريطانية وسطتا كلاً من الشيخ مبارك والشيخ خزعل والسيد طالب النقيب لبذل جهودهما في مسألة التوسط واتخاذ الترتيبات اللازمة لإيجاد حل سلمي ترضى به الدولة العثمانية، ويرضى به الملك عبدالعزيز، كما أن الواضح من موقف الدولة العثمانية أنها لا ترغب إطلاقاً في استعمال القوة العسكرية العثمانية ضد الملك عبدالعزيز، مقتنعة أن الحل في النهاية سيكون حلاً سلمياً وودياً. كما أن السيد طالب النقيب بحكم صلته القوية مع العثمانيين يتوقع أن يكون الحل في النهاية حلاً سلمياً، على الرغم من أن الملك عبدالعزيز يشترط في المقام الأول أن يكون حاكماً مستقلاً، ويرفض قبول قوات عثمانية في بلاده[٤٩].

ثالثاً: الاتصالات العثمانية مع عبد العزيز آل سعود واجتماع الصبيحة:

جاءت المبادرة من الدولة العثمانية يوم أن وافق أنور باشا ناظر الحربية العثمانية على اقتراح قدم من السيد طالب النقيب بشأن قيام الدولة العثمانية بفتح باب الاتصالات والمفاوضات السلمية والودية مع الملك عبدالعزيز آل سعود[٥٠]، فقبل أنور باشا اقتراح السيد طالب النقيب، وفوض السيد البكباشي عمر فوزي ماريديني أحد مرافقي السلطان محمد رشاد بإجراء المفاوضات، كما أمره بالتوجه إلى البصرة، وأرسل معه رسالة إلى واليها وكان وقتها سليمان شفيق كمالي باشا[٥١] تتضمن توجيه قضية الإحساء إليه للبت

في أمرها سريعاً، ولتفادي الإطالة من جراء المراسلات مع الأستانة مما يتطلب وقتاً طويلاً في الأخذ والرد. وقد زار عمر فوزي مارديني الشيخ مبارك الصباح في الكويت بأمر من والي البصرة، وبين له ما تنوي الدولة العثمانية عمله تجاه مسألة الاتصالات والمفاوضات مع الملك عبدالعزيز آل سعود من أجل إيجاد تفاهم معه[٥٢].

وزيادة في حرص الدولة العثمانية على المفاوضات وإيجاد الحل، رأت أن تستفيد من وساطة الشيخ مبارك الصباح بصورة خاصة لعلاقته القوية والحميمة مع الملك عبدالعزيز، وكذلك وساطة الشيخ خزعل شيخ المحمرة. فقررت الدولة العثمانية منح كل منهما وسام الدولة العثمانية من الدرجة الأولى مكافأة لهما على قيامهما بالوساطة المطلوبة[٥٣]. ويبدو أن والي البصرة العثماني وبأمر من المسؤولين العثمانيين رأى أن يكون السيد طالب النقيب هو المسؤول عن المفاوضات مع الملك عبدالعزيز، لعل ذلك يقرب مسألة التفاهم بين الدولة العثمانية والملك عبدالعزيز. وأصبح بمقدور السيد طالب النقيب ومعه البكباشي عمر فوزي بك مارديني أن يتوجها إلى الكويت ليلتقيا في مكان قريب منها بالملك عبدالعزيز آل سعود، وقد وعد الشيخ مبارك السيد النقيب بإعلامه عن موعد وصول الملك عبدالعزيز إلى الصبيحية التي تبعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من الكويت، ويتوقع الشيخ مبارك أن يبقى الملك عبدالعزيز فيها مدة عشرة أيام[٥٤].

كانت الدولة العثمانية قد ألحت على شيخ الكويت أن يقدم النصيحة للملك عبدالعزيز بشأن المحادثات والمفاوضات، لكن شيخ الكويت ظل لا يريد إقحام نفسه في هذه المسألة[٥٥]، خاصة وأنه الآن بعيدٌ كل البعد عن النفوذ العثماني بعد توقيع معاهدة الحماية مع بريطانيا وظلت علاقته مع الدولة العثمانية ذات طابع يتصف بالمجاملة. فقد أصبح شيخ الكويت محمياً من بريطانيا، وهي التي تدير شؤونه الخارجية وتتولى الدفاع عن إمارته.

ومن الواضح أن الملك عبد العزيز آل سعود استجاب للدعوة العثمانية والوساطة العربية، وقرر التوجه إلى الصبيحية القريبة من الكويت وهي الخطوة الأولى من خطوات الاجتماع بالمسؤولين العثمانيين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن السيد طالب النقيب ووفد المحادثات العثماني كانوا في البصرة ينتظرون باخرة الشيخ مبارك لتنقلهم إلى الكويت[٥٦]. وقد وصل الملك عبد العزيز إلى الصبيحية في ٢٧ نيسان ١٩١٤ م. وكان السيد طالب النقيب ومعه الوفد العثماني قد غادروا البصرة بباخرة شيخ الكويت في ٢٨ نيسان ١٩١٤ م.

- اجتماع الصبيحية ونتائجه:

تألف الوفد العثماني من السيد طالب بك النقيب رئيساً والبكباشي بهاء الدين بك رئيس الأركان في بغداد والبكباشي عمر فوزي بك وسامي أفندي متصرف الإحساء ويرافقه عمر بك ومحام من مدينة البصرة ومحمد النعمة من أعيان العرب ومن ذوي الأملاك وعبد الوهاب المنديل وعبد اللطيف المنديل وكلاهما من ذوي الأملاك ومن الأعيان ويمثلان الملك عبد العزيز وبصفتهما وكيلين له في البصرة[٥٧].

ويبدو أن منهجية الاجتماع والمفاوضات بدأت تأخذ طابعاً مباشراً بين المسؤولين العثمانيين والملك عبدالعزيز، وأخذ الوسطاء يتنحوُّن جانباً. فأعلن الشيخ خزعل أنه رجل فارسي ولا يهمه مثل هذه المسألة. وأما الشيخ مبارك الصباح فقرر أن لا يقحم نفسه في المحادثات[٥٨]، علماً بأن بريطانيا كانت ترى أنه لا مانع لديها من أن يعرض الشيخ مبارك الصباح مساعدته وتعاونه في سير المفاوضات[٥٩].

الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية كانت تفضل أن يتدخل الشيخ مبارك في سير المفاوضات، إلا أنها ظلت لا تفضل ولا تريد وساطة بريطانية بهذا الشأن. وهذا ما يفسر تأخر الرد العثماني على عرض الوساطة البريطانية[٦٠]، وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تسعى لإتمام الجهود والمساعي العربية المحلية في إيجاد تسوية ودية بينها وبين الملك

عبد العزيز. ولم يكن شك الدولة العثمانية تجاه نوايا بريطانيا آتياً من فراغ، فقد تأكدت الدولة العثمانية أن هناك مطالباً وشروطاً بريطانية تجاه التسوية، منها أن بريطانيا لا تريد أن تمس المفاوضات مراكز نفوذها في الخليج العربي، وأن يكون لتجارها حرية الحركة التجارية في الساحل الخليجي العربي، بالإضافة إلى منع عمليات بيع الأسلحة، والعمل معاً على منع حالات " القرصنة " في الخليج العربي(٦١) بالمفهوم الذي تراه بريطانيا.

وعندما وصل الوفد العثماني إلى الكويت مكث فيها مدة يومين يناقش المقترحات التي يمكن طرحها على الملك عبدالعزيز بناءً على مجموعة التعليمات والترتيبات الصادرة لوالي البصرة والسيد طالب النقيب من الباب العالي. وقد وصل الوفد العثماني إلى الصبيحية في الثاني من أيار ١٩١٤ م(٦٢) أي بعد وصول الملك عبدالعزيز آل سعود إليها بخمسة أيام. وفي الصبيحية تقابل الوفدان ودارت المفاوضات بينهما. وقد أصر الملك عبد العزيز على نقطة مهمة جداً وهي الاستقلال، وهو أمر ظلت الدولة العثمانية ترفضه(٦٣). كما أن الملك عبد العزيز ظل يرفض وبشكل مطلق إعادة تمحور القوات العثمانية وتمركزها في مناطق سيطرته

ويشير الريحاني إلى أن الشيخ مبارك الصباح شيخ الكويت رفض التوجه إلى الصبيحية مقر المفاوضات السعودية- العثمانية، ويبدو أنه ينقم على الدولة العثمانية وعلى وفدها المفاوض، لأنه لم يعين على رئاسته، بل أخذ يحذر الملك عبد العزيز من أن الدولة العثمانية ووفدها ماكرين مخادعين، وعليه أن يكون صلباً معهم ولا يمكنهم من شيء ولا يصدق ما يقولونه(٦٤). وبالمقابل ظلت الدولة العثمانية تطالب بالاحتفاظ بقوات عثمانية في مواني الإحساء كالقطيف والعقير والجبيل، وأن تكون المسؤولة الأولى عن عقد المعاهدات الدولية وتنظيمها(٦٥). في حين أصر الملك عبد العزيز على أن تكون

علاقته بالدولة العثمانية علاقة ذات طابع اسمي، مقابل أن تقدم له الدولة العثمانية الأسلحة والذخيرة وبعض المال(٦٦).

ومن البديهي أن يكون موقف عبد العزيز آل سعود في مفاوضاته مع الوفد فيه نوع من الملاينة، لأنه مقتنع تماماً أن مسألة المفاوضات مسألة تكتيكية ذات طابع سياسي واستراتيجي. وأن كل ما سيتفق عليه سيظل حبراً على ورق، ولن يخرج إلى حيز العمل والتنفيذ ليس من جانبه فقط، وإنما أيضاً من الجانب العثماني.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن الدولة العثمانية كانت دائماً تنظر إلى اتفاقياتها مع آل سعود على أنها اتفاقيات مؤقتة تفرضها ظروف ومصالح معينة. فعلى الرغم من أن الدولة العثمانية تفاوض عبد العزيز آل سعود، إلا أنها في الوقت نفسه كانت تجري اتصالات مع آل الرشيد في جبل شمر عن طريق واليها في البصرة سليمان شفيق كمالي باشا المشرف العثماني المباشر على المفاوضات العثمانية الجارية مع الملك عبدالعزيز، ليظلوا في حال عداء مع الملك عبدالعزيز، وهي تساعدهم بالمال والسلاح والعتاد. ولكن اندلاع الحرب العالمية الأولى وإعلان الدولة العثمانية الحرب على الحلفاء أوقف كل المشروعات العثمانية العسكرية في شبه الجزيرة العربية(٦٧). وبالمقابل فإن الملك عبد العزيز لا يثق بالدولة العثمانية واتفاقياتها.

وبناءً على ما سبق قرر الطرفان العثماني والسعودي التوصل إلى اتفاق بعد كثير من المداولات والاتصالات والمفاوضات. واتفق الطرفان على أن يظل هذا الاتفاق في سرية تامة وكتمان شديد إلى أن يقره الباب العالي وتصل موافقته. ويبدو أن الوفد العثماني أثناء عودته من الصبيحية إلى الكويت، لم يذكر شيئاً عن هذا الاتفاق للشيخ مبارك الصباح، مع العلم أن الشيخ مبارك سأل الوفد عن نتيجة مفاوضاته، ويبدو أن الوفد العثماني كان متأكداً من غضب الشيخ مبارك لعدم تعيينه رئيساً للوفد، ولهذا ظل الشيخ مبارك يتمنى عدم نجاح المفاوضات. ويذكر الريحاني أن الشيخ مبارك الصباح

صدم عندما وصلته أخبار تفيد أن برقية من الباب العالي وصلت إلى والي البصرة سليمان شفيق كمالي باشا تبين أن الباب العالي وافق على الاتفاق وصادق عليه، مقروناً ذلك بالشكر وبالوسام العثماني الأول للملك عبدالعزيز آل سعود بعد أسبوع واحد فقط من اجتماع الصبيحية(٦٨).

ومن الملحوظ أن شروط الاتفاق العثماني- السعودي جاءت تجمع بين مطالب الملك عبد العزيز ومطالب الدولة العثمانية. فقد أفاد الشيخ مقبل الذكير أن اتفاقاً حدث بين الطرفين لكنه لم يطلع على نصه، غير أنه فهم من الأخبار الواردة إلى الكويت، وكان الذكير وقت المفاوضات فيها، إن الاتفاقية تسمح بوجود ما لا يزيد عن خمسة جنود من العسكر العثماني في كل من العقير والقطيف والجبيل رمزاً للمحافظة على العلم العثماني مرفوعاً، ولن تكون حاميات عثمانية أخرى في الإحساء أو في نجد. وأن يقوم الملك عبدالعزيز بتحصيل الرسوم الجمركية في الموانئ، وأن تمنحه الدولة العثمانية مخصصات شهرية تصل إلى ٢٥٠ ليرة عثمانية(٦٩). بالإضافة إلى تحديد الحدود بين الملك عبدالعزيز وابن رشيد(٧٠).

وثمة ملحوظة مهمة وهي محاولة العثور على النص التركي للاتفاقية من خلال وثائق الباب العالي، الأرشيف العثماني، فرع رئاسة الوزراء باستانبول، ولكن للأسف لم يتم العثور عليه، وأرجو أن يعثر عليه باحثون آخرون. ولكن المسؤولين البريطانيين وعلى رأسهم السفير البريطاني في استانبول ظلوا يبحثون بطرقهم الخاصة عن أصل الاتفاقية التي وقعها كل من الملك عبدالعزيز آل سعود وسليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة وقتذاك، وقد توصل البريطانيون إلى معرفة بنود الاتفاقية، وأهم بنودها حسب النص الإنجليزي(٧١):

١. اعتراف الدولة العثمانية بسيادة الملك عبدالعزيز على ولاية نجد طيلة حياته باستثناء جبل شمر، بما في ذلك منطقة الإحساء (تعني ولاية نجد في المصطلح الإداري

العثماني إقليم نجد وإقليم الإحساء معاً) على أن تكون ولاية نجد لخلفائه من بعده إذا ظلوا مطيعين للدولة العثمانية.

٢. تمركز بعض القوات العثمانية في الموانئ مثل القطيف والجبيل والعقير، ويمكن زيادة عددها طبقاً لطلب من الملك عبدالعزيز.

٣. أن تتم كل إجراءات الجمارك والضرائب في الموانئ التابعة للملك عبدالعزيز طبقاً لأنظمة الدولة العثمانية، على أن يرسل عشرها إلى الأستانة مثل أي والٍ عثماني.

٤. تعتمد ولاية نجد في أمورها المالية على عائدات الجمارك والبريد والبرق إلى أن تحقق الولاية كفاية ذاتية، وما يفيض عن حاجتها يرسل إلى الباب العالي مرفقاً بتقرير رسمي.

٥. يرفع العلم العثماني على كل المباني الحكومية والمباني المهمة وعلى السفن التجارية في الولاية.

٦. لا يحق لوالي نجد أن يتدخل في الشؤون الخارجية أو أن يمنح امتيازات لأطراف أجنبية.

٧. يزود والي نجد الحكومة العثمانية بقدر كاف من القوات مع مؤنها وذخيرتها حين يطلب منه ذلك في حال نشوب حرب بين الدولة العثمانية وأي قوى أجنبية.

٨. يجب أن تمر مكاتبات والي نجد مع الدول الأجنبية عن طريق الأستانة. كما أن مكاتباته مع الدولة العثمانية بشأن الأمور الداخلية تكون مباشرة عن طريق نظارة الداخلية والشؤون الحربية عن طريق نظارة الحربية دون المرور بوالي البصرة.

٩. يحق لوالي نجد أن يشكل قوة محلية لحفظ النظام والأمن في نجد والمحافظة على سلامتها.

١٠. على والي نجد أن يحترم جميع الاتفاقيات والمعاهدات التي وقعتها الدولة العثمانية مع الدول الأخرى.

١١.يحق لوالي نجد أن يتلقى طلبات التجار الأجانب فيما يتعلق بممارسة أعمالهم طبقاً لشروط الاتفاقية.

وقد صدر فرمان إمبراطوري (سلطاني) سمى عبد العزيز آل سعود والياً عاماً على ولاية نجد وقائداً لقواتها، وله سلطات الوالي الكاملة، ويحق له أن يشكل وحدات عسكرية لحفظ الأمن العام والنظام في ربوع ولاية نجد(٧٢)، الجزء الذي أقر تحت سيادته، بالإضافة إلى سنجق الإحساء أو ما يعرف اليوم بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية.

وقد هنأ أنور باشا وزير الحربية في الدولة العثمانية عبد العزيز آل سعود حاكم نجد والقائد العام، قائلاً: "يسعدني أن أبارك لكم وأهنئكم، وأدعو الله أن يتوج كافة أعمالكم بالنجاح لتعزيز الدين الإسلامي، وأن يقويكم في خدمة الدولة العثمانية المجيدة، كما أرجو لكم السعادة والنجاح في كل أموركم، ولكم أن تأمروني في كل شيء"(٧٣).

ويذكر سليمان شفيق كمالي باشا والي البصرة ورئيس الجانب العثماني المفاوض أن الدولة العثمانية عينت عبدالعزيز آل سعود برتبة الوزارة السامية بفرمان سلطاني عال وولاية نجد وقيادتها وإمارتها على أن تنتقل بالإرث إلى أولاده(٧٤). ويقول عن الاتفاقية: "إنها الخطوة الأولى لطريقة الحكم اللامركزي التي كان يجب أن تقرر في بلاد العرب...".(٧٥) وكان سليمان شفيق كمالي باشا قد تلقى برقية من الباب العالي تتضمن موافقة الدولة العثمانية على الاتفاقية، وتقدم الشكر إلى الأمير عبد العزيز آل سعود، وتمنحه الوسام العثماني الأول(٧٦).

وعلى الرغم من أن الاتفاقية برمتها لم تطبق وظلت بنودها حبراً على ورق، إلا أنها في الوقت نفسه رفعت الملك عبدالعزيز وقتذاك إلى مصاف الولاة العثمانيين المهمين ليس في شبه الجزيرة العربية فحسب، وإنما في الولايات العربية الأخرى، وهي أيضاً بمثابة اعتراف عثماني رسمي بالحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية. كما أن

هذه الاتفاقية أعطت الملك عبد العزيز آل سعود وقتاً لدعم السيادة السعودية على منطقة الإحساء، وقد تلاشت فكرة الهجوم البحري العثماني على تلك المنطقة لاستعادتها إلى السيادة العثمانية. وبفضل هذه الاتفاقية الاسمية تفرغ عبد العزيز آل سعود إلى مسألة آل الرشيد في جبل شمر، وتفرغ أيضاً إلى المسائل الدبلوماسية مع القوى المهمة في منطقة الخليج العربي، من أجل تقوية مركزه ومكانته في الساحل الخليجي.

وتشير المصادر إلى أن عبد العزيز آل سعود لم يكتف بإخراج القوات العثمانية من منطقة الإحساء، وإنما أخذ يقنع شيخ قطر بالتخلص من الوجود العثماني في بلاده[٧٧]، لتنتهي السيادة العثمانية من على جميع الساحل الخليجي العربي، وليريح نفسه من عناء تحرشات العثمانيين ضده، وهو أسلوب ركز عليه الملك عبد العزيز آل سعود، واهتم به ليبعد نفسه ودولته الناشئة عن التأثير العثماني الذي ما انفك يخلق الصعوبات له على الرغم من الاتفاقية الموقعة.

وكان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى، واحتلال بريطانيا للعراق قد أضاع على العثمانيين كل فرصهم في شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربي. ومن الأدلة على أن الملك عبد العزيز آل سعود لم يطبق بنود الاتفاقية أنه لم يلب طلب الدولة العثمانية منه أن يدخل الحرب إلى جانبها في الحرب العالمية الأولى[٧٨] على الرغم من إلحاحها عليه؛ لأنها كانت تقدر أهميته بالنسبة لموقعها في العراق، محاولة بذلك المحافظة على مركزها في العراق من خلال حماية حدوده الجنوبية، وإعاقة المشروعات البريطانية الرامية إلى احتلال العراق والضغط على القوات العثمانية لإجبارها على الانسحاب شمالاً باتجاه آسيا الصغرى.

حاولت الدولة العثمانية أن تجند الملك عبد العزيز ضد الشريف حسين بن علي الذي ثار عليها عام ١٩١٦ م بعد إعلانه الثورة العربية الكبرى، ولكن الملك عبدالعزيز لم يستجب لمحاولتها، وإنما بقي مهتماً بأمور تأسيس دولته مبتعداً عن المشكلات

والصعوبات التي من شأنها أن تجلب له المتاعب وتشتت الهدف. وظلت الدولة العثمانية خلال مدة الحرب العالمية الأولى تحاول الاتصال بالملك عبد العزيز، فعندما دخلت قوات الإخوان بلدة الخرمة عام ١٩١٩ م التي كانت آنذاك تتبع الشريف حسين بن علي، أرسل القائد العثماني فخري باشا رسالة إلى الملك عبدالعزيز آل سعود جاء فيها "لقد استبشرنا بأن المتطوعين (المطاوعة) الساكنين في وادي الخورما (الخرمة) أخذلوا (خذلوا) عونه (أعوان) العاصي حسين، وبأن حضرتكم تعملون لأجل فتح طريق مكة للإسلام وأداء فريضة الحج. وقد وصلتم إلى بريدة فأبارك لكم عن صميم الفؤاد باسم الأمة الإسلامية تجاه هذه الحركة الجليلة الواقعة على العاصي حسين... إنني أبين لجنابكم أنكم قبلتم معاونتنا بالأسلحة والجبخانة والمدافع والرشاشات والمصارف (النفقات) اللازمة فإننا حاضرون، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"[٧٩].

ويذكر فلبي أنه رأى بأم عينه ثلاث رسائل مرسلة من فخري باشا إلى الملك عبدالعزيز يطلب فيها منه مساعدة الدولة العثمانية بالجمال اللازمة للنقل في بلاد اليمن، لكن الملك عبد العزيز لم يرد على هذه الرسائل[٨٠]. والثابت أن الملك عبد العزيز آل سعود انقطعت صلته بالدولة العثمانية، ومن ثم انقطعت المراسلات بينهما في وقت الحرب العالمية الأولى، إلا ما كان عن طريق مكاتبات فخري باشا التي لم تَلقَ رداً من الملك عبد العزيز. وظل الأمر كذلك حتى اعترفت الجمهورية التركية بالمملكة الحجازية النجدية على أساس من الصداقة وحسن التفاهم بينهما.

هوامش البحث

١. الأرشيف العثماني باستانبول، وثائق الباب العالي، قسم رئاسة الوزراء، وثائق خاصة بمخصصات آل رشيد وأعيان جبل شمر، نظارة الخزينة، دائرة التحريرات، رقم ٧٦٧، بتاريخ شوال ١٣٢٢ هـ.

٢. الأرشيف العثماني باستانبول، وثائق الباب العالي، بخصوص الإرادة السنية الصادرة في ٢٤ رمضان ١٣٣٤ هـ، رقم ١٢٣٨، موجهة إلى نظارة الحربية الجليلة بشأن تعيين الأمير سعود بن رشيد باشا قائداً عاماً للقوات في منطقة نجد.

٣. ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج ١، طبعة جديدة معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، طبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، ص ٥٧٢.

٤. أبو علية، عبدالفتاح حسن، النقود والموازين والمقاييس في سنجق الحسا في العهد العثماني ١٨٧١- ١٩١٣م، قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الأول للجنة العربية للدراسات العثمانية (A. C. O. S) المنعقد في تونس في المدة من ٢٠- ٢٦ يناير ١٩٨٤ م.

٥. للاطلاع على سير الواقعة ونتائجها ارجع إلى الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨ م، ص- ص ١٤٠- ١٤٧.

٦. من خطاب الأميرالاي التركي العثماني حسن شكري إلى الأمير عبدالعزيز آل سعود، مؤرخ في ١٠ ربيع الآخر ١٣٢٢ هـ، انظر ذلك تفصيلاً في الزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ج ١، دار العلم للملايين، ١٩٨٥ م، ص ١٥٥- ١٥٦، وذلك نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام.

٧. ورد نص هذه الرسالة في جريدة اللواء، بتاريخ غرة رجب ١٣٢٢ هـ، وقد أوردها الزركلي في كتابه شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٥٧- ١٥٨، نقلاً عن مخطوطة تحفة المشتاق للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن آل بسام.

٨. المصدر نفسه.

٩. المصدر نفسه.

10. Howarth, David, (1964) The Desert King, Ibn Saud and His Arabia, New York, Toronto, London, p. 64.

١١. الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٦٤.

12. Howarth, The Desert King, p. 6512

١٣. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٤٨- ١٤٩.

14. ١٤India Office, L+S/18, No B164, from Townley to Foreign Office, dated on 12th Feb. and 17th Feb., 1905.

أنظر أيضاً: الريحاني، المصدر السابق، ص ١٤٩. والزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص ١٧٣.

١٥. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٤٩.

١٦. المصدر نفسه، ص ١٤٩.

١٧. المصدر السابق، ص ١٤٩- ١٥٠.

١٨. المصدر السابق، ص ١٥٠.

١٩. لمعرفة المزيد عمّا دار من مناقشات حادة بين الملك عبدالعزيز والفاروقي، ارجع إلى الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٦٠- ١٦١.

٢٠. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٦١- ١٦٢.

٢١. الزركلي، شبه الجزيرة، ج ١، ص١٧٤.

٢٢. الريحاني، تاريخ نجد، ص ١٦٣.

٢٣. لمزيد من المعلومات عن سيطرة عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود على منطقة الإحساء، ارجع إلى تقرير الكابتن شكسبير الموجه إلى اللفتانت السير برسي كوكس، وثيقة رقم (29150) FO 371/1820، مؤرخة في الكويت في ٢٠ أيار ١٩١٣ م، نقلاً عن: نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ١٧٤- ١٧٦.

٢٤. الأرشيف العثماني باستانبول، وثائق الباب العالي، دائرة الأركان الحربية العامة، الشعبة الرابعة، الوثيقة رقم ١٥٥٣، مؤرخة في ٢٢ جمادى الآخرة ١٣٢٤ هـ، والبرقية الواردة من ولاية البصرة، بتاريخ ٢٥ آذار ١٩١٣ م، رقم ٢٠٩٨٥٩.

٢٥. الأرشيف العثماني باستانبول، دائرة الأركان الحربية، برقية من قائد الجيش السادس في بغداد الفريق سليمان باشا، مؤرخة في ١٩ آذار ١٩١٣ م.

٢٦. الأرشيف العثماني باستانبول، دائرة الأركان الحربية، برقية من الفريق صدقي باشا في بغداد، مؤرخة في ٥ كانون الأول ١٩١٣ م.

٢٧. الوثيقة الإنجليزية رقم (40546) FO 371/1820، مؤرخة في ٢٨ آب ١٩١٣ م. انظر الترجمة الكاملة للوثيقة في كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٠٢- ٢٠٣.

٢٨. الوثيقة الإنجليزية رقم (4141) FO 371/1820، برقية من نائب الملك في الهند إلى ماركيز كرو، أبلغ إلى وزارة الخارجية في ٦ أيلول ١٩١٣ م، والبرقية مؤرخة

في ٥ أيلول ١٩١٣ م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

٢٩. تشير الوثائق الإنجليزية أن الملك عبدالعزيز آل سعود علم أن قوة عثمانية مؤلفة من ٨٠٠ جندي قد وصلت إلى البصرة، والأرجح أن المقصود من ورائها القيام بعمليات بحرية ضده. الوثيقة الإنجليزية رقم (12320) FO 371/2123، برقية من وزارة الخارجية إلى القنصل البريطاني في البصرة، مؤرخة في ٢٦ آذار ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٣٣.

٣٠. الوثيقة الإنجليزية رقم (43979) FO 371/1820، رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة الهند، مؤرخة في ٢ تشرين الأول ١٩١٣ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، ص ٢٠٤.

٣١. الوثيقة السابقة نفسها.

٣٢. الوثيقة الإنجليزية رقم (13135) FO 424/251، من السير إدوار جراي وزير الخارجية البريطانية إلى السير لويس ماليت السفير البريطاني في إستنبول، بتاريخ ٢٦ آذار ١٩١٤ م. وكذلك الوثيقة رقم (12320) FO 371/2123، من نائب الملك في الهند إلى وزير الهند، بتاريخ ١٥ آذار ١٩١٤ م. أنظر الملاحق.

٣٣. الوثيقة الإنجليزية رقم (13604) FO 424/251، من لويس ماليت السفير البريطاني في استانبول إلى السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية، بتاريخ ٢٧ آذار ١٩١٤ م. أنظر الملاحق.

٣٤. الوثيقة الإنجليزية من وثائق مكتب الهند رقم L/Pts/10/385 Confidential No, 3735, 1914, India Office

ولمزيد عن هذا الأمر راجع: أبو علية، عبدالفتاح حسن، تطور المجتمع السعودي في عهد الملك عبدالعزيز، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، آداب القاهرة، جامعة القاهرة، ١٩٧٣ م، ورقة ١٨٠.

٣٥. الوثيقة الإنجليزية رقم (13831) FO 424/251، من السير ماليت السفير البريطاني في استانبول إلى السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية، بتاريخ ٢٩ آذار ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٤٤.

٣٦. الوثيقة الإنجليزية رقم (14380) FO 424/251، من السير ماليت السفير البريطاني في استانبول إلى السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية، بتاريخ ٣١ آذار ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٤٥.

٣٧. الوثيقة السابقة.

38. Philby, H. St J.,B., (1928), Arabia Jubillee, London, p. 3538

٣٩. الوثيقة الإنجليزية رقم (12320) FO 371/2123، رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة الهند، بتاريخ ١ نيسان ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٤٦.

٤٠. الوثيقة السابقة.

٤١. الوثيقة الإنجليزية رقم (21167) FO 371/1213، رسالة من الكرنل و. ج. جراي المعتمد السياسي في الكويت إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ نيسان ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

٤٢. الوثيقة السابقة.

٤٣. رسالة من السيد محمد عارف بن يوسف والي سورية إلى الشيخ مبارك الصباح، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٣٣٢ هـ/ ٩ شباط ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥٠- ٢٥١.

٤٤. رسالة من البكباشي عمر فوزي بن عارف ممثل ناظر الحربية العثمانية إلى سعادة الشيخ مبارك الصباح، بتاريخ ٢١ ربيع الآخر ١٣٣٢ هـ/ ١٩ آذار ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥١.

٤٥. الوثيقة الإنجليزية رقم FO 424/252، من ماركيز كرو إلى حكومة الهند، بتاريخ ٧ نيسان ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥٧.

٤٦. الوثيقة الإنجليزية رقم (15023) FO 371/2123، رسالة من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة الهند، بتاريخ ٦ نيسان ١٩١٤م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥٦- ٢٥٧.

٤٧. رسالة من الملك عبدالعزيز آل سعود إلى السيد طالب النقيب في البصرة، رقم FO371/2123 غير مؤرخة، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥٨.

٤٨. الوثيقة الإنجليزية رقم (19949) FO 371/2123، من المقيم السياسي في الخليج إلى حكومة الهند، بتاريخ ٩ نيسان ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٥٩- ٢٦٠.

٤٩. الوثيقة السابقة.

٥٠.خزعل، حسين خلف (١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م) من تاريخ الكويت السياسي، عصر الشيخ مبارك، ج ٢، بيروت، ص ١٩٩.

٥١.لمعرفة المزيد عن هذا الوالي ارجع إلى: د. أبو علية، عبدالفتاح حسن (١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م) دراسة حول المخطوط التركي حجاز سياحتنامه سي، دار المريخ للنشر، الرياض، ص ص١٤- ٢٠.

٥٢.الوثيقة الإنجليزية رقم (22424) FO 371/2124، من الميجر تريفور المعتمد السياسي في البحرين إلى الميجر نوكس المقيم السياسي في الخليج، بوشهر، مؤرخة في ١٠ نيسان ١٩١٤ م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٦٣.

٥٣.الوثيقة الإنجليزية رقم FO 371/2123 رسالة من اللفتنانت جراي المعتمد السياسي في الكويت إلى المقيم السياسي في بوشهر، بتاريخ ٧ نيسان ١٩١٤م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٦٥- ٢٦٦.

٥٤.الوثيقة الإنجليزية رقم (24823) FO 371/2124 من اللفتنانت جراي المعتمد السياسي البريطاني في الكويت إلى نوكس المقيم السياسي في الخليج في بوشهر، بتاريخ ١٤ نيسان ١٩١٤ م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٦٨.

٥٥.الوثيقة الإنجليزية رقم (16801) FO 371/2123 من حكومة الهند إلى الماركيز كرو وزير الهند، بتاريخ ١١ نيسان ١٩١٤ م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٧١- ٢٧٢.

٥٦.الوثيقة الإنجليزية رقم (22424) FO 371/2124، من المقيم السياسي في الخليج، بوشهر إلى سكرتير حكومة الهند، سملا، بتاريخ ٢٣ نيسان ١٩١٤ م. من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ٢٧٩.

٥٧.خزعل، من تاريخ الكويت، ص ١٩٩.

- مذكرات سليمان شفيق كمالي باشا، منشورة في الأهرام، العدد السادس، تشرين الثاني ١٩٢٤ م/ ٩ ربيع الآخر ١٣٤٣هـ.

- الوثيقة الإنجليزية رقم (25950) FO 371/2124، من القنصل البريطاني في البصرة إلى السفير البريطاني في الأستانة، بتاريخ ٢ أيار ١٩١٤ م.

٥٨.الوثيقة الإنجليزية رقم FO 371/2124، من هاورث قنصل بريطانيا في المحمرة إلى نوكس المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ٢ أيار ١٩١٤ م. أنظر الملاحق.

٥٩.الوثيقة الإنجليزية رقم FO 371/2124، من سكرتير حكومة الهند، سملا إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٤ م.

٦٠.الوثيقة الإنجليزية رقم India Office, L/P&S/10/385، من جراي الوكيل السياسي البريطاني في الكويت إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ٧ نيسان ١٩١٤ م.

٦١.الوثيقة الإنجليزية رقم FO.371/2124، من سكرتير حكومة الهند، سملا إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩١٤ م.

٦٢. الوثيقة الإنجليزية رقم India Office/R/15/5/27، من الوكيل السياسي البريطاني في الكويت إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ٦ نيسان ١٩١٤ م.

٦٣. الوثيقة الإنجليزية رقم India Office, L/P&S/10/385، بتاريخ ٩ نيسان ١٩١٤ م.

٦٤. الريحاني، تاريخ نجد الحديث، ص ٢١٤.

٦٥. الريحاني، تاريخ نجد، ص ٢١٥.

- الوثيقة الإنجليزية رقم India Office, L/P&S/10/385، بتاريخ ٢١ نيسان ١٩١٤ م.

٦٦. الريحاني، تاريخ نجد، ص ٢١٥.

٦٧. أبو علية، دراسة حول المخطوط التركي حجاز سيا حتنامة سي، لسليمان شفيق كمالي باشا، ص ١٩- ٢٠.

٦٨. الريحاني، تاريخ نجد، ص ٢١٦.

٦٩. الوثيقة الإنجليزية رقم India Office, L/P&S/10/385، من الوكيل السياسي البريطاني في البحرين إلى المقيم السياسي البريطاني في بوشهر، بتاريخ ١٦ حزيران ١٩١٤ م.

٧٠. الوثيقة الإنجليزية رقم (23205) FO 371/2127 ، من ماليت إلى جراي، بتاريخ ٢٠ أيار ١٩١٤ م، من كتاب الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مجلد ١، ص ص ٢٩٧- ٣٠٠.

٧١. الوثائق الإنجليزية رقم (31094) FO 371/2124 ، من وزير الهند إلى نائب الملك في الهند، بتاريخ ٦ تموز ١٩١٤م، وكذلك رقم (31139) FO 424/253، من ماليت إلى جراي، بتاريخ ٩ تموز ١٩١٤ م، وكذلك FO 424/255 (31123)، من جراي إلى السير لويس ماليت، بتاريخ ١٢ تموز ١٩١٤ م. من كتاب جزيرة العرب في الوثائق البريطانية. أنظر الملاحق. لمزيد من المعلومات عن هذه الاتفاقية وتفصيلاتها ارجع إلى أبو علية، تطور المجتمع السعودي في عهد الملك عبدالعزيز، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، ١٩٧٣ م، ص ١٨١-١٨٤.

٧٢. الوثيقة الإنجليزية رقم (31123) FO 424/255، برقية من جراي إلى ماليت، بتاريخ ١٢ تموز ١٩١٤ م. أنظر الملاحق.

٧٣. ٧٣. الوثيقة الإنجليزية رقم (34347) FO 371/2124، من أنور باشا إلى حاكم نجد والقائد العام الأمير عبدالعزيز باشا السعود، بتاريخ ٢٨ تموز ١٩١٤ م. أنظر الملاحق.

٧٤. خزعل، من تاريخ الكويت، ص ٢١٠- ٢١١.

٧٥. مذكرات سليمان شفيق باشا المشار إليها آنفاً.

٧٦. الريحاني، تاريخ نجد، ص ٢١٦.

٧٧. الوثيقة الإنجليزية رقم India Office, L/P&S/10/384، بتاريخ ١ آب ١٩١٣م. وأيضاً

- Philby , Arabia Jubillee, p.35.

٧٨. أرسلان، شكيب، من كتاب حاضر العالم الإسلامي، ج ٢. حاشية ص ١٠٣.

٧٩. الوثيقة الإنجليزية رقم FO 686, Vol.16، مؤرخة في ٢٦ آب ١٩١٨ م.

٨٠. الوثيقة الإنجليزية رقم: FO 686, Vol.14, p.31.

المـــلاحـق

FO 424/261 (13136)

(برقية)

من السر ادوارد غراي — وزير الخارجية

إلى السر لويس ماليت (السفير البريطاني في اسطانبول)

وزارة الخارجية ٢٦ آذار/مارس ١٩١٤

برقيتك رقم ١٨٣ في ٢٤ آذار/مارس: ابن سعود.

تعلم يا صاحب السعادة بالمناقشات التي دارت مع حقي باشا في ما يتعلق بابن سعود. أترك لسعادتك تقدير ما إذا كنت ستعبر للحكومة العثمانية عن الأمل في أن لا تقر عمليات عسكرية ضده قبل السماح أولاً لحكومة صاحب الجلالة باستخدام مساعيها الحميدة من أجل تشجيع تسوية مرضية للطرفين كليهما. ونحن لا نرغب في تأمين أي منفعة سياسية ضد تركية، وكل ما نريده هو الحيلولة دون حدوث اضطرابات وسفك دماء، وهو ما يرجح أن يؤثر بصورة خطيرة على أمن مناطق الساحل حيث لنا حقوق خاصة، ويمكن في الأغلب تجنبه بوساطة حكيمة وغير رسمية. وإذا أقدمت تركية على عمل بالقوة ضد ابن سعود فستقع قلاقل واسعة الانتشار في شرق شبه الجزيرة العربية.

علمنا ان طائرات، ذات محركات قد شحنت إلى البصرة من شركة (ووليكروفت) للحكومة العثمانية.

FO 424/251 (13694)

(برقية)

من السر ل. ماليت إلى السر ادوارد غراي

(رقم ١٩٣) القسطنطينية ٢٧ آذار/مارس ١٩١٤

(البرقية) الآتية أرسلت إلى عمل صاحب الجلالة في البصرة، رقم ٢٠:

«برقيتك رقم ٢٠.

ولا تكاد معلوماتي تشير إلى عمليات عسكرية فورية ضد ابن سعود. وزير الداخلية أبلغني بصورة سرية في ٢٤ آذار/مارس أنه يحضّر من أجل تسوية ودية بمساعدة شيخ المحمرة وشيخ الكويت والسيد طالب. قال إن الحكومة توصلت إلى اتفاق مع العرب.

أخبروا إذا كان لديكم أي تأكيد لهذا.

(أرسلت إلى وزارة الخارجية).

FO 371/2124

(برقية)

من ميجر ل. ب. هاورث ــ قنصل صاحب الجلالة ــ البصرة

إلى ميجر س.ج. نوكس، المقيم السياسي ــ بوشهر

رقم ٢٨ سي بتاريخ ٢ أيار/مايو ١٩١٤

(وصلت ٣ أيار/مايو)

أكرر في أدناه برقية نائب القنصل في الأحواز، مع إشارة إلى برقيتكم رقم ٤٦٦:

فأرجو أن ترجعوا إلى تقريركم المرقم ٢٥ - سي. يقول خزعل إن الأتراك قد سألوه، ولكنه رفض معللاً رفضه بأنه (أي خزعل) مواطن فارسي، ولذلك فأمر ابن سعود لا يهمه. ثم يضيف أن الأتراك قد سألوا مبارك أيضاً فأجاب أنه سينصح ابن سعود بأن يتفق مع الأتراك، وأنه مستعد لارسال ممثل يتوجه إلى ابن سعود كممثل تركي».

FO 371/2124 (34347)

(ترجمة برقية)

من أنور باشا ــ وزير الحربية في الدولة العثمانية

إلى سعادة حاكم نجد والقائد العام الأمير عبد العزيز باشا السعود

(بدون تاريخ ـ مسجلة لدى ورودها إلى وزارة الخارجية
بتاريخ ٢٨ تموز/يوليو ١٩١٤)

يسعدني جداً أن أبارك لكم وأهنئكم، وأدعو الله أن يتوج كافة أعمالكم بالنجاح لتعزيز الدين الإسلامي، وأن يقويكم في خدمة الدولة العثمانية المجيدة. كما أرجو لكم السعادة والنجاح في كافة أموركم ولكم أن تأمروني في كل شيء.

(توقيع)
أنور
وزير الحربية

FO 424/255 (31129)

(برقية)

من السير ادوارد غراي إلى السير ل. ماليت

وزارة الخارجية، ١٢ تموز/يوليو ١٩١٤

أبلغ حقي باشا بالتصريح الرسمي الآتي:

وصدر فرمان امبراطوري يسمي ابن سعود حاكماً عاماً وقائداً للقوات في نجد وله سلطات والي ويحق له إيجاد ميليشيات محلية لحفظ النظام والأمن العام في نجد.

سيتم إنشاء محطات على الساحل وسوف تقدم معونة إذا ما طلب ابن سعود ذلك.

لن يكون لابن سعود الحق في عقد معاهدات أو الدخول في ترتيبات مع دول أجنبية ولن يكون له الحق في منح الامتيازات.

إنه ملزم دائماً باحترام المعاهدات بين الامبراطورية العثمانية والدول الأخرى.

والأجانب في نجد يحق لهم أن يقدموا طلباتهم في ما يتصل بمصالحهم ومطالبهم وفقاً للعرض المقدم إلى السلطات المحلية وإلى ابن سعود بصفته واليها.

يقول حقي باشا في أنه ما يتعلق بمذكرة السفارة أن كل الاتصالات الأخرى الموجهة إلى الباب العالي يجب أن تتم عن طريق سعادتكم وليس عن طريقه. ويهمنا في ذلك سيسرني أن أعلم ما هو النهج الذي تقترحونه الآن في ما يتصل بمطالبات شركة البترول التركية.

FO 424/253 (31139)

(برقية)

من السر ل. ماليت إلى السر ادوارد غراي (في ٩ تموز/يوليو)

رقم: ٤٢١ — استانبول ٩ تموز/يونيو ١٩١٤

برقيتك رقم ٢٩٩ المؤرخة في ٧ تموز/يوليو.

عيّن ابن سعود والياً على نجد أمس.

قال لي وزير الداخلية إنه وفقاً للاتفاق الذي تم التوصل إليه معه لا يستطيع الدخول في علاقات مباشرة أو توقيع معاهدات مع دول أجنبية.

قال إن حقي باشا قد أبرق فعلاً بأنكم تستفسرون عن الموضوع، وأنه أصدر إليه تعليمات بشأن ما يجب أن يجيب به.

لم أواصل النقاش بالنظر إلى أنه يجري في لندن.

FO 371/2124 (31094)

(برقية)

من وزير الهند إلى نائب الملك في الهند

٦ تموز/يوليو ١٩١٤

ابن سعود. أبلغنا سفير صاحب الجلالة البريطانية في القسطنطينية أن وزير الداخلية التركي أخبره يوم ٨ حزيران/يونيو أنه تم التوصل إلى اتفاق مع ابن سعود الذي سيمكنه الباب العالي والياً على نجد. إنهم لم يجبوا الأتاوة منه. ابن سعود يوافق على إبقاء حامية تركية صغيرة في العقير والقطيف.

تأثيرات الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩- ١٩٤٥ م على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الدول العربية

د. طليعة صياح

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مقدمة:

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية كانت أغلب البلاد العربية قد خاضت كفاحاً شعبياً سلمياً و مسلحاً معتمداً على الذات. وكان الهدف منه القضاء على الدول الغربية الاستعمارية المتسلطة عليه والمحتلة أرضه وعلى الرغم من تعدد مراكز هذه الثورات، كانت ثورة واحدة في أهدافها الكبرى ومراميها وهي التخلص من الحكم الاستعماري الطاغي وأمام هذه المقاومة العنيفة فإن الدول الغربية الاستعمارية المسيطرة على كل قطر عربي، كانت تنهي كل ثورة من هذه الثورات بإصدار تصريح أو عقد معاهدة تعترف ظاهراً ببعض حقوق الشعب الثائر وفي نفس الوقت تضمن لها مصالحها وتحفظ لها نفوذها.

ولقد تطور الاقتصاد العربي على أسس الاقتصاد الغربي وبخاصة في الصناعة وقد عمل في هذا المجال الطبقة الغنية ممثلة بالإقطاعيين الزراعيين الذين سعوا لاستثمار مداخيلهم في الزراعة في الميدانين الزراعي والصناعي على السواء مضافاً إليهم التجار وبعض الاثرياء من العاملين في الحقل الصناعي السابق.

ورأى هذا التطور بداياته في الاقطار العربية التي انفصلت عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى بينما تابع خطاه السابقة في الأقطار التي انفصلت عنها او

استقلت ذاتياً كمصر وتونس مثلاً، ولابد من التأكيد أنَّ هذا التطور كان في مجموعه لصالح الدول المستعمرة وبتوجيهها[١].

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية كانت الأقطار العربية لاتزال ترزح تحت الحكم الاستعماري الغربي على الرغم من مظاهر الاستقلال التي كانت تتمتع به بعضها، في عام ١٩٣٩ م قام هتلر بغزو بولونيا في حرب خاطفة واكتسحها خلال أسبوعين. وأعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على المانيا. وأعقب ذلك فترة صمت كان كل معسكر يعد نفسه خلالها، اتخذت الدول الاستعمارية في المنطقة العربية بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية[٢] مباشرة إجراءات من أجل ضمان مواقعها الاستعمارية وهذا يخدمها من جانب بتقوية سلطاتها الاستعمارية في المنطقة العربية، ومن جهة أخرى ضم القدرة العسكرية و الاقتصادية للدول العربية في الصراع مع العدوان الفاشي، في ٣ أيلول ١٩٣٩ م قطعت مصر علاقتها الدبلوماسية مع المانيا[٣]، وفي ٥ أيلول نفذت العراق[٤] هذه الخطوة، وكذلك اتخذت سورية في ٧ أيلول نفس الاجراءات سوية مع دول المتوسط التي كانت خاضعة للسيطرة الفرنسية[٥].

كما قطعت كلُّ الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية مع المانيا باستثناء المملكة العربية السعودية واليمن[٦]، ومن أجل ضمان مواقعها نفذت الدول الاستعمارية بشكل مباشر بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية مجموعه من الاجراءات في مناطق نفوذها.

في سورية عيّنت فرنسا في مطلع عام ١٩٣٩م غبرييل بيو مفوضاً سامياً جديداً في سوريا وأعلن أن حكومته عدلت من معاهدة ١٩٣٦م، ورجعت إلى سياسة الانتداب. عندئذ استقالت الوزارة الوطنية واستقال رئيس الجمهورية، وأقام المفوض السامي حكومة المديرين برئاسة بهيج الخطيب، وفصل اللاذقية وجبل العرب عن سورية ومارس سياسة القمع والإرهاب وملاحقة الوطنيين[٧] وفي لبنان مارست فرنسا سياسة القمع والطغيان

عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية حيث لم يبق للبنانيين من مظاهر الحكم سوى رئاسة الجمهورية، فقد حلَّ المفوض السامي غبرييل بيو المجلس النيابي في ٢١ أيلول عام ١٩٣٩ م، وأقال الحكومة وعلق الدستور للمرة الثانية وعين عبداله بيهم أمين سر للدولة يعاونه مستشار فرنسي وثبت أميل أده رئيسا للجمهورية بالتعيين.

ووضع[٨] الأردن موارد البلاد ومقدراتها تحت تصرف بريطانيا الحليفة، وبحجة وضع البلاد في حالة تأهب واستعداد والقيام بأداء التزاماتها تجاه بريطانيا وتأمين سلامة الدفاع عن الأردن أصدرت حكومة أبو الهدى عدداً كبيراً من الأوامر لإشاعة الإرهاب، ووضع رقابة على الصحف والتنكيل بالمعارضة واعتقال قياداتها[٩].

وفي فلسطين تخوفت بريطانيا من تأزم الموقف بشأن فلسطين ووقوف منطقة المشرق العربي ضدها في الوقت الذي كانت فيه بحاجة لمساعدة العرب، اذ تجمعت آنذاك سُحُبُ الحرب العالمية في الأفق، لذلك دعت إلى عقد مؤتمر في لندن أطلق عليه اسم مؤتمر الطاولة المستديرة[١٠]، وعلى الرغم من أنّ ردود الفعل العربية لصدور الكتاب الابيض الثالث لم تكن كلها مؤيدة فإن صدوره كان نصراً لوجهة النظر العربية، فلأول مرة منذ إصدار وعد بلفور تعلن الحكومة البريطانية اعترافها بإنشاء دولة موحدة في فلسطين[١١]، أما الصهاينة فقد رفضوا ما جاء في هذا الكتاب وهاجموا السياسة البريطانية الجديدة وقاموا بمظاهرات في جميع أنحاء فلسطين.

وعملت الصهيونية على استغلال الحرب العالمية الثانية من أجل إقامة الدولة اليهودية، وقد وضع التحرك الصهيوني كل امكانات الحركة الصهيونية تحت تصرف بريطانيا خلال الحرب كوسيلة للحصول على المساعدة. كما استغل الصهاينة ظروف الحرب العالمية الثانية لتدريب أكبر عدد منهم عسكرياً[١٢].

وفي العراق سارعت حكومة نوري السعيد في ٥ أيلول إلى قطع علاقاتها مع ألمانيا، وقامت بترحيل الرعايا الألمان أعضاء السفارة الألمانية في بغداد الذين غادروا

العراق برفقة السفير الألماني غروبا، واعتقلت قسماً آخر من الألمان الموجودين في العراق وسلمتهم للسلطات البريطانية. وقد طرح رئيس الحكومة نوري السعيد اقتراحاً تضمن إعلان العراق الحرب على ألمانيا وتقديم فرقتين عسكريتين للمشاركة في الحرب إلى جانب الحلفاء ضد دول المحور(١٣).

وفي المملكة العربية السعودية تعرض الملك عبد العزيز آل سعود لضغط دول المحور لذا طالب عدد من مستشاريه بتوسيع العلاقات مع إيطاليا وألمانيا. لكن الملك رفض وبقي على الحياد(١٤).

وفي المملكة المتوكلية اليمنية شكلت رغبة بريطانيا في عدم دفع الإمام إلى أحضان ايطاليا سبباً في تخفيف سياسة الاضطهاد والتعسف التي اتبعتها في اليمن على الرغم من اضطهادها للمتذمرين وفرضها الرقابة الصارمة على الصحف وإغلاق بعضها، وقد أرسلت بريطانيا بعثات طبية وصحية إلى صنعاء وأثناء الحرب تمكنت من القيام بحملات دعائية ضد إيطاليا وألمانيا ونجحت أيضاً وبواسطة الضغوط الاقتصادية في جعل الإمام يمنع تجنيد اليمنيين في جيوش إيطاليا في كل من أرتيريا والصومال(١٥).

وفي عمان رحب السلطان سعيد بن تيمور بسياسة التعاون مع بريطانيا عند نشوب الحرب العالمية الثانية وسمح لها بإقامة مهابط للطائرات البريطانية في عدد من مناطق السلطنة(١٦)، وحصل الانجليز خلال الحرب العالمية الثانية على حق استخدام جزيرة صير بني ياس التابعة لأبوظبي وذلك للهبوط الاضطراري.

وعشية الحرب العالمية الثانية تدهورت الأوضاع السياسية في البحرين، نتيجة لشعور الأهالي المتزايد بالاستياء والحاجة إلى الاصلاح الإداري بالإضافة إلى الدسائس والمؤامرات التي كانت تحاك داخل أسرة آل خليفة، ففي عام ١٩٣٨ م قامت اضطرابات ومظاهرات عديدة طالبت بإيجاد مجلس وطني للعدل، ومجلس وطني للمصارف، ونقابة

للعمال وطرد العمال الأجانب غير الفنيين من شركة النفط وإحلال رعايا بحرانيين محلهم(١٧).

وفي مصر استغلت بريطانيا اندلاع الحرب العالمية الثانية لتطبيق بنود معاهدة عام ١٩٣٦ م وجعل مصر قاعدة للقوات البريطانية في الشرق، فقد وضعت أراضي مصر ومواصلاتها تحت تصرف القوات البريطانية وسخرت جميع إمكانات مصر البشرية والاقتصادية لخدمة قواتها وطلبت من مصر إعلان الأحكام العرفية وفرض الرقابة وقطع علاقاتها مع دول المحور وملاحقة الفئات المعارضة للوجود البريطاني تحت شعار الضرورات الأمنية وأصدر رئيس الوزراء علي ماهر الميال للمحور(١٨) في مطلع أيلول مرسوماً بفرض الأحكام العرفية على البلاد وعيّن نفسه حاكماً عسكرياً، وأعلن قطع علاقات مصر السياسية مع ألمانيا وأصدر قراراً بمنع التعامل التجاري مع رعايا ألمانيا، واعتقل الرعايا الألمان تمهيداً لإبعادهم إلى بلادهم ووضع الممتلكات الألمانية تحت الحراسة، كذلك قام علي ماهر بوضع الموانئ المصرية تحت رقابة السلطات البريطانية البحرية، وفرض الرقابة على البريد والبرق والهاتف والصحف بالاشتراك مع السلطات البريطانية(١٩).

وفي السودان عندما أعلنت الحرب العالمية الثانية أرسلت بريطانيا بعض فرق الجيش السوداني إلى دول إفريقية لمحاربة المحور. فقد بلغ عدد الجنود السودانيين الذين حاربوا في صفوف الحلفاء ما يقارب سبعين ألف جندي/ ستون ألفاً منهم في ليبيا وعشرة آلاف في شرق افريقيا(٢٠).

وفي ليبيا ضم الإيطاليون عشية الحرب العالمية الثانية في كانون الثاني ١٩٣٩م برقة وطرابلس إلى إيطاليا مباشرة، ومنحت إيطاليا الليبيين الجنسية الإيطالية وطبقت عليهم نظام التمييز العنصري. وقد دخلت إيطاليا الحرب العالمية الثانية مع دول المحور ضد دول الحلفاء. وهذا ما شجع انجلترا لإثارة القلاقل والاضطرابات ضد الإيطاليين في

ليبيا. فقد أيدت الليبيين في ثورتهم ضد الاحتلال الإيطالي، حيث عقدت اجتماعاً سرياً مع إدريس السنوسي في الإسكندرية حضرته بعض الشخصيات الليبية البارزة كأحمد السويحلي ومحمد العيساوي وتمّ الاتفاق على التحالف من أجل تحرير ليبيا[٢١].

وعمدت السلطات الفرنسية في تونس في بداية الحرب إلى فرض الأحكام العرفية وإلغاء الحريات وتشديد الخناق على النشاط الوطني بفرض رقابة مشددة على الصحف وتعطيل عدد منها. وكان أعضاء الديوان السياسي وعدد كبير من مناضلي الحزب في السجون عند اندلاع الحرب[٢٢].

أما في الجزائر فقد عمدت السلطات الفرنسية إلى ملاحقة الوطنيين وحل المنظمات والأحزاب ونفي زعمائها وإبعاد العرب عن أي نشاط سياسي. وفي المغرب أعلن السلطان محمد بن يوسف في ٣ آب ١٩٣٩ م تأييده ودعمه لفرنسا وللحلفاء[٢٣].

وشهدت الفترة بين ١٩٤٠ إلى ١٩٤٢ م انتصار ألمانيا الكاسح، في صباح يوم ٩ نيسان عام ١٩٤٠ م غزت القوات الألمانية الدنمارك واحتلتها دون مقاومة تذكر ونزلت في الوقت نفسه قوات ألمانية في عدة مواقع على طول الساحل النرويجي واحتلتها أيضاً، وفي العاشر من شهر أيار ١٩٤٠ م قامت ألمانيا بمهاجمة هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ في وقت واحد وقد استطاعت الجيوش الألمانية الاستيلاء على لوكسمبورغ في ساعات قليلة أما هولندا فظلت تقاوم خمسة أيام واضطرت للتسليم بعدها، ووقع الهجوم على بلجيكا وفرنسا في وقت واحد، وتقدمت الفرق المدرعة عند خطوط الدفاع الفرنسي واتجهت شمالاً وغرباً لتطوق جيوش الحلفاء في الساحل الفرنسي، وكادت أن تقع كارثة، لولا أن البريطانيين تمكنوا من إجلاء ٣٣٥ ألف جندي في معركة دنكيرك الشهيرة[٢٤].

ثم قام الألمان بتمزيق الجيش الفرنسي، وتقدموا نحو باريس واحتلوها بعد أن غادرتها الحكومة الفرنسية. ووقعوا هدنة مع الجنرال بتيان[٢٥]. واحتلّ الألمان الجزء

الشمالي من فرنسا وسمحوا بقيام حكومة فرنسية في الجنوب في فيشي، وأرغموا الفرنسيين في ٢ حزيران على توقيع اتفاق الهدنة مع ألمانيا في نفس عربة القطار التي سبق أن وقع الألمان فيها بذله وامتهان شروط الهدنة مع الحلفاء عام ١٩١٨ م[٢٦].

والتجأ الجنرال ديغول إلى بريطانيا وأعلن من هناك في الإذاعة مواصلة الصراع باسم فرنسا الحرة[٢٧]، أما موسوليني فقد أعلن في ١٠ حزيران الحرب على كل من فرنسا وانجلترا بعد أن تحقق من هزيمة الفرنسيين لكي ينال الآخر نصيبة من الغنيمة.

شعر العرب بالشماتة والتشفي لما أصاب فرنسا بعد عدة أسابيع ومعارك قليلة، لكنهم إذا تمنوا هزيمة بريطانيا بعد فرنسا على يد المحور، فهم لا يرغبون باستبدال سيطرة المحور بسيطرة الحلفاء ولذلك فإن القادة السياسيين العرب انقسموا إلى قسمين: قسم يدعو للوقوف على الحياد، وعدم تقديم المعونة للحلفاء، وقسم يخشون من نظم المحور وديكتاتوريته ولذلك يذهبون بوجوب تقديم كل شيء للحلفاء كي يحصلوا بمعونتهم على أمانيهم القومية[٢٨].

وقد حدث تناقض بين شعور الجماهير العربية تجاه الحلفاء الغربيين، وموقف حكوماتها، فالحكومات ومعظمها رجعية قدمت كل شيء للحلفاء، بل إنّ الموارد الاقتصادية للبلاد العربية وجهت كلها لمساعدة الحلفاء وغدت الأرض العربية مسرحاً للحرب، واستخدمت الموانئ وطرق المواصلات لتلك الأغراض، بل إنّ المجندين العرب كانوا كثرة في جيوش الحلفاء وبعض الجيوش في بعض الأقطار العربية كان خاضعاً مباشرةً لسيطرة الحلفاء كخضوع الجيش الأردني لبريطانيا والسوري واللبناني لفرنسا، أما الجماهير العربية فكانت معادية بصفة عامة لهؤلاء الغربيين بسبب استعمارهم لبلادهم ولموقفهم من قضية فلسطين، وعلى الرغم من أن أغلب الطبقة المثقفة كانت مؤمنة بالقيم الديمقراطية الممثلة في البلاد الغربية فإنها لم تنس الغدر الذي حاق ببلادها بعد الحرب العالمية الأولى.

ولذا فقد كانوا يخشون تسويات ما بعد الحرب ولجأت الدول الغربية المستعمرة أمام الشعور القومي المحلي أو القومي العربي المعبأ ضدها في الأقطار العربية، وتجاه خوفها من أن يفلت الأمر من يدها ولا سيما بعد الهزائم التي لحقت بها في مطلع الحرب إلى الملاينة تارة وإلى البطش أخرى[٢٩].

إن هزيمة فرنسا أمام قوات ألمانيا ودخول الجيوش النازية فرنسا قد أثر بشكل كبير على مركزها الدولي ونفوذها السياسي والمعنوي داخل مستعمراتها. ولقد برز الاستعمار الفرنسي على شكل نظام متخلف اقتصادياً ومتداع سياسياً، في دول المغرب العربي قمع الحكام الفرنسيون المنظمات القومية وسجنوا قادتها أو وضعوهم تحت الحجز. لقد نفذ حكم فيشي الإرهاب غير المقيد ضد كل القوى التقدمية النزيهة الديمقراطية المعادية للاستعمار والفاشية في هذه الدول، ولأن كل القوى الديمقراطية عزلت عن وظائف الدولة والجيش فقد وقع الشعب تحت رحمة تعسف السلطة الاستعمارية، وقد تجلى ذلك التقهقر في تونس حيث عملت دول المحور عن طريق لجان الهدنة، ثم عن طريق قواتها المرابطة في البلاد على تقزيم السلطة الفرنسية وتقويض نفوذها مرغمة إياها على تليين سياستها تجاه الأهالي والتخفيف من الخناق الذي فرضته على الحركة الوطنية منذ أحداث نيسان ١٩٣٨ م وإطلاق سراح الدستوريين المسجونين في فرنسا وتونس والسماح لهم بمواصلة نشاطهم السياسي، وقبلت الإدارة الفرنسية على مضض التعامل مع محمد المنصف باي وعدلت مضطرة أيضاً سياستها العقيمة فأوقفت مطاردة زعماء الحركة الوطنية وأطلقت سراح الدستوريين المعتقلين وسمحت بإعادة إصدار بعض الصحف التونسية، لقد عمل محمد المنصف باي على إعادة الاعتبار للإدارة التونسية وإدخال الإصلاحات اللازمة عليها وأبدى تعاطفاً مع الحركة الوطنية[٣٠].

أما في الجزائر فعملت حكومة بيتان على ملاحقة الوطنين وإعلان الأحكام العرفية. وحل المنظمات والأحزاب ونفي زعمائها كما فعلت مع مصالي الحاج عام١٩٤٣ م، وأبعدت العرب عن أي نشاط سياسي مما دفع الوطنيين إلى الاتصال بجند الحلفاء عند نزولهم بالجزائر في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٢ م.

وأرسلت حكومة بيتان إلى سوريا ولبنان الجنرال دانتز ليعمل على إدارتها في ظل الحكومة الفرنسية وأنهى الجنرال دانتز حكومة المديرين في سورية وعين وزارة برئاسة خالد العظم إرضاءً للأهالي فقد خشي الحلفاء امتداد النفوذ الألماني إلى سورية وبشكل خاص بعد قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام ١٩٤١ م. وتمكنت ألمانيا في أواخر عام ١٩٣٩ م وأوائل ١٩٤٠ م بوساطة إيطاليا من الحصول على موافقة المملكة العربية السعودية على قبول أوراق اعتماد الدبلوماسي غروبا(٣١).

وقد دعمت انتصارات المحور الحكومة السعودية لتغير موقفها حيث سمحت لغروبا بالقدوم إلى جدة بمرافقة بعثه بحرية، حيث بدأ هناك نشاطاً بتشكيل مجموعات تخريبية ضم إليها المستائين من الملك وتزويدهم بالمال والسلاح، وقد سعت إيطاليا إلى ضرب القاعدة الحربية البريطانية في عدن بعد تحقيقها نجاحاً عسكرياً في حوض البحر الأحمر واحتلالها للصومال الانكليزي في عام ١٩٤٠ م ومحاصرتها للصومال الفرنسي واستيلائها على بعض مناطق السودان وكينيا (مستعمرتان بريطانيتان) كما حاولت أثناء الحرب الاستيلاء على عدن وكسب الإمام يحيى إلى صفوف المحور عن طريق الدبلوماسيين الإيطاليين والألمان الموجودين في اليمن تحت غطاء مساعدة البعثة الطبية، إلا أنّ الإمام لم يستسلم لضغوط المحور وظل الموقف المعلن محافظاً على الحياد، أما البحرين فقد تعرضت للقصف الجوي الايطالي في تشرين الاول عام ١٩٤٠م وهذا ما أخاف البحرين من هجوم مفاجئ. من جانب المحور ولذلك تناقص إنتاج النفط بعد أن تم إيقاف عمليات الحفر وإقفال بعض الآبار المنتجة للنفط.

وفي حين كان الألمان يغرقون بلاد الشرق الأوسط بدعاية تفوق النظام النازي والفوائد التي سيحملها إلى البلاد العربية كانت دعاية الحلفاء فارغة غير مؤثرة، لقد جابهت إذاعات الحلفاء صعوبتان تتلخص أولاهما في موقف البريطانيين من مسألة الصهيونية وثانيهما تتلخص في موقف بريطانيا من مسألة الوحدة العربية. تدخل راديو برلين وباري للعمل بكل وسيلة لإثارة الحقد العربي ضد بريطانيا بسبب تأييدها وتحبيذها للصهيونية، وفي الوقت الذي كانت فيه الدعاية المحورية تبذل الوعود وتمني بالعهود جابه المشرق العربي أزمة عسكرية وسياسية خطيرة. أما الأزمة العسكرية فقد تمثلت في تمركز رومل والفرق الإفريقية في السلوم، وكذلك فإن الأزمة السياسية التي جابهتهم في العراق زادت الحالة سوءاً وغدا موقف بريطانيا في العراق يستدعي معالجة سريعة(٣٢).

أخضع المستعمرون الفرنسيون القدرة الاقتصادية العربية بشكل متزايد لصالح ألمانيا وإيطاليا، وباندلاع الحرب ازداد وضع الامداد والإعاشة سوءاً في الدول العربية بشكل كبير(٣٣). وفي سنوات الحصاد الجيدة، أجبرت البلاد العربية على استيراد المواد الغذائية، وحتى هذه الإمكانية انعدمت نتيجة لتعطل الملاحة في البحر الأبيض المتوسط منذ عام ١٩٣٩ م. وعندما كان موسم الحصاد في سنة ١٩٤١ م سيئاً تفاقم وضع التموين بشكل أكبر. وكان من أسباب تراجع الإنتاج الزراعي نقص الأسمدة. بين آب ١٩٣٩ م وتموز ١٩٤١ م ارتفعت في مصر تكاليف النفقات المعيشية على سبيل المثال ١٣٠% وفي فلسطين ارتفعت تكاليف نفقات المعيشة ١٠٠%. وبناء على الحسابات غير الحكومية أي في أسعار السوق السوداء ارتفعت تكاليف المعيشة ٢٠٠% مقارنة بسنوات ما قبل الحرب، وقد أظهر التطور التضخمي بأن تداول الأوراق النقدية في العراق تضاعف وكذلك في فلسطين وسورية ومصر بثلاثة أضعاف. وعانت دول المغرب فوق هذا كله عبء الضرائب المتعسفة(٣٤).

من خلال المصادرة للمحاصيل الزراعية وبسبب التوزيع غير العادل للمنتجات والمواد الغذائية المتواجدة لم يعد تأمين السكان المحليين مضموناً وكان من أحد نتائجها ارتفاع نسبة وفيات الاطفال[٣٥].

لقد هيأت حكومة فيشي للسلطات الفاشية إمكانيات كثيرة على أراضي دول المغرب لمتابعة الحرب بشكل فعال بصرف النظر عن الوضع الحياتي الخانق، المياه الإقليمية الساحلية المغربية خدمت الأساطيل الإيطالية والألمانية كملجأ. وفي صيف ١٩٤١ م وضع نظام حكم فيشي موانئ الجزائر، كزابلانكا كقواعد بحرية تحت تصرف ألمانيا وإيطاليا، انطلقت من المطارات المغربية الطائرات الفاشية ضد جبل طارق حيث المستعمرون البريطانيون، والقوات الفاشية في ليبيا مونت بالمواد الغذائية من المغرب العربي، وهذه الإجراءات نظمت من خلال لجنة من أجل مراقبة التزام شروط وقف إطلاق النار ونفذت بالتعاون مع السلطة الاستعمارية الفرنسية[٣٦].

في بداية عام ١٩٤١ م دافع المتظاهرون اللبنانيون والسوريون عن نفسيهما ضد الاستغلال الاستعماري الفاشي، وفي ٢٢شباط ١٩٤١ م أعلن المتظاهرون في دمشق عن الإضراب العام وقد عم الإضراب العام بسرعة المدن الأخرى مثل بيروت وحلب وحمص وحماة ولذلك أجبر نظام حكم فيشي في بداية نيسان ١٩٤١ م على الموافقة لتشكيل الحكومتين السورية واللبنانية[٣٧]، واتخذت إجراءات من أجل تحسين تأمين المواد الغذائية الضرورية. هذه التنازلات لم توقف الحركة القومية. وبشكل خاص فقد ازدادت في سورية الحركة التحررية وخوفاً من الكتلة الجماهيرية طلب نظام حكم فيشي من ألمانيا الهتلرية احتلال ساحل المتوسط[٣٨]. إن الأزمة الاقتصادية الخانقة التي عمت بلدان الشرق الأوسط ساهمت في إحراج مركز بريطانيا. وفي سوريا ولبنان تفاقم شر الأزمة الاقتصادية على أثر الحصار البريطاني للبلدين فهبط سعر الفرنك، وقطع الاتصال التجاري مع البلاد العربية الأخرى، وفقد التجار وأصحاب العمل ثقتهم بالعملة

الورقية التي كان يصدرها بنك سوريا ولبنان وهو مؤسسة فرنسية فأحجموا عن مبادلة سلعهم ومصنوعاتهم إلا بالذهب أو بسلع أخرى، وبذلك ازدهرت السوق السوداء بسرعة ليس بالنسبة للبضائع المستوردة فحسب، وإنما بالنسبة للقمح والحبوب نتيجة (هستيريا) الربح التي سيطرت على التجار فمالوا للتخزين والاحتكار، وهذا لا ينطبق على سوريا ولبنان فقط وإنما على كافة البلاد العربية وبخاصة مصر التي احتشد فيها عدد ضخم من جنود الامبراطورية البريطانية يمتصون خيرات البلاد ويزيدون الطين بِلةً بعد ان برزت مصاعب التموين وقل النقل البحري والاستيراد نتيجة إغلاق البحر المتوسط بسبب ظهور خطر الغواصات فيه.

في أثناء الحرب العالمية الثانية أصبحت مصر أهم قاعدة عسكرية استراتيجية لبريطانيا في الشرق الأوسط وإفريقيا فقد وضعت موانيها و مطاراتها وطرقها ومواردها البشرية وجيشها تحت تصرف القيادة العسكرية البريطانية.

خفضت زراعة القطن وحلت محلها زراعة الحبوب مما أدى إلى هبوط شديد في إنتاج القطن إذ وصل إنتاجه أعوام ١٩٤٢- ١٩٤٤ م إلى ثلث إنتاجه عامي ١٩٣٧- ١٩٣٨ م لذلك أصيب الإنتاج الزراعي بأزمة. فبرغم أن المحاصيل الغذائية لم تكن ضخمة كان عملاء بريطانيا يرغمون الفلاحين على بيع الفائض من القمح حتى انتشرت المجاعة والاوبئة في الريف على نطاق واسع وهاجر الفلاحون المفلسون إلى المدن.

وعلى خلاف الزراعة اخذت الصناعة دفعة للتطور السريع وقد ساعد على ذلك ان استيراد مصر للسلع الأجنبية تضاءل إلى حد كبير. كما ازداد الطلب على السلع المصرية نظراً لتواجد حشود ضخمة من القوات البريطانية و ازداد بصورة بارزة إنتاج المواد البترولية (ارتفع من ٣٨٠٠٠٠ طن عام ١٩٣٧ إلى ١٢٨٠٠٠٠ طن عام ١٩٤١ م)، كما ازداد إنتاج الاسمنت (من ٣٦٨٠٠٠ طن عام ١٩٣٩ إلى ٤٢٠٠٠٠ طن عام ١٩٤٦ م). وفي نفس الفترة ازداد إنتاج الأقمشة القطنية من ١٣٠ مليون متر إلى ٢٠٤

ملايين متر. وبصفة خاصة نمت صناعات النسيج والمواد الغذائية والمستحضرات الطبية. لقد ركز الرأسماليون المصريون جهودهم في تنمية الصناعة الخفيفة. كان البريطانيون يقدمون الطلبات إلى المؤسسات الصناعية ويشترون من مصر بأسعار ثابتة المنتجات الصناعية والزراعية اللازمة لتمويل جيش الحلفاء في افريقيا. لم تكن بريطانيا تدفع نقداً ثمن السلع و الخدمات المصرية وإنما كانت تقيد هذه المبالغ لحساب مصر كمديونية على بريطانيا. وفي نهاية الحرب كانت أرصدة مصر الاسترلينية (مديونية بريطانيا) تبلغ ٤٠٢ مليون جنيه استرليني.

وفي سنوات الحرب انخفضت بشدة الأجور الفعلية للكادحين وتضاعفت تكاليف المعيشة وكوّن السماسرة ثروات طائلة ولقد ازداد عدد سكان المدن فسكان القاهرة ازداد عددهم من ١٣٠٠ الف عام ١٩٣٧ إلى ٢٠١٠٠ الف عام ١٩٤٧.

أقطار المشرق العربي أصبحت في نظر بريطانيا بحاجة ماسة إلى معالجة فورية وبريطانيا تعلم يقيناً أن الاقطار العربية تقع في أهم منطقة استراتيجية تتحكم في المواصلات العالمية. في أول مراحل الحرب العالمية الثانية أنشأت . قيادة منطقة الشرق الأوسط البريطانية في القاهرة مركزاً صغيراً ليقوم بمساعدة القادة العسكريين في معالجة نقص كمية البضائع المشحونة بحراً إلى بلدان المنطقة[٣٩]. وعلى الرغم من أن غواصات دول المحور وطائراتها كانت تغرق سفن الحلفاء وتمنعها من الاقتراب إلى موانئ الشرق الأوسط، فقد كانت كميات كبيرة من البضائع والسلع تتدفق على هذه الموانئ لاستعمال المدنيين واستهلاكهم، مع أن معظم هذه السلع كانت كمالية تحملها السفن الحليفة التي تحتاجها العمليات الحربية على كره من العسكريين البريطانيين، ومن هنا كانت وظيفة هذا المركز الصغير هو الحد من مطالب المدنيين في الشحن الحليف، وأن يشير على القيادة العامة بالتخطيط الذي يمكن بواسطته زيادة المواد والتجهيزات العسكرية وتدفقها دون حرمان المنطقة من البضائع والمواد الضرورية لحياة السكان المدنيين، ومن هذه

البدايات قام مركز تموين الشرق الأوسط في القاهرة في نيسان ١٩٤١ م ليهيمن على اقتصاد الشرق الأوسط بأكمله عن طريق تخفيف الاستيراد من خارج المنطقة إلى أقصى حد ممكن، وتخطيط المناهج التجارية والنهوض بالإنتاج المحلي وبذلك خفف عن السلطات العسكرية عبء تصريف المسائل المدنية على مسرح العمليات، ونجح في إنقاص كمية النقل البحري للمواد غير الاستراتيجية بمقدار عدة ملايين من الأطنان. واشتركت الولايات المتحدة في مركز تموين الشرق الأوسط عام ١٩٤٢ م، وكان المكتب يمارس إشرافاً اقتصادياً واسعاً. وحقق نجاحاً في تنشيط التجارة بين دول الشرق الأوسط أثناء الحرب في حين كانت الروابط التجارية في زمن السلم ضعيفة ومشلولة بين البلاد العربية(كانت عام ١٩٣٨م ٧% فأصبحت ٣٣%).

وكان من نتائج فرض القيود الشديدة على الاستيراد أن نشأت بعض الصناعات التي لم تكن موجودة، (صناعة السكر، الأنابيب، البطاريات، الزجاج، اللمبات الكهربائية، الأحذية العسكرية والملابس والمعلبات والمشروبات...) وزاد الإنتاج المحلي واستغنى عن السلع المستوردة، وقام المركز بالقضاء على الاحتكار والتخزين والمضاربة على المواد الغذائية، كما عقد عدة مؤتمرات حضرها مندوبون عن دول المنطقة للتداول في الشؤون الزراعية والمالية والنقل وخزن الحبوب والإحصاء والتقنين، فمن مركز واحد استطاعت بريطانيا أن تحول دون حدوث ارتباكات سياسية واقتصادية في المنطقة عن طريق قيام مركز التمويل بتنسيق السياسة الاقتصادية للبلاد العربية عامة(٤٠).

ومثلما ذكرنا سابقا فإنّ الدعاية المحورية كانت تبذل الوعود وتمنّي بالعهود، جابه المشرق العربي أزمة عسكرية وسياسية خطيرة. أما الأزمة العسكرية فقد تمثلت في تمركز رومل والفرق الافريقية في السلوم وتصريح رومل أنه يأمل أن يستولي علي قناة السويس في شهر أيار سنة ١٩٤١ م، كانت إيطاليا في تموز ١٩٤٠ م قد توغلت في كينيا والسودان واجتاحت الصومال البريطاني مهددة بذلك مركز بريطانيا في عدن والبحر

الأحمر. لكن بريطانيا في كانون الثاني ١٩٤١ م مزقت[٤١] الامبراطورية الإيطالية في شرق إفريقية، حيث تم طرد الإيطاليين عن أرتيريا وأديس أبابا واضطرت القوات الإيطالية في تشرين الثاني من عام ١٩٤١ م إلى الاستسلام، ومن ناحية أخرى عبرت القوات الإيطالية الموجودة في ليبيا الحدود المصرية في تشرين الأول ١٩٤٠ م وتقدمت إلى سيدي براني. لكن القوات البريطانية هاجمت الإيطاليين في أوائل كانون الأول ١٩٤١ م وأجلتهم عن مصر. واستولت في كانون الثاني ١٩٤١م على طبرق، أعقبها بقليل إخراج الإيطاليين من برقة بعد أن تم أسر أكثر من مائة ألف إيطالي. وقد أسرعت ألمانيا لنجدة حليفتها المهزومة في شمال إفريقيا. إذ تمّ نقل قوة ألمانية جوية وقوات أخرى مصفحة مجهزة تجهيزاً كاملاً من صقلية إلى افريقيا بقيادة الجنرال روميل[٤٢]، وقد استطاعت القوات الألمانية أن تحقق نجاحاً سريعاً على البريطانيين وأجبروهم على الارتداد إلى الأراضي المصرية في مرسي مطروح، وبدا كأن مصر بأسرها قد أوشكت على الوقوع في قبضة رومل في حزيران ١٩٤١ م هذه هي الأزمة العسكرية التي واجهت بريطانيا، ويلاحظ أنّ اتصالات الملك فاروق في الفترة ما بين اختراق قوات رومل الحدود المصرية في نيسان عام ١٩٤١ م وحتى شباط ١٩٤٢ م، كانت تهدف إلى إثبات ولائه للألمان وبخاصة كلما اقتربت جيوشهم من الحدود المصرية وعند قيام هجوم رومل المضاد في كانون الثاني ١٩٤٢ م، وأصدر المحور بيانا رداً على قلق الملك فاروق لسماعه نبأ قيام محادثات بين عباس حلمي الخديوي المخلوع وبين الألمان جاء فيه: (إن دولتي المحور في الوقت الذي تتقدم فيه قواتهما المسلحة الظافرة إلى الأراضي المصرية، تؤكد على رؤوس الأشهاد نيتهما في احترام وضمان استقلال وسيادة وادي النيل، ولا تدخل قوات المحور القطر المصري دخول أراضٍ معادية بل تدخلها بقصد طرد الإنكليز منها، ومتابعة الأعمال العسكرية ضد انكلترا وتلك الأعمال التي ستحرر الشرق الأدنى من السيطرة الإنكليزية، (إنّ السياسة التي تنتهجها دولتا المحور مستوحاة من المبدأ

القائل إن مصر للمصريين)، لقد ازدادت مخاوف انكلترا في عام ١٩٤٢ م عند وصول قوات المحور الألمانية الإيطالية إلى أبواب مصر زاحفة من ليبيا، لذلك رغبت بوجود وزارة مصرية قوية تتمتع بثقة الشعب لتضمن الهدوء في مصر. ولتكون قادرة على السيطرة على غالبية الشعب المصري. ليمتنع هذا الشعب من القيام بثورة ضد بريطانيا بعد انتصارات المحور، ورغم الجهود الكبيرة التي بذلها رئيس الوزارة مصطفى كامل لمواجهة المشكلات التي ترتبت عن تطورات الحرب في الصحراء الغربية. وخاصة مشكلات التموين والغلاء فإنه لم يعد الإنكليز بحاجة إليه وإلى حزب الوفد بعد انتصاراتهم في موقعة العلمين.

وأما الأزمة السياسية فقد تمثلت في ثورة الكيلاني في العراق وكانت قد شكلت وزارة طه الهاشمي الموالية للإنكليز والتي قررت إقصاء العقداء الأربعة الضباط الأحرار، الذين رفضوا أوامر الوزارة وقاموا بانقلاب عسكري أطاح بالوزارة وشكلوا حكومة الدفاع الوطني في ٢ نيسان عام ١٩٤١ م. برئاسة رشيد عالي الكيلاني ضمت العقداء الأربعة. رفضت انكلترة الاعتراف بالحكومة الجديدة واعتبرت وزارة الكيلاني موالية لألمانية وبدأت تعد الخطط للقضاء على الثورة العراقية، تأزم الموقف بين الطرفين وقامت القوات الإنكليزية بفتح نيران مدافعها على القوات العراقية المحيطة بقاعدة الحبانية، وأعلن العراق قطع العلاقات مع بريطانيا وأبلغت الوزارة العراقية سفيرها في أنقرة، ألمانيا قرار العراق بإعادة علاقاته السياسية معها وحاجته الشديدة للمساعدة الألمانية وطلبت حكومة ألمانيا الهتلرية من حكومة فيشي تقديم المساعدة للعراق من سورية. فوافق بيتان على توريد الأسلحة للعراقيين عن طريق سورية، وأمر وزير الدفاع الفرنسي دارلان بأرسال ٧٥% من الأسلحة والذخائر الموجودة في سوريا للجيش العراقي، وأرسلت قيادة الجيش الألمانية في ٢١ أيار ١٩٤١ م[٤٣] لجنة عسكرية ألمانية إلى العراق لحماية الجيش العراقي وقيادته واستطلاع إمكانات إعادة التنظيم العسكري للقوى الخارجية، لكن كانت

مساعدة دول المحور للعراق محدودة جدا فلم يصل إلى العراق إلا جزءٌ يسيرٌ من الأسلحة ولم تستطع ألمانيا القيام بهجوم كبير في العراق لحاجتها إلى قوات عسكرية كبيرة في تلك الفترة إذ كانت تحضر للهجوم على الاتحاد السوفيتي(٤٤)، لم تكن الحرب متكافئة بين الطرفين لأن بريطانيا جاءتها النجدات من الأردن وفلسطين والبصرة مما أدى إلى انتصارها بعد حرب دامت شهراً كاملاً، فعاد الوصي الأمير عبد الإله إلى بغداد، وتم إعدام عدد من الضباط العراقيين واستتب الحكم لعملاء بريطانيا بعد القضاء على ثورة الكيلاني والتنكيل برجالها(٤٥).

أما بخصوص المسائل السياسية التي كانت تجابه بريطانيا في الشرق العربي، فقد جابهتها بداية بالقضاء على ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق وفي نفس اليوم الذي كانت فيه ثورة العراق تلفظ آخر أنفاسها ٢٩ أيار سنة ١٩٤١ م أدلى المستر أيدن وزير الخارجية بتصريح أيد فيه الاتحاد العربي: (ويبدو لي أنه من الطبيعي ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية، وكذلك الروابط السياسية أيضاً، وحكومة جلالته من ناحيتها سوف تبذل تأييدها التام لأية خطة تلقى موافقة عامة)، إن الغاية من تصريح أيدن تحقيق هدف استراتيجي وسياسي هو إتاحة المجال لربط الدول العربية كلها الخاضعة لنفوذ بريطانيا وغير الخاضعة لها بدائرة واحدة هي وزارة شؤون الشرق الأوسط البريطانية التي كان تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وضع مشروعها في مفكرته منذ أوائل نيسان ١٩٤١ م، إن ما يهم الحكومة البريطانية في الشرق الأوسط هو تمهيد الطريق أمام تقارب الدول العربية وائتلافها في ما يشبه حلف أو تضامن يسهل على بريطانيا التعامل معها ويخفف عنها كثيراً من الجهود التي يقضيها الاتصال بكل دولة من الدول العربية على حده، وتقوم وزارة الشرق الأوسط البريطانية عندئذ بدورها في الاتصال مع هذه الكتلة العربية وبذلك تتفرغ بريطانيا للحرب وهي مطمئنة إلى ارتباط هذه الكتلة بها وإلى ولائها طالما توسلت بريطانيا لتحقيق هذا

الهدف السياسي الاستراتيجي بتأييد تقارب واتحاد الدول العربية وتسهيل اتصالها بعضها ببعض، هذا هو الهدف الأول من إصدار تصريح أيدن بتأييد الاتحاد العربي والهدف الثاني لا يقل أهمية عن الهدف الأول وهو كون بريطانيا ترغب رغبة مؤكدة في استخلاص سوريا ولبنان من سيطرة النفوذ الفرنسي المستضعف يوم ذاك عن طريق ضمانه بريطانيا لاستقلال البلدين أولاً، ثم عن طريق إدماج البلدين بالحلف.

وقد خشي الحلفاء امتداد النفوذ الألماني إلى سوريا وبشكل خاص بعد قيام ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق عام١٩٤١ م. ولذلك قررت بريطانيا وحلفاؤها انتزاع سوريا من أيدي حكومة فيشي الموالية للألمان حيث تم مد النفوذ الإيطالي الألماني وتم استخدام المطارات السورية في الحرب، فبعد أن قضت بريطانيا على ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق أمر تشرشل بوضع سوريا ولبنان تحت المراقبة البريطانية لإعاقة استخدام دول المحور لدول المتوسط في العمليات الحربية[٤٦]. حيث بدأت القوات البريطانية ومنذ حزيران ١٩٤١ م. بتطبيق ذلك بمساعدة وحدتين من جيوش فرنسا الحرة، وقد انتهى الصراع مع قوات فيشي باستسلام الجنرال دانتز المندوب السامي لحكومة فيشي في سورية في ١٤ تموز ١٩٤١ م وبذلك سقطت الحكومة الفاشية في سوريا ولبنان[٤٧]، وقد مثل فرنسا الحرة في سورية الجنرال كاترو. الذي أصدر وعداً للسوريين بالاستقلال بضمانة بريطانيا وإعادة ضم اللاذقية وجبل العرب إلى سورية.

وأعلنت فرنسا استقلال سورية في أيلول ١٩٤١ م. وعينت تاج الدين الحسيني رئيسا للجمهورية في كانون الثاني ١٩٤١ م. والذي استمر رئيساً حتى وفاته في كانون الأول ١٩٤٣ م، وقد جرت انتخابات فاز فيها الوطنيون وتشكل مجلس نيابي جديد انتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في ١٧ آب عام١٩٤٣ م. وتشكلت وزارة وطنية برئاسة سعد الله الجابري عام ١٩٤٣ م. وهي الوزارة التي أعلنت الحرب على دول المحور، إلا أن قوات فرنسا الحرة التي يتزعمها ديغول ومعها القوات البريطانية تمكنت

من دخول بلاد الشام وإسقاط الوضع القائم فيها. وقام الحلفاء بتعيين الجنرال كاترو مندوباً سامياً جديداً على سوريا ولبنان، وأذاع هذا الجنرال بياناً وعد فيه السوريين واللبنانيين بالاستقلال(٤٨). إلا أن واقع الحال في لبنان من الناحية السياسية استمر كما كان عليه من قبل دون أي تغيير. ولم تختلف التدابير الإدارية التي أنجزها الجنرال كاترو إلا قليلاً عن التدابير التي اتخذت في ظل الانتداب، حاول الفرنسيون الإبطاء في إعلان الاستقلال التام ولكن اصرار الشعبين السوري واللبناني اجبر فرنسا على إعلان استقلال سوريا ولبنان عام ١٩٤١ م. وعلى الرغم من نيل لبنان الاستقلال إلا أن الأمور بقيت غير مستقرة. في ٢٢ تشرين الثاني عام١٩٤٣ م اضطرت فرنسا بدورها وتحت ضغط الاضطرابات الشعبية اللبنانية والضغوط الدولية التي مورست عليها إلى إعادة الحكومة الشرعية(٤٩).

شاركت القوات الأردنية في الحرب العالمية الثانية إلى جانب القوات البريطانية ومع انتهاء الحرب وافقت بريطانيا على إنهاء الانتداب ووقعت في لندن مع الحكومة الأردنية معاهدة تحالف وصداقة بتاريخ ٢٢ اذار ١٩٤٦ م، وأبرمت بشكل نهائي في ١٧ حزيران ١٩٤٦ م(٥٠).

في عام ١٩٤١م تمّ إنشاء المجلس الأمريكي اليهودي بهدف تدعيم التعاون الصهيوني الأمريكي وتوسيع مجالات التعاون بينهما، وهكذا نقلت الصهيونية نشاطها من القارة الأوروبية إلى القارة الأمريكية مستغلة نفوذها المالي و الإعلامي، وبذلك تكون قد أمسكت بيدها الورقة الرابحة بعد ضعف نفوذ إنكلترا دولياً في نهاية الحرب وبزوغ نجم الولايات المتحدة الأمريكية(٥١).

عملت دول المحور عن طريق لجان الهدنة ثمّ عن طريق قواتها المرابطة في تونس على تقزيم السلطة الفرنسية وتقويض نفوذها مرغمة إياها على تليين سياستها تجاه

الأهالي والتخفيف من الخناق الذي فرضته على الحركة الوطنية وإطلاق سراح الدستوريين المسجونين في فرنسا وتونس والسماح لهم بمواصلة نشاطهم السياسي[٥٢].

وقبلت الإدارة الفرنسية على مضض التعامل مع محمد المنصف باي وعدلت مضطرة ايضاً سياستها العقيمة وسمحت بإعادة إصدار بعض الصحف التونسية، لقد عمل محمد المنصف باي على إعادة الاعتبار للإدارة التونسية وإدخال الإصلاحات اللازمة عليها وأبدى تعاطفاً مع الحركة الوطنية[٥٣] وطالب بإلحاح بالإفراج عن الزعماء الوطنيين، فقد وجه في عام ١٩٤٢ م مذكرة إلى الحكومة الفرنسية حملها مطالب تتضمن تكوين مجلس تشريعي وتمكين التونسيين من الوظائف وإقرار مبدأ التعليم الإجباري وتأميم الشركات الخ. وقام بعزل المتعاونين مع السلطات الفرنسية وعين مكانهم شخصيات وطنية تمثلت في محاولة الحفاظ على موقف الحياد بين المتحاربين، انتعشت الحركة الوطنية في عهده وتم عقد الاجتماعات السياسية العلنية وإصدار الحزب الدستوري الجديد مجلة إفريقيا الفتاة[٥٤].

وفي الجزائر تابعت حكومة فيشي ملاحقة الوطنيين وإعلان الأحكام العرفية وحل المنظمات والأحزاب ونفي زعمائها، كما فعلت مع مصالي الحاج عام١٩٤٣ م. وأبعدت العرب عن أي نشاط سياسي مما دفع الوطنيين إلى الاتصال بجند الحلفاء عند نزولهم بالجزائر في ١١ تشرين الثاني ١٩٤٢ م، لقد رفض المقيم الحاكم الفرنسي الجنرال كاستر جميع المطالب السابقة وعمل على حل الهيئات التي يشترك فيها الجزائريون ووضع فرحات عباس وعدد من زعماء الحركة الوطنية تحت الإقامة الجبرية، لقد شارك الجزائريون في الحرب العالمية الثانية بنحو مليون ونصف من الشباب ما بين جنود في الميدان وعاملين لتموين الجنود من وراء الميدان. وقد برز في هذه الفترة فرحات عباس الذي تقدم مع عدد من أعضاء مجالس الوفود المالية بمطالب إلى القيادة الأمريكية والسلطات الفرنسية ولكنها رفضت من قبل فرنسا، لقد قاموا بذلك على أساس أنها حرب

بين الديموقراطية التي تمثلها دول الحلفاء وبين الفاشية والنازية التي تمثلها إيطاليا وألمانيا و دول المحور وقد دفع الكثيرون حياتهم ثمناً ظناً منهم أنه نصر ديموقراطي(٥٥).

وفي المغرب رحب السلطان محمد بن يوسف بالجيوش الأمريكية التي نزلت في المغرب(٥٦) وأسهمت الفرق المغربية في العمليات الحربية للحلفاء بأوروبا مساهمة فعالة ضمن جيوش فرنسا الحرة إلى جانب الفرق الجزائرية والتونسية، عام ١٩٤٢ م.

لقد ساهمت الحرب العالمية الثانية في إضعاف الاستعمار الفرنسي، وتقويض أهم مرتكزاته الفكرية والاقتصادية والسياسية ولا سيما أن إمكانات فرنسا العسكرية الاقتصادية لم تسمح لها بفرض كامل إراداتها على الشعوب التي استعمرتها ومواجهة الضغوطات المتزايدة التي أصبحت تمارس ضدها من قبل العديد من الهيئات والجهات الدولية بما في ذلك حلفاؤها البريطانيون والأمريكيون لإقناعها بضرورة التخلي عن مواقعها الاستعمارية، ووضع حد لنظام متداع لم يعد يتماشى مع أفكار العصر ومتطلباته، وغدا يشكل حاجزاً أمام تطور العلاقات الاقتصادية وتوسيع نطاق التجارة العالمية وإلى جانب هذه المعطيات الجديدة والضغوط الخارجية، ارتفع العديد من الأصوات داخل فرنسا نفسها بخاصة في صفوف اليسار لتنقد بشدة الاستعباد الاستعماري وتطالب النظام الفرنسي بالالتزام بمبادئه التحررية في معالجة القضايا الاستعمارية.

وقد ارتفعت أسعار المواد الغذائية في السودان، وقامت المظاهرات وتعددت الإضرابات والمؤتمرات المطالبة بإلغاء الحكم الثنائي وبجلاء انكلترة وتكوين حكومة وطنية دمقراطية، فقد ارسل مؤتمر الخريجين في عام ١٩٤٢ م مذكرة إلى الادارة الإنجليزية طالبها بقيام حكومة سودانية بعد انتهاء الحرب وبإلغاء احتكار الحكومة للتجارة الخارجية، إلا أن الحاكم العام رفض المذكرة ورفض الاعتراف بمؤتمر الخريجين كممثل للشعب السوداني، وبدأت انكلترة في العام التالي بتكوين المجلس الاستشاري

لشمال السودان في عام١٩٤٣ م، الذي لم يمثل السودان الجنوبي فيه بحجة تخلف جنوب السودان عن شماله تطبيقاً لسياستها التقليدية في الفصل بين حدود السودان من جهة، والفصل بين شمال السودان وجنوبه من جهة اخرى(٥٧).

شكل الدعم الإنكليزي للمقاومة الليبية فرصة جديدة لاستئناف الجهاد منذ عام ١٩٤٠ م حيث شكل السنوسي جيشا ليبياً بمساعدة وتشجيع إنكلترا، ساهم هذا الجيش في المعارك التي دارت رحاها بين دول المحور ودول الحلفاء في شمال إفريقيا. وكان هدف الثوار الليبيين هو طرد الاستعمار الإيطالي من البلاد لذلك التقت مصلحتهم مع دول الحلفاء في القضاء على قوات دول المحور في شمالي افريقيا، وقد حارب الليبيون على هذا الأساس إلى جانب الإنكليز في المعارك التي دارت في الصحراء الغربية المصرية، وفي نهاية تشرين الأول ١٩٤٢ م استطاعت القوات الانكليزية بقيادة مونتغمري طرد قوات المحور من صحراء مصر الغربية، بعد معركة العلمين الفاصلة ومتابعة الزحف نحو ليبيا، وتم طرد الايطاليين من برقة ثم من طرابلس الغرب وبدلاً من أن يسلم الحلفاء السلطة لممثلي الشعب الليبي وقياداته أقاموا إدارة عسكرية في البلاد حيث أقام البريطانيون في طرابلس الغرب إدارة عسكرية واحتل الفرنسيون فزان وقسموها إلى ثلاثة أقسام هي غات وفزان وغدامس واقامت الولايات المتحدة الأمريكية قواعد جوية لها في طرابلس الغرب(٥٨).

وفي المملكة العربية السعودية وبعد استيلاء المحور على يوغسلافيا واليونان وكريت وإخماد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق في ربيع ١٩٤١ م بدت دول المحور قادرة على إخضاع العالم، وطلب قادة الثورة العراقية المساعدة من ابن سعود ولكنه رفض، وقد بعث هتلر برسالة شخصية عرض فيها العمل ضد بريطانيا ووعده مقابل ذلك بعرش كل العرب، رفض عبد العزيز عرض هتلر واستدعى من سويسرا السفير السعودي فؤاد حمزة، الذي عمل على دفعه للتعاون مع المحور ونقل إليه رسالة هتلر،

ودبر عملاء غروبا سلسلة من أعمال التخريب في السعودية تم عدد منها في حقول النفط في الإحساء، فأرسلت بريطانيا إلى السعودية سرباً من الطائرات يحمل معدات لإخماد الحرائق، وقد حدثت تغييرات هامة في الشرق الأوسط تمثلت باحتلال القوات الانجليزية مواقع هامة في العراق في أواخر أيار ١٩٤١ م، وهزيمة الجيش الإيطالي في أثيوبيا، وكذلك احتلال بريطانيا وقوات فرنسا الحرة سوريا ولبنان وطرد إدارة فيشي، أراد ابن سعود تحاشي وقوع استفزازات على الحدود مع شرق الأردن والعراق فسحب قواته من الحدود إلى عمق البلاد، وألغى المعاهدة التي كان قد وقعها مع ألمانيا وطرد غروبا من السعودية في أيلول ١٩٤١ م، وقد تضررت المملكة العربية السعودية من جراء الحرب العالمية الثانية لغياب اليد العاملة من الرجال لفترة طويلة مما أثر في الزراعة وأصاب العجز المالي ميزانية الدولة وهبطت عوائد الحج وارتفعت أسعار السلع(٥٩).

وفي عمان أصدر المقيم الانكليزي في الخليج في نيسان ١٩٤٢ م أنظمة خاصة بالدفاع عن الساحل العماني بما في ذلك مسقط، تضمن إجراءات عسكرية وخلال الحرب العالمية الثانية، وبشكل خاص أثناء معركة العلمين، أرسلت دول المحور عملاء لها عن طريق إيران والعراق بهدف إثارة قبائل الساحل العماني ضد بريطانيا ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل بسبب ولاء شيوخ الساحل العماني للحكومة البريطانية من جهة، ولأحكام السيطرة الانكليزية في هذه المنطقة من جهة أخرى.

وفي اليمن استفاد الإمام من بعض الإيطاليين الذين هربوا من الحبشة وارتيريا والصومال في عام ١٩٤١ م وقام بتعيين أحدهم واسمه أما ديو جولية رئيساً لخيالته وأطلق عليه اسماً يمنياً هو عبدالله الرداعي(٦٠)، وعموما بقيت الحالة العسكرية مستقرة نسبيا بين جزأي اليمن خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، لقد ألحقت الحرب أضراراً جسيمة بالاقتصاد اليمني، فقد توقف تصدير البن والسلع الأخرى ولم تعد اليمن تستقبل

المعدات والسلع التموينية، وارتفعت أسعار السلع الغذائية، حيث فاقم الجفاف والقحط عام ١٩٤١ م، الوضع الاقتصادي فبدأت تنتشر في اليمن المجاعات والأوبئة.

الهوامش

١- ليلى الصباغ: تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دمشق ١٩٩٢، ص.

2- Al Ali AL Hussien, Ragheb: Die politik Deutschlands gegen über den arabischen Länderen 1939-1943, phil. Diss. Rostock 1989, s.35

٣- راغب العلي، طليعة الصياح، محمود عامر: دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دمشق ١٩٩٤ م، ص ٣٨٧.

٤- طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء ٢٠٠٣ م، ص ٩٥.

5- Al Ali AL Hussien, Ragheb: Die politik Deutschlands gegen über den arabischen Länderen 1939-1943, phil. Diss. Rostock 1989, s.42

٦- طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء ٢٠٠٣ م، ص ١٢٢.

٧- المرجع السابق، ص ٢٥.

٨- المرجع السابق.

٩- علي، محافظة: تاريخ الحياة النيابية في الأردن ١٩٢٩-١٩٥٧ م، نيقوسيا، ص ١٥.

١٠-راغب العلي، طليعة الصياح، محمود عامر: دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دمشق، ١٩٩٤ م، ص ٢٠٩.

١١-سمر بهلوان: القضية الفلسطينية، دمشق، ١٩٩٠ م، ص ٢٢٥.

١٢-طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء، ٢٠٠٣ م، ص ٧٠.

١٣-المرجع السابق، ص ٩٥.

١٤-المرجع السابق، ص ١٢٢.

١٥- المرجع السابق، ص ١٣٣- ١٣٤.

١٦- روبرت جبران لاندن: عمان ١٨٥٦ م مسيراً و مصيراً، ترجمة: محمد أمين عبد الله، عمان، ١٩٨٩ م، ص ٤٧٧.

١٧- طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء، ٢٠٠٣ م، ص ٩٨٥.

١٨- راغب العلي، طليعة الصياح، محمود عامر: دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دمشق ١٩٩٤ م، ص ٣٨٧.

١٩- عبد العظيم رمضان، مصر قبل عبد الناصر، ص ٢٢٩.

٢٠- صدقي علي نجدي: السودان و المأزق، د.م ١٩٨٧ م، ص٦- ١٧.

٢١- حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضي والحاضر، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٢٤٦.

٢٢- طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء، ٢٠٠٣ م، ص ٢٨٣.

٢٣- محمد خير فارس: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٥٥٥.

٢٤- راغب العلي، عبد الكافي صطوف، طليعة الصياح: تاريخ أوربا المعاصر، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٦ م، ص ٢٩٨.

25- Der zweite Weltkrieg 1939-1945, kürze Geschichte Berlin 1985, s69

٢٦- بعد ظهر الحادي والعشرين من حزيران في الساعة الثالثة و الربع مساء وصل هتلر بسيارة المرسيدس بصحبة غورنغ وكايتل وريدر وريبنتروب وهس وجميعهم في بزاتهم العسكرية. دخل هتلر وصحبه عربة القطار التي شهدت الهدنة الماضية وجلس هتلر في المقعد الذي احتله فوشن في عام ١٩١٨ م. ووصل الوفد الفرنسي بعد خمس دقائق برئاسة الفريق شال هرتز تجر قائد الجيش الثاني في سيدان. وتلى عليهم كاتيل مقدمة شروط الهدنة تاركاً أمر المفاوضات غلى رئيس قيادته العليا للقوات المسلحة.

٢٧-فيشر، هـ.أ.ل: تاريخ أوربا في العصر الحديث ١٧٨٩- ١٩٥٠ م، ترجمة: نجيب هاشم و وديع الضبع، القاهرة، ١٩٦٦ م، ص ٦٧٤.

٢٨-علي محافظة: العلاقات الألمانية- الفلسطينية من إنشاء مطرانية القدس البروتستانية وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٨٤١- ١٩٤٥ م، بيروت، د.ت، ص ٢٤٠.

٢٩-ليلى الصباغ: تاريخ العرب الحديث و المعاصر، دمشق ١٩٩٢ م، ص ٣١٤-٣١٥.

٣٠- علي المجوني: كتاب التاريخ، بكتور للطباعة، ١٩٩٤ م، ص ٤٢٦.

٣١- غروبا: أحد مسؤولي المخابرات الهتلرية في الشرق الاوسط، كان سفيراً لألمانيا في العراق في خريف عام ١٩٣٩ م، حيث طرد منه لاشتراكه في محاولة تنظيم تمرد هناك، ثم عمل ملحق في السفارة الألمانية في انقره.

32- Zentralesstaatsarchiv der DDR Potsdam (Zstap), Bestand AA.NL. 61179, Bl 91.

33- Zseap, Bestand AA.NL. 68766, s28-44.

34- Zseap, Bestand AA.NL. 68766, Bl 28 FF.

35- Al Ali AL Hussien, Ragheb: Die politik Deutschlands gegen über den arabischen Länderen 1939-1943, phil. Diss. Rostock 1989, s.45

٣٦-نفس المرجع، ص ٤٦.

37- Al Ali AL Hussien, Ragheb: Die politik Deutschlands gegen über den arabischen Länderen 1939-1943, phil. Diss. Rostock 1989, s.45-46

38- Geschichte der Araber von den Anfängen bis Zur Gegenwart, Aurtorenkollektiv unter Lietung V.L Ratmann, Berlin 1974, Bd 4, s433.

39- Martin W. Wilmingon: The Middle East supply Centre, London 1972. P8.

٤٠-رؤوف عباس حامد: مصر و عالم البحر المتوسط في العصر الحديث، القاهرة ١٩٩٦ م، ص ١٦١- ١٦٥.

٤١-أحمد طربين: تاريخ المشرق العربي المعاصر، جامعة دمشق ٢٠٠٩ م، ص ٤٢.

42- El Dessouki M.K: Hitler und der naheOsten, phil, diss, Berlin-Dahlem 1963, s73.

43- Zseap, Bestand AA.NL. 68766, s72 FF.

44- Geschichte der Araber von den Anfängen bis Zur Gegenwart, Aurtorenkollektiv unter Lietung V.L Ratmann, Berlin 1974, Bd 4, s436.

45- Grabba. F, Männer und mächte im Orient. 25 Jahre diplomatische Tätigkeit im Orient, Göttingen, Zürich, Berlin 1967, s247.

46- Geschichte der Araber von den Anfängen bis Zur Gegenwart, Aurtorenkollektiv unter Lietung V.L Ratmann, Berlin 1974, Bd 4, s433.

47- Al Ali AL Hussien, Ragheb: Die politik Deutschlands gegen über den arabischen Länderen 1939-1943, phil. Diss. Rostock 1989, s.56.

٤٨-زاهية قدورة: تاريخ العرب الحديث، بيروت، ١٩٦٧ م، ص ٢٤١.

٤٩-كمال سليمان الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، بيروت ١٩٨٤ م، ومسعود ظاهر: تاريخ لبنان الاجتماعي، بيروت، ١٩٧٤ م، ص ١٧٣.

٥٠-منيب الماضي، سليمان الموسى: تاريخ الأردن في القرن العشرين، عمان، ١٩٥٩ م، ص٣٧٣- ٣٤٠، وعبد الحميد المواطن: مصر في جامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٧٣ م، ص ١٨٦.

٥١-محمود زايد: تاريخ فلسطين ١٩١٤- ١٩٤٨ م، بيروت، ١٩٧٤ م، ص ٧٢.

٥٢-طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء، ٢٠٠٣ م، ص ٢٨٣.

٥٣-علي المجوني: كتاب التاريخ، بكتور للطباعة، ١٩٩٤ م، ص ٣٨٥- ٣٩٠.

٥٤- طليعة حسن الصياح: تاريخ العرب المعاصر، صنعاء، ٢٠٠٣ م، ص ٢٨٤.

٥٥- محمد خير فارس: تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، دمشق، ١٩٨٢ م، ص ٤٥٦.

٥٦- المرجع السابق، ص٥٥٥- ٥٥٦.

٥٧- محمد ابراهيم الاسيوطي: السودان الشقيق، ص ٦٢.

٥٨- حسن سليمان محمود: ليبيا بين الماضي والحاضر، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ٢٤٦.

59- Geschichte der Araber von den Anfängen bis Zur Gegenwart, Aurtorenkollektiv unter Lietung V.L Ratmann, Berlin 1974, Bd 4, s203.

٦٠- ناجي سلطان: التاريخ العسكري لليمن، صنعاء، ١٩٨٩ م، ص٩٥- ٩٦.

دور الجامعة العربية في حل مشكلات الحدود العربية

د. أحمد الخضر

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مقدمة:

تعد الخلافات الحدودية من أبرز عوامل إثارة النزاعات بين الدول عامة والعرب خاصة، ولهذا فإن الصراع السياسي بين الدول المحاورة بشكل خاص تظل قضية معلقة[١]. هذا الأمر ينطبق على خلافات الحدود العربية ولاسيما دول وإمارات الجزيرة والخليج، لأن هذه القضايا تعد مصدراً من مصادر الصراعات العربية. ما لم تسو تسوية حقيقية وعادلة[٢].

تضطلع المنظمات الإقليمية الدولية بمجموعة من الوظائف الأساسية، لعل أبرزها مساعدة أعضائها وتشجيعهم على فض خلافاتهم و نزاعاتهم بطرق سلمية،تحول دون تعريض السلم والأمن الإقليمي والدولي للخطر. وتتضمن مواثيق هذه المنظمات مبادئ وأحكاماً، تؤكد على ضرورة الالتزام وإتباع الطرق السلمية في تسوية الخلافات المختلفة، كما تتضمن بعض هذه المواثيق تحديد المسؤوليات المترتبة في حال مخالفة هذه الطرق وتهديد وضعية الأمن والاستقرار الدولي[٣].

وجامعة الدول العربية بصفتها تنظيماً سياسياً إقليمياً، تعد واحدة من هذه المنظمات التي جعلت من بين وظائفها وأهدافها الرئيسة العمل على فض النزاعات المحلية الناشئة بين أعضائها بطرق سلمية من خلال إتباع بعض التدابير والإجراءات المنصوص عليها في الوثائق الرسمية الصادرة عنها[٤].

وبما أن تأسيس الجامعة، كان في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فإن أعضاءها كانوا حريصين على أن تسهم نشاطاتها وهياكلها في تثبيت حالة السلم والتعاون واستقرار

تماشياً مع النصوص المنظمة لنشاط الجامعة من المبادئ والأحكام التي تدعو إلى اعتماد النهج السلمي في فض النزاعات التي يمكن أن تثار بين أعضائها(٥).

ويتجلى مبدأ فض النزاعات والخلافات بالطرق السلمية الذي تكرسه وثائق جامعة الدول العربية في الدعوة إلى المحافظة على الأمن والسلم في المنطقة، وتوثيق الصلات بين الدول المنخرطة في الجامعة، وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً لإقامة تعاون بينها ولصيانة استقلالها وسيادتها، ومعلوم أن تحقيق ذلك يستحيل قيامه مع اعتماد أسلوب العنف والقوة في تسوية النزاعات الناشئة(٦).

لا شك بأن الظروف الراهنة التي تشهدها العلاقات العربية . العربية،تطرح تساؤلاً رئيساً مهماً حول طبيعة الدور الذي يمكن أن تضطلع به جامعة الدول العربية في مجال العمل على إزالة أسباب الخلاف والتوتر بين الأقطار العربية، وتسوية النزاعات المحلية أو الإقليمية التي تثار بينها، باعتبار أن الجامعة العربية هي المنظمة الدولية المعنية بدرجة أساسية . بحفظ الأمن والسلام في منطقتها أو بين أعضائها. علماً أن الجامعة قد تعاملت مع أغلب حالات الخلاف أو النزاع في الوطن العربي منذ قيامها سنة ١٩٤٥ م، حتى الوقت الحاضر بشكل لم يحقق نجاحات، غير أنه لا يزال هناك غموض كبير لدى البعض حول طبيعة الإمكانات المتاحة لهذه المنظمة في مجال هو من أكثر المجالات حساسية وتعقيداً، أي معالجة النزاعات والخلافات العربية المحلية. وقد لا يكون مخالفاً للحقيقة القول: بإن أية محاولة جادة للرد على التساؤل المطروح بشأن ما يمكن أن تقدمه الجامعة العربية في مجال فض وتسوية النزاعات بين الدول الأعضاء، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار عدة حقائق ليس مرتبطة فقط بالإطار القانوني أو المؤسساتي الذي يضع الضوابط التي تحكم حركة الجامعة في فض النزاعات، بل بالنظر إلى الجانب الإنساني، ولهذا فإن مجموعة الدلالات التي يمكن استخلاصها من واقع خبرة الجامعة وممارساتها

خـلال النصـف الثـاني مـن القـرن العشـرين، حيـث رافقـت الجامعـة فيـه العمـل العربـي المشترك بأبعاده المختلفة، والمضطربة على حد سواء(٧).

واقع الأمر فإن الجامعة العربية بأفضل حالاتها هي خير من واقع هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي اللذين تتحكم بهما الولايات المتحدة الأمريكيـة، فعلى الأقل فإن دور الجامعـة العربيـة دور توافقي إلـى حد مـا قد تحقق محاولاتها نجاحاً إذا كانت الأطراف المتنازعة على استعداد للتوصل إلى حل، (غير أن موقف الجامعة تجاه سوريا يعـد أخـلالا بمبادئهـا) وغالبـاً فـإن الخلافـات التـي تحـدث بـين أقطـار الـوطن العربـي خلافات، إما حدودية وإما ثأرية، وكأن العرب لم يتخلوا بكل أطيافهم عما اعتادوا عليه من سلب ونهب، ومـا يحدث مـن خلافات سببها بالدرجـة الأولـى تشـجيع خـارجي، كمـا عملت عليه بريطانيا، وتستغله الولايات المتحدة.

أ- ميثاق جامعة الدول العربية وتسوية النزاعات العربية:

يعـد مبـدأ التسـوية السـلمية مـن المبـادئ الأساسـية للقـانون الـدولي، وهـو يـرتبط ارتباطـاً وثيقـاً بمبدأ عدم استخدام القوة أو التهديد حيـال العلاقات المتبادلـة بين الـدول. ولذلك فقد كان مبدأ التسوية السلمية للنزاعات من الأمور التي استغرقت حيزاً كبيراً من اهتمامـات المفكـرين فـي مختلـف مراحـل التـاريخ، وحتـى ظهـور المجتمعـات السياسـية المنظمة(٨).

ومـع انتشـار ظـاهرة التنظـيم الـدولي والمنظمـات الدوليـة فـي العصـر الحـديث، اكتسبت قضايا المحافظة على السلام والأمن والتسوية السلمية للنزاعات أهمية كبرى، إذ أصـبحت مـن أولويـات أيـة منظمـة دوليـة.كما أصـبحت مـن المهـام الرئيسـة لأي منظمـة، تسوية مـا قد ينشـأ مـن نزاعـات بـين الـدول الأعضـاء فـي المنظمـة، وكأنهـا تحـول دون تحوله إلى صـراع مسلح، فلربما أدت إلى تفكك المنظمة وإلى تقسيمها شيعاً وأحزابا بين

مؤيد ومعارض لكل من الجانبين المتنازعين[٩] (وهذا ما تعرضت وتتعرض له سورية في الوقت الحاضر).

أما بالنسبة إلى جامعة الدول العربية، فعندما أنشئت سنة ١٩٤٥م، كانت الأيديولوجية السائدة في العالم العربي، "حكم القانون"، في ذلك الوقت كانت القيادات العربية، متأثرة إلى حد كبير بالدساتير الغربية، وبروح العمل الدولي. ولذلك اعتقدت تلك القيادات أن الخلافات التي ستحدث بين الدول العربية، لا بد أن تتم تسويتها أمام القاضي الدولي(محكمة لاهاي الدولية). وخير دليل محاضر الجلسات السابقة على إصدار ميثاق ٢٢ آذار ١٩٤٥ م التأسيسي للجامعة، حيث يدرك المرء من خلاله مدى دفاع عدد من الوفود العربية، خاصة الوفد المصري والعراقي، عن مبدأ التحكيم الإجباري، في حالة نشوب نزاع عربي بين عضوين أو أكثر من أعضاء الجامعة العربية (كما حدث في الكويت سابقاً وسوريا لاحقاً). غير أن هذا الاتجاه، لقي معارضة قوية من جانب وفود عربية أخرى مشتركة في مفاوضات تأسيس الجامعة العربية، خاصة الوفد اللبناني الذي طالب بضرورة الحفاظ على سيادة الدول الأعضاء في المنظمة الإقليمية العربية. وجاء الحل التوفيقي بين الاتجاهين، الداعم للتحكيم الإجباري، والرافض له من حيث المبدأ، في نص المادة الخامسة من ميثاق ٢٢ آذار ١٩٤٥ م التي نصت على ما يلي[١٠]:

"لا يجوز الالتجاء إلى القوة لفض النزاعات بين دولتين أو أكثر بين دول الجامعة، فإذا نشب بينهما خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها، ولجأت الدول المتنازعة إلى المجلس لفض هذا الخلاف، كان قراره عندئذ نافذاً وملزماً، وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف، الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته. ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة، وبين أي دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما.

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء" ونلاحظ في هذه المادة، الطابع التقليدي الذي كان يتم من خلاله الأسلوب السلمي لفض النزاعات بين الدول العربية. فتحكيم مجلس الجامعة أو وساطته، غير ملزمين دون موافقة أطراف النزاع، كأن دبلوماسية الجامعة العربية محدودة بالحدود التي تضمنتها هذه المادة الخامسة المذكورة[١١]. حتى عندما أبرمت الدول العربية فيما بينها، معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي في ١٧ حزيران ١٩٥٠ م. وجاء في المادة الأولى من المعاهدة ما يلي:

" تؤكد الدول المتعاقدة -حرصاً على دوام الأمن والسلام واستقرارها- عزمها على فض جميع النزاعات الدولية بالطرق السلمية، سواء في علاقاتها المتبادلة فيما بينها، أو في علاقاتها مع الدول الأخرى. ولئن كانت هذه المادة الجديدة قد جاءت لتخفيف حدة القيود التي تضمنتها المادة الخامسة بين ميثاق جامعة الدول العربية، إلاّ أنها لم تغير الوضع تغيراً حقيقياً. وما زالت ولاية الجامعة العربية في تسوية النزاعات العربية اختيارية محضة، مرتهنة بموافقة الدول الأطراف في النزاع، أو عدم موافقتها على ذلك[١٢].

ب . دور الأمين العام للجامعة العربية:

إن النصوص الواردة في ميثاق الجامعة وفي اللوائح الداخلية لكل من مجلس الجامعة وأمانتها العامة هي التي تحدد وظيفة الأمين العام للجامعة العربية. غير أنه بحسب ما جرت العادة، نلاحظ بأن وظيفة الأمين العام قد شهدت تطوراً كبيراً، خاصة دوره السياسي بالنسبة للقضايا العربية كافة (وعلى ما يبدو فإن أمين الجامعة العربية نبيل العربي تخلى عن مضمون مهامه واستبدل اسمه وكنيته بحفنه دولارات قطر)، وذلك نتيجة الظروف التي أحاطت الجامعة والمشكلات التي واجهتها. نتيجة قيام الأمين العام بدور سياسي رئيس في مجال تسوية النزاعات العربية والوساطة بين الأطراف العربية المتنازعة أدى إلى تزايد اهتمام الجامعة بمنصب الأمين العام، والاقتناع بأهمية هذا

المنصب، باعتباره أحد العوامل الفاعلة في إدارة مختلف النزاعات العربية بشكل إيجابي[١٣] (إلا في هذه المرحلة وخاصة فيما يتعلق بسوريا).

تعرضت تجربة الجامعة العربية في مجال تسوية بعض نزاعات الحدود بين أعضائها مبادرات متميزة قام بها بعض أمنائها العامين، وذلك رغم الهامش المحدود الذي يتركه ميثاق المنظمة للأمين العام في مجال التدخل والمشاركة في وظيفة التسوية السلمية للنزاعات [١٤].

وإذا كانت الأمانة العامة تشكل إحدى الأجهزة الرئيسة للمنظمة، فإن ميثاق الجامعة اكتفى مع ذلك بإبراز الجانب الإداري والتنظيمي لدور الأمين العام الذي يعينه مجلس الجامعة[١٥]، كما يقوم الأمين العام بدوره بتعيين الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسين بعد موافقة المجلس، وإعداد مشروع ميزانية الجامعة الذي يعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل بدء كل سنة مالية[١٦].

لكن إلى جانب هذه الوظيفة الإدارية للأمين العام، يشير ميثاق المنظمة إلى رتبته في هيكلها التي تتحدد بمستوى سفير، الأمر الذي يتيح له إمكانية واسعة للتصرف والمبادرة ليس فقط كموظف إداري و تنفيذي للمنظمة وإنما أيضاً كممثل دبلوماسي لها وللدول العربية الأعضاء فيها[١٧].

ومما يعزز إمكانيات التصرف السياسي والدبلوماسي للأمين العام للجامعة ما تضمنته المادة الثانية عشرة من النظام الداخلي لمجلس الجامعة التي منحته اختصاصات سياسية كما أن المادة الأولى من النظام الداخلي للأمانة العامة تتضمن قيام الأمين العام بالوظائف الأخرى التي توكلها إليه هيئات الجامعة، مما يعني أن هذه الوظائف الأخرى قد تتضمن أموراً ومهاماً سياسية[١٨].

ولعل من جملة الأمور السياسية التي يمكن للأمين العام القيام بها في إطار جهود الجامعة الرامية إلى تسوية الخلافات المحلية، قيامه بعملية الوساطة من أجل

التوفيق بين المتنازعين إما بتكليف من مجلس الجامعة عملاً بالمادة الثانية عشرة المشار إليه[١٩]، أو بمبادرة منه بوصفه ممثلاً دبلوماسياً للمنظمة ولأعضائها جماعة وفرادى. ومن خلال ذلك، فإن هناك اتجاهاً داخل الجامعة يرمي إلى تعزيز المكانة والدور السياسي والدبلوماسي للأمين العام من خلال جعل عملية تعيينه مرتبطة ليس باتفاق أعضاء مجلس المنظمة وإنما باتفاق ملوك ورؤساء الدول الأعضاء فيها[٢٠].

ويتبين من خلال تحليل نشاطات وتجارب الأمناء العامين السابقين، أن ممارساتهم شملت عدداً من الأدوار السياسية والدبلوماسية[٢١] التي كانت تدعم وظيفة الجامعة في تسوية عدة قضايا خلافية بما فيها قضايا الحدود العربية.

ولعل من أبرز القضايا الحدودية التي طرحت على الجامعة العربية في بداية عهدها، الخلاف الحدودي بين العراق والكويت الذي نشب سنة ١٩٦١ م بعد الاستقلال السياسي للكويت وتكرر في مطلع التسعينيات، وذلك على إثر دعوة الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم بضم الكويت للعراق والرئيس صدام حسين وعدم الاعتراف بالحدود الدولية الفاصلة بين القطرين على أساس الشعار الذي رفعه آنذاك "حدودنا من زاخو إلى جنوب الكويت" كما قام بتحريك قوات العراقية إلى حدود الكويت، وفي الوقت نفسه تحركت قوة بريطانية إلى الكويت بطلب رسمي من حاكم البلاد[٢٢] لمواجهة القوات العراقية وكررها حاكم الكويت عندما غزا صدام الكويت ثانية.

ومباشرة بعد اندلاع هذا الحادث، قامت الكويت بمراسلة الجامعة العربية ومجلس الأمن بالأمم المتحدة تشتكي فيها من التصرف العراقي، وبرغم البطء الذي ميز موقف الجامعة عن موقف مجلس الأمن في تفاعلهما مع الحادث، فإن الأمين العام للمنظمة العربية نشط- بعد تكليفه من طرف المجلس- في إجراء وساطة بين المسؤولين العراقيين والكويتيين تمخضت عن بلورة تصور للجامعة فيما يتعلق بتسوية هذا النزاع[٢٣].

وقد تضمن قرار مجلس الجامعة المتعلق بهذه التسوية والصادر في ٢٠ تموز ١٩٦١ م التزام حكومة الكويت بطلب سحب القوات البريطانية من أراضيها في أقرب وقت ممكن، كما تضمن التزام حكومة الجمهورية العراقية بعدم استخدام القوة في ضم الكويت إلى العراق، وتأييد كل رغبة تبديها الكويت للوحدة أو الاتحاد مع أي من دول الجامعة العربية طبقاً لميثاق الجامعة، والترحيب بدولة الكويت عضواً في المنظمة ومساعدتها في الانضمام إلى الأمم المتحدة. كما التزمت الدول العربية وفقاً لهذا القرار الذي صدر بالإجماع باستثناء صوت وفد العراق، بتقديم المساعدة الفعالة لصيانة استقلال الكويت بناءً على طلبها، وتكليف الأمين العام باتخاذ الإجراءات اللازمة لوضع هذا القرار موضع التنفيذ[٢٤].

وفي إطار إجراءات تنفيذ هذه الفقرة من القرار، قام الأمين العام للجامعة- ولأول مرة في تاريخ المنظمة- بالإشراف على إنشاء قوة طوارئ عربية للإشراف على تنفيذ بنود التسوية[٢٥]، وذلك على غرار ما تقوم به الأمم المتحدة في بعض حالات النزاع الدولية الأخرى.

وقد أسهم تحرك الجامعة العربية من خلال أمينها العام في التخفيف من حدة الأزمة العراقية الكويتية آنذاك، ولم تكد تمضي سنتان بعد ذلك حتى اعترفت العراق باستقلال الكويت، كما اتفقت حكومتا البلدين على تبادل العلاقات الدبلوماسية بينهما[٢٦].

ويتضح من خلال هذا النزاع أن الأمانة العامة للجامعة أدت دوراً متميزاً في تهدئته، وحققت نجاحاً مهماً فيما يتعلق بتكوين قوات طوارئ عربية برغم أن هذا النوع من الآليات العسكرية لفض النزاعات لم يرد في ميثاق المنظمة. كما شكل انسحاب القوات البريطانية من الأراضي الكويتية أحد جوانب نجاح هذا الدور الذي قام به الأمين العام ومن خلاله نجاح الدبلوماسية الجامعة العربية التي تحركت لفض النزاع [٢٧].

أمام النزاع العراقي الكويتي لسنة ١٩٧٣ م فقد بادر الأمين العام للجامعة غداة اندلاعه بزيارة إلى الكويت، وتمخضت جهوده هناك إلى تعزيز جهود وساطة عربية أخرى تمت خارج نطاق الجامعة عن تشكيل لجنة مختلطة كلفت بتحديد الحدود بين البلدين المتنازعين. وكانت الجهود العربية التي جاءت تعزيزاً لمبادرة الأمين العام متمثلة في الدور الذي قامت به كل من سوريا ومصر اللتين أرسلتا مبعوثين عنهما إلى العراق والكويت لدعوتهما إلى تسوية خلافهما بالطرق الودية. كما أسهم في هذه الجهود العربية زعيم منظمة التحرير الفلسطينية الراحل ياسر عرفات، مما مكن من التوصل إلى اتفاق شرعت بموجبه القوات العراقية بالانسحاب في ٥ نيسان ١٩٧٣ م من المواقع التي كانت قد احتلتها بالكويت [٢٨].

وشكلت نزاعات الحدود بين شطري اليمن الذي نشب سنة ١٩٧٢ م نموذجاً آخر للنزاعات الحدودية العربية التي توفقت في تسويتها دبلوماسية الجامعة العربية عن طريق أمينها العام (لقد اتحد شطري اليمن في دولة واحدة فزالت نزاعات الحدود وبقيت نزاعات الوجود مضطربة في أذهان أصحاب المناصب من الزعامات اليمنية الحالية). فعلى إثر فشل الجهود التي بذلها وزير خارجية الكويت لإيجاد حل سلمي لهذا النزاع الذي انطلق في شباط وأيار ١٩٧٢ م وتصاعد بعد ذلك في أيلول من العام نفسه، تقدمت الجمهورية اليمنية بطلب إلى مجلس الجامعة المنعقد في دورته العادية في أيلول ١٩٧٢ م للنظر في هذا الخلاف [٢٩].

وكان الأمين العام قد قام بإجراء مساع حميدة بين المتنازعين قبل عرض الخلاف على المجلس، إلاّ أن هذا الأخير أصدر بعد ذلك توصية تقضي باستمرار الأمين العام في جهوده بمساعدة لجنة خاصة لتحقيق المصالحة بين اليمنيين وفض خلافهما حول مناطق الحدود المتنازع عليها، وبذلك تمكن الأمين العام بمساعدة أعضاء اللجنة من التوصل إلى تصور لتسوية هذا الخلاف، وتمثل ذلك في الإعلان عن اتفاق في كل من

صنعاء وعدن في ١٣ تشرين الأول ١٩٧٢ م يقضي بوقف إطلاق النار وانسحاب قوات الطرفين إلى مسافة عشر كيلومترات من الحدود المشتركة وإنهاء تركيز القوات ووقف الحملات الإعلامية المضادة وتشكيل لجنة عسكرية مشتركة تتولى الإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار على الحدود بينهما مع إشراك ممثلين عن الجامعة العربية في هذه العملية[٣٠].

ولم يتوقف نجاح جهود الجامعة فقط عند بلورة هذا التصور للتسوية، وإنما امتدت إلى حد تشجيع البلدين على الاتحاد أثناء مباحثاتهما الثنائية، مما تمخض عنه توقيع اتفاق سلام بين البلدين من جهة وتوقيع اتفاقية اتحادية بينهما في ٢٨ تشرين الأول ١٩٧٢ م من جهة أخرى[٣١].

وإذا كانت هذه النماذج من النزاعات الحدودية العربية قد عرفت نجاحاً،فإن كان نسبياً في عملية تهدئتها بالطرق السلمية، لكن على الأقل بذلت جهود من خلال الأمين العام[٣٢]، غير أنه هناك نماذج أخرى قد أخفقت الجامعة في إيجاد حلول لها.

ج- دور مؤتمرات القمة العربية:

إلى جانب الدور المتزايد الذي يؤديه أمين عام جامعة الدول العربية في مجال التسوية السلمية لخلافات ونزاعات أعضاء المنظمة، تلعب اجتماعات القمة العربية التي يحضرها ملوك ورؤساء الدول الأعضاء دوراً مميزاً في محاولة حل القضايا الخلافية.

إن نظام انعقاد مؤتمرات القمة العربية سواء بصورة منتظمة أو غير منتظمة غير وارد في ميثاق الجامعة، إلاّ أن الميثاق تضمن إشارة إلى هذا المستوى العالي من تمثيل الدول العربية الأعضاء في المنظمة، بحيث جرى التأكيد على أن يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة[٣٣].

ولعل انعقاد اجتماعات ممثلي الجامعة على مستوى القمة لا يعكس فقط أحد أبرز مظاهر النشاط السياسي للمنظمة العربية، وإنما أيضاً رغبة أعضائها في تفعيل

دورها أكثر وتأكيد وظيفتها كمجال للتشاور والتداول والتنسيق على أعلى مستوى وفض الخلافات بالطرق الودية واحتوائها قبل أن تنفجر، لذلك فإن اجتماعات القمة كانت من أهم الوسائل السياسية والدبلوماسية التي كان يتم التطلع إليه في معالجة الخلافات التي يستعصي حلها أمام طرق ووسائل التسوية السلمية الأخرى[٣٤].

إذا كانت قرارات مؤتمرات القمة العربية قد أضحت تمثل أحد مصادر الشرعية العربية إلى جانب مقتضيات ميثاق الجامعة ومعاهدة الدفاع المشترك التي يتم الاستناد إليها في العمل العربي والتنسيق والتعاون بين أعضاء المنظمة[٣٥]، فإن انعقاد أعضائها على مستوى القمة وبصورة منتظمة أحياناً لم يخضع لأية محاولة تأطيرية أو تنظيمية في إطار ميثاق المنظمة، كما لم يجر إعداد أو وضع نظام داخلي لهذا النوع من الاجتماعات لملوك ورؤساء الدول العربية وطريقة أعمالهم وطبيعة القضايا والأمور التي يمكن دراستها[٣٦].

ونتيجة غياب هذه الإجراءات التنظيمية فقد تكررت اجتماعات القمة العربية، نتيجة طبيعة القضايا والخلافات التي يمكن طرحها للتداول والبحث فيها، فإن المبادرة السياسية للجامعة العربية أو لدولة أو لمجموعة دول عربية تظل أهم دافع يكمن وراء عقد هذا النوع من الاجتماعات. أما القضايا السياسية التي تطرح للنظر فيها خلال هذه الاجتماعات، فإن ذلك يظل رهيناً بتقدير ممثلي الدول العربية وخاصة منهم وزراء الخارجية الذين ينكبون في اجتماعات تمهيدية على وضع جدول أعمال مؤتمر القمة وتحضير ملفاتها. ومع أن اجتماعات القمة العربية طغت على معظمها قضايا الصراع العربي الإسرائيلي وخاصة ما يرتبط منها بقضية فلسطين بالإضافة إلى أمور أخرى تهم مجالات العمل العربي المشترك، فإن قضايا الحدود العربية حظيت هي الأخرى بجانب من اهتمامات قادة الدول الأعضاء بالجامعة خلال مختلف لقاءاتهم المتعددة، بحيث عولجت بعض هذه القضايا الحدودية بصورة مباشرة عبر إدراجها في جدول أعمال

القمة، كما أمكن معالجة هذه القضايا بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق الاجتماعات واللقاءات الجانبية التي تتاح للقادة العرب على هامش أشغال المؤتمر(٣٧).

ورغم أن نجاح معالجة هذه القمم العربية للخلافات والنزاعات الحدودية كان محدوداً(٣٨)، إلا أن دبلوماسية القمة في هذا المجال عدت من جملة الطرق السلمية التي استحدثتها الجامعة لتعزيز الوسائل والآليات الأخرى المتاحة، كالوساطة من أجل التوفيق والتحكيم ومساعي الأمين العام.

ومن ضمن النزاعات الحدودية التي أدت فيها القمة العربية دوراً ملحوظاً في تسويتها النزاع حول منطقة الوديعة الذي نشب بين المملكة العربية السعودية والشطر الجنوبي لليمن قبل الوحدة. كما كادت إحدى اجتماعات القمة العربية أن تجد تسوية للنزاع الحدودي المغربي- الجزائري لسنة ١٩٦٣ م، وذلك في اجتماع القاهرة الذي عقد في الفترة من ١٣- ١٧ كانون الثاني ١٩٦٤ م، بحيث جرى في إطار هذا المؤتمر اتصال مباشر بين زعيمي الدولتين المتنازعتين، ونتج عن هذا اللقاء إبرام الجانبين لاتفاق جديد بينهما بعد ذلك في ٢٠ شباط من نفس السنة نص على انسحاب القوات المتحاربة من الحدود المشتركة للبلدين إلى ما وراء ٧ كم من المناطق التي تم احتلالها في الأول من تشرين الأول عام ١٩٦٣ م، كما نص الاتفاق على اعتبار أن منطقتي حاسي بيضاء وأم العشار مناطق منزوعة السلاح فضلاً عن أن الطرفين قررا كذلك تبادل الأسرى بينهما(٣٩).

وبرغم أن التسوية النهائية للنزاع الحدودي المغربي- الجزائري، قد أعلن عنها أمام إحدى مؤتمرات القمة الإفريقية، فقد سبقتها عدة جهود وخطوات تمهيدية لا شك أن مؤتمر القمة العربية بالقاهرة كان إحدى جوانبها، فدبلوماسية القمة العربية- حتى وإن لم تكن ناجعة في فض الخلافات بصورة حاسمة ومباشرة- فهي على الأقل تتيح فرصة لقاء القادة السياسيين للحديث فيما بينهم وتبادل وجهات النظر وتفهم المواقف المختلفة من

القضايا الخلافية المطروحة، مما يساهم في إيجاد مناخ ملائم للحوار والتفاوض مثلما جرى بالنسبة للنزاع المغربي الجزائري(٤٠).

إن مؤتمر القمة العربي الذي عقد بالقاهرة ١٠ أب ١٩٩٠ م، كان أول مؤتمر قمة ينعقد بصورة استعجاليه خصيصاً للنظر في نزاع إقليمي وحدودي تمثل في قيام القوات العراقية باجتياز الحدود والتغلغل في الأراضي الكويتية بحجة أنها جزء من العراق(٤١). فبمجرد اندلاع الأزمة العراقية الكويتية التي تصاعدت بصورة خطيرة ووتيرة سريعة، أخذت بعض الدول العربية والأجنبية تبذل جهودها ومساعيها لاحتواء المشكلة وتحقيق عودة القوات العراقية إلى بلادها، لكن رفض الجانب العراقي وإصراره وتمسكه بموقفه القاضي بضم الكويت وتلويح القوى الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية بالتدخل العسكري(٤٢)، دفع بمصر إلى دعوة الدول العربية لعقد مؤتمر قمة طارئ في القاهرة من أجل الخروج بموقف عربي موحد حيال هذه الأزمة.

وانعكست المواقف العربية على قرارات مؤتمر القاهرة حيث ظهر انشطار الصف وتباين المواقف، فقد رفض هذه القرارات كل من العراق وفلسطين وليبيا، وتحفظت بشأنه كل من السودان والأردن وموريتانيا. أما الجزائر واليمن فقد امتنعتا عن التصويت، في حين وافقت عليه بقيت الدول العربية. حيث جاءت هذه القرارات بأغلبية ١٢ صوتاً رافضاً للتحرك العراقي ومندداً به(٤٣).

من خلال استعراض مواقف الجامعة العربية إزاء النزاعات الحدودية العربية، يمكن القول إن دور الجامعة قد اتسم بعدم الفعالية وذلك إما بسبب القصور في الإطار القانوني لتسوية النزاعات العربية عامة، وبالتالي نزاعات الحدود في الميثاق الحالي. أو الحساسية الشديدة التي تظهر عند معالجة نزاع حدودي معين بين الدول العربية، وذلك ابتداء من الوساطة أو المساعي الحميدة للأمين العام أو مجلس الجامعة باعتباره السلطة المختصة -وفقاً للميثاق الحالي- في تسوية النزاعات أو حتى مؤتمرات القمة العربية.

إنه ومع عدم الحسم النهائي حتى الآن لمعظم إن لم يكن لكل نزاعات الحدود العربية، واحتمال انفجارها وتصاعدها إلى الدرجة التي تهدد بنشوب حروب بين الدول العربية، فإنه لا سبيل إلى ذلك إلاّ بإنشاء محكمة عدل عربية تستطيع من خلالها التوصل إلى تسوية نهائية لنزاعات الحدود، تلك في حالة عدم توصل الطرفين إلى حل نهائي لها. إن الواقع العربي الحالي لا يمكن من إعادة النظر في ميثاق الجامعة الحالي وإقرار مشروع العديل. ومع ذلك يبقى من الضروري الدعوة إلى الإسراع بإقرار مشروع التعديل وجعله ميثاقاً رئيسيا لمعالجة القصور في معالجة النزاعات العربية وبالتحديد نزاعات الحدود العربية(٤٤).

كان دور الجامعة العربية مخيباً للآمال. وقد سوغ البعض هذه الخيبة بأن الجامعة ليست سوى انعكاس للأوضاع والعلاقات العربية. ولكن هذا التبرير خاطئ لأن الجامعة العربية عندما نشأت وفجرت الآمال، ظهرت بمظهر القائد لمسيرة الوحدة. وما يطلب من القائد يفوق ما يطلب من غيره. والمطلوب من القائد في العالم الثالث أن يتفاعل مع الجماهير ويخطط لمستقبلها ويقودها في خط مستقيم نحو الهدف المنشود. ولهذا كان على الجامعة أن تكون في سلوكها وأعمالها، قدوة حسنة لأعضائها، ومثلاً يحتذى في تسوية النزاعات والخلافات، والترفع عن المهاترات والترهات، والتسامي في كل التصرفات. والمؤلم أن الجامعة عجزت عن بلوغ هذا المستوى، وأحجمت عن تذليل الصعاب، ورضيت بالانغماس في حمئة الخصومات الرخيصة، ولم تتمكن أبداً من فرض إرادتها وهيبتها على أعضائها(٤٥).

ورأى البعض أن من أسباب فشل الجامعة العربية حاجتها إلى محكمة عدل عربية. وبالغ البعض في تقدير أهمية هذه المحكمة، كما فعل الدكتور محمد طلعت الغنيمي "إلى اليوم الذي تشرق فيه تلك المحكمة حتى تقوم بدورها في تدعيم السلام في المنطقة وتأكيد سيادة القانون الدولي وتطوير أحكام القانون العام العربي...". ونحن نعتقد

أن إنشاء محكمة عدل عربية لن يخفف من حدة النزاعات ولن يغير من واقع العلاقات العربيـة شيئاً. فالنزاعـات العربيـة هـي خلافـات سياسـية وليسـت قانونيـة. وبسـبب هـذه الصيغة السياسية لن تتمكن المحكمة من إنجاز مهمتها. وهناك دول نامية عديدة تنفر من القانون الدولي لأنه من صنع الدول الاستعمارية، ولأنـه تعبير صـادق عن ميول هذه الدول ومطامعها ورغباتها.

٣- التسوية القانونية لنزاعات الحدود السياسية العربية

إن نزاعات الحدود الدولية تخضع خلال عملية تسويتها السلمية لإحدى طريقتين أساسيتين الأولى سياسية والثانية قضائية، فأما طريقة التسوية القانونية أو القضائية، فهي التي تباشرها إحدى الجهات التحكيمية استناداً إلى النصوص والوثائق والأحكام القانونية التـي تعدم الاعتبـارات السياسية أو الأيديولوجيـة أو أي اعتبـارات أخرى غير القانونيـة، وغالباً ما يجسد هذه الجهات التي تقوم بهذا النوع من عمليات التسوية المحاكم الدوليـة وبصفة أخص محـاكم المنظمـات الدوليـة الإقليميـة ومحكمـة العدل الدوليـة التابعـة للأمم المتحدة[٤٦].

تأخذ التسوية القانونيـة للنزاعـات الدوليـة علـى وجـه العمـوم إحـدى صـورتين فـي التطبيق العملي؛ وهما التحكيم الدولي من جانب والقضاء الدولي من جانب آخر. ويمكن القول بـأن هـاتين الوسيلتين تعتبران بحق من أكثر الوسائل السلمية التـي تفضـل الـدول اللجوء إليها لتسوية ما قد يثور بينها من نزاعات بشأن الحدود وكذا النزاعات الإقليمية عموماً. ونعرض فيمـا يلـي لـدور كل من هاتين الوسيلتين فيمـا يتعلـق بهـذا الموضـوع، وذلك في ضوء ما تكشف عنه خبرة العمل الدولي والعربي المعاصر[٤٧].

إن التسوية القضـائية للنزاعـات الدوليـة تقتضـي عـرض النـزاع علـى التحكيم أو القضـاء الدولي، وتتوج بالقرارات الإلزامية التي تصـدر عنهما، وتكون نهائية وغير قابلـة

للاستئناف كما يلتزم الأطراف باحترامها وتنفيذها. وتشمل التسوية القضائية عرض النزاع على التحكيم والقضاء الدولي[٤٨].

أ- التحكيم الدولي:

التحكيم له أهمية بارزة في حل الكثير من النزاعات الدولية، ويقصد به قيام شخص أو هيئة في الفصل في نزاع دولي بموجب قرار ملزم بناء على طلب أطراف النزاع، وقد عرف التحكيم منذ القدم كوسيلة لتسوية النزاعات الدولية ويهدف التحكيم إلى حل النزاعات بين الدول بواسطة قضاة يختارونهم على أساس احترام القانون[٤٩]. وفي ذلك يقول الله تعالى:{وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين}[٥٠].

والتحكيم الدولي بصورته الراهنة قد عرفته المجتمعات القديمة، وقدتم تنظيم التحكيم الدولي تنظيماً جيداً على النحو الحالي، وتمثل اتفاقيتا لاهاي للتسوية السلمية للنزاعات الدولية الأولى سنة ١٨٩٩ م، والثانية كانت سنة ١٩٠٧ م أول إجماع دولي على أهمية استخدام التحكيم في حل الخلافات التي تثور بين الدول. وبموجب هاتين المعاهدتين المذكورتين تم تنظيم موضوع وإجراءات التحكيم كما تم وضع هيكل محكمة التحكيم الدائمة[٥١].

التحكيم هو إجراء يقوم به طرف ثالث مختار- قد يكون شخص واحد أو هيئة تحكيم -بغية الفصل في نزاع دولي معين- بين دولتين أو أكثر- سواء كان ذا صبغة قانونية تتعلق بتفسير معاهدة ثنائية أو متعددة الأطراف، أو يرتبط بادعاءات تتعلق بانتهاك قواعد القانون الدولي، أو ذا صبغة مادية بحتة مثل النزاعات الحدودية[٥٢].

باعتبار أن التحكيم وسيلة سلمية لتسوية النزاعات، فهو الإجراء الذي يمكن عن طريقه التوصل إلى تسوية سلمية للنزاع محل الاعتبار بحكم ملزم تصدره هيئة خاصة

يقوم أطراف النزاع بأنفسهم باختيار أعضائها ووضع القواعد الإجرائية ذات الصلة وتحديد القانون الذي تتولى هذه الهيئة تطبيقه في شأن هذا النزاع، وواضح أن التحكيم الدولي بهذا المعنى له سماته الخاصة والمميزة(٥٣).

الأصل في التحكيم أنه إجراء رضائي، بمعنى أنه يقوم على القبول والإرادة الحرة للأطراف المتنازعة، ولا تجبر دولة ما على الالتجاء إلى التحكيم إلا إذا هي وافقت على ذلك. ومثل هذه الموافقة قد تكون سابقة لحدوث النزاع وقد تكون لاحقة له أو بمناسبة نشوبه. وتعتبر الموافقة على الالتجاء إلى التحكيم مسبقة إذا كانت الدول المعنية قد أبرمت معاهدة تحكيم عامة تعهدت فيها بأن تحيل إلى التحكيم كل ما ينشأ بينها من نزاعات أو طائفة معينة من النزاعات. فمثلاً أبرمت الأرجنتين وشيلي معاهدة تحكيم عامة في ٢٨ أيار ١٩٠٢ م. وبموجب هذه المعاهدة اتفقتا على تحكيم الحكومة البريطانية في أي نزاع ينشأ بينهما مهما كانت طبيعته، وكانت هذه المعاهدة هي أساس تحكيم الحدود لسنة ١٩٦٦ م بين الأرجنتين وشيلي(٥٤).

وتعد الموافقة على التحكيم مسبقة أيضاً إذا نصت المعاهدة المبرمة على أنه إذا نشأ أي خلاف أو نزاع بشأن تفسير أحكام المعاهدة أو تطبيقها فإنه يحال على التحكيم. ومن أمثلة ذلك معاهدة الحدود لسنة ١٩٧٥ م بين العراق وإيران. فقد نصت المادة السادسة من هذه المعاهدة على أنه إذا حدث خلاف حول تفسير أو تطبيق المعاهدة والبروتوكولات الثلاثة وملاحقها، ولم يفض هذا الخلاف عن طريق المفاوضات أو المساعي الحميدة لدولة صديقة فإنه "سيصار إلى حله عن طريق التحكيم"(٥٥).

الموافقة اللاحقة فتكون عندما تتفق دولتان بموجب اتفاق خاص على إحالة نزاع قائم بينهما -أي نزاع سبق نشوبه- إلى التحكيم. فمثلاً مسألة البر يمي أحيلت إلى التحكيم بموجب اتفاق عقد في ٣٠ تموز ١٩٥٤ م بين حكومة المملكة المتحدة البريطانية وايرلندا الشمالية والمملكة العربية السعودية. وسواء كانت الموافقة على إحالة

النزاع إلى التحكيم سابقة أو لاحقة لنشوب النزاع، فإنه ينبغي على الأطراف المتنازعة أن تعقد اتفاق تحكيم compromis تحدد فيه -بين أمور أخرى- عدد المحكمين، وطريقة اختيارهم، وموضوع النزاع، والقانون الذي تطبقه المحكمة، والإجراءات التي تتبعها، والمدة التي يصدر الحكم خلالها، وليس هناك ما يمنع أطراف النزاع من أن تستعين في إعداد اتفاق التحكيم بمعاهدة لاهاي لسنة ١٩٠٧ م، أو بالقواعد النموذجية لإجراءات التحكيم التي وضعتها لجنة القانون الدولي في سنة ١٩٥٣ م وتبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في سنة ١٩٥٨ م(٥٦).

وفيما يتعلق بمكان انعقاد محكمة التحكيم فإن اتفاق التحكيم هو الذي يتكفل بتحديده، فإن لم يتعرض له بالذكر، فإنه قد يحدد بناء على توصية من رئيس المحكمة. وفي كل الأحوال فإنه ينبغي عند اختيار مقر المحكمة مراعاة توفر المستلزمات الإدارية الضرورية التي تمكنها من أداء مهامها بدون عوائق، فإن كان عمل المحكمة يتطلب على سبيل المثال، العمل بلغتين مختلفتين (الإنجليزية والعربية مثلاً) في آن واحد فإنه من الأيسر لها أن تعقد جلساتها حيثما يمكنها الحصول على العاملين والمترجمين الشفويين والتحريريين باللغتين المطلوبتين وبالنسبة للنظام الداخلي لمحاكم التحكيم، فإن اتفاقيات التحكيم تتفاوت نسبياً في هذا الشأن، فأحياناً تخولها صلاحيات واسعة تمكنها من تحديد قواعد نظامها الداخلي، مع أي إجراءات أخرى قد تؤثر على سير التحكيم، وقد يحدث عكس ذلك، فلا تتمتع محاكم التحكيم إلا بسلطة محددة في هذا المجال(٥٧).

وتحدد مهمة المحكمين واختصاصهم بموجب الاتفاق التحكيمي، سواء كان طارئاً أو دائماً، كما يحق للمحكمين، تفسير مضمون الاتفاق بشرط أن يراعوا في ذلك مقاصد الأطراف المعنية، وأن يتقيدوا مبدئياً -بالتفسير القانوني- لدى محاولتهم تسوية أي نزاع (وقد يحدث أن الدول المعنية تفوض المحكمين بصلاحيات استثنائية، وتقر لهم حق

الاستناد في الحكم الذي سيصدرونه، إلى اعتبارات العدل والإنصاف، أو تمنح قراراتهم صيغة تنفيذية[٥٨].

اختيار المحكم أو هيئة التحكيم:

للأطراف المتنازعة كامل الحرية في اختيار المحكمين وتحديد عددهم. فمن الجائز أن يكون المحكم شخصاً واحداً أو هيئة تحكيم مكونة من عدة أشخاص. وسنورد نماذج للطرق المختلفة التي تم أو يتم بموجبها اختيار هيئات التحكيم، فمثلاً حسب نظام المحكمة الدائمة للتحكيم، وما لم تتفق الأطراف المتنازعة على خلاف ذلك، يعين كل طرف محكمين يكون أحدهما على الأكثر من جنسيته وذلك من قائمة أسماء المحكمين المودعة لدى المحكمة. ويقوم المحكمون الأربعة بدورهم اختيار محكم مرجح Umpire تكون له الرئاسة، ويشترط ألا يكون أي من المحكمين من رعايا دولة هي طرف في النزاع أو مقيماً في إقليمها أو يعمل في خدمتها[٥٩].

فيما يتعلق بمكان انعقاد محكمة التحكيم فإن اتفاق التحكيم هو الذي يتكفل بتحديده، فإن لم يتعرض له بالذكر، فإنه قد يحدد بناءً على توصية من رئيس المحكمة. وفي كل الأحوال فإنه ينبغي عند اختيار مقر المحكمة مراعاة توفر المستلزمات الإدارية الضرورية التي تمكنها من تأدية مهامها بدون عوائق، فإن كان عمل المحكمة يتطلب على سبيل المثال، العمل بلغتين مختلفتين (الإنجليزية والعربية مثلاً) في آن واحد فإنه من الأيسر لها أن تعقد جلساتها حيثما يمكنها الحصول على العاملين والمترجمين الشفويين والتحريريين باللغتين المطلوبتين. وبالنسبة للنظام الداخلي لمحاكم التحكيم، فإن اتفاقيات التحكيم تتفاوت نسبياً في هذا الشأن، فأحياناً تخولها صلاحيات واسعة تمكنها من تحديد قواعد نظامها الداخلي، مع أي إجراءات أخرى قد تؤثر على سير التحكيم، وقد يحدث عكس ذلك، فلا تتمتع محاكم التحكيم إلا بسلطة محددة في هذا المجال[٦٠].

تحدد مهمة المحكمين واختصاصهم بموجب الاتفاق التحكيمي، سواء كان طارئاً أو دائماً، كما يحق للمحكمين، تفسير مضمون الاتفاق بشرط أن يراعوا في ذلك مقاصد الأطراف المعنية، وأن يتقيدوا مبدئياً -بالتفسير القانوني- لدى محاولتهم تسوية أي نزاع (وقد يحدث أن الدول المعنية تفوض المحكمين بصلاحيات استثنائية، وتقر لهم حق الاستناد في الحكم الذي سيصدرونه، إلى اعتبارات العدل والإنصاف، أو تمنح قراراتهم صيغة تنفيذية- كما جرى في قضية خليج ديلاغو سنة ١٨٧٢ م، إذ عهد إلى رئيس جمهورية فرنسا رسم الحدود بين بريطانيا العظمى والبرتغال في أفريقيا الجنوبية، ولكن هذا التصرف يخرج التحكيم عن أهدافه) ويحدث في المقابل، أن الدول تتخذ الحيطة والحذر اللازمين، فتقوم باطلاع المحكمين على القواعد القانونية التي ينبغي عليهم الاستئناس بها(٦١).

والخلاصة، بالنسبة للقانون الذي يجب على محاكم التحكيم أن تطبقه على النزاع الماثل أمامها، فإن الأطراف قد تتفق على تطبيق قانون معين بذاته، وقد يتم تحديده باتفاقيات التحكيم، كأن يشار مثلاً بأن قواعد القانون الدولي ومبادئه هي الواجبة التطبيق. وينتهي عمل محكمة التحكيم بإصدار حكم تتخذه بأغلبية أصوات أعضائها في مداولات سرية، ويكون له قوة الأحكام القضائية، ويعتبر ملزماً لأطراف النزاع بشكل قاطع غير قابل للاستئناف، ما لم يرد نص في اتفاق التحكيم، يقضي بخلاف ذلك(٦٢).

بعد صدور الحكم تلتزم الدول الأطراف بالامتثال له وتبدأ على الفور باتخاذ الإجراءات اللازمة لتنفيذه، فإن كان النزاع يتعلق مثلاً بتسوية الحدود، فإن عليها أن تبادر إلى إنشاء لجنة مشتركة من الخبراء التابعين لها، بقصد الشروع في عملية ترسيم الحدود. وكثيراً ما يستعمل التحكيم في النزاعات القانونية، وينصاع له الطرفان المتنازعان فينفذان مضمونه، على أن ذلك لا يمنع أحد الطرفين من الادعاء بأن الحكم تجاوز صلاحياته. ومما تجدر الإشارة إليه، فإن أثر الحكم الصادر من محاكم التحكيم يعتبر ذا

أثر نسبي، لا يتعدى أطراف النزاع، ولهذا فإنه على الرغم من الصفة الإلزامية التي يتمتع بها، فإن تنفيذه يبقى مع ذلك مرهوناً بإرادة الأطراف فليس في المجتمع الدولي سلطة تنفيذية يناط بها مهمة تنفيذ مثل هذه الأحكام(٦٣).

لذلك فإن هذا الأسلوب المرن واليسير يصطدم بالحدود التي تضعها السيادة أمام انتصار الحق (على أنه ليس من الصعب اجتياز هذه الحدود، ولعل المخرج الوحيد لهذه العقبة الكأداء التي يعانيها المجتمع الدولي، هو الانتقال إلى مجتمع تسوده مؤسسات ثابتة، وليس هذا هو الآخر بالأمر اليسير على أي حال(٦٤).

القانون الذي تطبقه محكمة التحكيم:

درجت أطراف النزاع على أن تنص في اتفاق التحكيم على القانون الذي يطبق للفصل في النزاع. فمثلاً نصت المادة الأولى من اتفاق التحكيم لسنة ١٩٦٥ م بين الأرجنتين وشيلي على أن تتخذ المحكمة قراراتها وفق مبادئ القانون الدولي. كما نصت المادة الثانية من اتفاق التحكيم الذي عقد في سنة ١٩٧٥ م بين فرنسا وبريطانيا لتحديد حدود الجرف القاري بينهما في القنال الإنجليزي على أن تقرر المحكمة في المسألة المطروحة أمامها وفق قواعد القانون الدولي. وينبغي على المحكمة أن تطبق أية قواعد ومبادئ خاصة ينص اتفاق التحكيم على إتباعها عند إصدار الحكم. فمثلاً بموجب اتفاق سنة ١٨٩٧ م بين فنزويلا وبريطانيا لإحالة نزاع الحدود بين غيانا البريطانية وفنزويلا إلى التحكيم، طلب من المحكمة أن تطبق قاعدة مؤداها أن التقادم يثبت بالحيازة أو بوضع اليد لفترة خمسين عاماً(٦٥).

ب . اللجوء إلى القضاء الدولي:

إذا استنفذت الدول المتنازعة جميع الوسائل التي تقدم ذكرها، وأخفقت في سعيها، لإيجاد الحل المناسب للنزاع القائم بينها، فإنها قد تلجأ إلى القضاء الدولي، لحسم تلك

الخصومة، وقد يوصي مجلس الأمن، إذا أعياه الحل في نزاع ما، بإحالته إلى محكمة العدل الدولية للبث فيه وفقاً للقانون الدولي، ولتصدر حكماً بشأنه يكون ملزماً للأطراف(٦٦).

وقد كان هناك اعتقاد سائد بعد الحرب العالمية الثانية، يوحي بأن المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنشأة بموجب عهد عصبة الأمم، تعتبر جزء من نظام قديم، كانت الدول الأوروبية تستحوذ فيه على الشؤون السياسية والقانونية للمجتمع الدولي، ومن هنا تولدت فكرة إنشاء محكمة العدل الدولية، تكون بمثابة الجهاز القضائي الرئيسي للأمم المتحدة، تمثل فيها جميع الدول تمثيلاً عادلاً ومتساوياً ويستند نظامها على النظام السابق للمحكمة الدائمة للعدل الدولي(٦٧).

وبموجب النظام الأساسي للمحكمة، فقد تقرر أن يكون مقرها الدائم في لاهاي، إلا أن ذلك لا يحول دون ممارسة وظائفها في مكان آخر متى رأت ذلك مناسباً(٦٨).

وإلى جانب محكمة العدل الدولية، هناك محكمة دولية أخرى مختصة بالتسوية القضائية، وهي المحكمة الدولية لقانون البحار، التي تم إنشائها حديثاً بموجب اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار لسنة ١٩٨٢ م، وتضطلع هذه المحكمة بولاية عامة على كل النزاعات المتعلقة بهذه الاتفاقية(٦٩).

وقد يكون اللجوء إلى التسوية القضائية بناءً على معاهدات إقليمية تنص صراحة على إنشاء محاكم إقليمية وتمنحها الولاية لتسوية نزاعات معينة، مثل محكمة العدل للمجموعة الأوروبية التي تضطلع بدور أساسي وتنظيم قضائي في مواجهة دول المجموعة، والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، ومحكمة الدول الأمريكية لحقوق الإنسان، وهناك أيضاً محكمة العدل الدولية الإسلامية التي تقرر إنشائها خلال مؤتمر القمة الإسلامية الثالثة التي انعقدت في مكة المكرمة في شهر كانون الثاني ١٩٨١ م، وتمت الموافقة على نظامها الأساسي في مؤتمر القمة الإسلامية الخامسة التي انعقدت

في الكويت في كانون الثاني ١٩٨٧ م، إلا أنه لم يدخل بعد حيز التنفيذ لعدم اكتمال النصاب القانوني من التصديقات اللازمة لبدء تشغيل المحكمة، وبموجب النظام الأساسي للمحكمة فقد اختيرت الكويت مقراً لها(٧٠).

وتوجد كذلك فكرة تراود الجامعة العربية منذ إنشائها في تشكيل محكمة عدل عربية، يناط بها مهمة حسم النزاعات بين دول الجامعة، ومن المتوقع أن يتم ميلادها قريباً مع اعتماد التعديل الجديد لميثاق الجامعة، والموافقة على مشروع النظام الأساسي لهذه المحكمة التي تمت صياغته في شهر تموز ١٩٩١ م من قبل لجنة خبراء الأمانة العامة للجامعة، وتقضي الفقرة الأولى من هذا المشروع، بأن يكون المقر الدائم للجامعة هو المقر الدائم للمحكمة(٧١).

ونستخلص مما سبق، إمكانية تعدد الأجهزة القضائية، كما تشير إلى ذلك المادة (٩٥) من ميثاق الأمم المتحدة مؤكدة بأنه (ليس في هذا الميثاق ما يمنع أعضاء الأمم المتحدة من أن يعهدوا بحل ما ينشأ بينهم من خلاف إلى محاكم أخرى بمقتضى اتفاقيات قائمة من قبل، أو يمكن أن تعقد بينهم في المستقبل)، ومع ذلك تبقى محكمة العدل الدولية، الجهاز القضائي الدولي الرئيسي الذي يتولى في الوقت الحالي حسم النزاعات ذات الطابع العالمي.

محكمة العدل الدولية كوسيلة سلمية لتسوية نزاعات الحدود:

تمثل محكمة العدل الدولية الأداة القضائية الرئيسية للأمم المتحدة، وتباشر مهامها وفق نظام أساسي يعتبر جزءاً لا يتجزأ من الميثاق. وتؤدي عضوية الأمم المتحدة تلقائياً إلى عضوية النظام الأساسي للمحكمة. وقد أجاز ميثاق الأمم المتحدة للدول التي ليست أعضاء في الأمم المتحدة أن تنضم إلى النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية بشروط تحددها الجمعية العامة لكل حالة بناءً على توصية مجلس الأمن. كما أجاز النظام الأساسي للمحكمة حق التقاضي أمام المحكمة للدول التي ليست عضواً

في الأمم المتحدة. أو في النظام الأساسي للمحكمة، وفق الشروط التي يضعها مجلس الأمن[٧٢].

تتألف محكمة العدل الدولية من خمسة عشر قاضياً ينتخبون بالاقتراع السري من قبل مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة ـ مستقلاً إحداهما عن الآخر ـ لمدة تسع سنوات (يجدد ثلثهم كل ثلاث سنوات) ويقوم هؤلاء القضاة بانتخاب رئيسهم ونائبه من بينهم لمدة ثلاث سنوات[٧٣]. ولا يجوز أن يكون بالمحكمة أكثر من عضو واحد من رعايا دولة واحدة. ومع ذلك، فإن مبدأ الإرادية يظل سارياً،لأنه يحق للدول الأطراف في النزاع، والتي ليس لها قاضي من رعاياها معين في المحكمة، أن تختار قاضياً خاصاً يستمر في عمله حتى ينتهي النظر في النزاع.

ويشترط أن يكون القضاة من ذوي الصفات الخلقية العالية الحائزين في بلادهم للمؤهلات المطلوبة للتعين في أرفع المناصب القضائية، ومن المشرعين المشهود لهم بالكفاءة في القانون الدولي[٧٤] مع مراعاة التوزيع الجغرافي عند تأليف المحكمة على النحو التالي:

من أسيا (٣ قضاة) ومن أفريقيا (٣ قضاة) من أوروبا الشرقية (٢ قضاة) من أمريكا اللاتينية (٢ قضاة) ومن أوروبا الغربية ودول أخرى (٥ قضاة).

لكي يتوافر في قضاة محكمة العدل الدولية كافة الضمانات التي تكفل حيادهم وتبعد عنهم الريبة أو الشك وتحيطهم بسياج من العفة والنزاهة، يمنع على القاضي أن يشتغل في أي وظيفة سياسية أو إدارية أو أن يشتغل بإحدى المهن، كما لا يجوز له أن يشارك في قضية سبق له أن شارك فيها بصفته مستشاراً أو وكيلاً أو محامياً عن أحد أطرافها، أو لأي سبب خاص، وعليه أن يبادر من تلقاء نفسه بإخطار الرئيس بذلك، وأي شك حول الأمر يفصل فيه بقرار من المحكمة[٧٥]. ولا يجوز للدولة المتمتع بجنسيتها القاضي أو لفروع الأمم المتحدة أن تطالب بعزله.

ولعل ما قلناه عن تشكيل محكمة العدل الدولية يشير بجلاء إلى الفرق الرئيسي بينها وبين هيئات التحكيم. فوجود المحكمة سابق على النزاع ويستمر بعد الفصل فيه. أما هيئة التحكيم فلا تتمتع بهذا الدوام. فهي تشكل عادة بعد نشوب النزاع وتنتهي مهمتها بعد الفصل فيه. هذا بالإضافة إلى أن قضاة محكمة العدل لا يتم انتخابهم بواسطة الأطراف المتنازعة كما هو الحال في التحكيم(٧٦).

هناك مبدأ أساسي يجب مراعاته، وهو أن تسوية النزاعات عن طريق محكمة العدل الدولية يتوقف على اعتراف الدول بولاياتها الإلزامية على النزاعات المطلوب عرضها عليها فإن لم يصدر عنها مثل هذا الاعتراف فإنه يتعذر تحريك الدعوى أمام المحكمة، وقد يحدث أن المحكمة تفصح من جانبها بعدم قبول الدعوى، بحجة أن الطرف المعارض لا يعترف بولايتها. وباختصار، فإنه يجب على الأطراف أن تتفق أولاً على رفع النزاع إلى المحكمة وأن تقبل ثانياً بولايتها واختصاصها(٧٧).

فالأصل هو أن ولاية المحكمة ولاية اختيارية قائمة على رضاء جميع الأطراف المعنية بعرض نزاعهم عليها للفصل فيه، فإذا فقد التراضي بينهم جميعاً استحال عرض النزاع على المحكمة، وللمحكمة أيضاً ولاية جبرية، ولكنها تبقى مقصورة على الدول التي سبق لها قبول هذه الولاية (الجبرية)، بمعنى أنه لا يكفي أن يكون جميع أطراف النزاع من الدول التي أعلنت قبولها للولاية الجبرية للمحكمة. كما أن الولاية الجبرية تبقى مقصورة على النزاعات التي تثور بشأن تفسير معاهدة من المعاهدات، أو تتعلق بمسألة من مسائل القانون الدولي، أو تتعلق بالتحقيق في واقعة من الوقائع التي إذا ثبت صحتها تعتبر خرقاً لالتزام دولي، أو تتعلق بتحديد نوع التعويض المترتب على خرق التزام دولي معين(٧٨).

الهوامش:

(١) إسماعيل صبري مقلد، الاستراتيجية والسياسة الدولية، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥ م، ص ٥١- ٥٢.

(٢) أحمد يوسف أحمد، الصراعات العربية . العربية (١٩٤٥- ١٩٨١م)، دراسة استطلاعية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٨ م، ص ١٥٥.

(٣) رضوان، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

(٤) أحمد الرشيدي، وظيفة جامعة الدول العربية في مجال التسوية السلمية للنزاعات، محاولة للتقويم في جامعة الدول العربية، الخبرة التاريخية ومشروعات التطوير، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ١٢٧.

(٥) المرجع السابق، ص ١٣٣.

(٦) مفيد محمود شهاب، جامعة الدول العربية، ميثاقها وإنجازاتها، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ٥٣.

(٧) أحمد الرشيدي، جامعة الدول العربية والتسوية السلمية للمنازعات العربية المحلية، مجلة المستقبل العربي، ص ٨٣.

(٨) عمر عز الرجال، جامعة الدول العربية ومنازعات الحدود العربية، مجلة السياسة الدولية، ع ١١١، يناير ١٩٩٣ م، ص ٢٠١.

(٩) بطرس غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٧م، ص ١١.

(١٠) الرجال، المرجع السابق، ص ٢٠٢.

(١١) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، مرجع سابق، ص ١١- ١٢.

(١٢) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، مرجع سابق، ص ١٢-١٣.

(١٣) الرشيدي، جامعة الدول العربية والتسوية السلمية للمنازعات العربية المحلية، مرجع سابق، ص ٩٠.

(١٤) نهلة محمد أحمد جبر، جامعة الدول العربية/ نشأتها وتطورها ودورها المستقبلي، مجلة شؤون عربية، ع ٨٢، ص ٢٣٠.

(١٥) الفقرة الأولى من المادة ١٢.

(١٦) الفقرة الأولى من المادة ١٣.

(١٧) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(١٨) جبر، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(١٩) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٢٠) رضوان، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢١) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، المرجع السابق، ص ٢١١.

(٢٢) شهاب، جامعة الدول العربية، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٢٣) عز الرجال، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

- محمد عبد الحميد الساكت، الأمين العام لجامعة الدول العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤ م، ص ٣٩٤- ٣٩٧.

(٢٤) مرجع سابق ص ٨٨.

(٢٥) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١١.

(٢٦) شهاب، جامعة الدول العربية، مرجع سابق، ص ١٤٥.

(٢٧) عز الرجال، مرجع سابق، ص ٢٠٣.

(٢٨) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٢٩) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٣٠) المرجع السابق، ص ١٥٨- ١٥٩.

(٣١) عز الرجال، مرجع سابق، ص ٢١٤.

(٣٢) المرجع السابق، ٢١٥.

(٣٣) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١٦.

(٣٤) هيثم الكيلاني، المصالحة القومية بين التعجيل والتأجيل، مجلة شؤون عربية، ع ٨١، ص ٢٠.

(٣٥) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٣٦) جبر، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

(٣٧) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١٧- ٢١٨.

(٣٨) عز الرجال، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

(٣٩) غالي، جامعة الدول العربية وتسوية المنازعات المحلية، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٤٠) رضوان، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٤١) أنظر وقائع القمة العربية الطارئة في القاهرة في ١٠ أب ١٩٩٠ م، في المجلة المصرية للقانون الدولي، ع ٤٦، ص ١٤٨- ١٩٠.

(42) Gilbert Guillaume: les grandes crises internationals et le droit, editions du seuil, 1994, p 272 .

(٤٣) أنظر تفاصيل ذلك، في المجلة المصرية للقانون الدولي، ع ٤٦، ص ١٩٠. .

(٤٤) المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(٤٥) محمد المجذوب، انطباعات حول دور جامعة الدول العربية في تسوية المنازعات العربية، مجلة شؤون عربية، ع ١٣، آذار/ مارس ١٩٨٢ م، جمادي الأولى ١٤٠٢هـ، ص ١٣٤.

(٤٦) رضوان، مرجع سابق، ص ١٩٩، ٢٠٠.

(٤٧) الرشيدي، التسوية السلمية لمنازعات الحدود، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٤٨) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٧١.

(٤٩) الجهيني، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٥٠) سورة الحجرات آية ٩.

(٥١) الجهيني، المرجع السابق، ص ٢٥١.

(٥٢) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٧١.

(٥٣) الرشيدي، التسوية السلمية لمنازعات الحدود، مرجع سابق، ص ٣٥.

(٥٤) المرجع السابق، ص٣٦.

(٥٥) ١٩٧٩م، ص ٢٧٠.

(٥٦) طه، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٥٧) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٥٨) رينيه جان دوبوي، القانون الدولي، ترجمة سموحي فوق العادة، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٨٣ م، ص ٩٧.

(٥٩) طه، مرجع سابق، ص ١٤٩.

(٦٠) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٦١) دوبوي، مرجع سابق، ص ٩٧.

(٦٢) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٧٧.

(٦٣) اليوسفي، المرجع السابق، ص ٧٧ – ٧٨.

(٦٤) دوبوي، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٦٥) طه، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٦٦) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٦٧) المادة (٩٢) من ميثاق الأمم المتحدة.

(٦٨) الفقرة الأولى من المادة (٢٢) من النظام الأساسي للمحكمة.

(٦٩) المرفق السادس من اتفاقية قانون البحار لعام ١٩٨٢ م.

(٧٠) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٧١) اليوسفي، المرجع السابق، ص ٨٦- ٨٧.

(٧٢) طه مرجع سابق، ص ١٥٥.

(٧٣) المادة (٢١) من النظام الأساسي للمحكمة.

(٧٤) المادة (٢) من النظام الأساسي للمحكمة.

(٧٥) المواد (١٦و١٧) من النظام الأساسي للمحكمة.

(٧٦) إلى القانون الدولي العام وقت السلم، دمشق، دار الفكر ١٩٨٣ م، ص ٤٣٤.

(٧٧) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٧٨) اليوسفي، مرجع سابق، ص ٨٨، ٨٩.